ليوبولد فايس

[محمد أسد]

الطريق إلى مكّة



ترجمة

رفعت السيد علي

منشورات الجمل

ليوبولد فايس [محمد أسد]: الطريق إلى مكّة

ليوبولد فايس
[محمد أسد]

الطريق إلى مكّة

منشورات الجمل

ليوبولد فايس [محمد أسد]: الطريق إلى مكة، ترجمة: رفعت السيد علي
Leopld Weiss: **Road to Mecca, 1954**
الطبعة الأولى ٢٠١٠

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

مقدمة

ما أرويه في هذا الكتاب لا يُعدُّ سيرةً ذاتيةً لامرئ يشعر بالفخر لدور قام به في الحياة العامة، كما لا يُعدُّ رواية لمغامرات خضتها ـ على الرغم من أنني صادفت مغامرات عجيبة ـ فإنها لم تمثل لي أكثر من مجرد أحداث مرافقة ومصاحبة لما كان يدور داخلي وما أصادفه، عدا كل ذلك فهو لا يُعدُّ قصة حياة رجل يفتش بقصد ونية عن إيمان عميق أو عقيدة بذاتها؛ فذلك الإيمان حلّ عليّ عبر رحلة السنين دون أن أسعى إليه. حكايتي ببساطة هي حكاية اكتشاف رجل أوروبي للإسلام كدينٍ متكاملٍ في أي مجتمع إسلامي.

لم يخطر بذهني ولا طاف بخاطري أن أكتب تلك الحكاية؛ لأنني لم أعتقد في أي وقت أن أحداث ووقائع رحلة حياتي من الممكن أن تشكل أي أهمية لأي إنسان باستثنائي أنا بالطبع، إلا أن عودتي إلى باريس بعد غياب واغتراب داما أكثر من خمسة وعشرين عاماً عن عالم الغرب الذي أنتمي إليه، ثم انتقالي بعدها إلى نيويورك عام ١٩٥٢، صادفت ما جعلني أقتنع بوجهة نظر جديدة. فبحكم وظيفتي مندوباً

للحكومة الباكستانية لدى الأمم المتحدة في نيويورك، كنت موضع اهتمام الصحافة والرأي العام، كما كنت محل فضول كثير من الأصدقاء والمعارف الغربيين من أوروبيين وأمريكيين، اعتقد كل من عرفني في البداية أنني لست إلا «خبيراً» أوروبياً يعمل لدى حكومة شرقية لغرض وظيفي بحت، وظنوا أنني قد سايرت نمط حياة وفكر الأمة التي أمثلها، إلا أن جهودي المتفانية والمكثفة في الأمم المتحدة من أجل قضايا البلد الذي أمثله وتحقيق أهدافه السياسية والثقافية التي تهم كل العالم الإسلامي، أصابتهم بالحيرة والدهشة. واشتد الفضول، وتزايد عدد من يتساءلون عن حياتي وخبراتي وتجاربي، وكان لا بد لي من أن أحكي حكايتي.

رويت لهم كيف بدأت حياتي العملية في باكورة شبابي مراسلاً للصحف الأوروبية من دول الشرق الأوسط، وبعد أعوام من الترحال والتنقل المتواصل بين دول الشرق الأوسط اعتنقت الإسلام عام ١٩٢٦، وعشت بعد ذلك ستة أعوام في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية شُرفت خلالها بصداقة الملك ابن سعود، ثم توجهت بعد ذلك إلى الهند، والتقيت هناك بالشاعر والفيلسوف الإسلامي والأب الروحي لمشروع إقامة دولة باكستان الإسلامية محمد إقبال، الذي كان له الفضل في إقناعي بالعدول عن مواصلة سفري إلى شرق تركستان والصين وأندونيسيا، وأن أبقى معه بالهند لبلورة التصور الفكري لإقامة دولة إسلامية مستقلة تحمل اسم باكستان، والتي لم تكن في ذلك الوقت إلا حُلماً يراود خياله. مثَّل لي ذلك الهدف، كما مثَّل لإقبال هدفاً جوهرياً وطريقاً لا بديل منه لإعادة إحياء الآمال الإسلامية الخامدة، وإحياء هوية سياسية واحدة لشعوب إسلامية نبتت من جذر واحد وتعتنق كلها عقيدة واحدة.

كرست نفسي أعواماً طويلة لتحقيق ذلك الهدف النبيل، كدارس، وكاتب، ومحاضر. ومع مضي الأعوام اكتسبت شهرة واسعة كشارح ومفسر للشريعة والثقافة الإسلامية. ولما تحقق الحلم وأُعلِنَ عن قيام دولة باكستان الإسلامية المستقلة عام ١٩٤٧، كلفتني الحكومة الوليدة بإنشاء إدارة خاصة تسعى لإحياء النهضة الإسلامية على أن أتولى إدارتها، كان ذلك المشروع يهدف إلى وضع البرامج والخطط، وبلورة نظريات، وتحديد أهداف وأطر المفاهيم الإسلامية للدولة وللمجتمع الإسلامي كأسس يرتكز عليها التوجه النهائي العام للدولة الإسلامية. وبعد عامين من العمل على إنجاز تلك المهمة الجليلة، نُقلت إلى العمل بوزارة الخارجية الباكستانية وعُينت رئيساً لإدارة شؤون الشرق الأوسط، وركزت كل جهودي لتأسيس علاقات وروابط قوية بين باكستان ودول العالم الإسلامي، ثم عُينت بعد ذلك مندوباً لباكستان لدى الأمم المتحدة بنيويورك.

كان ذلك يعني أن الأمر يتجاوز عمل رجل أوروبي في مجتمع إسلامي تصادف وجوده به، فقد كان تحولاً واعياً وإرادياً عن ثقافة وفكر معينين تشبعت بهما من مولدي إلى شبابي، إلى ثقافة أخرى وفكر آخر مغايرين كلية لما درجت عليه، وكان ذلك التحول هو ما بدا مدهشاً وغريباً ولا يمكن تبريره من وجهة نظر مَنْ عرفتهم وصادقتهم من أبناء الغرب. لم يتصوروا كيف يمكن لامرئ غربي المولد والتنشئة والتربية أن يقدم نفسه إليهم بلا تحفظ وبكل وضوح كمندوب لدولة إسلامية، وكيف أمكنه أن يبدل إرثه الثقافي الغربي ويعتنق الإسلام، وتساءلوا عن ذلك الدافع الذي يجعله يتقبل مفاهيم دينية واجتماعية أدنى في نظرهم

بمراحل كثيرة من كل المفاهيم الغربية المتحضرة (ويؤمن أهل الغرب بذلك بيقين تام يتجاوز احتمال المراجعة).

تساءلت بدوري، لماذا يتبنى الغربيون تلك الأحكام ويؤمنون بها بيقين لا يقبل المراجعة؟ هل اهتموا في أي وقت بالبحث الجاد للتوصل إلى رؤية صحيحة ومباشرة للإسلام، أم أن ما يوقنون به لا يستند إلا إلى مجموعة من الأقوال الموروثة بالغرب والمفاهيم الشائهة التي ورثوها ضمن إرثهم الثقافي من أجيال سبقتهم دون بحث أو تمحيص؟

هل يعود ذلك إلى توارث نمط الفكر اليوناني ـ الروماني القديم الذي كان يقسم الأمم إلى إغريق ورومان في جانب وباقي البشر المصنفين «برابرة» في جانب آخر، وأن ذلك النمط من التفكير انتقل إلى الفكر الغربي وتأصل به حتى إنهم أصبحوا عاجزين ـ ولو نظرياً ـ عن قبول فكرة وجود قيم إيجابية في ثقافات أخرى تقع خارج محيطهم الثقافي والفكري والمعرفي؟

من عصر الإغريق والرومان ظل المؤرخون والمفكرون الأوروبيون ميالين إلى رؤية تاريخ العالم بوجهة نظر وبمصطلحات وخبرات ثقافة الغرب فقط. وطبقاً لتلك الرؤية المحدودة فإن أية حضارة غير أوروبية يُحكم لها أو عليها بمقدار تأثيرها على مصائر أهل الغرب فقط، وهكذا كان تاريخ العالم وتعدد ثقافاته، لم يكن أكثر من مجرد امتداد لتاريخ الغرب.

لا بد بالطبع أن تخلق تلك النظرة الضيقة منظوراً مشوهاً، لقد اعتاد الأوروبي والأمريكي قراءة ما يخص الحضارة الغربية ويناقش قضاياها بتفاصيل وأشكال متعددة، في حين لا تحتوي قراءاته إلا على النذر

اليسير عن شؤون العالم وحضاراته، وجعله ذلك يوقن بأن التجربة الحضارية للغرب ليست فقط الأفضل والأسمى، بل إنها فوق أي قياس مقارنة بحضارات العالم الأخرى؛ وهكذا، يؤمن المواطن الغربي أن نمط الحياة لديه هو النمط الوحيد الصالح والملائم للحياة، وأنه النموذج الأوحد الذي لا بد أن تُقاس عليه أية أنماط أخرى، ويستتبع ذلك بالطبع أن أية مفاهيم معرفية أو ثقافية أو أنساق اجتماعية أو قيم أخلاقية تختلف عن النمط الغربي إنما تنتمي إلى مستوى أدنى من الحياة.

لقد اقتفت الثقافة الغربية أثر الإغريق والرومان في تصنيفهم للعالم، وآمنوا أن حضارات «الآخرين» ليست إلا خطوات متعثرة على مسار التقدم والتحضر الذي قطعه الغرب معصوماً من أي خطأ، أو على أفضل الأحوال أنها ليست إلا بعض الفصول المتتابعة في كتاب، تُعَدُّ الحضارة الغربية فيه فصل الختام.

حين شرحت وجهة نظري لصديق أمريكي ـ وهو مفكر متميز ـ قال «أوافقك على أن الإغريق والرومان كانوا محدودين في منهجهم الفكري ونظرتهم إلى الحضارات الأخرى المغايرة، ولكن ألا تُعَدُّ تلك المحدودية نتيجة حتمية لصعوبات التواصل اللغوي والفكري بينهم وبين بقية شعوب العالم في عصرهم؟ أولم يتم تجاوز تلك المحدودية في عالمنا المعاصر؟ ألا نشغل أنفسنا في الغرب بما يجري خارج مدار فلكنا الثقافي؟ هل نسيت تلك الكتب الكثيرة التي أُلِّفت هنا بالغرب عن الفنون والفلسفات الشرقية، تلك الكتب نشرت في أوروبا وأمريكا في آخر ربع قرن.. عدا الدراسات التي وضعت عن الأفكار السياسية التي

تشغل بال أهل الشرق. لا يمكن لأي منصف أن يتجاهل أو ينكر تلك الرغبة لدى أهل الغرب لفهم نتاج الثقافات الأخرى».

أجبته: «قد تكون على صواب إلى حدٍ ما، لا شك أن النظرة العتيقة للحضارة الإغريقية ـ الرومانية في تصنيف العالم لم تعد بالحدة نفسها في تقسيم الغرب للحضارات وخفت وطأتها إلى حدٍ كبير، ويعود السبب إلى النضج الفكري لكثير من مفكري الغرب، فتخلوا عن كثير من التصورات الخاطئة، بل أصبحوا يتشككون في جوانب كثيرة لثقافتهم وحضارتهم الغربية، وبدأوا في البحث والتنقيب في أماكن أخرى من العالم لاستجلاء ثقافاتها ومعارفها. وأيقن كثير من الباحثين والمفكرين أنه لا يوجد مصدر واحد ولا قصة واحدة لتاريخ الإنجازات البشرية؛ فمصادر التقدم متعددة لا أحادية: ويرجع ذلك ببساطة إلى أن الجنس البشري، من منظور تاريخي لا يُعد جنساً واحداً، بل أجناساً متباينة ذات أهداف متباينة في ما يختص بمعنى الحياة البشرية وهدفها. رغم ذلك لا أشعر بأن الغرب لم يصبح أقل شعوراً بتفوقه وعلوه تجاه الحضارات المغايرة، وأنه يتبنى التقسيم الإغريقي ـ الروماني: أصبح الغرب فقط أكثر تسامحاً. وأذكرك أن ذلك التسامح لم يشمل نظرته إلى الإسلام بقدر ما شمل الحضارات الشرقية الأخرى، التي تقدم نوعاً من الجاذبية الروحية للغرب الجائع روحياً، وهي توجهات روحية بعيدة كل البعد عن جوهر التقدم الغربي مما لا يشكل أي تحد للقيم الغربية».

سألني باهتمام: «ما الذي تعنيه؟».

أجبته: «حسناً، حين يقوم أي دارس أو باحث غربي بدراسة الهندوسية أو البوذية، يظل طوال الوقت على وعي دائم بالاختلافات

الجوهرية بين تلك العقائد وعقيدته. قد يعجب بفكرة أو بأخرى في تلك العقائد، إلا أنه لا يضع في اعتباره جدياً أنه قد يعتنق واحدة من تلك المعتقدات؛ فهو يؤمن سلفاً بتلك الاستحالة، ولذلك يدرس ويقارن تلك الديانات باتزان ودون خوف، بل أحياناً بتقدير وتعاطف. أما حين يصل الأمر بالباحث الغربي لدراسة الإسلام - الذي يُعَدُّ هو الآخر غريباً على القيم الغربية كالهندوسية والبوذية - نجد أن تلك الموضوعية تتوارى وتختل وتشوبها انحيازية عاطفية ومعنوية. ربما يرجع ذلك - فيما أظن - إلى أن قيم الإسلام قريبة قرباً شديداً من جوهر تلك القيم السائدة في الغرب مما يشكل تحدياً حقيقياً لمفاهيم غربية عديدة، روحية واجتماعية.

شرعت أشرح له نظرية توصلت إليها منذ عدة أعوام مضت، نظرية تفسر العداء العميق الذي نصادفه للإسلام في محتوى الثقافة الغربية واتجاهاتها السياسية المعاصرة.

قلت له: «حتى نصل إلى تفسير مقنع لذلك العداء لا بد لنا من العودة إلى التاريخ القديم لندرك الخلفية النفسية للعلاقة المبكرة بين العالم الغربي والعالم الإسلامي؛ فما يعتقده الغرب تجاه الإسلام في عصرنا الحالي ترجع جذوره إلى الانطباعات التي تولدت بين الأمم الأوروبية في أثناء الحروب الصليبية».

تعجب صاحبي متسائلاً: «الحروب الصليبية؟ أظنك لا تعني أن ما حدث من ألف عام تقريباً ما زال مؤثراً على البشر في القرن العشرين؟» قلت له: «بل هو كذلك، أعرف أن ذلك يبدو عسير التصديق، ولكنك تتذكر ما واجه علماء التحليل النفسي حين أثبتوا أن كثيراً من المكونات

المعنوية للشخص البالغ ـ والذي تختلف ميوله وأذواقه وأغراضه وأهدافه وأهواؤه عن أي امرئ آخر، يتلخص فيما أُطلق عليه «الخصوصية الفردية» ـ وأن كل تلك التعقيدات الفردية يمكن تتبعها وكشفها بالوصول إلى مصادرها الأولى، فيما مرَّ به المرء من تجارب وخبرات وأحداث تعرض لها في مقتبل طفولته المبكرة؟

حسناً، ألا تتكون الأمم من مجموع أفرادها؟ تطور الأمم ومكوناتها الفكرية مرتبط بالخبرات والتجارب والأحداث التي مرت بها في طفولتها الحضارية، قد تكون تلك التجارب والخبرات مبهجة، وقد تكون مؤلمة طبقاً لتصورات الطفولة الساذجة عن حدث معين، وأثر كل حدث وتجربة يتوقف على درجة حدته والألم الذي يسببه. كان القرن السابق للحروب الصليبية مباشرة هو نهاية الألف عام الأولى للميلاد، ومن الممكن أن تعتبر أنه يشكل الطفولة المبكرة للحضارة الأوروبية الغربية الحالية...».

استطردت مذكراً صديقي ـ وهو مؤرخ ـ أن ذلك القرن هو العصر الذي بدأت أوروبا تتبين فيه لأول مرة معالم طريق ثقافتها الخاصة، مستقلة تماماً عن الإرث الروماني المنسيّ، ثقافة جديدة ظهرت للوجود بلغات أوروبية غير رومانية ولاتينية، تستلهم الخبرات والرؤى الدينية للمسيحية الغربية، في ذلك القرن كانت الفنون الرفيعة تستيقظ على مهل من السبات الطويل الناتج من هجرات الشعوب الأوروبية التي كانت أقرب إلى الحروب، والتي قام بها القوط والهون والآفار، بدأت النهضة بعد أن تخلصت من الأحوال المتردية التي سادت في الأعوام المبكرة من العصور الوسطى، عالم حضاري جديد كان ينهض ويبرز إلى

الوجود وتتشكل ملامحه. في تلك المرحلة الأولى من تكوينها تعرضت أوروبا لأعنف صدمة يمكن أن تتعرض لها، أو هي بالأحرى «جُرح» ألا وهي صدمة الحروب الصليبية...

كان للحروب الصليبية أقوى تأثير «جمعي» على حضارة كانت بالكاد قد بدأت تعي ذاتها. بمصطلحات تاريخية، كانت الحروب الصليبية أول وأنجح محاولة مبكرة في رؤية أوروبا لذاتها، وقد توحدت تحت راية ثقافية واحدة، ولم تمر أوروبا بتجربة مماثلة لا قبلها ولا بعدها، لقد خاضت الأمم الأوروبية تلك الحرب متفقة لأول مرة على هدف واحد.

موجة مسمومة اجتاحت كل أرجاء القارة الأوروبية، حماس ملتهب تجاوز وعَبَرَ كل الحواجز التي كانت تفصل بين تلك الأمم والقبائل والطبقات المختلفة. كانت أوروبا تموج بشعوب وقوميات لا يربطها رابط، الفرانك والساكسون والجرمان والبورجاند والصقليون والنورماند واللومبارد، ممالك إقطاعية ودول ومدن من شذرات الإمبراطورية الرومانية وبقاياها بعد انهيارها النهائي، ولم يكن يربط ذلك الخليط المتباين إلا رابط واحد، هو أنها جميعاً تعتنق الديانة المسيحية: أثناء الحروب الصليبية وبسببها ارتفع الرابط الديني إلى مستوى جديد؛ فقد أصبحت قضية مشتركة لكل الشعوب الأوروبية المسيحية على حد سواء ـ مفهوم سياسي ديني «للمسيحانية» ولد بدوره المفهوم الثقافي لـ«أوروبا» ككل. وحين حث البابا أوروبان الثاني المسيحيين في خطابه في مدينة كليرمونت، في نوفمبر عام ١٠٩٥، على خوض الحرب ضد «الجنس الشرير» الذي يسيطر على الأرض المقدسة، أعلن ـ ربما دون أن يدري ـ ميثاقاً مشتركاً للحضارة الغربية.

وهبت التجربة الجارحة والمريرة للحروب الصليبية أوروبا وعياً بثقافاتها ووحدتها، إلا أن تلك الحروب ذاتها قُدِرَ لها أن تُبرز الإسلام بوجهٍ شائنٍ مزيف في عيون الشعوب الأوروبية. ولا يعود الأمر ببساطة إلى أن الحروب الصليبية كانت تعني فقط صراعاً عسكرياً وإراقة دماء. فحروب كثيرة نشبت بين أمم كثيرة ثم نسيت آثارها مع الزمن، كما نشأت عداوات بدت في حينها أنها لا تُمحى ثم تحولت مع الزمن إلى علاقات صداقة وتعاونٍ مثمر. الخسائر التي نجمت عن الحروب الصليبية لم تقتصر على الصدام المسلح: كانت الخسارة الكبرى الأولى والأهم خسارة فكرية ـ نتجت من تسميم الفكر الأوروبي ضد العالم الإسلامي عَبْر التصوير الإرادي المشوه والكريه لتعاليم الإسلام ومُثُلِهِ العليا. فحتى يستمر الزَخَم الداعي لاستمرار الحرب الصليبية، دمغوا الرسول بأوصاف كريهة، وادعوا أنه معاد للمسيح، ووُصفتْ ديانته بأشنع الأوصاف، وأنها منبع الشرور اللاأخلاقية والانحراف والشذوذ. وكان زمن الحروب الصليبية هو الزمن الذي أُشِيعَ فيه في أنحاء أوروبا إن الإسلام دين حسٍ خالص وعنف وقسوة، وأنه دين طقوس لا دين تطهر من القلب، دخلت كل تلك الأفكار الشائنهة عن الإسلام الفكر الغربي، ولم تخرج منه بعد ذلك أبداً، وكان أيضاً ذلك العصر الذي حول فيه متعصبو الحروب الصليبية اسم محمد(ص) ـ وهو محمد(ص) ذاته الذي عَلَّمَ المسلمين أن الإيمان بمَنْ سبقه من الرُسُل من شروط الإسلام ـ على سبيل الذراية والازدراء إلى «ماهاوند». كانت روح البحث الموضوعي ما زالت في علم الغيب بالنسبة لأوروبا، كان من السهل على القوى المسيطرة على أوروبا أن تبذر بذور الكراهية السوداء لدين وحضارة تختلف عن دينها وحضارتها. ولذلك لم يكن من

المصادفة أن مؤلفات «تشانسون دي رولان» المحمومة، والتي يصف فيها النصر الأسطوري للمسيحية على المسلمين «الكفار» في جنوب فرنسا، قد كُتِبَت بعد تلك المعركة بثلاثة قرون ـ وقبل الحرب الصليبية الأولى مباشرة ـ وتحولت بعد ذلك لتصبح مثل النشيد القومي لأوروبا، وليس من قبيل المصادفة أيضاً، أن قمة الحروب الصليبية كانت علامة فارقة في بداية تكوُّن الثقافة الأوروبية المشتركة، والتي اختلفت عن الثقافات السابقة المحلية: لقد كانت كراهية الإسلام ومعاداته هي مهد الحضارة الأوروبية التي رُبيَت عليه.

إنه لمن سخرية الأقدار ـ تاريخياً ـ أن يظل ذلك العداء للإسلام ـ الذي كان دينياً في منشئه ـ موجوداً في لاوعي أهل الغرب حتى بعد أن فقدت المعتقدات الدينية زخمها وقوتها لديه. ولا يبعث ذلك على الدهشة في حقيقة الأمر؛ فنحن نعرف أن المرء قد يتخلى عن كل معتقدات الدين التي ورثها ونُقِلت إليه في طفولته، بينما تظل بعض المشاعر العاطفية التي ارتبطت بتلك المعتقدات ماثلة في ذهنه بطريقة لاعقلانية تُجافي المنطق بقية أيام حياته ـ وهذا هو ما حدث بالضبط للشخصية الجمعية الغربية. أشباح وظلال الحروب الصليبية ما زالت تحوم في الغرب حتى اليوم، وما زالوا يتعاملون مع الإسلام برؤية تحمل بقايا ذلك الشبح العنيد. . .».

ظل صديقي صامتاً لفترة طويلة. ما زلت أذكر هيئته الطويلة النحيلة وهو صامت يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، يداه في جيبيّ معطفه، يهز رأسه كما لو كان مفاجأً، وقال أخيراً: «قد يكون هناك شيء ما في ما تقول بالفعل. قد يكون في ما تقول شيء ما، وعلى الرغم من أنني لست في

الوضع الذي يسمح لي بالحكم على «نظريتك» بارتجال أو تسرع، لكن على أية حال، ألا ترى على ضوء ما ذكرته لي عن حياتك ـ والتي قد تبدو لك بسيطة وغير معقدة ـ أنها قد تبدو غريبة جداً وغير عادية في نظر الرجل الغربي؟ ألا تود أن تشركهم معك في تلك التجربة؟ لماذا لا تكتب قصة حياتك؟ أنا على يقين أنها ستكون من القراءات الممتعة».

أجبته ضاحكاً: «حسنُ، قد أُغرى نفسي بترك العمل الدبلوماسي وأضع مثل ذلك الكتاب، بالرغم من أي شيء فالكتابة حرفتي الأساسية. . .».

ومن دون وعيٍ مني فَقَدَتْ المزحة جانبها الهازل وبدأتُ أفكر جدياً على مدى أسابيع في كتابة قصة حياتي، وبالتالي أعاون ـ ولو بقدر ضئيل ـ في رفع تلك الحُجُب السميكة والأستار الثقيلة التي تفصل الإسلام وحضارته عن العقل الغربي. لقد كان طريقي إلى الإسلام فريداً من عدة أوجه؛ فأنا لم أتحول إلى الإسلام لأني عشت زمناً طويلاً بين مسلمين ـ بل على العكس ـ قررت أن أعيش بينهم لأني اعتنقت الإسلام.

ألا أكون أكثر نفعاً لو حققت بعضاً من الفهم المتبادل بين الإسلام وعوالم الغرب، بتقديم تجاربي الخاصة جداً للقارئ الغربي، أكثر من النفع الذي أقدمه في العمل الدبلوماسي، والذي يمكن أن يقوم به رجال أكفاء غيري من أبناء البلد الذي أمثله؟

ففي كل الأحوال يمكن لأي امرئ ذكي أن يمثل باكستان لدى الأمم المتحدة ـ ولكن كم من الرجال بمقدورهم مخاطبة المواطن الغربي بمعطياته العقلية كما يمكنني أنا؟ أنا مسلم ـ إلا أنني أنتمي إلى

الغرب ـ وبذلك يمكنني أن أتكلم بلغة واعية مفهومة للمسلمين ولأهل الغرب . . .

وهكذا، قُرْب نهاية عام ١٩٥٢ استقلت من عملي بوزارة الخارجية الباكستانية وبدأت في كتابة هذا الكتاب، ولا أدري إن كان سيشكل «قراءة ممتعة» كما توقع صديقي الأمريكي أم لا. لا أستطيع إلا أن أُعيد استشارة (تنشيط) ذاكرتي ـ مستعيناً فقط ببعض المذكرات القليلة، وبعض اليوميات المتناثرة، وبعض المقالات الصحفية التي كتبتها أثناء تلك الأحداث التي واكبت حياتي الماضية ـ وأفض الخيوط المتشابكة في ذاكرتي عن أحداث حياتي، تلك الخيوط الممتدة لأعوام كثيرة، وبامتداد مساحات شاسعة من الجغرافيا.

هذه ليست قصة حياتي بأجمعها، ولكنها عن السنوات التي قضيتها بالجزيرة العربية قبل أن أنتقل إلى الهند ـ تلك السنوات المثيرة التي قضيتها مرتحلاً بين كل دول المنطقة على وجه التقريب من أقصى صحراء ليبيا حتى مرتفعات باميرز المغطاة بالجليد في أفغانستان، وبين مضيق البوسفور حتى بحر العرب. لقد ذكرت في النص ـ ولا بد أن يظل ذلك في الأذهان ـ المدى الزمني الذي استغرقته آخر رحلة صحراوية من أعماق الجزيرة العربية إلى مكة في أواخر صيف عام ١٩٣٢؛ فعلى مدى تلك الأيام الثلاثة والعشرين اتضح في ذهني تماماً نمط حياتي وما أحب أن أكون وما أود أن أحقق عَبْر تلك الحياة.

والجزيرة العربية الموصوفة والمصورة في هذا الكتاب لم يعد لها وجود. تداعى تفردها وتكاملها تحت تيار النفط المتدفق وما جلبه من عوائد. بساطتها التامة اختفت وتلاشت، واختفت معها الجوانب

الإنسانية الفريدة من الفطرة. ومع الألم الذي تحسه بفقد الأشياء الثمينة، التي تفقدها إلى الأبد، ما زلت أذكر مسار رحلتي الأخيرة عبر الصحارى، حين سرنا، وسرنا، كنا رجلين على ناقتين، عبر الأضواء السابحة في الصحراء...

الفصل الأول

العطش

ركوب متواصل يبدو بلا نهاية، رجلان على ناقتين، وشمس ملتهبة حارقة، كل شيء يسبح في ضوء مبهر قوي، كثبان رملية تعكس أضواءً حمراء وبرتقالية تبهر البصر، كثبان بعد كثبان بلا نهاية، وحدة وصمت محرق، رجلان على ناقتين يتأرجحان في رتابة لا يتغير إيقاعها على وقع الخُطى التي تجلب النُعاس، تجعلك تنسى في أي يوم أنت، وتنسى الشمس المحرقة، والريح الملتهبة، والطريق الطويل الذي لا تبدو له نهاية.

[١]

مجموعات متناثرة من حشائش جافة صفراء تنمو على حواف الكثبان، في أماكن متباعدة تتناثر أعشاب الحمدة وتشكل على الرمال أشكالاً تشبه أفاعِي عملاقة، الحواس كلها في غَشْية ناعسة، الجسم يتمايل على سَرْج الناقة، لا يصل الإدراك عَبْر السمع إلا صوت انسحاق الرمال تحت أخفاف الناقتين وصوت احتكاك كلابة ركاب السَرْج بالركبتين. الوجه مُلَثم بالغِطرة للحماية من الشمس والرياح المحملة

بالرمال، تشعر كما لو كنت تحمل وحدتك مثلما تحمل الأغراض المادية المحسوسة، عَبْر ذلك الإحساس الثقيل بالوحدة ـ عبره تماماً تختلط الأفكار.. حتى آبار تايما... آبار تايما المظلمة أعماقها، إلا أنها تهب الماء الذي يطفئ لهيب الظمأ...

سمعت صوتاً: «...لا بد من عبور النفود حتى نصل إلى تايما...» لم أدر إن كان هاتفاً طاف بذهني أم أنه صوت مرافقي، سألته: «هل قلت شيئاً يا زيد؟».

رد مرافقي: «لا يوجد من يجازف بعبور النفود فقط من أجل زيارة منطقة آبار تايما، إلا أنت بالطبع...».

كنت عائداً برفقة زيد من منطقة قصر التايمين شمال نجد على تخوم العراق، بعد أن أنهيت مهمة أسندها إليَّ الملك ابن سعود، في وقت أقصر من المتوقع، ووجدت أن أمامي وقتاً متوفراً أقضيه أينما شئت، فقررت أن أزور واحات تايما القديمة، والتي تقع على مسافة بعيدة عن موضعنا الذي كنا فيه، مسافة تربو على مائتي ميل إلى الجنوب الغربي. واحات تايما المذكورة باسم تيما في العهد القديم والتي قال عنها النبي أشعيا، «وشعب تيما الذي أعطاه ماءً حين كان عطشاً». جعل ماء تايما الغزير وآبارها العظيمة التي لا مثيل لها في كل الجزيرة العربية، منطقة تجارية كبيرة قبل الإسلام فكانت مقصد ومحط ترحال القوافل السارية في أرجاء الجزيرة العربية وموطناً للثقافة العربية المبكرة. تشوقت قبل ذلك كثيراً لزيارة تلك المنطقة، لم أسلك المسالك والدروب الالتفافية الطويلة التي تسلكها القوافل للوصول إلى تايما، اتخذت طريقاً مباشراً من قصر التايمين عبر قلب صحراء النفود الكبرى، ذات الرمال الحمراء

المقفرة. تتولى الرياح مهمة إزالة أي آثار على سطحها لقدم بشر أو حيوان، لا يبقى أثر يسترشد به من يقطعها أو من تحمله أقداره على اختراقها. تحت وقع هبات الرياح التي لا تنقطع تتغير أشكال ومواضع كثبان الرمال على الدوام، تنتقل في إيقاع بطيء إلا أنه مستمر ودؤوب، غير محسوس لكنه لا يتوقف، وتتبدل أشكالها من شكل إلى آخر، ومن موضع إلى غيره، تتسطح التلال الرملية وتتحول إلى وديان، وتتراكم الرمال في وديان فتحولها إلى كثبان، تبرقشها حشائش صفراء جافة ميتة، تصدر أصواتاً خفيفة واهنة عند هبوب الرياح، أعشاب ذات طعم مُر تعافها حتى الإبل.

على الرغم من أنني قد قطعت تلك الصحراء قبل ذلك في اتجاهات مختلفة ولأسباب متباينة، فإنني لم أجرؤ على عبورها بمفردي دون دليل من البدو، وهكذا كان زيد دليلي ورفيقي في تلك الرحلة.

كانت تلك المنطقة موطنه وموطن قبيلته؛ فهو من قبائل شمّار، التي تحيا على المشارف الشرقية والغربية لصحراء النفود الكبرى.. وحين تهطل أمطار الشتاء المفاجئة الغزيرة، تتحول تلك الكثبان الرملية إلى مروج تموج بالعشب والكلأ، فترعى قبائل شمار إبلها على ذلك الكلأ عدة أشهر من كل عام، كانت تلك الصحراء تسري في دم زيد، كما كان قلبه يخفق متجاوباً مع نبضها.

ربما كان زيد واحداً من أبهى من قابلت من رجال الجزيرة العربية: جبهة عريضة، وبدن نحيل، قامة متوسطة الطول وممشوقة، مليء بحيوية فائقة. فوق بشرته قمحية اللون تبرز وجنتان في قوة، وشفتان مزمومتان في حزم يزيد من جاذبيته، في آن واحد تختلط أمارات الحزم

بالجمال الحسي مما يكون جاذبية مميزة لبدو صحراء العرب، عدا الاعتداد بالذات مع مودة إنسانية حميمة وصادقة. كان زيد خليطاً رائعاً من الطبيعة البدوية وحياة المدينة في نجد، إلا أنه احتفظ في أعماقه بيقين المشاعر الغريزية البدوية وصدقها بلا انفعالات سريعة الاشتعال، كما اكتسب الحكمة العملية التي تميز أهل المدن دون أن يكون ضحية لآفات حياة المدن المعاصرة. كان يعشق المغامرات مثلي دون اختلاق ولا اصطناع. منذ نعومة أظافره امتلأت حياته بالأحداث المثيرة: فقد كان صبياً مقاتلاً ضمن فرقة غير نظامية من قوات الجمال الراكبة كانت تمولها الحكومة التركية في شبه جزيرة سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى؛ ثم محارباً بين المدافعين عن موطن قبائل شمّار ضد قوات ابن سعود، ثم عمل مهرباً للسلاح في الخليج الفارسي، وعاشقاً جموحاً لنساء كثيرات في مناطق مختلفة من العالم العربي (كُنَّ بالطبع زوجات شرعيات، ثم يطلقهن)، وعمل بتجارة الخيول في مصر، ثم جندياً مرتزقاً بالعراق، وفي الأعوام الخمسة الأخيرة، كان مرافقاً لي في انتقالي عبر أرجاء الجزيرة العربية.

الآن، في أواخر صيف ١٩٣٢ ، كنا نرتحل معاً، كما فعلنا كثيراً من قبل، نشق طريقنا عبر الكثبان الرملية الموحشة المقفرة نتوقف كلما وصلنا إلى أحد الآبار التي تفصلها عن بعضها مسافات طويلة، نستريح ليلاً تحت قبة من نجوم ترصع السماء، وفي الآذان صوت أبدي رتيب لوقع أقدام الإبل فوق الرمال الساخنة؛ وأحياناً، يرتفع حداء زيد منشداً بصوت أجش على وقع خُطى الإبل؛ نستريح ليلاً، يعد زيد القهوة العربية ويطهي الأرز، ونخوض أحياناً منافسات عنيفة، يهب النسيم البارد على أبداننا في هدأة الليل ونحن ممددان على الرمال، ثم تشرق

الشمس من بين هامات الكثبان الرملية، حمراء كالدم، ثم تصب حرارتها بعنف كالألعاب النارية، وأحياناً أرى معجزة انبعاث الحياة في الأعشاب التي تبدو ميتة وجافة حين تنساب إليها قطرات من الماء بالمصادفة.

كنا قد توقفنا لأداء صلاة الظهر. وبينما كنت أتوضأ من قربة ماء، تساقطت قطرات على بقعة من حشائش جافة بين قدمي، مجموع من سيقان الحشائش الجافة الباهتة، صفراء ذابلة بلا حياة تحت حرارة شمس لافحة. حين تساقطت عليها قطرات الماء، بدا كما لو كانت رعشة تسري في أنصال أوراقها الجافة المتغضنة، رأيت أوراقها وأنا مشدوه وهي تتفتح ببطء وارتجاف. نثرت قطرات ماء أخرى عليها، تحركت أنصال أوراقها واستدارت ثم استقامت ببطء، باستحياء وتردد.. كتمت أنفاسي دهشة وأنا أصب مزيداً من الماء على بقعة الأعشاب. تحركت أسرع وانفردت سيقانها المائلة واستقامت أوراقها بحيوية أشد، كما لو كانت هناك قوة خفية تدفعها للاستيقاظ من أحلامها المليئة بالموت والفناء. كان مشهداً رائعاً لا يمكن أن أنساه، بدت أنصال أوراق الأعشاب الضئيلة تتمدد كما تتمدد أطراف نجمة البحر، كأنها مأخوذة بنشوة خجولة لا يمكن كبح جماح متعتها، احتفاء جامح من المتعة الحسية: عادت الحياة منتصرة إلى ما كان يبدو من لحظات من الموتى، رأيت ذلك ووقع تحت بصري، حدث باتقاد مشبوب، بقوة طاغية تتوق إلى الحياة، وتفوق في قوتها وعظمتها القدرة على الفهم والتفسير.

لا تحس بعظمة الحياة وسطوتها، إلا في الصحراء، الاحتفاظ

بالحياة صعب وعسير في الصحراء، والحياة فيها كالهبة، كالكنز، ودائماً تحفل بالمفاجآت. تدهشك الصحراء على الدوام بمفاجآتها حتى لو كنت خبيراً بها لأعوام طويلة، لا تكف أبداً عن إظهار المفاجآت المدهشة وفي اللحظة التي تظن فيها أنك قد أحطت بها بقسوتها وقفرها، تجدها تستيقظ من حلمها، وتهب أنفاسها ورحمتها، وتجد عشباً قد ظهر في موضع لم يكن به في اليوم السابق إلا شظى حصى ورمال. وتبعث أنفاسها مرة أخرى فترى أسراباً من طيور صغيرة تحلق وتحوم في سمائها. . . من أين؟ وإلى أين؟ طيور ضئيلة بأجنحة طويلة، خضراء زمردية زاهية، وأسراب من جراد تظهر محلقة في السماء فجأة، تدنو وتنأى في سرعة، رمادية كالحة، بأعداد لانهائية كحشود المقاتلين الجائعين. . .

تجد الحياة في الصحراء في أوج عظمتها وتدفقها وحيويتها: عظمة التنوع، دائماً ما تثير الدهشة والحيرة: في هذه الصحراء يكمن شذى الجزيرة العربية الذي يصعب تسميته، كما يكمن في ربوع صحاريها الأخرى، تحسه في التغيرات الدائمة في قفارها الشاسعة. في مواضع منها تجد أرضاً صخرية نارية المنشأ، صخور سوداء ذات سطح خشن، ثم كثبان رملية تبدو بلا نهاية، ووديان بين جبال صخرية، تغطيها أعشاب شوكية، ينطلق فجأة من بينها أرنب بري مذعور يمرق كالسهم ويمر أمامك كالبرق، ثم مناطق من رمال ناعمة تبرقشها آثار أقدام غزلان البراري، وقطع أحجار أسودٌ لونها، استعملت كموقد للطهو أو إعداد القهوة، أقامها عابرو سبيل طهوا عليها طعامهم في أزمان لا تعرف مداها؛ ثم قرية صغيرة بين أشجار نخيل في منطقة آبار تعلوها بكرات خشبية تسحب عليها دلاء الماء بالحبال من أعماقها، بكرات تصدر

أصواتاً كأنها موسيقى رائعة للآذان المتعطشة وكأنها تغني للحلوق الجافة التي أضناها العطش؛ وقد تجد بئراً في وادٍ صحراوي، يتجمع حولها رعاة البدو لسقي قطعان ماعزهم وإبلهم العطشى، ترتفع أصواتهم بغناء جماعي وهم يرفعون الدلاء المليئة بالمياه والمصنوعة من جلد من أعماق بئرٍ مليئةٍ بالمياه، يسكبون ماء الدلاء في أحواض السقي المصنوعة من الجلد والتي تقبل عليها الأغنام والإبل العطشى في شغف وحبور.

ثم من جديد سهوب شاسعة جرداء تعلوها شمس حارقة دون رحمة؛ وتجمعات أعشاب ذابلة خشنة صفراء، ونباتات ورقية زاحفة على سطح الرمال ملتفة الأفرع كالأفاعي كأنها تشير بإيماءة ترحيب بالإبل الجائعة، ثم شجرة أكاسيا وحيدة تمد غصونها في رحابة تحت سماء بلون الصلب الأزرق، من بين الروابي والكتل الصخرية تظهر فجأة سحالٍ ذات جلود ذهبية يشاع عنها أنها لا تشرب ماءً طوال حياتها، تدور عيونها يميناً ويساراً في نظرات حائرة، ثم تختفي فجأة كما تختفي الأطياف والأشباح، في فراغ بين جبال صخرية تنتصب خيام مصنوعة من جلد الماعز السوداء، وقطيع من الإبل يُساق إلى مرابطه قبل غروب الشمس، راعي القطيع يقوده فوق بعير يركبه بلا سرج، حين ترتفع أصوات الرُعاة لجمع القطيع ودفعه للمسير، يمتص الفراغ اللانهائي أصواتهم ونداءاتهم ويبتلعها بلا صدى.

تلمح أحياناً أشباحاً وأطيافاً عند الأفق البعيد: ترى أهي سُحُب أم غيوم كثيفة؟ تقترب الأشباح واطئة مغيرة ألوانها ومواضعها من لحظة لأخرى، ثم تتخذ شكل جبال بنية رمادية ـ إلا أنها طافية في الهواء

كالسُحُب، ترتفع قليلاً فوق خط الأفق، عند الاقتراب منها تبدو كأعمدة صخرية من دبابيس عملاقة ذات قمم مدببة عالية في الهواء، ثم تنخفض تلك الأشكال وتقترب من أديم الأرض وتتحول إلى أشكال بحيرات وأنهار متدفقة ترتعش على سطوحها اللامعة أشكال جبال وأشجار، مياهها تدعوك إليها وتجذبك باتجاهها، ثم تكتشف فجأة أن ذلك من مداعبات الجن، وأن ما تراه ليس إلا سراباً طالما أفضى بالمرتحلين إلى آمال زائفة مخادعة ثم إلى الهلاك: في تلك اللحظات امتدت يدي بلا إرادة مني لتتحسس قربة الماء المعلقة بسرج الناقة. . .

هناك ليالٍ تحفل بأنواع أخرى من المخاطر، قد تكون في منطقة قبيلتان متحاربتان تغيران على بعضهما ليلاً، حينئذ لا بد أن تتجنب إشعال النار ليلاً، وتظل يقظاً طول الليل حاداً كل حواسك وبندقيتك بين ساقيك. في المناطق التي يسودها السلام قد تلتقي بعد ترحال طويل بقافلة، وفي المساء تستمع إلى أحزان وهموم المتحلقين حول النيران، رجال لوحت الشمس وجوههم: يتحدثون عن أشياء عظيمة كما يتحدثون عن أمور بسيطة، عن الحياة والموت، عن الجوع والتخمة، الفخر والحب والكراهية، عن التوق الشديد وشهوة البدن وإرواء ظمأ الشهوات، عن الحروب، عن غياض النخيل في قراهم النائية ـ لا تسمع أبداً حديثاً تافهاً يخلو من معنى، ولا ثرثرة خاوية لإزجاء الوقت: فالمرء لا يسعه الثرثرة بلا معنى في ترحاله عبر الصحراء. . .

في أيام العطش يلح عليك نداء الحياة، حين يلتصق لسانك بسقف فمك ويصبح مثل حطبة جافة، ولا يظهر في الآفاق أمل غير رياح السموم اللافحة وعواصف الرمال.

في أيام أخرى، حين تحل ضيفاً على مضارب بدو، ويقدمون إليك آنية مليئة بحليب دسم من إناث النوق في بداية الربيع، حين تزهر الآكام والكثبان وتعلوها الخضرة بعد فصل المطر وتغدو قطعان الحيوانات وأثداؤها ثقيلة مليئة باللبن، ومن ركن الخيمة تسمع أصوات نساء ضاحكات وهن يطهين خروفاً على النار، نحروه إكراماً للضيف.

مثل كرة من الحديد الأحمر تتوارى الشمس خلف التلال الرملية، في المساء تبدو السماء مكتظة بالنجوم، وتبدو أعلى وأعمق من أي سماء تبدو في مكان آخر من العالم، تنام تحتها نوماً عميقاً يخلو من الأحلام، ثم يحل الفجر الرمادي الشاحب بنسمات باردة حتى يحل صباح ساطع الضياء. ليالي الشتاء باردة، خفقات رياحه الباردة تهب على مخيم المرتحلين المتجمعين حول النار يتقاربون من بعضهم طلباً للدفء؛ أيام الصيف حارقة وأنت ترتحل على ظهر بعيرك تهتز على وقع خُطاه، الوجه ملثم بالكوفية للوقاية من الرمال الساخنة التي تذروها الرياح، تغوص حواسك في غلاف من النعاس، بينما يحوم فوق رأسك طير مفترس في خطوط ترسم دوائر على صفحة السماء.

[٢]

مرَّ العصر منسرباً ببطء بكثبانه وصمته ووحدة تغلفنا. بعد فترة، قطع الصمت التقاؤنا ببدو مرتحلين، أربعة أو خمسة رجال وامرأتين يركبون الجمال، ويسحبون بغلاً يحمل على ظهره خيمة سوداء مطوية، وأواني طهو وأدوات متباينة، ويعتلي كل حمولة البغل طفلان، حين اقتربوا توقفوا على مسافة منا:

ـ «السلام عليكم».

رددنا: «عليكم السلام ورحمة الله».

سألونا: «إلى أين؟»

أجبنا: «تايما، إن شاء الله».

سألونا: «من أين؟»

أجبت: «من قصر التايمين».

ساد الصمت بعد ذلك، كان المتحدث شيخاً ضئيل الجسم، حاد الملامح بلحية سوداء مدببة، كان كبيرهم؛ نظراته الحادة الثاقبة مرت على وجه زيد في تمعن، ثم استقرت في ريبة على وجهي، ساورته الريبة، أجنبي ذو بشرة بيضاء يظهر بلا توقع قادماً من مكان مجهول في تلك البرية المقفرة؛ أجنبي قادم من بلاد العراق التي يحتلها البريطانيون، وقد يكون (قرأت أفكاره التي ارتسمت على صفحات وجهه) كافراً يقتحم أرض الجزيرة خفية. راحت أصابعه تعبث في حيرة بمقدم سرج ناقته، بينما التف حولنا باقي جماعته بغير نظام، كانوا ينتظرون ما سيقوله. بعد لحظات، بدا من الصعب عليه أن يتحمل صمتاً أطول من ذلك، فسألني:

ـ «من أي عرب أنت؟».

كان يقصد إلى أي قبيلة أنتمي، ولكن قبل أن أتمكن من الرد، أضاءت ملامحه ابتسامة مفاجئة دلت على تذكره لي:

«أوه، تذكرتك تواً، لقد رأيتك بصحبة عبد العزيز، ولكن كان ذلك من زمن طويل مضى ـ ربما من أربعة أعوام. . .».

فرد ذراعيه علامة على الترحيب والود، وتذكر الأيام التي رآني فيها

في القلعة الملكية في الرياض، كان قد أتى إلى الرياض كزعيم لقبائل الشمار معلناً ولاء قبيلته لابن سعود، كان البدو عادة ما يذكرونه باسمه الأول، عبد العزيز، بلا ألقاب رسمية ولا صفات تشريف: فهم في تلقائيتهم وفطرتهم يرون الرجل في الملك قبل أن يروا الملك في الرجل، كانوا يجلونه بلا جدال في إطار ما تفرضه البيئة الصحراوية. رحنا نتبادل الذكريات، ونتحدث عن رجال عرفناهم، نتبادل الطرائف وما إليها، عن ألف ضيف في ضيافة الملك، يتلقون عند رحيلهم الهبات والهدايا التي تختلف من ضيفٍ إلى آخر حسب مكانته؛ من حفنة من النقود الفضية أو عباءة إلى أكياس مليئة بهدايا ذهبية، أما الخيول والجمال فقد كان غالباً ما يمنحها إلى زعماء القبائل.

لم يكن كرم الملك وسخاؤه ينبع من خزانته بقدر ما كان ينبع من قلبه وأريحيته. كان صدق مشاعره وحميميتها أثمن من أي هبات أو هدايا وهو ما جعل كل الشعب يلتف حوله، بمن فيهم أنا بالطبع، فقد أحببته حباً صادقاً. فعلى مدى أعوام إقامتي بالجزيرة العربية، كانت صداقة ابن سعود لي مثل ضوء دافئ يغمر كل جوانب حياتي.

كان يناديني بصفة الصديق، كما كان يعاملني بهذه الصفة، ذلك على الرغم من كونه ملكاً وأنا لست إلا مراسلاً صحفياً. كنت أناديه بدوري بلقب الصديق، لا بسبب ما أظهره تجاهي طوال فترة إقامتي في مملكته، فقد كان ذلك جانباً من خصاله تجاه كثيرين ممن اعتبرهم أصدقاء له، ولكن لأنه كان يفتح لي قلبه ونفسه في مناسبات كثيرة، تماماً مثلما كان يفتح خزائنه لكثيرين من أبناء شعبه، كنت أحب أن أناديه بلقب الصديق، فعلى الرغم من أخطائه ـ وهي ليست كثيرة ـ كان

رجلاً لا يضارع. لم يكن فقط «طيب القلب»؛ فطيبة القلب وحدها أحياناً ما تبدو رخيصة، وما أعجبني في شخصه يماثل من يعجب بنصل سيف دمشقي قديم، فالسيف الدمشقي سلاح «جيد»؛ فهو يجمع كل الصفات التي تتطلبها من سلاح من ذلك النوع. هكذا كنت أعد ابن سعود رجلاً جيداً، فقد كان صادقاً مع ذاته ومتسقاً معها في كل سلوكياته، ودائماً ما كان يمضي إلى تحقيق ما ارتآه بعزيمة صادقة، وإن أخطأ في جانب ما، فلأنه لم يحاول أبداً أن يكون شيئاً آخر غير ذاته.

* * *

كان أول لقاء لي بالملك عبد العزيز بن سعود في مكة مع بدايات عام ١٩٢٧، كان ذلك بعد اعتناقي الإسلام بعدة أشهر. وكان أيضاً بعد موت زوجتي المفاجئ؛ حيث كانت بصحبتي عند أول حج لي، وأحدث رحيلها المفاجئ في نفسي تأثيراً شديداً، شعرت بالمرارة واجتنبت الناس، واعتزلت كل معارفي. حاولت مراراً أن أخرج من تلك المرحلة المؤلمة من حياتي وأنهي وحدتي الموحشة. كنت أقضي جُل وقتي وحيداً بمسكني؛ متجنباً كل البشر إلا أقل القليل منهم، وعلى مدى أسابيع طويلة لم أقم بزيارة مجاملة للقصر. ثم قمت ذات يوم بزيارة واحد من ضيوف ابن سعود من الأجانب وهو الحاج آجوس سالم من مسلمي أندونيسيا ـ قيل لي أثناء تلك الزيارة إنه بناء على أمر الملك تم وضع اسمي على قائمة ضيوفه ـ ويبدو أنه قد نما إلى علمه سبب تخلفي عن الحضور إلى قصره قبل ذلك، وأنه تقبل ذلك بصمت الفاهم لما أعانيه. وهكذا، كنت ضيفاً لم يتسن له أن يرى مضيفه من قبل. توجهت في الموعد المحدد إلى بيت جميل في جنوب مكة يقع على

حافة صخرية تشرف على بداية الطريق المتجه جنوباً إلى اليمن. من شرفات المنزل الرحب تبدو أجزاء ومناطق عظمى من المدينة: مآذن الكعبة، آلاف من البيوت تبدو كمكعبات بيضاء وأسوار شرفات أسطحها مشيدة من أحجار ملونة، خلف البيوت تبدو تلال الصحراء الساكنة تعلوها سماوات متوهجة كمعادن منصهرة.

ربما كنت سأتمادى في تأجيل زيارتي لقصر الملك لو لم أكن قد التقيت بالأمير فيصل مصادفة، والأمير فيصل هو الابن الثاني للملك عبد العزيز، والتقيت به في مكتبة الكعبة الواقعة تحت العقود المحيطة بها. كنت أشعر بمتعة الجلوس في تلك القاعة الطويلة التي تصطف على جدرانها خزائن المخطوطات العربية القديمة، عدا المخطوطات الفارسية والتركية؛ وكان الهدوء المخيم بداخلها وضوؤها الخافت يبثان في نفسي مشاعر من الدعة. في أحد الأيام، كسر الصمت المخيم حفيف ملابس وهمس رجال تسبقهم مجموعة من الحراس: كان الأمير فيصل في مروره المعتاد من خلال المكتبة إلى الكعبة: كان الأمير فيصل طويلاً ونحيلاً وعليه سيماء الجلال والمهابة التي تتجاوز عمره البالغ اثنين وعشرين عاماً على الرغم من أنه كان بلا لحية. ومع صغر سنه، فإنه كان حاكماً للحجاز نائباً عن الملك بعد أن غزاها الملك وأخضعها لحكمه قبل ذلك بعامين (كان سعود، ابن الملك الأكبر وولي العهد، نائباً للملك على نجد، وكان الملك يقضي نصف العام في مكة، عاصمة الحجاز، ونصف العام الآخر في الرياض، عاصمة نجد).

قام أمين المكتبة، وهو أحد باحثي مكة من الشباب جمعتني به صداقة لحين من الزمن، بتقديمي إلى الأمير فيصل، فصافحني، وحين

انحنيت أمامه، مد يده ورفع هامتي بلطف وابتسامة دافئة تضيء وجهه قائلاً: «نحن أهل نجد لا نحب أن ينحني رجل أمام رجل آخر، لا ينحني الرجل لغير الله»، بدا عطوفاً رقيق الحاشية، حالماً بشكل ما مع بعض التحفظ والحياء.

برهنت الأيام بعد ذلك على صدق انطباعي الأول عن الأمير فيصل بعد أن عرفته شخصياً معرفة وثيقة دامت لأعوام. كانت هيبته ونبل سلوكه طابعاً أصيلاً في شخصيته غير مفتعل ونابع من داخله. حين تبادلنا الحديث في ذلك اليوم في مكتبة الحرم، شعرت فجأة برغبة عميقة للقاء من أنجب مثل ذلك الأمير.

قال الأمير فيصل: «سيسر الملك لقاؤك، لماذا تتجنب لقاءه حتى الآن؟».

في الصباح التالي أتى مساعدا الأمير في سيارة لاصطحابي إلى قصر الملك. شقت السيارة طريقها عبر شارع المعلا التجاري المزدحم بصعوبة، كان الشارع مزدحماً بالإبل، وكان مركزاً لبيع السلع البدوية بمختلف أنواعها ـ سروج إبل، عباءات، طنافس، قرب مياه جلدية، سيوف ذات أغمدة فضية، خيام، أباريق القهوة النحاسية ـ أفضى الطريق التجاري عند نهايته إلى طريق آخر أهدأ وأوسع وأرحب، حتى وصلت السيارة إلى دار كبيرة يقيم بها الملك. كانت أمام الدار أعداد كبيرة من الإبل المسرجة، وعدد من الحراس المسلحين وساسة الإبل يعتنون بها وكان من الواضح أنها إبل ضيوف الملك. انتظرت في قاعة فسيحة ذات عمد على أرضها أبسطة عادية، وحول الجدران صفت أرائك رحبة مغطاة بمفارش كاكية اللون، ومن النوافذ بدت غصون خضراء لأشجار

تقع خارجها، أشجار زرعت بمشقة وعناء في تربة مكة العصية الزرع. ظهر عبد أسود قائلاً: «الملك يدعوك». دخلت غرفة أخرى أقل مساحة وأكثر إضاءة، وأحد جوانبها مفتوح بأجمعه على الحديقة. كانت الأرض مغطاة بطنافس فارسية ثمينة، وكان الملك جالساً تحت نافذة عريضة تطل على الحديقة، مربعاً ساقيه على ديوان عريض؛ تحت قدميه جلس سكرتيره يتلقى تعليماته ويدونها. حين دخلت عليه، نهض فارداً ذراعيه في ترحيب قائلاً: «أهلاً وسهلاً»، وهي تعني للضيف أنه إنما نزل بين أهل له، وأنه يخطو في سهولة ويسر حيث شاء، وهي من أقدم وأحر عبارات الترحيب العربية.

تطلعت في تعجب لقامة ابن سعود الفارعة. وحين لثمت طرف أنفه وجبهته (كنت على دراية بعادات أهل نجد في تحية العظماء) كان عليَّ أن أشب على أطراف أصابع قدمي، بينما انحنى هو قليلاً حتى أتمكن من لثم جبهته، ثم أومأ إلى سكرتيره الذي جلس من جديد، ثم أمسك يدي وجذبني برقة للجلوس إلى جواره، قال الملك: «أمهلني دقيقة، أوشك على الانتهاء من هذه الرسالة».

استمر في الإملاء على سكرتيره في هدوء، وبدأ حواراً معي، دون أن يخلط للحظة بين ما يُمليه وما يوجهه إليَّ من حديث، وبعد عدة جمل رسمية، قدمت إليه خطاب تعريف بشخصي، بدأ في قراءته، مما عنى لي أنه يقوم بثلاثة أعمال في آن واحدٍ، دون أن يقطع إملاءه، أو الاطمئنان على راحتي، ونادى الخدم لتقديم القهوة.

أتيحت لي الفرصة أن أتأمله عن كثب. كان متناسق الأعضاء رغم ضخامته - كانت قامته لا تقل عن ستة أقدام ونصف القدم - ولا يبدو

طول قامته إلا حين ينهض واقفاً، كان وجهه، الذي تحيط به كوفية ذات مربعات تقليدية بيضاء وحمراء يعلوها عقال منسوج من خيوطٍ ذهبية، يحمل أمارات الرجولة والقوة. وكانت له لحية وشارب محفوفان على طريقة أهل نجد، وكان عريض الجبهة، ذا أنف مستقيم طويل، أما فمه فقد كان يشي بالرقة لا بالتهاون، وحين يتحدث يبدو وجهه مفعماً بحيوية فائقة، أما في أوقات صمته فقد كان يتبدى على وجهه حزن دفين، كأنما انسحب بأفكاره إلى عالم داخلي فريد، وكانت عيناه العميقتان في محجريهما تشيان بذلك الانطباع. كان بهاء وجهه يتأثر أحياناً بتعبير غامض يتبدى من جهة عينه اليسرى، التي كان يبدو على سوادها جزء من بياض. وعلمت بعد ذلك بزمن قصة الإصابة التي ألمت بعينه اليسرى، التي يعتقد أغلب الناس أنها إصابة طبيعية. أما الحقيقة، فهي أن تلك الإصابة ألمت به في ظروف مأسوية، فقد وضعت له إحدى زوجاته من أعوام طويلة مضت بتحريض من قبيلتها التي لم تكن على وئام مع ابن سعود، مادة سامة في وعاء البخور، وهو وعاء نحاسي يُستعمل في المناسبات الاحتفالية لحرق البخور المعطر كعادة أهل نجد، كانت تهدف إلى قتله بذلك السم حين يستنشقه. وطبقاً للتقاليد، لا بد أن تبدأ المبخرة أولاً بالملك ثم تمرر بعد ذلك إلى ضيوفه. وحين تنشق أول استنشاقة، أحس ابن سعود على الفور أن هناك شيئاً مريباً في البخور فألقى المبخرة بسرعة بعيداً عنه. كانت يقظته وبداهته سبباً في إنقاذ حياته،إلا أن عينه اليسرى قد طالها بعض من تلك المادة المسممة فأصابها ذلك التلف وبعض القصور في الرؤية بالعين اليسرى. وبدلاً من الانتقام من تلك الزوجة كما يفعل غيره من الملوك والحكام، غفر لها؛ فقد كان على يقين من أنها قد تعرضت لضغوط لا

قبل لها بها، وأنها كانت ضحية عائلتها التي تنتمي لقبائل ابن رشيد، كل ما فعله أنه قام بتطليقها، وأرسلها إلى قومها في حائل، محملة بالذهب والهبات.

* * *

بعد ذلك اللقاء الأول، داوم الملك على استدعائي يومياً على وجه التقريب. ذهبت إليه ذات يوم وأنا أبيت النية أن استأذنه في السماح لي بالرحيل في رحلة طويلة إلى أعماق الجزيرة العربية لمشاهدة مناطقها المختلفة، وكان أملي ضعيفاً في نيل تلك الموافقة؛ فلم يكن ابن سعود يسمح للأجانب بزيارة نجد كعُرف متوارث أصبح له قوة القانون. بينما كنت أهم بإخباره عن رغبتي، سدد إليَّ نظرة بدت وكأنها تنفذ إلى مكنون خواطري وأفكاري - ثم ابتسم قائلاً: «هل تأتي معنا يا محمد إلى نجد وتمكث معنا بالرياض بضعة أشهر؟» أصابتني الدهشة كما أصابت الحاضرين، فدعوة مثل تلك إلى أجنبي للإقامة في نجد لم تقع من قبل على وجه التقريب. أردف قائلاً قبل أن أفيق من دهشتي: «من الأفضل أن تسافر معي بالسيارة في الشهر القادم».

أخذت نفساً عميقاً، وأجبته: «أطال الله عمرك يا إمام، ولكن ما فائدة السفر بالسيارة لي؟ ما فائدة أن أنتقل بسرعة من مكة إلى الرياض في خمسة أو ستة أيام دون أن أشاهد أي مناطق في البلاد خارج الطريق؟ لن أشاهد من السيارة إلا كثبان الرمال، وربما بعض الناس في آفاق بعيدة تبدو كالأطياف.. إن لم يكن لديكم مانع، فمن الأفضل لي قطع تلك المسافة على ناقة، وذلك أفضل لي من كل الجوانب يا طويل العمر».

ضحك ابن سعود قائلاً: «أبك هذا الشوق إلى مشاهدة عيون أبناء شعبي من البدو؟ لا بد أن أحذرك مقدماً: فالبدو أناس متخلفون، ونجد أرض صحراوية بلا جمال يميزها عن غيرها، وسَرْج الجمل يابس وصلب والطعام شحيح خلال الرحلة ـ لن تجد إلا الأرز والتمر وقد تجد اللحم في أحيان نادرة. ولكن إن شئت واستقر عزمك على ذلك سأتركك تسافر بالجمال، على أي حال أتمنى ألا يعتريك الندم على معرفتك بشعبي: إنهم فقراء، وجهلاء، إلا أن قلوبهم مليئة بالإخلاص».

بعد ذلك بأسابيع، انطلقتُ من مكة بعد أن منحني الملك ناقتين وزاداً للطريق وخيمة وأمر بأن يصحبني دليل ليرشدني إلى الطريق ووصلت إلى الرياض بعد شهرين من مغادرتي مكة. كانت تلك الرحلة هي الأولى لي عبر الأرجاء الداخلية للجزيرة العربية، المرة الأولى لمرات عديدة ستأتي لاحقاً بعد ذلك: أما الشهور التي طلب مني الملك أن أقضيها معه في الرياض فقد امتدت إلى أعوام ـ لم أشعر بمرور الزمن، ولم أدر كيف امتد إلى أعوام قضيتها بين أغلب أرجاء المملكة مرتحلاً من مكان إلى مكان. لم يعد السرج يابساً ولا صلباً بأي حال...

* * *

قال العجوز صاحب الملامح الحادة وقائد الجماعة المرتحلة التي قابلتنا: «أطال الله عمر الملك عبد العزيز، فهو يحب البدو، ولذا يحبه البدو» تساءلت في داخلي: «ولماذا لا يحبونه؟ إن راحة يده هو وإدارته مبسوطة على الدوام لكل بدو نجد، وهي إحدى صفاته التي ذاع

صيتها، إلا أن تلك الصفة لم تنل رضاي ولا إعجابي، فكثرة الهدايا والهبات والأموال التي يغدقها عليهم ابن سعود في سخاء جعلتهم يعتمدون كلياً على كرمه حتى إنهم فقدوا أي دافع للعمل على تحسين نمط حياتهم بالكد والجهد، وانزلقوا بالتدريج إلى حالة المتلقين لإعانات، وبذلك ظلوا قانعين وراضين بجهلهم وكسلهم.

في أثناء حديثي مع الشيخ ذي الملامح الحادة، بدا على زيد نفاد الصبر. فبينما كان يتحدث مع أحد الرجال، كانت عيناه تحطان من آنٍ لآخرِ على وجهي، كما لو كانَ يذكرني أن أمامنا طريقاً طويلاً ما زال علينا أن نقطعه، وأن تبادل أحاديث الذكريات مع أولئك القوم لن يسرع من خطو الجمال. ركب بدو الشمار ركائبهم وواصلوا مسيرهم باتجاه الشرق وسرعان ما اختفوا خلف التلال. ومن مكاننا وصلت إلى مسامعنا كلمات أغنية بدوية راح واحد منهم يشدو بها، لحث جمالهم على المسير، ودفعاً لملل السفر الطويل، وبينما وليّنا أنا وزيد وجهينا باتجاه الغرب، إلى تايما، كان صوت الحادي يتلاشى رويداً رويداً، حتى اختفى تماماً وساد الصمت من جديد.

[٣]

ارتفع صوت زيد فجأةً محطماً الصمت السائد: «انظر، أرنب بري» حولت بصري بسرعة فرأيت كتلة من الفِراء الرمادي تقفز مندفعة بين تجمع عشبي، في حين كان زيد ينزلق بسرعة من على سرج ناقته وحل عصا الصولجان التي تثبت مقدم السرج واندفع باتجاه الأرنب مؤرجحاً العصا فوق رأسه ليقذف بها الأرنب، في اللحظة التي أوشك فيها على قذف العصا، اشتبكت قدمه في جذر جاف لشجرة حمدة، فسقط منبطحاً على وجهه، بينما اختفى الأرنب في لمح البصر.

ضحكت، بينما كان زيد ينهض من عثرته، وهو يتطلع إلى العصا التي كانت بيده في حسرة وأسى وقلت له: «أضعت علينا عشاءً شهياً، لا عليك يا زيد، من الواضح أن ذلك الأرنب لم يكن من نصيبنا ولا قسمتنا. . .».

أجاب بذهن شارد: «لا، لم يكن مقسوماً لنا»، ثم تبينت أنه كان يعرج في خطواته وعلامات ألمٍ شديدٍ تبدو على وجهه. سألته: «هل أصيبت قدمك؟».

قال: «كلا، لا شيء، التوى كاحلي فقط، سيتحسن بسرعة»، إلا أنه لم يتحسن. فبعد ساعة وهو على ناقته كان وجهه يطفر بحبات العرق من شدة الألم المتزايد، وحين انتقل بصري إلى كاحله، وجدته قد تورم بشدة.

قلت: «لا فائدة يا زيد من ارتحالنا وأنت على هذه الحال، فلنضع رحالنا هنا، ليلة من الراحة تعيد قدمك سليمة إن شاء الله».

* * *

لم يستقر زيد على حال طوال الليل من شدة الألم. جافاه النوم حتى مطلع الفجر، كان تقلبه وتحركاته القلقة من شدة ألمه تقلق نومي الذي لم يكن مريحاً.

عند الفجر قال: «لا أرى إلا ناقة واحدة. وحين تطلعنا حولنا، اكتشفنا أن إحدى الناقتين قد اختفت، وكانت ناقة زيد. أراد زيد أن يركب ناقتي وينطلق باحثاً عن الأخرى التي شردت، إلا أن كاحله المصاب جعل من الصعب عليه حتى الوقوف، ناهيك عن السير وركوب الناقة والنزول عنها.

قلت له: «استرح أنت يا زيد، سأذهب أنا للبحث عنها، لن تصعب عودتي، سأرجع مقتفياً آثار ذهابي».

على ضوء الفجر الوليد ركبت ناقتي وانطلقت باحثاً عن الناقة الشاردة، تتبعت آثار أقدامها على الرمال في السهل الرملي حتى الكثبان. مضيت لمدة ساعة متتبعاً أثر الناقة، ثم ساعة أخرى، ثم ثالثة، وأثر الناقة ظل ممتداً إلى مسافات لا تنتهي ولا ألحق بها. أوشك النهار على الانتصاف فتوقفت لالتقاط أنفاسي، ترجلت، أكلت حفنة تمر، وارتويت من قربة الماء المعلقة في سرج الناقة. الشمس في كبد السماء، إلا أنها لم تكن بسطوتها المعتادة، كانت سحب داكنة ـ وهي غير معتادة في ذلك الوقت من العام ـ تغطي أجزاءً من صفحة السماء دون حركة، كانت السحب كثيفة بأشكال عجيبة، وهبت ريح شديدة أطاحت بحواف الكثبان الرملية الناعمة.

على قمة تل رملي عال في مواجهتي ظهر شكل غريب أمامي شد نظري إليه، هل هي حركة لحيوان؟ هل هي الناقة الشاردة؟ حين دققت النظر، وجدت أن الحركة تنتقل من أعلى التل إلى حافته الجانبية، كانت الحافة تتحرك حركة طفيفة متموجة رقراقة للأمام باتجاهي، مثل حافة موجة تتقدم ببطء. ثم زحفت عتمة حمراء وغطت صفحة السماء كأنها قادمة ونابعة من خلف الكثيب المواجه لي، وأصبح شكل الكثيب في تلك العتمة الحمراء بلا ملامح ولا معالم، بدا كما لو كان حجاباً قد أُسدِلَ عليه، وامتدت العتمة الحمراء بسرعة وحلّت على كل المرئيات من حولي، ثم هبت على وجهي دفقة قوية من رياح محملة بحبات الرمال، ودارت من حولي في دوامة شديدة، ثم راحت الرياح تهدر في

عنف من كل الاتجاهات، تكنس وجه الوادي الرملي في هبات عاتية، وانتقلت الحركة المتموجة التي كانت تبدو على التل المواجه لي وشملت كل الكثبان والتلال الرملية التي يصل إليها بصري. وخلال دقائق أظلمت السماء وتحولت إلى لون بني مثل صدأ الحديد المتدرج في قتامته وامتلأ الجو بدوامات من الرمال الدقيقة وتعلقت في الجو مثل ضباب أحمر. كانت العاصفة الرملية قادمة وكان كل ما رأيته مقدمتها المنذرة.

ذُعِرَتْ ناقتي الباركة، ارتجفت، حاولت أن تنهض لتركض، إلا أنني قبضتُ على لجامها بقوة، قاومت بكل قوتي لأحافظ على توازني حتى لا تطيح بي العاصفة العاتية التي تحولت إلى قوة الإعصار، كافحت حتى قيدت قدمي الناقة الأماميتين، ثم قيدت الخلفيتين، ألقيت بنفسي خلفها فوق الرمال ولففت عباءتي حول رأسي ووجهي ودفنت رأسي تحت رقبة الناقة حتى لا أختنق من الرمال الناعمة. أحسست بالناقة وهي تدفن خطمها في كتفي للسبب ذاته. شعرت بالرمال تتراكم حول جسمي وتدفنه داخلها بوصة بعد بوصة من الجانب البعيد عن الناقة، رحت أغير وضع جسمي مرة بعد أخرى حتى لا تدفنني الرمال الهائجة. لم أصب بخوف ولا وجل، فلم تكن أول عاصفة أصادفها. مكثت منبطحاً، محكماً لف العباءة حول رأسي ووجهي، ولم يكن هناك ما أفعله غير الانتظار، وهدير الرياح وخفقات جلبابي الذي أصبح مثل شراع مركب حلّت حباله يَصُمَان سمعي، أصبح جلبابي مثل راية خفاقة في الرياح، مثل رايات القبائل التي تحملها عالية على صواريها في مسيراتها: ذكرتني برايات خفاقة رأيتها من خمسة أعوام مضت كان يحملها فرسان نجد من البدو ـ آلاف منهم وكنت واحداً منهم ـ عائدين من عرفات إلى مكة أثناء

الحج. كان الحج الثاني لي، وكنت قد قضيت عاماً في الارتحال بين أرجاء الجزيرة العربية، وقررت العودة إلى مكة في الوقت المناسب لأشارك في وقفة عرفات، شرق المدينة المباركة، في طريق العودة من عرفات وجدت نفسي وسط جمع غفير من بدو نجد يرتدون ملابس الإحرام البيضاء، يركبون جمالهم في سهلٍ متربٍ ـ بحر متلاطم من الرجال بملابس الإحرام البيضاء، على جمال صفراء بلون العسل، وجمال بنية ذهبية، وجمال بنية داكنة ـ تركض في هدير وترتج الأرض من ركض آلاف الجمال المندفعة كموجةٍ عاتيةٍ لا يملك لها أحد صدىً، وأعلام القبائل مرفوعة عالية تخفق في الرياح، وهدير أبناء القبائل وصياحهم يُعلن عن قبائلهم ومآثر أسلافهم في الحروب والنزال، أبناء نجد ينبع الحج والحرب عندهم من منبع الفخر. . أما باقي الحجيج من الأماكن الأخرى، من مصر والهند وشمال أفريقيا ويافا ـ غير المعتادين على ذلك الحماس البدوي ـ فقد تفرقوا في ذعر عند اقتراب جحافل الجمال العادية منهم، فلن يظل حياً من يقف في طريق الجمال ومسيرة القبائل الماضية كالرعد، والموت الفوري نصيب من يسقط من على سَرْج جمله وسط آلاف الآلاف من راكبي الجمال العادية كعاصفة.

ومهما كان جنون من يقومون بتلك الانتقالة الراكبة العاصفة من عرفات إلى مكة، فقد شاركت فيها وانتقلت إليَّ عدوى حماسها وأسلمت نفسي لجموحها واندفاعها وزئيرها وإحساس بفرحة وسعادة مفرطة يملآن قلبي ـ كانت الرياح التي تمر فوق رأسي وأنا أدفنها في إبط الناقة تنشد قائلة: «لن تكون أجنبياً ولا غريباً بعد الآن. . لن تكون غريباً أبداً بين أبناء هذه الأرض. . .».

لم أعد أجنبياً ولا غريباً: أصبحت الجزيرة العربية موطني. تحول

ماضيّ الغربي إلى حلم بعيد ـ لم يصبح حلماً غير واقعي تماماً حتى أنساه، كما لم يعد واقعياً تماماً ليشكل جانباً من حاضري. لا يعني ذلك بالطبع أنني أصبحت من آكلي اللوتس[١]، بل على العكس، فكلما مكثت عدة أشهر في إحدى المدن ـ مثل المدينة على سبيل المثال التي كان لي بها زوجة عربية وطفل ومكتبة مليئة بالكتب عن التاريخ المبكر للإسلام ـ يزداد قلقي ويعزوني الشغف إلى المغامرة والحركة، وأشتاق إلى جو الصحراء الجاف المنعش، إلى رائحة الإبل وإحساسي بسروجها. من العجيب أن دوافعي الملحة للتجوال، التي كانت تجعلني لا أستقر في موضع أغلب فترات حياتي (كنت في ذلك الوقت قد تجاوزت الثانية والثلاثين من عمري) كانت تغريني مرة بعد أخرى وتدفع بي إلى أنواع من المخاطر والمفاجآت المهلكة ومواجهة الموت، وعلى الرغم من ذلك لم تنل تلك المخاطر من تلك الرغبة، كما لم تهن من عزيمتي وتطلعي إلى العثور على مكان أشعر فيه بالاستقرار في هذا العالم ـ أن أصل إلى مرحلة أستطيع بعدها أن أخلق علاقة بين ما يحدث لي وبين ما أفكر به وما أحسه وما أرغبه. لو فهمت الأمر على وجهه الصحيح، فإن ما يشكل شخصيتي هو شغفي الشديد باكتشاف عالمي الداخلي، وقد دفعتني تلك الرغبة إلى عالم مختلف تماماً، مختلف في مداركه الدفينة وفي مظهره الخارجي، عالم يتباين كلياً مع عالمي الذي ولدت ونشأت فيه في أوروبا وما كان يمكن أن يشكله ذلك العالم من شخصيتي. . .

* * *

(١) شِعب ورد ذكره في أوديسة هوميروس يقتات بأزهار اللوتس ويحيا في تراخٍ وكسل نتيجة لذلك. (المترجم).

بعد أن خمدت العاصفة، نزعت جسمي من الرمال التي دفنتني، كانت ناقتي أيضاً نصف مدفونة في الرمال، لم يكن هناك أسوأ من تلك التجربة التي لا بد أن الناقة قد مرت بها عدة مرات من قبل. من أول نظرة لم يبد أن العاصفة قد تسببت في أية أضرار باستثناء الرمال المتراكمة في فمي وأنفي وأذني، وفقد قربة الماء التي كانت معلقة بسرج الناقة إلى حيث لا أدري. ولكن سرعان ما اكتشفت خطأ تقديراتي الأولى للخسائر.

لقد تغيَّر شكل ومواضع كل ما كان يحيط بي من كثبان قبل العاصفة، وامَّحت تماماً آثار خطوات ناقتي على الرمال، وكذلك آثار خطوات ناقة زيد التي كنت أسعى خلفها. اكتشفت أنني في أرض بكر جديدة بمعالم جديدة وتضاريس جديدة وبلا أية آثار قديمة على سطحها، أرض بكر تماماً.

لم يعد هناك ما أفعله إلا محاولة العودة إلى مكان خيمتنا ـ حيث تركت زيد ـ بالاستعانة باتجاه حركة الشمس والحس الداخلي الغريزي بالاتجاهات عند من اعتادوا قطع الصحارى والترحال عبرها، إلا أن الوسيلتين لا يمكن الاعتماد عليهما تماماً، فكثبان الرمال تعوق السير في خطٍ مستقيمٍ فلا تستطيع المحافظة على الاتجاه الذي خمنته إذ لا بد من الدوران حولها.

أصابتني العاصفة الساخنة بعطش شديد، توقعت أنني لا أبعد عن موضع خيمة زيد إلا بمقدار ساعات، وكنت قد شربت آخر جرعة ماء من قربتي الصغيرة منذ ساعات. خمنت أنني لا أبعد كثيراً عن موضع الخيمة؛ وعلى الرغم من أن ناقتي أيضاً لم ترتو من يومين منذ آخر مرة

توقفنا فيها عند بئر، فإن الجمال ذات بأس في احتمال العطش وقطع المسافات الطويلة ويمكنني أن أعتمد عليها حتى أصل إلى زيد. وجهت خطم الناقة في الاتجاه الذي خمنت أنني سأجد فيه زيد وخيمتنا، وقدتها في خطوٍ سريعٍ.

مرت ساعة ثم ساعتان ثم ثلاث ساعات، ولا أثر لزيد ولا الخيمة، لم تكن التلال الرملية برتقالية اللون تشكل معلماً ذا قيمة؛ فكلها تقريباً ذات شكل موحد.

في وقت متأخر من العصر وصلت إلى موضع صخري من الأرض يبرز فوق سطح الرمال، كان من صخور الجرانيت، والجرانيت من الصخور النادرة وسط ذلك البحر اللانهائي من الرمال، وتذكرت تلك المنطقة ذات الصخر على الفور: لقد مررنا بها أنا وزيد عصر البارحة، وكانت على مسافة يسيرة من الموضع الذي أقمنا خيمتنا به. أحسست براحة عميقة - بدا لي أنه لم يعد من الصعب الوصول إلى موضع الخيمة إذا سرت في اتجاه الجنوب الغربي كما فعلنا البارحة حين كنا عند تلك الصخرة.

كنا قد قطعنا المسافة أنا وزيد من عند الصخرة إلى مكان خيمتنا في ثلاث ساعات، ولكن بعد أن سرت بالناقة ما يزيد على ثلاث ساعات لم أجد أثراً للخيمة ولا لزيد. هل فقدت الاتجاه مرة أخرى؟ حثثت السير باتجاه الجنوب الغربي الذي حافظت عليه على الدوام، مسترشداً بموضع الشمس، ومرت ساعتان بلا أي أثر للخيمة ولا لزيد. حلَّ عليَّ الظلام، ولم يكن ملائماً مواصلة السير؛ كان من الأفضل أن أستريح حتى يشرق نور النهار. ترجلت عن راحلتي، عقلتها، حاولت أن آكل

حفنة من التمر، إلا أن عطشي كان شديداً فوهبتها للناقة، وتمددت لاصقاً جسمي ببدن الناقة.

نمت نوماً متقطعاً غير مريح، لم يكن استغراقاً في النوم كما لم يكن يقظة واعية، امتلأ نومي بأحلام مزعجة نتيجة لإنهاك بدني، وكان نومي متقطعاً من شدة عطشي الذي تحول إلى نوع من الألم؛ عدا ذلك، كان في الأعماق الداخلية الدفينة التي لا يتوصل المرء إلى كُنهها، والتي يخشى المرء أن يكشف عنها حتى لذاته، خوفٌ هلاميٌ رماديٌ خجول، يتوارى إلا أنك تشعر بوجوده في الأعماق: ما الذي يحدث إذا لم أصل إلى زيد والخيمة وقربة الماء؟ بقدر ما أعلم، لا يوجد ماء، ولا مأوى لبشرٍ على مسيرة أيام في كل الاتجاهات.

عند الفجر نهضت من جديد، أعدت حساباتي أثناء الليل وخمنت أنني ابتعدت كثيراً إلى الجنوب، وأن زيداً والخيمة في مكان ما إلى الشمال والشمال الشرقي من موضعي. وجهت الناقة إلى اتجاه يقع ما بين الشمال والشمال الشرقي وأنا عطشان ومُنهك وجائع، أمضي في خطوط متعرجة حول الكثبان من وادٍ إلى وادٍ، أدور حول الكثبان مرة إلى اليسار ومرة إلى اليمين. عند الظهر توقفت لأستريح، كان لساني قد التصق بحلقي وشعرت به مثل جلد جاف قديم متشقق، وحلقي ينبض بالألم وعيني ملتهبتين، التصقت ببطن الناقة، وسحبت عباءتي ولففت بها وجهي ورأسي، حاولت أن أنام، إلا أن النوم لم يواتني، بعد الظهر بدأت السير من جديد، ولكن في اتجاه أميل إلى الشرق ـ أيقنت أنني مضيت باتجاه الغرب أكثر مما ينبغي ـ إلا أن الخيمة وزيد لم يظهرا في أي أفق.

حلت ليلة جديدة، تحول العطش إلى عذاب وألم مبرح، وبلغ الاشتياق إلى جرعة ماء أشده، رغبة ملحة استحوذت على عقلي وفكري، اختفت وتلاشت أي رغبات وأفكار أخرى عداها. بمجرد أن أضاء الأفق بنور الفجر الوليد، ركبت من جديد حتى طلع الصباح، سرت حتى الظهر، واصلت المسير حتى العصر، ولا جديد يلوح في الآفاق إلا كثبان رملية وحرارة محرقة. كثبان بعد كثبان بلا نهاية، أم ربما كانت تلك هي النهاية؟ نهاية كل الطرق التي سلكتها، ونهاية كل ما أسعى إليه وكل ما تمنيت تحقيقه؟ ونهاية انتمائي إلى شعب لن أصبح غريباً عنه بعد الآن؟ دعوت من أعماقي: «يا رب، لا تجعلني أنتهي بهذه الوسيلة. . .».

في العصر ارتقيت كثيباً عالياً علّي أتمكن من إلقاء نظرة أشمل على الأنحاء من حولي، لمحت بقعة داكنة في الشرق البعيد، كدت أصيح فرحاً، إلا أنني كنت أضعف من القيام بذلك، لا بد أن اللون الداكن هو الخيمة، وزيد، والقربتان الكبيرتان المليئتان بالمياه.

كانت ركبتاي ترتجفان حين ركبت ناقتي. سرت ببطء وحرص في اتجاه البقعة الداكنة حتى لا أفقد الاتجاه، بكل تأكيد ليست البقعة الداكنة إلا الخيمة وزيد. في تلك المرة سرت في خط مستقيم، لا أدور حول التلال والكثبان بل أصعد فوقها وأنحدر عنها وكان ذلك يضاعف المسافة، إلا أن الأمل يحثني أنه خلال ساعتين على أكثر تقدير، سأصل إلى الماء. بعد أن عبرت آخر كثيب، أصبح الهدف أشد وضوحاً أمامي، شددت لجام الناقة، ورحت أتأمل ذلك الشيء الداكن الذي كان يبعد نصف ميل، أوشك قلبي على التوقف: فالشكل الداكن لم يكن إلا

البروز الصخري الجرانيتي الذي مررت به أنا وزيد من ثلاثة أيام ومررت به بمفردي من يومين مضيا. . .

على مدى يومين كنت أهيم في دائرة.

[٤]

حين انزلقت من فوق ظهر الناقة، كانت قوتي قد تلاشت، لم أعبأ بأن أعقل الناقة، كانت هي الأخرى في حالة من الإجهاد تمنعها من الشرود. بكيت، إلا أن عيني الجافتين المتورمتين لم يكن بهما دمعة واحدة.

كم مضى عليَّ من زمنٍ حين بكيت آخر مرة. . . بدت كل حياتي وكأنها ماضٍ سحيق البعد، كل شيء أصبح ماضياً، لا يوجد حاضر. لا يوجد إلا عطش، وحر لافح، وعذاب.

أمضيت حتى الآن ثلاثة أيام بلا قطرة ماء، وخمسة أيام من آخر مرة ارتوت فيها الناقة. قد تتحمل العطش ليوم آخر، أو يومين، أما أنا فلن يمكنني الاحتمال أكثر من ذلك، ربما يصيبني الجنون قبل الموت، وقعت آلام بدني في شراك الرعب الذي ألم بعقلي، كان كل منهما يصب في الآخر وينميه، ذبول وزواء وتمزق. . .

أردت أن أستريح، إلا أنني كنت على يقين من أنني لو استرحت الآن لن أنهض بعد ذلك أبداً، جررت أقدامي المتثاقلة وركبت الناقة، أجبرتها بالضرب والنخس على النهوض، أوشكت على السقوط من فوق السرج حين مالت للأمام وهي تنهض على ساقيها الخلفيتين، وكدت أسقط للخلف حين نهضت على قائمتيها الأماميتين. تحركت

الناقة بتثاقل باتجاه الغرب المنشود، يا للسخرية، ما الذي يعنيه «الغرب المنشود» في هذا البحر المخادع المتماوج من الرمال؟ إلا أنني كنت أتوق إلى الحياة. هكذا مضيت مضنياً متهالكاً، نمضي أنا والناقة متثاقلين بما تبقى فينا في ظلام الليل، لا بد أن الصباح كان قد أشرق حين تهاويت ساقطاً من على السرج. لم تكن السقطة عنيفة؛ كانت الرمال ناعمة فاحتضنتني برفق، ظلت الناقة واقفة بموضعها لفترة، ثم انهارت من عليائها باركة على ركبتيها ثم رقدت إلى جواري مادة عنقها على الرمال. تهاويت أنا في منطقة الظل الضيقة التي كونها جسم الناقة وأنا ملتف بالعباءة محتمياً بها من حرارة الشمس ومن آلام بدني ومن العطش والخوف النابعين من داخلي. لم يعد لديَّ أي قدرة على التفكير بل حتى لم أعد قادراً على إغلاق عيني. كل حركة جفن أضحت كحديد محمَّى يجري على صفحة العين. عطش وحر، عطش وصمت قاتل، صمت جاف يابس يحش كالمنجل ويكفنك في وحدة ويأس، صمت يجعل من تدفق دمائك في أذنيك ومن زفرة الناقة من حين إلى آخر يبدوان بشكل محدد كأنها آخر أصوات تسمعها على الأرض، وأن كلينا، الإنسان والحيوان، آخر كائنات حية، آخر كائنات مشؤومة على الأرض.

في الأعالي من فوقنا، في بحار الحر اللافح في صفحة السماء، حَوَّم نسرُ في بطء دون أن ينقض علينا، كأنه رأس دبوس على صفحة سماء شديدة الشحوب، منطلق بحرية فوق كل الآفاق. . .

تورَّم حلقي، انقبض وضاق وانغلق، كل شهيق أتنفسه كان يغرس آلافاً من الإبر الشائكة المؤلمة من قاعدة لساني حتى طرفه ـ ذلك اللسان

ـ الذي كبر وتضخم، والذي يجب ألا يتحرك، إلا أنه لا يكف عن الحركة المؤلمة، للخلف داخل الحلق، ثم للأمام، كمبرد خشن في تجويف جاف. كان كل ما بداخلي يحترق ويعتصر في قبضة آلام لا تتوقف. لثوان تحولت السماء التي كانت بلون الفولاذ إلى لون أسود حالك. تحركت يدي بلا إرادة مني ومرت على العلامة المثبتة على سرج الناقة، ثم توقفت عن الحركة، موجة إدراك باهت هبت على عقلي الضبابي وبرزت من بينها خمس طلقات موجودة ببندقيتي مع فكرة غائمة عن النهاية السريعة لآلامي التي يمكن أن أتجنبها بضغطة على زنادها. . . همس هاتف بداخلي: أسرع، تناول البندقية قبل أن تفقد القدرة نهائياً على تحريك يدك، ثم شعرت بشفتيّ تنفرجان وتتمتمان بكلمات دون صوت، كلمات تأتي من حشايا وأعماق ميتة في ثنايا عقلي: «لنبلونكم. . سنبلونكم. . »، اكتسبت الكلمات التي كانت غامضة شكلاً وصوتاً وتدفقت في شكل ومعنى. . . في آية من آيات القرآن، راحت تترى على شفتي وفي أعماقي:

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ صدق الله العظيم.

كل ما أحسه أصبح ملتهباً يسبح في ظلام دامس، من وسط الظلام الملتهب أحسست بنسمات هواء بارد، وسمعت حفيفه الحاني ـ حفيف هواء عليل يهب على أشجار حافة جدول ماء، والماء يتدفق في تيار جارٍ بين ضفتين معشبتين، كان المكان هو مسقط رأسي، وأنا مستلق

على الضفة صبياً صغيراً في التاسعة، ألوك سيقان العشب والحشائش وأتطلع إلى أبقار بيضاء ترعى بالقرب مني وفي عيونها دعة وهدوء واستكانة وبراءة الرضا. على مسافة كانت هناك نساء قرويات يعملن في حقل، كانت إحداهن تربط منديلاً أحمر على رأسها وترتدي تنورة زرقاء ذات خطوط عريضة بيضاء، على حافة الماء أشجار صفصاف باسقة، فوق صفحة الماء تطير بطة بيضاء، ترتعش صفحة الماء تحت وقع خفقات أجنحتها، هواء عليل يهب على وجهي كزفير الحيوانات: آه، حقاً، كان زفير حيوان: كانت بقرة بيضاء ببقع بنية قد دنت من وجهي، كانت تمس وجهي برفق، وتزفر من خطمها، شعرت بحركة أقدامها إلى جواري. . .

فتحت عيني، شعرت بزفرة بعيري وحركة أقدامه بجواري. كان قد نهض نصف نهوض على ساقيه الخلفيتين ورقبته ورأسه مرفوعان، اتسعت فتحتا أنفه كأنه يشم رائحة طيبة ظهرت فجأة في هواء الظهيرة، زفر بقوة من جديد، أحسست بتموجات الإثارة التي تجتاح رقبته باتجاه أكتافه وتنساب إلى جسده نصف الناهض.

كنت قد رأيت جمالاً قبل ذلك تزفر وتشخر حين تشم رائحة الماء بعد أيام طويلة في الصحراء، إلا أن هذه المرة لم يكن هناك ماء. . . أم ترى أن هناك ماء؟ رفعت رأسي وتابعت الاتجاه الذي أدارت الناقة رأسها. كان بذلك الاتجاه كثيب رملي قريب واطئ تعلوه صفحة سماء فولاذية خالية ولا صوت من أي اتجاه. ولكن كان هناك صوت، صوت خافت يشبه تردد وتر قيثار بعيد، خافت رقيق وعميق، وكان الصوت آتياً بالكاد من خلف الكثيب، بدا قريباً جداً بعد لحظة. . ولكني أدركت

في جزء من ثانية ـ أنه أبعد من إمكان الوصول إليه، وأبعد من المدى الذي يمكن أن يبلغه صوتي المحبوس في أعماقي. أدركت أن هناك بشراً على مسافة ما، ولكن يستحيل أن أصل إليهم، بل لم يكن بإمكاني أن أقف على قدمي من ضعفي وهزالي، ظهر الصوت أكثر رقة، كان البدو ينشدون أثناء ترحالهم على إيقاع خطو الجمال. حاولت أن أصيح فلم يخرج من حلقي صوت. اصطدمت يدي بطريقة آلية بقربينتي[1] المعلقة بالسرج. . . بعين خيالي رأيت الطلقات الخمس الموجودة بها. . بجهد فائق رحت أحلها. كان حمل طلقة يماثل رفع جبل وطيد، نجحت آخر الأمر، أسندت القربينة على كعبها وأطلقت طلقة رأسية في الهواء. دوت الطلقة في الهواء كالعواء. جذبت الشاحن وأطلقت طلقة ثانية، وأصخت السمع. توقف الغناء الذي كان يشبه القيثار. للحظات لم يكن هناك إلا صمت عميق. فجأة ظهر فوق الكثيب رأس رجل، ثم ظهر كتفاه، ثم رجل آخر إلى جواره. نظر إلى أسفل للحظة، ثم استدارا وصاحا بكلام ما إلى أشخاص في الجانب الآخر من الكثيب، ثم انزلق الرجل المتقدم عادياً إلى أسفل باتجاهي.

بعد لحظات كان هناك تجمع حولي: اثنان، ثلاثة رجال ـ ما هذا الزحام بعد الوحدة الطويلة؟ كانوا يحاولون رفعي، كانت حركتهم مضطربة. شعرت بشيء بارد حارق، شيء مثل الثلج والنار في آن واحد على شفتي، رأيت وجهاً بدوياً ذا لحية ينحني فوقي، كانت أصابعه تعتصر قطعة مبللة من القماش القذر بين شفتي، ويده الأخرى تحمل قربة ماء مفتوحة الفوهة، تحرك فمي غريزياً باتجاه فوهتها، إلا أن

---

(١) القربينة: سلاح ناري قديم يجمع بين البندقية والمسدس. (المترجم).

البدوي دفعني برفق بعيداً عنها. غمس القماش في الماء وقطره قطرات بين شفتي. حاولت أن أضغط فكي لأمنع الماء من الوصول إلى حلقي الملتهب، إلا أن البدوي ضغط فكي لإبعادهما عن بعضهما ثم قطر بعض قطرات أخرى في فمي.. لم يكن ماء: كان رصاصاً مصهوراً. لماذا يفعلون ذلك بي؟ أردت أن أفر من ذلك العذاب، إلا أنهم أعادوني إلى موضعي، أولئك الشياطين... جلدي يحترق. كل بدني يسبح في لهب حارق، هل ينوون قتلي؟ آه لو كانت لدي القوة والقدرة على جذب قربينتي للدفاع عن نفسي، إلا أنهم لا يدعونني أنهض: أمسكوني على الأرض وفتحوا شفتيّ وفمي بالقوة من جديد وسكبوا بعض الماء، وكان لا بد أن أبتلعه - الغرابة الشديدة لم يكن حارقاً كما كان من لحظات مضت، كما راحت الكوفية المبللة التي وضعوها حول رأسي تبعث فيَّ إحساساً بالراحة، وحين صبوا بعض الماء على ملابسي، كان إحساسي بالملابس المبللة يبعث في بدني رعشة لذة ممتعة...

ثم ساد الظلام، كنت أسقط، وأستمر في السقوط في جب عميق، وكانت سرعة سقوطي تجعل الهواء يدوي في أذنيّ، وتحول الدوي إلى ضجيج، ضجيج من سواد وظلام، ظلام، ظلام.

[٥]

ظلام، ظلام، ظلام رقيق بلا صوت، ظلام حنون ودود يضحك مثل غطاء دافئ ويجعلك تظل متدثراً به على الدوام، خليط من الإجهاد والنوم والخمول، إحساس بأنه لا حاجة لك إلى فتح عينيك ولا حتى تحريك إصبع، إلا أنك تجد نفسك تفتح عينيك وتحرك ذراعك، لا

ترى إلا ظلاماً فوقك، ظلاماً منسوجاً تصنعه خيمة بدوية تجدها فوق رأسك، خيمة من شعر الماعز الأسود، خيمة بفتحة أمامية ضيقة يظهر منها جانب من صفحة السماء مرصعة بنجوم لا حصر لها، وتحتها انحناء رقيق لحافة كثيب رملي يتألق تحت ضوء النجوم. . . أظلمت فتحة الخيمة وشغلها جسم رجل يقف بها، كان إطار عباءته الخارجي يرسم صورة محددة على صفحة السماء من خلفه، ثم سمعت صوت زيد يقول في فرح وتعجب: «لقد استيقظ، لقد استيقظ» دنا بوجهه الحازم الجاد من وجهي وأمسك كتفيّ بكفيه، دخل الخيمة رجل آخر، لم أتمكن من رؤيته بوضوح، وبمجرد أن تحدث بتلك اللهجة البطيئة الوقورة عرفت أنه بدوي من قبائل شمار.

من جديد شعرت بعطش حارق، وجذبت بلهفة إناء الحليب الذي مده زيد باتجاهي، تجرعته في نهم ولم أشعر بأي ألم عند البلع، في حين راح زيد يقص عليَّ كيف تصادف أن حطت جماعة البدو رحالها بالقرب منه حين هبت العاصفة، وكيف عادت ناقته الشاردة من تلقاء ذاتها أثناء الليل، ولما قلقوا على مصيري، خرجوا جميعاً للبحث عني، وبدأوا يفقدون الأمل بعد مرور ثلاثة أيام على غيابي، ثم سمعوا صوت الطلقات التي أطلقتها من خلف الكثيب الرملي. . . وعلمت منه أنهم أقاموا الخيمة فوقي في المكان الذي عثروا عليّ فيه وأمروني أن أظل بها طوال الليل والنهار التالي. لم يكن أصدقاؤنا البدو في عجلة من أمرهم، وكانت قربهم مليئة بالمياه، بل إنهم وهبوا ثلاث قرب لناقتي العطشى: كانوا يعلمون أن هناك واحة على مسيرة يوم واحد باتجاه الجنوب، حيث الماء ونباتات الحمدة التي ترعى عليها الإبل.

عاونني زيد في الليل على الخروج من الخيمة، مد لي بطانية فوق الرمال، تمددت فوقها تحت النجوم الساطعة.

* * *

بعد ساعات لا أدري عددها استيقظت على قعقعة أقداح القهوة بيد زيد؛ كانت رائحة القهوة الطازجة مثل حضن امرأة. ناديت: «زيد»، أدهشني بسعادة أن صوتي على الرغم من ضعفه الواضح قد فقد حشرجته: «أعطني بعض القهوة».

رد زيد: «بالله سأفعل يا عمي»، كان قد نشأ على عادة عربية أصيلة في مخاطبة مَن يظهِر لهم التبجيل والاحترام بلقب العم، سواء كان أكبر أو أصغر منه عمراً (بالمناسبة، كنت أصغر من زيد ببضعة أعوام)، استطرد: «سأعطيك قهوة بقدر ما يود قلبك».

احتسيت القهوة، وتطلعت إلى وجه زيد المليء بسعادة رزينة، قلت له: «لماذا يا أخي نعرض أنفسنا لهذه المهالك بدلاً من المكوث في بيوتنا مثل العقلاء من الناس؟

رد زيد: «لأنه لا يليق بنا أن ننتظر في بيوتنا حتى تتيبس أعضاؤنا وتجتاحنا الشيخوخة. عدا ذلك، ألا يموت الناس أيضاً في بيوتهم؟ ألا يحمل الناس مصائرهم حول أعناقهم أينما كانوا؟».

كانت الكلمة التي استعملها زيد للدلالة على المصير هي كلمة قسمة المعروفة في الغرب في شكلها التركي «قسمت». بينما كنت أرتشف قدحاً آخر من القهوة، جال بخاطري أن ذلك التعبير العربي يحتوي على معنى مختلف وأعمق: «وهو ما يكون للمرء فيه نصيب أو حصة».

«مالك فيه نصيب».

أصابت الكلمات وتراً رقيقاً مراوغاً في ذاكرتي. . . وابتسامة عريضة كانت تصاحب ذلك القول حين سمعته أول مرة. . . ابتسامة تبدو من خلف سحابة من الدخان، دخان له رائحة نفاذة، مثل دخان الحشيش: «بلى ـ كان دخان الحشيش، وكانت الابتسامة لواحد من أغرب من رأيت وقابلت، الذي التقيت به بعد مروري بتجربة غريبة وخطيرة: كنت أحاول النجاة من خطر يبدو محيقاً ـ يبدو فقط ـ فهرعت في سباق محموم في فراري منه دون أن أدري إلى أحضان خطر حقيقي كدت ألقى فيه حتفي ـ وقادني كلاهما ـ الخطر المفترض، والخطر الحقيقي الذي كنت غافلاً عنه إلى نجاتي من موت محقق. . .

كان ذلك من ثمانية أعوام مضت، كنت متوجهاً على جواد بصحبة خادمي التتري إبراهيم من شيراز إلى كيرمان جنوب إيران ـ كانت كيرمان مدينة نائية قليلة السكان، وليس لها طريق ممهد يؤدي إليها وتقع على بحيرة نيريس. كنا في الشتاء، وكانت الأرض موحلة غارقة في طين ماء، وكانت المنطقة عبارة عن سهول واسعة ممتدة بلا قرى في أي جوار قريب، يحدها من الجنوب «كوح ـ إي ـ جشنجان» والتي تعني «جبال الجياع» وفي اتجاه الشمال تتلاشى الأرض متحولة إلى مستنقعات تحيط بالبحيرة. في عصر ذلك اليوم درنا حول تل منعزل، فبرزت البحيرة فجأة أمامنا: سطح هائل من المياه الساكنة الراكدة خضراء اللون، بلا صوت، وبلا نفس، وبلا حياة، مياهها شديدة الملوحة حتى إنه لا يمكن لأي نوع من الأسماك أو الأحياء المائية أن يحيا بها. أما سواحل البحيرة فلم يكن عليها إلا بعض الشجيرات المتأقزمة والأعشاب

الصحراوية، فلم تكن التربة الملحية المجاورة لشواطىء البحيرة تسمح لأي نوع من النباتات بالنمو. كان سطح الأرض مغطى بجليد مختلط بالطين وعلى بعد مائتي ياردة من موضعنا، ظهر أثر ممر ضيق يفصل البحيرة عن المستنقعات ويسلكه المسافرون.

حل المساء، ولم نصل بعد إلى «خان ـ إي ـ خيت»، وهي استراحة على الطريق يقضي فيها المسافرون الليل. كان علينا أن نصل إلى ذلك الخان بأي ثمن؛ فلم يكن بتلك الأصقاع أي مأوى آخر، كما كان قربنا من المستنقعات يجعل من استمرارنا في السير ليلاً في غاية الخطورة. وبالفعل، كان بعض أهل المنطقة قد حذرونا في الصباح ألا نسافر وحدنا بذلك الطريق، فأي خطوة غير محسوبة قد تقودنا إلى الغرق في المستنقعات. عدا ذلك، كانت خيولنا قد أصبحت في غاية الإجهاد بعد سير طويل مرهق على أرض رخوة، وكانت لا بد أن تستريح هي الأخرى وتقتات لتسترد عافيتها.

مع حلول الظلام تساقط مطر غزير، مضينا راكبين مبللين ومكتئبين وصامتين، معتمدين على غريزة الخيل في معرفة الاتجاهات أكثر من اعتمادنا على أبصارنا التي لم تكن تميز شيئاً في ذلك الظلام الدامس. مرت ساعات ولم يظهر أي أثر للخان. ربما نكون قد تجاوزناها في الظلام ونقضي الليل في العراء تحت وابل منهمر من الأمطار التي كانت تزداد ساعة بعد أخرى... خاضت حوافر الخيل في المياه، والتصقت ملابسنا بأبداننا بعد أن تشبعت بالمياه. بدت لنا أشكال سوداء وداكنة في ظلام الليل تحت وشاح من سيل مياه الأمطار، ارتجفنا حتى العظام، وجعلنا إدراكنا أن المستنقعات قريبة منا، نرتعد أكثر خوفاً من السقوط

فيها. فإذا انحرفت الجياد في أي ثانية عن طريقها كما قال لنا أهل المنطقة في الصباح، إذن «فليرحمك الله».

كنت أقود في المقدمة، وإبراهيم من خلفي ربما على مسافة عشر خطوات. مرة بعد أخرى راح ذلك الخاطر يطوف بذهني: هل تجاوزنا خان ـ إي ـ خيت في هذا الظلام الدامس؟ يا له من احتمال مرعب، أن يفرض علينا قضاء الليل تحت تلك الأمطار الباردة؛ وإن تقدمنا أكثر من ذلك هناك احتمال سقوطنا في المستنقعات.

فجأة، سمعت صوتاً ناعماً كأنه خوض حوافر الجواد في طين أملس طري؛ وأحسست بجوادي وكأنه ينزلق على وحل لزج، وغطس قليلاً، ورفع إحدى قائمتيه في خوف وفزع، لينزلق من جديد، اخترق الاحتمال ذهني في قسوة: المستنقع! جذبت اللجام بشدة وشددت كعبي بقوة إلى بطن الحصان الذي رفع رأسه عالياً وبدأ في جذب قوائمه في غضب وتخبط. انبثق العرق البارد من كل مسام جسمي. كانت ليلة حالكة الظلام حتى إنني لم أتمكن من رؤية كفي، في غمرة تقلصات جسد حصاني المنتفضة أحسست أنه يناضل نضالاً يائساً ضد الغوص في أعماق المستنقع. وبلا تفكير جذبت السوط المعلق بجانب الحصان ورحت أسوطه على قائمتيه الخلفيتين بكل ما أوتيت من قوة لأدفعه لبذل أقصى ما لديه من قوة ـ فإن توقف عن المسير لا بد أن تبتلعه مياه المستنقع وأنا معه بالطبع إلى أعمق أعماق بطن أوحال المستنقع. . . قفز الجواد الذي لم يتعود على ذلك الضرب المجنون ـ وكان من خيول كاشجاي التي تتميز بالسرعة والقوة ـ على قائمتيه الخلفيتين، إلى أرض صلبة استقرت عليها كل قوائمه من جديد، قفز وانزلق، وجر نفسه

للأمام من جديد، لينزلق مرة أخرى وطوال الوقت كانت قوائمه تقاوم بيأس ذلك الغرين اللزج في شبه سيولة.

اندفع شيء ما لم أتبينه في الظلام بقوة فوق رأسي مصدراً حفيفاً... رفعت ذراعي لحماية رأسي فتلقيت عليه ضربة مؤلمة لم أعرف مصدرها... من أين؟ تراكمت الأفكار والاحتمالات بسرعة فوق بعضها فشتت فكري... من بين أصوات تساقط قطرات المطر ولهاث الجواد استطعت أن أميز لثوان بدت كأنها دهور، صوت شفط المستنقع لنا... أيقنت أن النهاية قد حانت. خلصت ساقي من الرِكاب استعداداً للقفز من فوق صهوة الجواد لأجرب حظي في النجاة بنفسي ـ ربما أستطيع النجاة لو تركت جسمي ممدداً على صفحة المستنقع ـ على حين غرة وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة صدر عن حوافر الجواد صوت ارتطامها بأرض صلبة، مرة، مرتين... بزفرة راحة عميقة، جذبت العنان وأوقفت الجواد المرتعد، لقد نجونا...

في تلك اللحظة فقط تذكرت مرافقي في السفر وناديته في الظلام وأنا أفيض رعباً: «إبراهيم»، ولم أسمع رداً. وغمرت برودة قاسية أعماق قلبي، ناديت من جديد: «إبراهيم» ـ لم يكن حولي إلا ظلاماً دامس وسيل أمطار منهمر. ألم يتمكن من النجاة؟ بصوت متحشرج من الخوف ناديت: «إبراهيم».

ثم سمعت ما لم أصدقه في البداية، فقد أتاني صوته من مسافة بعيدة إلى الخلف: «هنا.. أنا هنا».

وهنا وقف عقلي عند تفسير لكيفية انفصالنا بمثل هذه المسافة الطويلة. ناديت من جديد: «إبراهيم».

أتاني صوته من جديد: «هنا. . . هنا» ـ اتجهت إلى مصدر الصوت بعد أن ترجلت عن جوادي وسحبته من عنانه مختبراً بحرص كل بوصة من الأرض، سرت ببطء متناه وعناية شديدة صوب الصوت البعيد: حتى وصلت إلى إبراهيم الجالس بهدوء فوق سرج جواده.

بادرته: «ما الذي حدث لك يا إبراهيم؟ ألم تنزلق أنت أيضاً إلى المستنقع؟».

رد متسائلاً: «مستنقع؟! كلا ـ لقد وقفت في موضعي حين وجدتك تركض بالجواد فجأة مبتعداً عني».

أركض مبتعداً؟. . فهمت سر اللغز: لم يكن كل كفاحي للنجاة من المستنقع إلا ثمرة تخيلاتي. لقد خطا جوادي داخل بقعة طينية خلت عندها أننا سقطنا في المستنقع، فسطت الجواد وجعلته يركض بجنون، وخدعني الظلام حين فسرت ركض الجواد بأنه صراع يائس للنجاة من المستنقع ورحت أركض به في الظلام، غير مدرك لوجود الأشجار المتأقزمة المنتشرة بالوادي. . . تلك الأشجار، لا المستنقع، كانت هي الخطر الحقيقي الذي كاد يوديبحياتي أثناء عدوي بالجواد: وفرع الشجرة الذي ضرب ذراعي كان من الممكن أن يكون فرعاً أضخم يحطم رأسي أثناء عدوي المجنون بالجواد في الظلام الدامس وبذلك أصل برحلتي إلى نهاية محتومة في لحد بلا شاهد في جنوب إيران. . .

كنت حانقاً على نفسي، وتضاعف حنقي لأننا فقدنا الإحساس بالاتجاه بعد ركضي المجنون بالجواد وأصبح من المستحيل الآن أن نعثر على الممر الذي كنا نسير به قبل ذلك، أي أنه يستحيل الآن أن نعثر على الخان. . . مرة أخرى كنت على خطأ. . .

فقد ترجل إبراهيم عن جواده ليجس الأرض بيده ويفحصها ربما يعثر على أثر للممر الذي كنا نسير عليه؛ وبينما كان يزحف بتلك الطريقة على يديه وركبتيه، اصطدم رأسه فجأة بجدار ـ كان الجدار هو الجانب المظلم من خان ـ إي ـ خيت.

لو لم أكن قد تخيلت أني قد سقطت في المستنقع، ربما كنا قد سرنا متجاوزين الخان، وكنا ضعنا بالفعل في المستنقع الذي كان على بُعد مائتي ياردة فقط من الخان كما علمت بعد ذلك. .

كان الخان أحد المباني القديمة من عصر شاه عباس الأعظم ـ كان مكوناً من حجرات عظيمة الاتساع مشيدة من الحجارة وممرات مسقوفة بينها، كانت الأبواب قد أصبحت متهالكة والمدافئ متداعية. في أماكن متفرقة لا تزال توجد آثار نقوش فنية قديمة فوق أقواس الأبواب وخزف شققه القدم؛ أما الحجرات القليلة الصالحة للإقامة فقد كانت مفروشة بالقش المخلوط بروث الخيول الجاف. حين دخلنا أنا وإبراهيم القاعة الرئيسية، وجدنا المشرف على الخان يجلس بجوار نار مشتعلة على الأرض، إلى جواره كان هناك رجل حافي القدمين ضئيل الحجم يرتدي معطفاً بالياً كثير الرقع. حين رأيانا نهضا، وانحنى الرجل الضئيل برزانة أقرب إلى تمثيل المسارح وهو يضع راحة يده اليمنى فوق موضع قلبه. كان معطفه مرقعاً بقطع كثيرة من أقمشة مختلفة الألوان والأنواع؛ كان قذراً، أشعث، إلا أن عينيه تميزتا بحيوية فائقة في وجه هادئ مرتخي الملامح.

غادر المشرف القاعة ليخدم خيلنا ويقدم لها الغذاء، في حين

خلعت أنا معطفي المشبع بماء الأمطار، بينما انهمك إبراهيم على الفور في إعداد الشاي على النار المشتعلة. وبتنازل النبلاء والعظماء الذين لا يتنازلون عن كرامتهم ومهابتهم حين يجاملون من هم دونهم تقبل الرجل الضئيل قدحاً من الشاي قدمه إبراهيم إليه.

وبدون أن تظهر عليه أية أمارات لفضول زائد، وبطريقة من يبدأ حواراً في إحدى قاعات الاستقبال الرسمية، استدار الرجل الضئيل نحوي متسائلاً: «جنابك إنجليزي؟».

أجبته: «كلا، أنا نمسوي».

سألني: «أيعد من غير اللائق إن سألتك أهو عمل الذي دفعك إلى المجيء إلى هذه الأصقاع؟».

أجبته: «أنا مراسل للصحف، وأنتقل في أنحاء بلدكم لأصفها لأبناء شعبي، إنهم يحبون أن يعرفوا كيف تعيش الشعوب الأخرى، وبماذا يفكرون».

هز رأسه وعلت شفتيه ابتسامة موافقة واستغرق في صمته. بعد فترة تناول وعاء تدخين فخاري وأخرج قصبة من طيات معطفه البالي، وثبت القصبة إلى الوعاء الفخاري المليء بالماء، ثم سحق شيئاً في راحة يده خمنت أنه طمباق ووضعه بتأن وعناية فائقة على حجر الحقة كأنه أغلى من الذهب، ثم غطاه بالجمر المشتعل. وبمجهود واضح راح يشفط الدخان من القصبة، فيسعل بعنف ويبصق مخاطاً من حلقه، كان الماء داخل الحقة يقرقر برتابة حين بدأت رائحة نفاذة تملأ أرجاء القاعة فتعرفت على الرائحة في الحال: كانت رائحة القنب الهندي، الحشيش ـ ففهمت سر سلوك الرجل الغريب، لقد كان حشاشاً مدمناً. لم تكن

عيناه غائمتين كما يحدث لعيون مدمني الأفيون[1]؛ فمدمنو الأفيون تظهر عليهم معالم الانفصال عن الواقع وعما يحيط بهم، كما تبدو عليهم حدة غير نابعة من ذواتهم، ويحدقون إلى معالم بعيدة لا يدركها غيرهم وغير موجودة في العالم المحيط بهم.

تطلعت إليه في صمت، حين انتهى من التدخين، سألني:

«ألن تجربه؟».

رفضت شاكراً، كنت قد جربت الأفيون مرة أو مرتين (دون الشعور بأي متعة)، إلا أن تجربة الحشيش بدت لي شاذة وغير مغرية. ضحك الحشاش بلا صوت وتفحصني بعينيه نصف المغمضتين وتعبير ساخر على وجهه، وقال:

«أنا أعرف ما تفكر به يا صديقي المحترم، أنت تعتقد أن الحشيش من أعمال الشيطان وتخشى تجربته. هذا كلام فارغ. الحشيش هبة من عند الله... وهو ممتاز جداً خاصة للعقل. أنظر إليّ يا حضرة، دعني أفسر لك الأمر. الأفيون شر - لا يوجد شك في ذلك - فهو يوقظ لدى المرء دوافع وتطلعات إلى أشياء مستحيلة، ويجعل أحلامه مليئة بالأطماع، يجعله مثل الحيوانات. أما الحشيش فيكبت كل المطامع ويجعل المرء لامبالياً بكل ما هو موجود في هذا العالم. وهنا مربط الفرس، إنه يجعل المرء راضياً بما قسم له. إن وضعت جبلاً من الذهب أمام حشاش - ليس فقط أثناء تدخينه الحشيش، بل في أي وقت - فإنك لا تجده يحرك إصبعاً واحدة تجاه ذلك الذهب. أما الأفيون،

---

(١) مادة مخدرة تستخرج من زهرة نبات الخشخاش (المترجم).

فإنه يحول البشر إلى ضعفاء وجبناء، في حين يقتل الحشيش كل المخاوف ويبعث في المرء شجاعة مثل شجاعة الأسود. لو طلبت من حشاش أن يغوص في أعماق بحيرة ثلجية في الشتاء، فإنه سيقفز بكل بساطة إلى أعماق البحيرة وهو يضحك في سعادة... لأنه تعلم أن خلاصه من أطماعه يخلصه أيضاً من المخاوف ـ ومن يتجاوز الخوف فإنه يتجاوز أيضاً المخاطر وينجو منها، مؤمناً أن ما يقع له من أحداث ليست إلا نصيبه...».

ضحك في حبور من جديد تلك الضحكة القصيرة التي تهز كل بدنه، ضحكة بلا صوت، تجمع بين السخرية والحكمة، ثم توقف عن الضحك وكشر تكشيرة ساخرة خلف سحابات الدخان، وعيناه اللامعتان مثبتتان على هدف ثابت بعيد غير مرئي.

«نصيبي من الحياة»... رحت أفكر في تلك العبارة وأنا مستلق تحت صفحة السماء المرصعة بنجوم الليل العربية الودود. «أنا ـ هذه الحزمة من اللحم والعظم والمشاعر والإدراك ـ خلقت في مسار هذا الوجود، وحين أكون داخل أي حدث اكتشف أن «الخطر» ليس إلا وهماً: وأن ذلك الخطر لا يستطيع أن «يقهر» إرادتي، وأن كل ما يحدث ويقع لي ليس إلا بعضاً من التيار المكون للحياة والذي يحتضن كل الوجود الذي أنا بعض منه. ألا يمكن على سبيل المثال أن يكون الخطر والأمان، والموت والسعادة، والمصير والتحقق، ليست كلها إلا وجوهاً متباينة لتلك الحزمة الضئيلة من اللحم والعظم التي هي أنا؟ يا لها من حرية مطلقة بلا حدود، يا الله، ما أعظم هباتك للإنسان...».

كان لا بد أن أغلق عيني، فقد كانت السعادة التي أشعر بها في تلك

اللحظة حادة وقوية إلى درجة الإيلام، مسدتني أجنحة السعادة القادمة من بعيد مع أنفاس الرياح التي تحنو على وجهي.

[٦]

دبت العافية في بدني ما مكنني من الجلوس، وأحضر لي زيد أحد سروج الإبل لأتكئ عليه. قال وهو يضعه خلفي: «استرح يا عمي، السعادة تملأ قلبي حين أراك بخير بعدما عددتك بين الأموات». قلت له: «أنت صديق مخلص يا زيد. لا أدري ماذا كنت أفعل بدونك كل تلك السنوات لو لم تستجب لرسالتي وتحضر إليّ من العراق». قال: «لم أندم أبداً على تلك الأعوام التي قضيتها معك يا عمي. ما زلت أذكر اليوم الذي تلقيت فيه رسالتك، مرَّ على ذلك خمسة أعوام حين أرسلت تطلب مني القدوم إلى مكة... كان مجرد التفكير في رؤيتك من جديد يملأني بالسعادة، خاصة أن الله أنعم عليك في ذلك الوقت بنعمة الإسلام. كنت في ذلك الوقت قد تزوجت من فتاة عراقية، عذراء، أبهجني حبها فوق ما يطيق عقلي، يا للفتيات العراقيات... لهن خصور دقيقة ونهود صلبة مثل هذا»، وقبض بكفه على كرة السرج الصلبة وهو يبتسم للذكرى وأردف: «من الصعب أن تترك تلك الأحضان وتمضي بعيداً... لذلك قلت لنفسي... سأذهب إلى مكة ولكن ليس على الفور، بعد بضعة أسابيع أخرى، إلا أن الأسابيع مرت، وتلتها شهور. وعلى الرغم من أني قد طلقت تلك المرأة سريعاً ـ بنت الكلب، كانت عينها على ابن عمها ـ فإنني لم أستطع ترك العمل مع عجايل العراق، ولا أن أترك بسهولة أصدقائي الذين عرفتهم هناك ومباهج بغداد والبصرة، كنت دائماً أقول لنفسي: ليس الآن، بعد فترة

أخرى... وفي يوم كنت أركب ناقتي مبتعداً عن معسكرنا بعد أن قبضت راتب الشهر المنقضي، وكنت أفكر في قضاء الليل لدى أصدقائي، في تلك اللحظة تذكرتك وتذكرت ما قلته في رسالتك عن موت زوجتك الغالية ـ رحمها الله وتخيلت كم تشعر بالوحدة بعد موتها، وفي لحظة قررت العودة إلى مكة، وفي نفس اللحظة مددت يدي ونزعت النجمة العراقية من على عقالي وقذفتها بعيداً، ودون أن أعود إلى معسكري لأجمع أغراضي وحوائجي أدرت وجه الناقة باتجاه صحراء النفود، وانطلقت إلى نجد، لم أتوقف إلا عند أول قرية لأبتاع قربة ماء وبعض المؤن، لم أتوقف بعد ذلك إلا في مكة بعد أربعة أسابيع من انطلاقي...».

قلت: «هل تذكر يا زيد أول رحلة لنا معاً في أعماق الجزيرة العربية باتجاه الجنوب قاصدين وادي بيشا حيث بساتين النخل وحقول القمح، ثم إلى صحراء رانيا التي لم يطأها أجنبي قبلي؟».

قال زيد: «كيف أنساها يا عمي؟ وجدتك مصراً على زيارة الربع الخالي في المنطقة التي يدفع فيها الجن الرمال إلى الغناء تحت نار الشمس... وما رأيك بالبدو الذين يعيشون على حدود الربع الخالي الذين لم يروا زجاجاً في حياتهم حتى أنهم ظنوا أن زجاج نظارتك مصنوع من الماء المجمد؟ كانوا هم أيضاً مثل الجن ذاته، يقرأون الأثر على الرمال كما تقرأ الشعوب الأخرى الكتب، ويقرأون على صفحة السماء والهواء ما ينبئهم بالعاصفة قبل هبوبها.. أتذكر يا عمي ذلك الدليل الذي استأجرناه من رانيا، ذلك البدوي الشرير الذي كدت ترديه قتيلاً بالرصاص حين أراد أن يتركنا وسط الصحراء؟ كان في شدة غيظه من آلة التصوير التي كانت معك».

ضحكنا من أعماقنا من ذكرى تلك المغامرة التي مرت عليها أعوام كثيرة. في حينها لم يكن فيها ما يبعث على الضحك. كنا على مسيرة ستة أو سبعة أيام جنوب الرياض حين تلبست الدليل حالة من الضيق والغضب بل والرفض حين شرحت له وظيفة آلة التصوير التي أحملها، وأنها تصور ما أريد تصويره.. كان بدوياً متعصباً ينتمي إلى تنظيم الإخوان في الريان. قرر أن يتركنا في الصحراء؛ لأن معنا آلة مكروهة تصنع صوراً والصور محرمة دينياً.

كان لا يهمني فراقه لو لم نكن في منطقة مجهولة لي ولزيد، فإن تركنا بمفردنا فإننا لا بد هالكين في تلك الصحراء. حاولت في البداية أن أقنع ذلك البدوي الشرير أنه لا ضرر من آلة التصوير ولكن بلا جدوى، لم تفلح معه كل وسائل الإقناع وأدار ناقته باتجاه رانيا ناوياً تركنا وحدنا بالصحراء. قلت له بحزم إن تركنا فإن ذلك سيكلفه حياته؛ لأنه إن تركنا فإنما يتركنا للموت في الصحراء. لم يهتم بما قلت وهمز ناقته للمسير، صوبت بندقيتي نحوه، وأنذرته بأني سأطلق النار عليه إن غادرنا وكنت مصمماً على فعل ذلك، وكان ذلك كافياً لأن يختار بين سلامته الشخصية وسلامته الروحية، وبعد قليل من التمنع وافق أن يصحبنا فقط إلى أول منطقة مأهولة على مسيرة ثلاثة أيام، أو نذهب إلى القاضي الشرعي لنحتكم إليه في شرعية آلة التصوير.

جردناه أنا وزيد من كل سلاح معه، وتناوبنا حراسته أثناء الليل حتى لا يهرب... بعد عدة أيام وصلنا إلى القويعية وتوجهنا إلى قاضيها، في البداية أصدر حكماً مؤيداً للدليل؛ لأنه كما قال: «من العار والحرام صنع صور للأحياء» (قياساً على فهم خاطئ لحديث للرسول(ص) - من

أن رسم الكائنات الحية حرام، ولا تحتوي الشريعة الإسلامية على أي تحريم في هذا الشأن). عند ذلك أخرجت للقاضي الخطاب المفتوح الموجه من الملك «**إلى كل أمراء البر وكل من يطّلع على هذا الخطاب**» ـ استطال وجه القاضي أكثر وأكثر وهو يتابع القراءة: «**محمد أسد ضيفنا وصديقنا وعزيز علينا، كل من يظهر وداً له فقد أظهر وداً لنا، وكل من أظهر عداوة تجاهه فإنما يظهر عداوته لنا**». كان لخطاب ابن سعود وختمه الذي ذيل به الخطاب فعل السحر على القاضي المتشدد، فحكم بعد قراءة الخطاب بأنه «تحت ظروف معينة، يجوز عمل صور. . .» إلا أننا تركنا الدليل المتعصب يمضي إلى حاله، واستأجرنا دليلاً آخر ليقودنا إلى الرياض.

قال زيد: «هل تذكر تلك الأيام في الرياض يا عمي، حين كنا ضيوفاً على الملك، لم يعجبك في ذلك الحين امتلاء مرابض الخيل القديمة بالسيارات الجديدة اللامعة. . . وكرم الملك. . .».

قلت له: «هل تذكر أنت يوم أرسلنا الملك في مهمة لاستجلاء سر تمويل تمرد البدو، وكيف رحلنا على مدى ليال عديدة، ثم تسللنا إلى الكويت، حتى توصلنا إلى سر الريالات الفضية الجديدة والبنادق التي كانت ترد إلى المتمردين عبر البحر؟».

رد زيد: «وتلك المهمة الأخرى يا عمي التي كلفك بها سيد أحمد أطال الله عمره حين أرسلك إلى طبرق ـ وكيف عبرنا البحر سراً في دهو[1] ـ وكيف واصلنا سفرنا حتى الجبل الأخضر في ليبيا، متخفين من

(١) الدهو: مركب شراعي مألوف في سواحل الجزيرة العربية. (المترجم).

رقابة الإيطاليين لعنة الله عليهم، وكيف التحقنا بالمجاهدين تحت زعامة عمر المختار؟ تلك الأيام المثيرة».

هكذا رحنا نسترجع الذكريات ونذكر بعضنا بأيام كثيرة مضت، أيام بلا حصر قضيناها معاً، وراحت عبارة «هل تتذكر»، و«هل تتذكر» تتأرجح فيما بيننا وتوغل بنا في أعماق الليل، حتى بدأت جمرات الأخشاب المشتعلة تخمد نارها، لم يبق منها إلا توهج جمرات بعضها، ووجه زيد يتقهقر إلى ظلال تدريجية مع انطفاء لهب الأخشاب حتى غاص وجهه في ظلام دامس كأنه أصبح ذكرى في نظري الذي أثقله النعاس.

في صمت الصحراء الذي تنيره النجوم، مع هبات نسيم عليل يداعب سطح الرمال الناعمة، تتداخل صور الماضي والحاضر، ثم تنفصل متداعية واحدة إثر أخرى مع أصوات استغاثة عجيبة، عادت الذاكرة عبر الأعوام إلى أعوامي الأولى بالجزيرة العربية، وأول حج أؤديه في مكة، وإلى عتمة وكآبة أحاطت بتلك الأيام المبكرة: إلى وفاة السيدة التي أحببتها كما لم أحب أي امرأة أخرى إلى اليوم، والتي ترقد الآن تحت تراب مدينة مكة، لا يميز موضع قبرها إلا حجر بسيط دون كتابة عليه، والذي كان نهاية طريقها وبداية طريقي: نهاية وبداية، النداء والصدى تعانقا بغرابة في الوادي الصخري لمكة.

«زيد، هل هناك مزيد من القهوة؟».

«بأمرك يا عمي».

رفع في إناة إبريق القهوة النحاسي بيده اليسرى وفنجانين صغيرين بلا مقبض يرتطمان فيصدران رنيناً بيده اليمنى ـ واحداً لي والآخر له ـ

وصب بعض القهوة في فنجاني وقدمه إليّ. من تحت الظلال التي تلقيها كوفيته على وجهه راحت عيناه ترعيانني في يقظة وهدوء، كما لو كان الأمر أخطر كثيراً من احتساء فنجان قهوة. تلكما العينان ـ العميقتان بأهدابهما الطويلة ـ ذات نظرات صارمة وحازمة يبدو فيها الحزن العميق في حالات السكون، إلا أنها مستعدة على الدوام إلى التحول إلى مرح وسرور مفاجئ ـ تلكما العينان تقرأ فيهما حياة مئات الأجيال التي عاشت في البوادي والصحاري في حرية: تلكما العينان لرجل انحدر من أسلاف لم يستعبدوا من شعوب أخرى كما لم يستعبدوا شعوباً أخرى.

أجمل ما فيه خفة حركته: هادئة، واعية بإيقاعها، في غير عجلة وبلا تكاسل: اكتمال مع اقتصاد وقسط يذكرك بتكامل وتناغم الفرق الموسيقية. لا ترى هذا النمط من الحركة إلا بين البدو. انعكس اتساع الصحراء عليهم وعلى حركتهم. وباستثناء بعض المدن والقرى لم تتأثر الحياة في الجزيرة العربية بالبشر بقدر ما أثرت الجزيرة العربية بقسوة صحاريها وصرامتها في البشر وأجبرتهم على سلوكيات معينة واختزال كل الأفعال التي تمليها عليهم رغباتهم، واختزال الضرورات الخارجية إلى حدها الأدنى، حتى تصبح محددة تماماً وأساسية ولازمة لاستمرار الحياة، تلك الحياة التي ظلت على ما هي عليه لأجيال طويلة متعاقبة واكتسبت بمر الزمن بريق ولمعان الحدة الناعمة للبلورات: تلك البساطة الموروثة في السلوكيات والأفعال واضحة في إيماءاتهم وحركاتهم وفي سلوكهم ومواقفهم إزاء الحياة.

ـ «قل لي يا زيد، إلى أين نتوجه غداً؟».

نظر إلي وابتسامة تعلو شفتيه: «كيف تسأل يا عمي، إلى تايما بالطبع..؟».

قلت: «لا يا أخي، كنت أريد الذهاب إلى تايما، ولكني لم أعد أشعر بأي رغبة في ذلك. سنتوجه إلى مكة..».

الفصل الثاني

بداية الطريق

كان الوقت قُرب المساء، وكانت قد مرت بضعة أيام بعد مواجهة تجربة الموت عطشاً، وصلنا إلى واحة صغيرة بسيطة قررنا أنا وزيد أن نبيت ليلتنا. بدت التلال الرملية الشرقية تحت أشعة الشمس الغاربة كأنها تلال من عقيق ذات ألوان زاهية مثل ألوان قوس قزح، وظلال متباينة كأنها مرسومة من ألوان الباستيل ومن ظلال الضوء. كانت الألوان المتباينة في غاية الرقة حتى بدت وكأن النظر إليها يدميها، ثم يتتابع تدفق الظلال التي تتحول إلى غبشة من الإعتام المتزايد. ومع الإعتام المتزايد كان ما زال بالإمكان تمييز التيجان المريشة لأشجار النخيل، والمنازل الواطئة التي تكاد تتوارى خلفها، البيوت وأسوار بساتين النخيل مشيدة من الطين المجفف، البكرة الخشبية التي تعتلي فوهة البئر تصدر صريراً كالترانيم.

[١]

أنخنا الإبل على مسافة من القرية تحت أشجار النخيل، أنزلنا مخل الأمتعة المعلقة على جوانبها، كما حللنا السروج ورفعناها عن الجمال لتبترد. تجمع حولنا بعض الأطفال والصبية في فضول، عرض واحد

منهم ـ له عينان واسعتان ويرتدي ملابس رثة ـ على زيد أن يريه مكاناً به أغصان جافة تصلح لإشعالها؛ وبينما ذهب معه زيد لجلب الأغصان، أخذت الإبل إلى البئر لأسقيها. حين أدليت الدلو الجلدي إلى أعماق البئر ثم رفعته مليئاً بالمياه، أقبلت بعض نساء القرية وهن يحملن جراراً نحاسية وفخارية لملئها بالماء، كن يحملن الجرار على رؤوسهن في اتزان ورشاقة دون أن يسندنها بأيديهن التي امتدت على الجوانب لحفظ توازن الجرار حاملات أطراف أغطية رؤوسهن باليد الأخرى فبدون مثل طيور تخفق بأجنحتها.

قلن: «السلام عليكم أيها المسافر».

رددت: «عليكن السلام ورحمة الله».

كانت ثيابهن سوداء، ووجوهن سافرة ـ كما هو حال نساء البدو والقرى في تلك المنطقة من الجزيرة ـ فبدت عيونهن سوداء واسعة. وبالرغم من استقرارهن بالواحات من أجيال طويلة، فإنهن لم يفقدن صفات الأسلاف التي تمتد إلى حياة البرية القبلية. في اقتصاد الحركة، لم يخجلن أن يمددن أيديهن ويتناولن حبل الدلو من يدي في صمت ويسحبن الماء من البئر لسقي إبلي ـ تماماً كما حدث من أربعة آلاف عام مضت، كما فعلت أسلافهن مع خادم إبراهيم(عليه السلام) حين أتى من أرض كنعان للبحث عن زوجة لإسحاق(عليه السلام) ابن سيده بين بنات أقاربه في بادان ـ آرام. تذكر التوراة ذلك[١]:

وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء وقت خروج المستقيات. وقال أيها الرب إله سيدي إبراهيم يسّر لي اليوم واصنع لطفاً

---

(١) سفر التكوين: ١٠ ـ ٢٤: ٢٠ (المترجم).

إلى سيدي إبراهيم. ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء. فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلي جرتك لأشرب فتقول إشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً هي التي عينتها لعبدك إسحق. وبها أعلم أنك صنعت لطفاً إلى سيدي.

وإذا كان لم يفرغ بعد من الكلام إذا رفقة التي ولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي إبراهيم خارجة وجرتها على كتفها. وكانت الفتاة حسنة المظهر جداً وعذراء لم يعرفها رجل، فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت. فركض العبد للقائها وقال اسقيني قليل ماء من جرتك. فقالت اشرب يا سيدي. وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته. ولما فرغت من سقيه قالت أستقي لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب. فأسرعت وأفرغت جرتها في المسقاة وركضت أيضاً إلى البئر لتستقي. فاستقت لكل جماله.

طفت القصة التوراتية على سطح أفكاري وأنا واقف بناقتي أمام بئر واحة صغيرة في قلب صحراء النفود العظمى وتأملت المرأة التي تناولت حبل الدلو من يدي وسحبت الماء من البئر لتسقي جمالي. كانت منطقة باداان ـ آرام ـ بعيدة وكذا عصر إبراهيم(عليه السلام): إن تلك النسوة في تلك المنطقة، وما أثاره سلوكهن من تذكر أحداث مرت عليها أربعة آلاف عام، جعلن ما مضى من قرون كأنها أحداث الأمس القريب.

«فليبارك الله أيديكن يا أخواتي، وليحفظكن».

رددن: «وأنت أيضاً يحفظك الله أيها المرتحل».

واستدرن إلى جرارهن فملأنها بالماء وعدن إلى بيوتهن.

* * *

بعد عودتي إلى موضع أمتعتنا تحت النخيل، أنخت الإبل وعقلتها حتى لا تشرد في الصحراء أثناء الليل. كان زيد قد أشعل النار وانهمك في إعداد القهوة. كان الماء يغلي في إبريق القهوة ذي البزباز المنحني على شكل قوس، وكان هناك إبريق أصغر جاهزاً تحت كوع زيد. في يده اليسرى أمسك بمقبض ملعقة معدنية ضخمة يبلغ طول مقبضها نحو قدمين يحمص بها على النار قبضة من حبوب القهوة، في الجزيرة العربية تصنع القهوة طازجة كل مرة. بمجرد أن يغمق لون حبوب القهوة، يضعها في هاون نحاسي ويطحنها. ثم يصب الماء المغلي من الإبريق الكبير إلى الإبريق الصغير، ويفرغ فيه البن المطحون ويضعه على حافة النار حتى تنضج ببطء. حين تنضج القهوة يضيف إليها عدداً من حبوب الهيل التي تزيد القهوة مرارة؛ لأنه، طبقاً للقول الشائع في الجزيرة العربية، لا بد أن تكون القهوة الجيدة «مرة كالموت ملتهبة كالعشق».

لم أكن مهيأً لتناول قهوتي باستمتاع، كنت مجهداً ولزجاً من العرق الذي غمر بدني بعد ساعات طويلة فوق سرج الناقة، أما ملابسي فقد كانت متسخة ولزجة أيضاً تلتصق ببدني، كنت أتلهف إلى الاستحمام، فعدت سائراً إلى البئر بين أشجار النخيل.

كان الظلام قد أرخى سدله وبساتين النخيل مهجورة في ذلك الوقت من الليل؛ لم يكن هناك على البعد حيث تقع البيوت إلا كلب ينبح. خلعت ملابسي ونزلت إلى البئر، أمسكت بالأحجار الناتئة وارتكزت عليها بقدمي واستعنت بحبل الدلو حتى وصلت إلى المياه ثم غصت فيها. كانت المياه باردة ووصل ارتفاعها إلى صدري والحبال مدلاة إلى

جواري في الظلام، منتصبة رأسياً وتحفظها الدلاء الغاطسة مشدودة باستقامة، تحت قدمي كنت أشعر بالتدفق الرقيق للماء تندفع إلى أعلى من عين تحت الأرض وتغذي البئر بتيار رقيق لا يتوقف.

بالأعلى كانت النسمات تهمهم على حافة البئر فترتد الهمهمة إلى أعماقه كطنين يصدر من قوقعة حين تضغطها على أذنك، مثل تلك القوقعة الضخمة التي كنت أشغف بالاستماع إلى طنينها وأنا طفل في منزل أبي الذي نشأت به من أعوام طويلة مضت، طفلاً صغيراً كنت، بالكاد، تصل عيناه إلى حافة المائدة وتطول سطحها بصعوبة. أتذكر أنني كنت أضغط القوقعة على أذني وتنتابني الحيرة والتساؤلات: هل تلك الأصوات موجودة بداخلها على الدوام، أم تصدر منها فقط إذا ضغطتها إلى أذني؟ هل تبعث ذلك الطنين بصفة مستمرة أم أن استماعي إليها هو الذي يبعثه من داخلها؟ حاولت مراراً أن أخدع القوقعة بأن أبعدها عن أذني حتى يتوقف الطنين ثم أقربها فجأة في غفلة منها إلى أذني: فأسمع الطنين من جديد ـ لم أتيقن أبداً إن كان الطنين دائماً داخلها حتى لو لم أضعها على أذني أم لا. لم أعلم في ذلك الوقت بالطبع، أنني شغلت ذهني بسؤال حيَّر فلاسفة أحكم مني على مدى دهور طويلة: كانت القضية هي: هل يوجد «واقع» مستقل عن إدراكنا، أم أن أدوات إدراكنا هي التي تخلق الواقع الذي ندركه؟ لم أدرك ذلك وقتها، ولكن حين أتذكر ذلك أكتشف أن التفكير في تلك المعضلة لازمني من طفولتي حتى أعوام قريبة مضت ـ كما لازمت من وقت لآخر كل عقل بشري مفكر سواء في الوعي أو في اللاوعي: فمهما تكن الحقيق الموضوعية، فإن العالم يتبدى لكل منا في شكل وحدود انعكاساته على فكر كل امرئ على حدة: ولذلك لا يدرك أي منا من

«الواقع» إلا ما له علاقة بوجوده الشخصي. ومن هنا نجد تفسيراً ملائماً لاعتقاد البشر المستمر منذ البداية النشطة لوعيهم في وجود حياة ثانية بعد الموت ـ وهو اعتقاد شديد العمق، شائع الانتشار عبر كل العصور وعند كل أجناس البشر، ويتخلصون من فكرة الموت بنوع آخر من التفكير «بالتمني» ويبدو أنه يمكن القول بلا تجاوز أن ذلك النمط من التفكير كان ضرورة لا يمكن تجنبها وتتواءم تماماً مع التركيبة الخاصة للعقل والفكر البشري. التفكير المجرد بعبارات نظرية في موت الفرد كفناء نهائي ليس صعباً، ولكن إدراك ذلك واستيعابه وقبوله لمن المستحيل. لأن ذلك يعني أنه يمكن أن يستوعب أيضاً فناء كل الواقع كما يدركه ـ وبعبارات أخرى، أن تتخيل العدمية: وهو ما لا يقدر عليه العقل البشري.

لم يعلمنا الفلاسفة والأنبياء الإيمان بالبعث بعد الموت، كل ما فعلوه أن أعطوا شكلاً ومحتوى روحياً لإدراك غريزي قديم قدم البشر.

* * *

ابتسمت في داخلي لتعارض ما أفكر فيه من أمور ذهنية عميقة مع ما أنا منهمك فيه من أعمال أرضية دونية من إزالة العرق والأقذار التي تراكمت على بدني من سفر دام أياماً. ولكن على أي حال هل هناك حد واضح مميز بين ما هو دنيوي وما هو ذهني عميق مبهم؟

هل يوجد على سبيل المثال ما هو أكثر دنيوية من الانطلاق بحثاً عن جمل شارد، وهل يوجد ما هو ألغز وأعصى على الفهم من الوشك على الموت عطشاً؟

ربما كانت الصدمة الناجمة عن تلك التجربة القاسية هي ما جعلت

حواسي وأفكاري أكثر حدة وتيقظاً كرد للاعتبار لذاتي: الاحتياج إلى الفهم والإدراك بعمق أكبر لمسار حياتي الشخصية. إلا أنني استدركت متسائلاً: هل يوجد حقاً من يستطيع أن يفهم المعنى والمغزى من حياته ما دام هو على قيد الحياة؟ نحن لا نعرف بالطبع ما حدث لنا في فترات ومراحل عمرنا المختلفة، وقد ندرك ونفهم أحياناً لماذا وكيف حدث لنا ما حدث، إلا أن هدفنا ووجهتنا ـ مصيرنا ـ لا يمكن أن نلمحه أو نحيط به؛ لأن المصير هو مجموع ما اعتمل بداخلنا وحركنا في الماضي والحاضر، وكل ما سيعتمل بداخلنا ويحركنا في المستقبل ـ ولذلك فهو لا يفصح عن مكنونه إلا عند نهاية الطريق، ولا بد أن يظل مغلقاً على الفهم أو نصف مفهوم ما دمنا على درب الحياة.

كيف لي أن أحدد، وأنا في الثانية والثلاثين من عمري، ما الذي كان عليه مصيري، أو ما هو الآن؟

أحياناً يتراءى لي أنني أرى حياة رجلين حين أستعيد ما مضى من حياتي بعين التذكر. وحين أنغمس في هذا التفكير، أتساءل، هل ذلكما الجانبان من حياتي متغايران إلى هذا الحد ـ أم أن هناك خلف كل الأشكال المختلفة في النمط والاتجاه، مشاعر واحدة وهدفاً واحداً لهما معاً؟

رفعت رأسي فرأيت جزءاً مستديراً من السماء بحجم فوهة البئر مليئة بالنجوم. في وقفتي الساكنة بلا حركة أحسست أنني أرى انتقالها البطيء عن مواضعها في حركة مستديمة لا تتوقف، صفوف بعد صفوف على مدى ملايين السنين. انتقل فكري إلى ذلك الصف الضئيل من الأعوام ـ الذي يكون عمري ـ السنوات الباهتة في ذاكرتي عن دفء

وأمان غرفة طفولتي في مدينة كنت على دراية بدروبها المنعزلة وأركانها النائية مثل درايتي بشوارعها المعروفة ومعالمها البارزة، ومن بعد تلك المدينة مدن أخرى مليئة بالمباهج والمسرات وآمال لا نهائية تموج في صدور شباب في مقتبل أعمارهم، ثم بعد ذلك الانتقال إلى عالم جديد ومختلف بين أناس لهم سلوكيات مختلفة بدوا في نظري غير متحضرين أول الأمر ومع مرور الزمن أحسست بتآلف عميق معهم، وأنني أنتمي إليهم أكثر ما كنت أنتمي إلى شعبي في موطني، ثم بعد ذلك مرتحلاً بين الفيافي والقفار وصحراوات بلا نهاية، ثم في مدن قديمة قدم الوعي الإنساني، في بيدٍ بلا أفق، وجبال تذكرك وحشتها بوحشة القلب الإنساني، والوحدة في هجير الصحاري؛ والنمو البطيء المطرد ليقين جديد، ثم ذلك اليوم بين جليد منطقة هندو ـ كوبن في أفغانستان، بعد مناقشة طويلة مع صديق أفغاني، صاح بعدها: «ولكنك مسلم، إلا أنك لا تعي ذلك...»، وذلك اليوم بعد شهور أخرى، حين تيقنت أنني مسلم؛ ثم حجي الأول إلى مكة؛ وموت زوجتي، واليأس الذي تلاه؛ ثم تلك الأعوام الطويلة التي قضيتها بين عرب الجزيرة العربية بعد إسلامي: ثم أعوام طويلة من الصداقة العميقة مع ملك خلق بسيفه مملكة من عدم ثم توقف على بُعْد خطوة واحدة من العظمة الكاملة، وأعوام من التجوال في صحاري الجزيرة العربية، ومهام خطرة أسندها إليَّ الملك وقمت بها في مناطق القبائل المتمردة، ورحيلي إلى مواقع ثوار ليبيا الذين يجاهدون في سبيل استقلال بلادهم، ثم الإقامة الطويلة بالمدينة حيث كرست كل جهدي لتعميق معرفتي بالإسلام في مكتبة مسجد الرسول(ص)، وحجي السنوي إلى مكة، وزواجي من فتيات بدويات، ثم تطليقي لهن؛ والعلاقات الإنسانية الحميمة التي ربطتني

بكثير من الأصدقاء، ثم أيام من الانطواء والوحدة؛ وخوض المناقشات رفيعة المستوى مع مثقفين وعلماء مسلمين من جميع أرجاء العالم الإسلامي، ثم رحلات إلى مناطق لم يطأها أجنبي من قبل بالجزيرة العربية: كل تلك الأعوام من الانغمار في عالم ينساه الغرب ويتجاهل وجوده.

وجدت صف أعوام حياتي طويلاً، لا قصيراً كما بدا لي، طفت الأعوام الغارقة في أعماق النسيان على السطح، أماطت اللثام عن وجهها من جديد وراحت تناديني بأصوات مختلفة متباينة: فجأة، وبخفة متناهية في أعماق القلب، اكتشفت أن طريقي كان طويلاً وبلا نهاية حتى الآن. قلت لنفسي: «كنت على الدوام تجري بلا توقف، لم تبن حتى اللحظة شكلاً محدداً لحياتك يمكنك أن تتلمسه، كما لم تتوصل إلى الآن إلى إجابة للتساؤل، إلى أين تمضي؟... تنقلت بين بلاد كثيرة، وكنت ضيفاً على بيوت لا تستطيع عدها، إلا أن توقك ورغبتك إلى ما لا تعرفه لم يصلا إلى إشباع حتى اللحظة، لم تزل غريباً حتى اللحظة، لم تضرب جذراً في مكان».

لماذا تدور بذهني تلك الأفكار، حتى بعد أن وجدت مكاني بين شعب أؤمن بما يؤمن به، لماذا لم أضرب جذراً في مكان؟

منذ عامين، حين اتخذت زوجة من بنات المدينة، رغبت أن تهبني ابناً. وقد وهبتني ابناً، طلال، بدأت بعدها أشعر أن العرب هم أهلي وعشيرتي وأصهاري وإخوتي في الإسلام. أردت لابني أن يضرب بجذوره عميقاً في هذه البلاد، وأن يشب واعياً بإرثه الحضاري والإنساني العظيم. وقد يبدو هذا كافياً لأي امرئ لجعل أي مرتحل

مثلي راغباً في الاستقرار، وأن يشيد بيتاً لأسرته. لماذا إذن لم ينته حلي وترحالي؟ ولماذا لا تشبعني تماماً تلك الحياة التي اخترت نمطها بنفسي؟ ما الذي ينقصني بهذا الموطن؟ بالطبع ليست القضايا الفكرية التي تشغل أهل أوروبا والغرب عامة. لقد تركتها خلفي، ولم أشعر أني افتقدتها في أي لحظة. في الحقيقة، أصبحت بعيداً عنها بُعداً هائلاً حتى إنه أصبح من الصعب أن أكتب إلى أي صحيفة أوروبية من الصحف التي تدفع لي ما أتعيش به؛ في كل مرة أرسل فيها تقريراً، كنت أشعر بأني ألقي حجراً في بئر بلا قرار: يختفي الحجر في دياجير ظلام البئر بلا صدى صوت ينم عن وصوله إلى قاع البئر.

كنت منهمكاً في أفكار مقلقة ومحيرة، نصف غاطس في مياه بئر مظلمة في واحة عربية، فجأة طفا صوت من أعماق ذاكرتي، صوت رجل عجوز من قبائل الأكراد بشمال إيران، قال لي ذات يوم: المياه الراكدة في بركة تتعطن وتتشبع بالطين والعكر، أما المياه المتحركة المتدفقة، فإنها تظل نقية.. هكذا الإنسان في سكونه أو تجواله.

كأن سحراً ألم بي، اختفت الحيرة. بدأت أنظر إلى نفسي بعين مغايرة من بعيد، أتصفح نفسي كمن يفر صفحات كتاب ليختار من بين محتوياته ما يصلح للقراءة، وبدأت أدرك أن حياتي لم تكن لتأخذ مساراً مختلفاً عما هي عليه الآن، أبداً.

والآن، حين أسأل نفسي: «ما الحصاد الكلي لحياتي التي عشتها حتى اللحظة؟» أجد أن بعضاً مني يجيب: «خرجت لتستبدل عالماً بعالم - كسبت عالماً جديداً لنفسك بدلاً من عالم قديم لم تمتلكه قطّ»، أدركت بوضوح تام أنني قد أخذت على عاتقي مهمة قد تستغرق عمراً بأكمله.

تسلقت خارجاً من البئر، ارتديت ملابس نظيفة كنت قد أحضرتها معي، ثم عدت إلى الموضع الذي وضعنا رحالنا فيه، كان زيد قد أعد القهوة، احتسيتها ثم تمددت منتعشاً ومستدفئاً بالنار التي أشعلها زيد.

[٢]

كانت ذراعاي متشابكتين تحت عنقي، وأنا ممدد على الرمال، أتأمل ليل الجزيرة العربية الذي يغشاني، ليل حالك تزين سماءه نجوم كثيرة. هوى نجم في قوس عظيم، ثم تلاه آخر بعد فترة، ثم ثالث: أقواس من ضوء تخترق حجب الظلام. ترى أهي كتل شهبية من كواكب مدمرة، أم شذراتِ كوارث كونية تسبح في فراغ الكون الهائل؟ لو سألت زيداً، سيرد بأنها ليست إلا رماحاً من نار ترجم بها الملائكة الشياطين الذين يحاولون التسلل في ليالٍ معينة إلى السماء للتجسس على الأسرار الإلهية... ربما تكون تلك الومضة الشديدة التي تهوي في الشرق موجهة إلى إبليس نفسه ملك الشياطين؟

أصبحت أعرف كثيراً من الأساطير المرتبطة بالسماء والنجوم، أكثر مما هو معروف عنها في موطن طفولتي وشبابي في النمسا.

كيف يمكن أن أكون شيئاً آخر؟ منذ أن جئت إلى الجزيرة العربية وأنا أعيش كما يعيش أهلها، وأرتدي الزي العربي مثلهم تماماً، وأتحدث العربية، أحلامي التي أراها في المنام بالعربية؛ العادات والتصورات والوجدان العربي صاغ أفكاري دون إرادة مني؛ لم تعقني أية تحفظات فكرية من التي تحول دون الأجنبي والتوصل إلى حالة من التفهم الحقيقي والتواصل مع شعب آخر.

فجأة، وجدت نفسي أضحك بصوت عال، ضحكة سعادة وتحرر - كانت ضحكة بصوت مرتفع حتى أن زيداً نظر إلي بدهشة وأدارت ناقتي رأسها باتجاهي مستطلعة في بطء وشموخ، كان سبب سعادتي اكتشافي المفاجئ أن طريقي في الحياة كان سهلاً ومستقيماً بالرغم من طوله البالغ، ويمتد ما بين عالم لم أمتلكه إلى عالم أمتلكه تماماً لأنه من صنعي وإرادتي.

ألا يشبه مجيئي إلى هذه البلاد عودة الغائب إلى وطنه؟

عودة القلب إلى موطنه الأول الذي هجره من آلاف الأعوام وعاد الآن ليتعرف إلى سماوات تلك المنطقة، سماواتي، بسعادة وفرح يؤلمان من حدتهما. هذه السماء العربية - الأشد ظلاماً والأكثر علواً، الحافلة بالنجوم أكثر من أي سماء أخرى - كانت هذه السماء ذاتها التي علت أسلافي الأوائل أثناء هجراتهم وتجوالهم في قوافل، قوافل جوالة من الرجال المقاتلين، انطلقوا من آلاف السنين من هذه الأرض مع قوة تناميهم، يدفعهم الطمع إلى امتلاك أرض خصبة والحصول على الأسلاب باتجاه أرض كلدان الخصبة، إلى مستقبل مجهول: تلك القبيلة البدوية الصغيرة من العبرانيين، أجداد ذلك الرجل الذي سيولد بعد ذلك في مدينة أور الكلدانيين. ذلك الرجل، إبراهيم، لا ينتمي إلى مدينة أور التي ولد بها. فلم يكن إلا ابناً من أبناء قبائل عربية عديدة شقت طريقها في وقت ما مهاجرة من شح وجفاف الجزيرة العربية إلى أرض الأحلام بالشمال التي سمعوا أنها تفيض لبناً وعسلاً - أراض آمنة في الهلال الخصيب، بلاد سوريا وما بين النهرين. كانت تلك القبائل المهاجرة تنجح أحياناً في هزيمة وطرد القبائل التي سبقتهم وينصبون أنفسهم حكاماً بدلاً منهم، ثم

يختلطون ويذوبون تدريجياً مع المهزومين ويخطون معاً إلى أعتاب تكوين أمة جديدة ـ كما فعل الآشوريون والبابليون الذين أقاموا ممالكهم على حطام الحضارة السومرية، وكما فعل الكلدانيون الذين تنامت قوتهم في بابل، أو العموريون الذين عرفوا بعد ذلك باسم الكنعانيين في فلسطين والفينيقيين على سواحل سوريا. في عصور أخرى كانت القبائل المهاجرة شديدة الضعف لا تقدر على هزيمة من سبقوهم إلى الاستقرار فيذوبون داخلها؛ أو يدفعون بهم من جديد إلى الصحراء، ليبحثوا من جديد عن مراعٍ أخرى أو أرض أخرى لغزوها.

كانت عشيرة إبراهيم من تلك القبائل الضعيفة، وكان أصل اسمه كما ـ ذكره سفر التكوين ـ آب ـ رام الذي يعني بالعربية القديمة «شديد الرغبة»، سكنوا مدينة أور على حافة الصحراء، في عصر لم تتمكن فيه القبيلة من الاستيلاء على أرض في بلاد النهرين، وكانوا على وشك الهجرة إلى الشمال بمحاذاة نهر الفرات باتجاه حاران ثم إلى سوريا. كان «شديد الرغبة» هو سلفي الأول الذي قاده الله إلى آفاق مجهولة اكتشف فيها ذاته، وكان هو وحده من كان بإمكانه أن يتفهم لماذا أنا هنا ـ فهو الآخر جال كثيراً وظل في رحيل دائم عبر بلاد كثيرة قبل أن يشيد بنيان حياته على أساس متين يمكنه أن يلمسه بيديه ويرى أبعاده، نزل هو أيضاً ضيفاً على بيوت كثيرة في أماكن شتى قبل أن يسمح له بضرب جذوره في مكان. حيرتي تبدو ضئيلة بجوار تجربته الإلهية التي تكتنفها الأسرار. لا بد أنه علم في حياته ـ كما أعلم أنا الآن عن حياتي ـ أن المعنى الكامن في ترحالي يكمن في رغبة خفية أن ألتقي بذاتي عن طريق التقائي بعالم يعد الالتقاء به إجابة عن جوهر مسألة الوجود، والواقع الحقيقي، الذي يختلف كلية عما ألفته في طفولتي وشبابي.

[٣]

ما أطوله من طريق يمتد بين طفولتي وشبابي في قلب أوروبا حتى حاضري الحالي في الجزيرة العربية، إلا أنه طريق ممتع عند تذكر معالمه، خاصة إذا عدت به عكسياً، مرتحلاً إلى الماضي.

تلك الأعوام المبكرة من طفولتي في مدينة لوردو البولندية - كانت في ذلك الوقت من ممتلكات النمسا - منزل هادئ ورصين مثل الطريق الذي يطل عليه: شارع طويل جميل إلا أنه مترب قليلاً، تحفه من جانبيه أشجار البندق.. ممهد بكتل خشبية كانت تضخم وقع خطوات الخيل عليها.. أحببت ذلك الطريق بوعي يفوق وعي طفولتي، لا لأنه طريق بيتي فقط، ولكن كما أظن لأنه كان يبعث مشاعر نبيلة بامتلاك الذات النابع من مرح وسعادة أسعد مدينة كما بدت لي في طفولتي بغاباتها الساكنة على حافتها وساحة المقابر الكائنة في مكان خفي غير ظاهر داخل تلك الغابة. وتمضي العربات الجميلة ذات العجلات الصامتة المغطاة بالكاوتشوك، إلا من صوت الإيقاع الرتيب لحوافر الخيل، أو، إن كنا شتاءً، تغطي الشارع طبقة جليد بسمك لا يقل عن قدم، تنزلق عليه الزلاجات، ويخرج البخار كالسحب من مناخر الخيول ويدوي صوت أجراسها المعلقة برقابها في الجو القارس: لو كنت أنت ذاتك الجالس على الزلاجة، وتشعر بالصقيع يمرق ملامساً لوجهك ويجمد خديك، فإن قلبك الطفولي يوقن أن شكل الخيول التي تجر الزلاجة، يحملك إلى سعادة لا تبدأ أبداً ولا تنتهي.

كانت هناك أيضاً أشهر الصيف في الريف؛ حيث كان يعيش جدي لأمي، وكان من رجال المصارف الأثرياء، اقتنى ضيعة بالريف ليسعد

بها أسرته. كان بتلك الضيعة جدول ماء جارٍ تحف به أشجار الصفصاف؛ تحوطه مراع عشبية مليئة بأبقار متكاسلة، والضوء والظلال محملان بروائح الحيوانات والقش والتبن وضحك الفتيات القرويات اللاتي ينشغلن في المساء بحلب الأبقار، تشرب الحليب الدافئ الذي تعلوه رغوة طازجة، مباشرة من السطل ـ ليس لأنك عطشان ـ بقدر ما تجده مثيراً أن تشرب لبناً محلوباً لتوه. . .

وتلك الأيام من شهر (آب) أغسطس، أيام حارة تقضيها في الحقول بين عمال المزرعة المشغولين بحصاد القمح، ومع النساء اللاتي كن يجمعن سيقان القمح ويربطنها في حزم: منهن شابات في مقتبل العمر، ممتعات عند النظر إلى أجسامهن القوية المشدودة، وأثدائهن الناهدة، وأذرعهن القوية الدافئة، تشعر بقوتها حين يحطنك بها معتصرات إياك فيما يبدو وكأنه مداعبة بريئة في راحة الظهيرة بين أعواد القمح: كنت صغيراً فلم أفهم ما يبعد عن اللعب من تلك الاحتضانات الدافئة. . .

هناك رحلات اصطحبني إليها أبي وأمي إلى فيينا وبرلين وجبال الألب وغابات بوهيميا وبحر الشمال وبحر البلطيق: أماكن بعيدة جداً عن مدينتنا حتى إنها كانت تبدو لي كأنها عوالم أخرى جديدة. في كل مرة أبدأ فيها واحدة من تلك الرحلات، كانت أول صافرة للقطار البخاري وأول دورة لعجلاته تجعلان قلبي يوشك على التوقف من توقعي للعجائب التي سأراها وتكشف لي عن نفسها. . . ورفاق اللعب، أولاد وبنات، شقيقي وشقيقتي وأبناء أعمام وأخوال؛ وأيام الآحاد العظيمة التي كانت تعني الحرية بعد أيام الأسبوع الكئيبة المضنية في المدرسة: نخرج معاً لإقامة المخيمات في الأماكن الخلوية.

اللقاءات الأولى المختلسة مع البنات الجميلات من سني، وحمرة الخجل من الإثارة التي لا يفيق المرء منها إلا بعد ساعات وساعات.

طفولة سعيدة كانت، مشبعة حتى بعد انقضائها. كان أبواي يعيشان عيشة رغدة، وعاشا الجانب الأعظم من حياتهما من أجل أطفالهما. كانت أمي هادئة الطباع وكان هدوؤها متصلاً ببساطتها، وهي بساطة كيفت نفسي عليها في أعوامي الأخيرة، كان أبي من داخله قلقاً متوتراً، وربما كان ذلك ما انعكس عليّ وتطبعت به.

* * *

إن كان عليّ أن أصف أبي، فلا بد أن أذكر أن ذلك الرجل الذي كان حبيباً إلى نفسي، كان نحيلاً، متوسط القامة، داكن البشرة والعينين، عيناه تفيضان عاطفة، ولم يكن متوافقاً مع ظروفه. في شبابه المبكر حلم بتكريس حياته للعلوم، خاصة الفيزياء، إلا أنه لم يتمكن قط من تحقيق حلمه واضطر إلى أن يرضى بمهنته التي عمل بها وهي المحاماة. . وعلى الرغم من نجاحه في عمله بعقليته الذكية المتفتحة، فإنه لم يجد ذاته في ذلك العمل، وربما كان ميله إلى الوحدة ناتجاً من إدراكه الدائم أن اهتماماته الحقيقية قد خذلته.

كان أبوه ـ جدي ـ حَبْراً يهودياً في مدينة شيرنوفيتس عاصمة إقليم بوكوفينا الذي كان تابعاً للنمسا. ما زلت أتذكره كرجل عجوز حلو الشمائل والخصال، له كفان رقيقان ووجه رقيق الملامح تحيطه لحية طويلة بيضاء، وعدا اهتمامه الشديد بالرياضيات وعلوم الفلك ـ وكان يدرسهما في أوقات فراغه ـ كان أيضاً لاعباً ماهراً للشطرنج، بل من أمهر لاعبي الحي الذي كان يقطنه. وكان الشطرنج سبباً في الصداقة

العميقة التي ربطت بينه وبين القس المسيحي الأرثوذوكسي اليوناني. كانا يقضيان أمسيات كثيرة حول رقعة الشطرنج، وكانا كثيراً ما يقطعان الانهماك في اللعب بمناقشات مطولة حول الجوانب الميتافيزيقية في ديانتيهما. قد يظن امرؤ بأن مثل ذلك الاهتمام من جانب جدي بالمسائل العقلية فإنه لا بد وقد رحب باهتمام ابنه - أبي - بدراسة العلوم. ولكن على عكس ذلك، قرر بلا تراجع أن ابنه البكر لا بد أن يحافظ على التقاليد الروحية التي حرصت عليها العائلة على مدى أجيال طويلة، ورفض مجرد التفكير في أي مهنة أخرى لأبي عدا وراثة مهنته الحبرية. ربما قوي من إصراره واقعة مؤسفة أساءت لسمعة العائلة وحرصت أسرة جدي على إخفاء أخبارها وتكتمها: فقد «خان» عم جدي تقاليد العائلة بطريقة مشينة وتحول عن الديانة اليهودية، دين أجداده.

كان من الواضح أن جد الجد الأسطوري هذا، والذي لم يكن اسمه يذكر قط بصوت مسموع، قد نشأ بنفس الطريقة المتشددة، رسموه حَبْراً كامل الصلاحيات في سن مبكرة، وزوجوه امرأة لم يكن يحبها، وحيث إن مهنة الحبر لم تكن تُدر ما يكفي للمعيشة في أيامه، فقد كان يزيد من دخله بالمتاجرة في الفراء، وكان ذلك يستلزم قيامه برحلة سنوية إلى سوق الفِراء المركزي لأوروبا في مدينة ليبزج. وذات يوم، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، انطلق بعربته التي تجرها الخيل - في النصف الأول من القرن التاسع عشر - إلى واحدة من أسفاره التجارية البعيدة. في مدينة ليبزج باع الفِراء الذي كان قد جمعه كما يفعل كل عام، إلا أنه باع العربة والحصان أيضاً، وحلق لحيته وأزال سوالفه، ونسي زوجته التي يبغضها، ثم توجه إلى إنجلترا. وظل

فترة يعمل أعمالاً وضيعة، ويدرس الرياضيات والفلك في المساء. واستشعر أحد الذين عمل لديهم مواهبه العلمية، فعاونه على متابعة دراسته بجامعة أوكسفورد، وتخرج فيها كباحث واعد، ثم تحول إلى المسيحية. وبعث وثيقة طلاق إلى زوجته اليهودية، ثم تزوج فتاة مسيحية من طبقة النبلاء، ولم تعرف عنه عائلتنا شيئاً بعد ذلك، باستثناء أنه قد تميز كعالم فلك وأستاذ جامعي ناجح، وحصل في آخر حياته على لقب «فارس» الإنجليزي.

كان ذلك المثال المروع سبباً في إصرار جدي لأبي على اتخاذ موقف صارم تجاه ميول أبي لدراسة العلوم الدنيوية، أصر على أن يصبح أبي رجل دين، وتحقق له ذلك. لم يكن أبي من الذين يستسلمون بسهولة، فبينما كان يدرس التلمود بالنهار، كان يقضي أغلب الليل في الدراسات التي يحبها سراً، دون مساعدة مدرس راح يدرس تاريخ تطور الرياضيات. في وقت ما، وثق بأمه فأخبرها بما يفعل، وبالرغم من قلقها، إلا أن طبيعتها السمحة لم تشأ أن تحرم ابنها من تحقيق رغبة عمره. في سن الثانية والعشرين كان قد درس ما يُدرَّس في المدارس في ثمانية أعوام في أربعة أعوام فقط، وتقدم إلى امتحان البكالوريا واجتازه بنجاح وتفوق. وبعد حصوله على الشهادة واتته الجرأة هو وأمه على إفشاء السر المخيف إلى جدي، وترتب على ذلك مشهد مأسوي، ولكن جدي رضخ في النهاية ووافق على أن يترك أبي الدراسات الدينية، وأن يكمل تعليمه الجامعي.

لم تسمح الحالة المادية للأسرة على أي حال لأبي أن يحقق حلمه الكبير في دراسة الفيزياء، ووجد أنه لا بد أن يعمل بمهنة مُربحة تُدر

عليه دخلاً فتحول إلى المحاماة. بعد ذلك بأعوام استقر في مدينة لو ـ وو في جاليشيا الشرقية وتزوج أمي، وكانت واحدة من أربع بنات لمصرفي ميسور الحال. في تلك المدينة، في عام ١٩٠٠، ولدت كثاني الأبناء الثلاثة لأبي.

ظلت رغبة أبي العارمة لدراسة العلوم تبدو في قراءاته الموسعة للموضوعات العلمية، كما بدت في اهتمامه الشديد الذي لا يظهره بوضوح بابنه الثاني ـ أنا ـ مع أني أظهرت ميلاً لدراسات لا تتصل مباشرة باكتساب المال ولا تعد بتحقيق «مهنة» ناجحة فلم يكتب لآماله في خلق عالم من ابنه النجاح ـ بالرغم من أنني لم أكن غبياً، فإنني كنت مبالياً، كانت الرياضيات والعلوم الطبيعية على وجه الخصوص تصيبني بالضجر والملل، في الوقت الذي كنت أشعر فيه بمتعة كبيرة في قراءة الروايات التاريخية الرومانسية المثيرة التي كان يكتبها «سانيكو فتش»، وقصص الخيال العلمي التي كان يكتبها «جول فيرن»، ، وروايات الهنود الحمر التي كان يكتبها «جيمس فينمور كوبر» و«كارل ماي»، وبعدها أشعار «ريلكه» والاستماع إلى المقطوعات الموسيقية الإيقاعية لـ«ألسو سبراخ زارا فوسترا»، كانت ألغاز الجاذبية الأرضية وقوانين الكهرباء لا تقل ضجراً عن قواعد اللغة اللاتينية واليونانية، كنت أنتهي من دروسها وبرودة تسري في أوصالي ـ وغني عن القول أني كنت أجتاز اختبارات تلك المواد بشق النفس. أصاب ذلك أبي بإحباط شديد، إلا أنه وجد بعض العزاء في رضاء المدرسين عن ميولي للآداب البولندية والألمانية بالإضافة إلى التاريخ.

وطبقاً لتقاليد عائلتنا، تلقيت دروساً دينية خاصة بالمنزل، وكانت

عن القصص الديني العبري. لم يكن ذلك عائداً إلى اهتمام خاص بالدين لدى أبوي؛ فقد كانا ينتميان إلى جيل يؤدي الطقوس الدينية باللسان والشفاه، فعلى الرغم من أن تلك الطقوس شكلت حياة أسلافهم الأوائل، فإنهم لم يبذلوا أي جهد لتوافق حياتهم اليومية تعاليم الدين أو حتى بالالتزام الأخلاقي الذي تمليه عليهم تلك التعاليم. في مثل ذلك المجتمع تراجعت مفاهيم العقيدة الدينية وتقلصت إلى موقف من اثنين: ممارسة طقوس جامدة من قِبل المتمسكين بالتعود لإرثهم الديني، أو لا مبالاة ساخرة من قبل الأكبر «تحرراً» الذين يعتبرون الدين خرافة عفى عليها الزمن والتي يتقبلونها في بعض المناسبات كمظاهر لا بد منها إلا أنهم يسخرون منها سراً، كما لو كانت موقفاً عقلياً لا يمكن الدفاع عنه. كان أبواي ينتميان إلى الصنف الأول، إلا أن الشك قد اعتراني أن أبي كان يميل إلى الصنف الثاني. على أية حال أصر أبي أن أواظب على دراسة النصوص الدينية لساعات طويلة كل يوم. وهكذا، وجدت نفسي وأنا في سن الثالثة عشرة أقرأ العبرية بطلاقة وأتحدثها بإتقان، كما ألممت بالآرامية (وهو ما يفسر سرعة إتقاني للعربية بعد ذلك). ودرست التوراة في نصوصها الأصلية، والمشنا، والجيمارا.. وهي نصوص التلمود وتفسيره.. أصبحت عالماً بمضامينها، وكان بإمكاني شرح الفرق بين التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي بإتقان وتمكن وثقة، ثم انغمست في دراسة التفسير المعقد للتوراة المسمى «ترجوم» درسته كما لو كنت أكرس نفسي لمنصب ديني.

على الرغم من النبوغ في دراسة الدين، أو ربما بسببه، نمت لدي مشاعر بالتعالي تجاه جوانب كثيرة من العقيدة اليهودية وما تتضمنه من منهج فكري. لم أرفض بالتأكيد الحقوق الأخلاقية التي أكدتها النصوص

اليهودية ولا الوعي الرفيع والسامي بالرب لأنبياء اليهود ـ ولكن ما رفضه عقلي هو ما بدا من أن الرب في النصوص التوراتية والتلمودية يهتم اهتماماً غير مفهوم ولا مبرر له بالطقوس التي لا بد على عبادة من أدائها، كما وجدت أن الرب مشغول فوق العادة بمصير أمة معينة دون غيرها، وهم اليهود بالطبع. مالت نصوص التوراة التي تؤرخ لنسل إبراهيم إلى إبراز الرب لا كخالق وحافظ لكل خلقه من البشر، بل كرب قبلي يسخر كل المخلوقات لخدمة ما يحتاجه «الشعب المختار»: ويعدهم بمكافأتهم بتوفيقهم في غزواتهم إن كانوا مخلصين له، كما يعرضهم للتعذيب على أيدي الكافرين به حين يبتعدوا عن طريق الإخلاص له كما وصفه لهم. على ضوء ذلك العيب الجوهري، نجد الحماس والتوهج الديني لأنبياء اليهود المتأخرين لا يرقى إلى كونه رسالة عالمية لكل البشر.

على الرغم من أن تلك الدراسات الدينية أتت بنتائج عكسية ـ فقد أبعدتني أكثر مما أدنتني من عقيدة أهلي وأجدادي ـ فإن تلك الدراسات أفادتني في الأعوام الأخيرة في فهم الغرض الجوهري لأي دين، كما هو، ومهما يكن شكله. لم يؤد شعوري بالإحباط تجاه الديانة اليهودية في ذلك الوقت إلى البحث عن معتقدات روحية أخرى. فتحت تأثير تلك البيئة اللاإرادية الدينية اليهودية، وجدت نفسي أندفع، أنا وأولاد كثيرون من عمري، إلى رفض ذلك الواقع وكل مؤسساته الدينية؛ حيث إن عقيدتي لم تعن لي أكثر من مجموعة من النواهي، لم أشعر بأي تأثير فارق في ابتعادي عن تلك التعاليم. لم تكن الأفكار الدينية والفلسفية تعنيني في قليل أو كثير؛ ما كنت أتطلع إليه لم يكن يختلف كثيراً عما يتطلع إليه باقي أبناء جيلي وهو: خوض المغامرات والأفعال المثيرة.

في أواخر عام ١٩١٤ كانت الحرب العالمية مشتعلة الأوار، وبدت في نظري أول فرصة سانحة لتحقيق أحلامي الطفولية، كنت في الرابعة عشرة، وهربت من المدرسة والتحقت بالجيش النمسوي تحت اسم مستعار، كنت أطول مما يشي به عمري، وتم إلحاقي على أن عمري ثمانية عشر عاماً، وهو الحد الأدنى للعمر لمن يلتحق بالخدمة العسكرية، إلا أنني لم أكد أحمل عصا الماريشالية في حقيبة ظهري. فبعد أسبوع أو نحو ذلك، نجح والدي المسكين في اقتفاء أثري بمعاونة الشرطة، وعدت في حراستهم إلى فيينا بشكل مخز، حيث كانت أسرتي قد استقرت بها من فترة سابقة، بعد ذلك بأربعة أعوام التحقت بالجيش بطريقة مشروعة، ولكني كنت قد كففت عن الحلم بعظمة أحققها في الحياة العسكرية، ورحت أبحث عن مسارات أخرى لتحقيق ذاتي. على أي حال، اندلعت ثورة بالنمسا بعد التحاقي بالجيش بعدة أسابيع، وانهارت الإمبراطورية النمسوية، كما انتهت الحرب العالمية الأولى.

على مدى عامين بعد انتهاء الحرب درست بلا نظام وبلا تواصل تاريخ الفن والفلسفة بجامعة فيينا ولم أجد بنفسي ميلاً إلى تلك الدراسات فلم تكن المهن النظرية تستهويني. كنت شغوفاً بالتوصل إلى جوانب حميمة محببة إلى نفسي من الحياة، وأن أقتحم تلك الجوانب دون أن أضفي على نفسي وسائل مصطنعة كما يفعل كثيرون، وأن أصل بنفسي إلى مثل روحية حقيقية كنت أوقن أنها موجودة إلا أنني لم أتوصل إليها بعد.

ليس من اليسير أن أشرح ما كنت أعنيه بتعبير «مثل روحية»، إلا أنه لم يدر بخلدي أن أحقق ذلك وأدركه عن طريق الوسائل التقليدية

للدين، أو في نفس الصدد عن طريق أي مقولات جاهزة مهما كانت متقنة، لم تكن تلك الضبابية الفكرية وغياب الوضوح حتى أكون منصفاً لنفسي من صنعي أنا؛ فقد كانت ضبابية فكرية وغياب وضوح رؤية أصاب جيلي بأجمعه.

كانت العقود الأولى للقرن العشرين تصطدم بالخواء الروحي للأجيال الأوروبية. كل القيم الأخلاقية التي اعتنقتها الأمم الأوروبية على مدى قرون عديدة أصبحت هشة متداعية تحت وطأة التداعيات المرعبة لما حدث بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ وهي السنوات التي استغرقتها الحرب العالمية الأولى، في الوقت الذي لم تبد فيه أي قيم روحية جديدة في أي أفق. كانت مشاعر الهشاشة وعدم الإحساس بالأمان متفشية بين الجميع ـ إحساس داخلي بالكارثة الاجتماعية والفكرية أصابت الجميع بالتشكك في استمرارية أفكار البشر وفي كل مساعيهم وأهدافهم. بدا كل شيء وكأنه طاف فوق فيضان لا شكل له، والقلق الروحي لدى أجيال الشباب لا يجد مستقراً لأقدامه الوجلة. ومع غياب أي مقاييس يقينية أخلاقية، لم يعد بقدرة أي فرد من الأجيال السابقة أن يجيب إجابات مقنعة عن أسئلة كثيرة كانت تؤرق وتحير كل جيل الشباب. العلم يقول: «المعرفة أصل كل شيء»، وينسى العلم أن المعرفة بدون هدف أخلاقي لا تؤدي إلا إلى فوضى عارمة.

كل المصلحين الاجتماعيين والثوار، والشيوعيين، كانوا يسعون بلا شك إلى بناء عالم أفضل وأسعد حالاً، وكلهم كانوا يفكرون بمصطلحات ورؤية خارجية في المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، وحتى يتجاوزوا ذلك العيب، طرحوا نظرية «المفهوم المادي للتاريخ»، كنوع

من الميتافيزيقية المضادة للميتافيزيقية. من جهة أخرى كان المتدينون التقليديون لا يجيدون إلا أن ينسبوا إلى ربهم صفات مستمدة من سلوكياتهم البشرية وعاداتهم الفكرية، والتي أصبحت على المدى الزمني جامدة بلا معنى: وحين كنا نرى ـ نحن الشباب صغار السن ـ أن تلك الصفات المدعاة من البشر على الرب تقف دائماً في مقارنة جادة ومتناقضة مع البؤس الواقع في عالم البشر من حولنا. كنا نقول لأنفسنا: «إن القوى المحركة والمتحكمة في المصائر والأقدار لا بد أن تكون مختلفة عن مضمون تلك الصفات التي يصبغها البشر على الرب ـ ولذلك ـ فإنه لا يوجد رب».

أيقن بعض منا أن سبب ذلك التخبط الفكري قد يكمن في السذاجة التي يتصف بها حراس العقيدة ممن يظنون أنهم لا يأتيهم الباطل ويزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق في «وصف» و«تعريف» الرب، ثم يلبسونه ملابسهم وأرديتهم، وبعد ذلك يفصلونه عن البشر ومصائرهم.

على المستوى الفردي أدى عدم استقرار المبادئ والأخلاق إلى فوضى أخلاقية وغوغائية فكرية، كما أدى بالأفراد إلى البحث عن مفاهيم شخصية وفردية لما يمكن أن يحقق حياة سعيدة متوازنة.

ربما كان ذلك الإدراك الغريزي هو ما دفعني إلى اختيار دراسة تاريخ الفن كموضوع أساسي في دراستي الجامعية.

افترضت في ذلك الوقت أن وظيفة الفنون الحقيقية هي إثارة الرؤى وحثها لخلق نموذج منطقي مترابط يعيد ربط صورة الأحداث المهشمة. على الرغم من ذلك لم تشبعني تلك المناهج الدراسية التي واظبت

عليها. كان أساتذتي ومنهم أسماء كبيرة ومشهورة مثل «شتر زيجوفسكي» و«دفوراك» مهتمين بشكل أساسي باكتشاف القوانين الجمالية التي تحكم الخلق الإبداعي الفني أكثر من اهتمامهم بالتوصل إلى النبض الروحي الكامن في جوهر الأعمال الخلاقة الداخلي: بعبارات أخرى، كان منهجهم موجهاً إلى جانب ضيق يتعلق بالإجابة عن مشكلة الشكل كما يبدو من خلال الفنون الإنسانية.

كانت أيضاً دراسات التحليل النفسي التي درستها في تلك المرحلة التي اتسمت بالحيرة والتخبط الفكري أقل إشباعاً مثلها مثل تاريخ الفنون، ولكن لأسباب مغايرة. كانت علوم التحليل النفسي في ذلك الوقت تشكل ثورة فكرية عظمى حتى إنني أحسست في أعماقي أن تلك العلوم قد فتحت مغاليق أبواب المعرفة التي كانت موصدة وأنها تبشر بتغيير تفكير الإنسان ومعرفته بذاته ومجتمعه. لقد فتح اكتشاف الدوافع الكامنة في اللاوعي والتي تشكل الشخصية الإنسانية طرقاً واسعة تتيح فهماً أوسع للذات. كان من الممكن أن أنجذب لتلك الدراسات الجديدة في التحليل النفسي، فقد كان للأفكار «الفرويدية» تأثير يماثل تأثير النبيذ المعتق على أفكاري، وما أكثر الليالي التي قضيتها على مقاهي «فيينا» مستمعاً إلى مناقشات ساخنة ومثيرة بين رواد التحليل النفسي المبكرين، كان منهم «ألفريد أدلر» و«هيرمان ستيكل» و«أوتو جروس»، إلا أن الحيرة والقلق والتشوش حلّت عليّ من جديد بسبب عجرفة وتعالي العلم الجديد، الذي حاول أن يختزل ألغاز الذات البشرية ويحولها إلى سلاسل من ردود الأفعال العصبية.

كانت النتائج «الفلسفية» التي توصل إليها رواد التحليل النفسي ومن آمنوا بهم تبدو مبالغة في الدقة ومبالغة في تبسيط المشاكل البشرية،

وعدا أنهم وضعوا أنفسهم في موضع أصحاب الحقائق المطلقة، إلا أنهم في النهاية لم يحددوا أي طريق يحقق حياة جيدة للبشر.

وعلى الرغم من أن تلك المشاكل شغلت ذهني، فإنها لم تزعجني؛ فلم أكن أهتم كثيراً بالاتجاهات الميتافيزيقية التي تبحث عما وراء الطبيعة، كما لم تشغل ذهني أية تساؤلات حول «الحقائق» الكلية المطلقة. كان اهتمامي ينصب في ذلك الوقت على النواحي التي يمكن إدراكها والإحساس بها من جوانب الحياة: البشر، والأنشطة البشرية، والعلاقات بين البشر. وكان ذلك هو الوقت الذي بدأت فيه بتكوين علاقات بالنساء.

في مجرى التفكك والانحلال العام للقيم الأخلاقية التي كانت راسخة قبل الحرب العالمية الأولى، تحللت كوابح وقيود كثيرة كانت تسود العلاقة بين الجنسين. والذي حدث لم يكن ثورة مقننة مضادة للقيود والتحريمات الصارمة الأخلاقية للقرن التاسع عشر بقدر ما كان رد فعل سلبياً نقل العلاقات بين الجنسين من حالة كانت تحكمها مقاييس أخلاقية معينة تبدو وكأنها مقاييس أبدية لا تقبل التشكيك، إلى حالة معاكسة مضادة. أو تأرجح البندول بين معتقدات الأمس التي آمنت باستمرارية وديمومة الجنس البشري وتقدمه المستمر، إلى مرارة الوضوح العاري الذي قدمه «شبنجلر»، والنسبية الأخلاقية التي قدمها «نيتشه»، إلى النهلستية[1] الروحية (العدمية الروحية) التي رضعت من التحليل النفسي.

---

(١) نظرية ترى أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة، وأن الوجود لا معنى له، وأن المجتمعات البشرية في حالة من السوء تجعل الهدم مرغوباً به لذاته. (المترجم).

حين أتطلع خلفي إلى تلك الأعوام التي تلت الحرب العالمية الأولى، أشعر أن الشباب من الجنسين الذين تحدثوا وكتبوا بحماسة بالغة عن «حرية الجسد»، كانوا أبعد ما يكونون عن روح الحماسة الحقيقية التي كانوا يظهرونها: كانت نشوتهم وعياً شديداً بالذات أقرب إلى الحماسة والاستهتار الشديد الذي لا يرقى إلى الثورة، كان لعلاقتهم الجنسية المتحررة جانب عرضي غير مقصود - يؤدي في الغالب إلى اتصالات جنسية غير شرعية.

وحتى لو كنت ما زلت أشعر في ذلك الوقت أنني ما زلت مقيداً ببعض بقايا الأخلاقيات التقليدية، كان من الصعب أن أتجنب الانجراف إلى سلوكيات أصبحت واسعة الانتشار. لقد افتخرت أنا أيضاً بذلك التحول وابتهجت له مثل كثيرين غيري من أبناء جيلي لما كان يعتبر «تمرداً على التقاليد البالية الجوفاء». تحولت العلاقات بسهولة إلى ممارسات جنسية، وتحولت بعض الممارسات إلى حب عاطفي. وعلى الرغم من كل ذلك لا أظن أبداً أنني كنت متحرراً، لأن كل العلاقات التي خضتها ومارستها، مهما تكن سطحيتها وقصر مداها، كان دافعها السعي إلى أمل متفائل، غامض إلا أنه مسيطر، يسعى إلى إثبات أن الفردية المخيفة والعزلة التي فصلت البشر عن البشر قد يحطمها التحام رجل وامرأة.

نما قلقي وتزايد وجعل إتمام دراستي الجامعية يبدو مستحيلاً، ولذا قررت أن أترك تلك الدراسات للأبد وأن أجرب نفسي في الصحافة. عارض أبي ذلك القرار لأسباب كانت أقوى مما أملت في تسليمه برغبتي، أصر على أنه يجب عليّ قبل أن أقرر العمل بالكتابة الصحفية

لا بد أن أثبت أولاً أنني يمكنني الكتابة، وبعد مناقشة حادة بيننا قرر «أن درجة الدكتوراه لم تمنع أبداً من يحصل عليها من أن يكون كاتباً ناجحاً». كانت حجته معقولة ومنطقية، إلا أنني كنت صغير السن، مندفعاً نحو ما أراه، شديد الأمل والطموح، ومليئاً بالقلق. حين أيقنت أنه لن يغير رأيه، لم يعد هناك ما أفعله إلا أن أبدأ حياتي بنفسي. ودون أن أخبر أحداً بنياتي، ودعت مدينة «فيينا» ذات يوم من أيام صيف عام ١٩٢٠، وركبت القطار متجهاً إلى مدينة «براغ».

كل ما كنت أحمله عدا أمتعتي الشخصية، خاتماً من الماس تركته لي أمي قبل موتها في العام السابق. بعت الخاتم إلى أحد سقاة مقهى المثقفين في «براغ» وعلى الرغم من خديعتي في تلك الصفقة، إلا أن ما تلقيته من ثمن للخاتم بدا وكأنه ثروة. وبتلك الثروة في جيبي واصلت سفري إلى «برلين»، ولما وصلت إليها قدمني بعض أصدقائي القدامى الذين كنت أعرفهم في «فيينا» قبل أن يرحلوا إلى «برلين» إلى دوائر الأدباء الساحرة وفناني برلين الذين يجتمعون عادة على مقهى «فيستين» العتيق.

كان علي منذ تلك اللحظة أن أدبر أمور حياتي دون أن أنتظر معونة من أحد؛ كما انتويت ألا أقبل وألا أتوقع أي معونة من أبي. بعد ذلك بأسابيع، بعد أن هدأ غضب أبي، كتب إلي قائلاً: «أتوقع أن ينتهي بك الأمر إلى متسكع ومتسول في حفرة على جانب أحد الطرق»، فرددت عليه قائلاً: «لست أنا من يتسول على جنبات الطرق ـ سيعلو نجمي حتى أصل إلى القمة». أما كيفية وصولي إلى تلك القمة، فلم تكن واضحة في ذهني بأي شكل من الأشكال، كل ما كنت أدركه رغبتي في

العمل بالكتابة الصحفية، كان يملأني الاقتناع بالطبع أن عالم الصحافة ينتظرني بأذرع مفتوحة.

بعد بضعة أشهر نفد كل ما كان معي من مال، فبدأت أبحث عن عمل، وبالنسبة لشاب صغير السن يتطلع إلى امتهان الصحافة، فإن الاختيار الواضح هو صحيفة يومية كبرى، إلا أنني بالطبع لم أكن أمثل اختياراً لأي صحيفة، وتحققت من ذلك يوماً بعد يوم. استنفد ذلك أسابيع طويلة من التسكع المضني على أرصفة «برلين» ـ فقد أصبح أجر قطار الأنفاق أو الحافلات العامة عزيز المنال ـ ومقابلات مهنية ومتكررة مع رؤساء تحرير صحف ومحرري أخبار ومساعدي محررين حتى أيقنت أن الأمر يتطلب معجزة ليقبلوا كاتباً بلا خبرة وبلا سطر واحد مكتوب في أي صحيفة قبل ذلك، ولا تتسنى له أدنى فرصة لدخول الساحة المقدسة لأي صحيفة. ولم تقع معجزة تيسر لي تحقيق هدفي. بدلاً من ذلك تعودت تحمل الجوع وأمضيت عدة أسابيع لا آكل فيها إلا وجبة واحدة يومية مكونة من كوب من الشاي وشطيرتين صغيرتين، فقد كان إيجار الغرفة التي أسكنها يتضمن الإفطار. لم يتمكن أصحابي المثقفين في مقهى «فيستين» من تقديم معونة إلى شاب غض بلا خبرة مثلي، وعدا ذلك، كان أغلبهم يعيشون في ظروف لا تختلف كثيراً عن ظروفي، يحيون من يوم إلى يوم على حافة العدم والخواء، ويناضلون بكل قوة ليحافظوا على أنوفهم فوق سطح الماء. أحياناً، حين كان الحظ يسعد واحداً منهم بنشر مقال أو بيع لوحة، كان يقيم احتفالاً تراق فيه الجعة والمقانق ويدعونني للمشاركة في تلك النفحة المفاجئة، كما كان أدعياء الثقافة من الأغنياء يقومون أحياناً بدعوة الصعاليك من

المثقفين إلى العشاء في منازلهم، ثم يحملقون في فزع ونحن نحشو أمعاءنا الخاوية بشرائح الخبز المحمص المغطى بالكافيار ونجرع معه ما تصل إليه أيدينا من شمبانيا، ونرد له جميله بأحاديث منمقة مليئة بمصطلحات ثقافية عن رؤيتنا «للحياة البوهيمية»، إلا أن تلك الدعوات كانت استثناء، فالقاعدة في أغلب الأيام كانت جوعاً مطلقاً ـ أما الليل فقد كان يزخر بالأحلام المليئة بشرائح اللحم والسجق، وشرائح الخبز المغطاة بالزبد. فكرت عدة مرات في الكتابة إلى أبي وأطلب معونته، وكنت متأكداً منّ أنه لن يتردد لحظة في معاونتي، إلا أن كرامتي كانت تحول دون ذلك في اللحظة الأخيرة بل كنت أكتب له عوضاً عن ذلك عن أخبار الوظيفة الرائعة المرموقة والأجر الجيد الذي أتلقاه عن تلك الوظيفة... وأخيراً واتاني الحظ الذي كسر تلك الحلقة. قدمني أحد الأصدقاء إلى ف. و. مورنو، الذي ذاعت شهرته كمخرج سينمائي (كان ذلك قبل أن تجتذبه هوليوود إلى مزيد من الشهرة ثم موته المفاجئ غير المتوقع)، كان «مورنو» شخصية محببة ذات تأثير، وحاز إعجابي أيضاً على الفور، سألني «مورنو» إن كنت أود أن أعمل معه في فيلم جديد سيبدأ تصويره، وعلى الرغم من أن الوظيفة كانت مؤقتة، فإنني رأيتها وكأن السماء تفتح لي باباً، فقلت بتلعثم: «نعم، أقبل...».

قضيت شهرين عظيمين متحرراً من القلق والحصار المالي ومعجباً بخبرات «مورنو» التي لم أر مثيلاً لها من قبل، عملت مساعداً له. ازدادت ثقتي بنفسي إلى حد بعيد، ولم يكن ذلك بالطبع بسبب أن بطلة الفيلم ـ وهي ممثلة شهيرة فائقة الجمال ـ لم ترفض مغازلة مساعد

المخرج الشاب لها. حين انتهى تصوير الفيلم كان على «مورنو» أن يسافر إلى خارج ألمانيا لتصوير فيلم آخر، وتركته وأنا على اقتناع بأن أيامي السيئة قد انتهت.

بعد ذلك بفترة قصيرة، دعاني صديق يدعى «انطون كوه» ـ وهو صحافي من فيينا اشتهر في برلين كناقد مسرحي ـ إلى الاشتراك معاً في كتابة مشاهد فيلم تقاضى عربوناً لكتابته. قبلت الفكرة بحماسة وبذلت جهوداً كبيرة في كتابة النص، على أية حال، دفع المنتج بسعادة المبلغ المتفق عليه، قسمناه أنا و«أنطون» مناصفة. واحتفالاً بدخولنا إلى «عالم السينما» دعونا الأصدقاء إلى العشاء في واحد من أشهر مطاعم برلين، حين تلقينا قائمة الحساب وجدنا أن كل ما حصلنا عليه تبخر ثمناً لسرطان البحر والكافيار والنبيذ الفرنسي، إلا أن حظنا كان قد تحسن، فقد بدأنا على الفور في كتابة مشاهد فيلم آخر، ملهاة تخيلية عن شخصيتي «بلزاك» و«بتسار» ووجدنا مشترياً للسيناريو في اليوم ذاته الذي انتهينا فيه من كتابته. في تلك المرة رفضت أن «نحتفل» بنجاحنا، وبدلاً من ذلك ذهبت في إجازة لمدة أسابيع قضيتها على بحيرات «بافاريا». بعد عام آخر مليء بالمفاجآت الجيدة والسيئة التي قابلتني في مختلف مدن وسط أوروبا وحفل بكثير من الوظائف المؤقتة، نجحت أخيراً في اختراق عالم الصحافة.

* * *

وقع اختراقي لعالم الصحافة في خريف عام ١٩٢١، بعد فترة أخرى من المتاعب المالية. كنت جالساً ذات عصر بمقهى «دي فيستين» متعباً ومكتئباً، وجلس أحد الأصدقاء إلى الطاولة التي كنت أجلس

عليها. وحين علم بالمشاكل والمتاعب التي أمر بها، قال مقترحاً: «قد تكون هناك فرصة لك. لقد بدأ «داميرت» في إنشاء وكالة أنباء بالتعاون مع وكالة «يونايتدبرس» الأمريكية، وسيطلق عليها اسم «يونايتد تليجرام» وأنا متأكد من أنه سيحتاج إلى عدد كبير من مساعدي التحرير، ويمكنني أن أقدمك إليه إن أحببت».

كان «داميرت» من الشخصيات المعروفة في الأوساط السياسية في برلين، وكان عضواً بارزاً في الحزب الكاثوليكي المركزي، وكون ثروة بمجهوده الشخصي، كما كان يتمتع بسمعة طيبة؛ وراقت لي كثيراً فكرة العمل معه.

في اليوم التالي اصطحبني صديقي إلى مكتب دكتور «داميرت» دعانا الرجل الأنيق المهذب الذي كان في منتصف العمر إلى الجلوس قائلاً: «حدثني السيد «فنجال» (وكان ذلك اسم صديقي) عنك. هل عملت من قبل بأي صحيفة؟

أجبته: «كلا يا سيدي» ثم أردفت: «إلا أن لدي خبرات كثيرة، تستطيع أن تعدَّني خبيراً بأمور أوروبا الشرقية وأجيد عدة لغات». (في الحقيقة ـ كانت اللغة الوحيدة من لغات أوروبا الشرقية التي أجيدها هي اللغة البولندية، كما كنت لا أعرف إلا القليل عما يدور في ذلك الجانب من العالم، إلا أنني كنت قد قررت ألا أهدر الفرص التي تتاح لي بسبب تواضع لا مبرر له).

رد قائلاً فيما يشبه الابتسام: «هذا مثير»، ثم أردف «لدي فرصة للخبراء، إلا أنني لسوء الحظ لا أحتاج إلى خبير في شؤون أوروبا الشرقية في اللحظة الراهنة»، رأى علامات الإحباط التي ارتسمت على

وجهي فواصل حديثه: «إلا أنني ما زال لدي فرصة عمل لك ـ قد تكون أقل من قدراتك. . .».

سألته في لهفة وإيجار المسكن الذي لم أسدده يتراءى لي في ذهني: «ما تلك الفرصة يا سيدي؟».

قال: «في الحقيقة أنا بحاجة إلى مزيد من موظفي الهاتف. . أوه، كلا، كلا، لا تنزعج، ليس عامل بدالة هاتف: أعني أنني أريد موظفي هاتف ينقلون الأنباء ويملونها بالهاتف إلى الصحف المحلية بالولايات. . .».

كانت الوظيفة بالطبع دون توقعاتي. نظرت إلى دكتور «داميرت» ونظر إليّ، وحين رأيت تجعدات نظرة السخرية البادية حول عينيه تتزايد، أيقنت أن الموقف قد وصل إلى نهايته. قلت وأنا أتنهد من أعماقي بضحكة قصيرة مفتعلة: «قبلت الوظيفة».

بدأت مهنتي الجديدة في الأسبوع التالي، كانت مملة وتبعث على الضجر وتبعد كثيراً عن مهنة الصحافة التي أحلم بمزاولتها. لم يكن هناك ما أفعله إلا نقل الأنباء بالهاتف عدة مرات في اليوم من أوراق مكتوبة إلى الصحف المحلية المشتركة بالوكالة؛ إلا أنني كنت موظف هاتف جيداً كما كان المقابل جيداً أيضاً. دام الحال على ذلك لمدة شهر، وفي نهايته ساقت لي المصادفة فرصة سانحة لم أحلم بها.

كانت روسيا السوفييتية تعاني في عام ١٩٢١ من مجاعة شديدة قاسية. كان الملايين من أبناء الشعب يعانون من وطأة المجاعة حتى إن مئات الآلاف لقوا حتفهم جوعاً حتى ذلك الوقت. كانت كل الصحف الأوروبية تعرض أخبار المجاعة والموقف العصيب في روسيا

السوفييتية؛ وسارعت هيئات كثيرة لوضع خطط لإرسال مساعدات غذائية للتخفيف من وطأة المجاعة. وكان من تلك البرامج برنامج تزعمه «هربرت هوفر» الذي قام ببرامج مماثلة قبل ذلك لمساعدة دول وسط أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، كما كان الكاتب الروسي الشهير «مكسيم جوركي» يقوم بنشاط كبير من داخل روسيا للعمل على تخفيف وطأة المجاعة، كانت نداءاته المؤثرة لدول العالم عبر وسائل الإعلام تهز المشاعر في أوروبا، وأشيع أن زوجته ستقوم قريباً بزيارة عواصم وسط أوروبا وغربها لتحريك الرأي العام لمد يد المساعدة بوسائل أكثر فعالية.

واتتني فرصة عمري، عن طريق أحد معارفي (واتتني فرص عديدة في أماكن ومواقف غريبة عن طريق معارفي وأصدقائي) وجذبتني حتى وضعتني في قلب الأحداث الساخنة.

واتتني الفرصة تلك المرة عن طريق البواب الليلي لفندق «ايسبلاناد»، وكان أحد أفخم فنادق «برلين»، حين رآني بادرني قائلاً: «السيدة جوركي هذه سيدة عظيمة، لا يمكن لأي امرئ أن يخمن أنها من بولندا. . .».

صحت في دهشة: «السيدة جوركي؟ أين رأيتها بحق الجحيم؟». خفض محدثي صوته حتى تحول إلى همس: «إنها تقيم في فندقنا هذا، وصلت بالأمس إلا أنها تقيم هنا باسم مستعار، المدير وحده هو الذي يعلم حقيقة شخصيتها. إنها تريد أن تتجنب مطاردة الصحافيين لها».

سألته متشككاً: «وكيف عرفتها؟».

رد باعتزاز: «نحن البوابين نعلم كل ما يدور بالفندق»، ثم تنهد

متسائلاً: «هل تعتقد أنها ستكون فرصة عظيمة لو تمكنت من إجراء حوار وحديث مطول مع السيدة جوركي، وسيضاعف من قيمة الحوار أنه لا توجد صحيفة واحدة في برلين تعرف بوجود السيدة جوركي. . اشتعلت الحماسة في أوصالي مثلما تشتعل ألسنة اللهب في أغصان جافة.

سألت صديقي: «هل بإمكانك أن تريني إياها بأية وسيلة؟».

أجاب: «لا أدري إنها تبذل كل جهدها لكي لا يعلم أحد عنها شيئاً. . . إلا أنني قد أستطيع القيام بشيء لك. . لو جئت إلى البهو في المساء، قد يكون بإمكاني أن أشير إليها خفية».

بعد أن اتفقت معه، ذهبت راكضاً إلى مكتبي في وكالة أنباء يونايتد تليجرام: كانت المكاتب خاوية على وجه التقريب بعد انتهاء وقت العمل، ولحسن الحظ كان رئيس التحرير ما زال بمكتبه. أمسكت بتلابيبه قائلاً في تعجل: «هل تعطيني بطاقة صحفية إذا وعدتك أن أعود إليك بخبطة صحفية مدوية؟».

سألني بتشكك: «أي نوع من الخبطات».

قلت: «أعطني البطاقة وأنا أعود إليك بخبطة كبرى. إن لم أفعل بإمكانك أن تستعيد البطاقة مني الليلة».

في النهاية، وافق صائد الأنباء العجوز، وخرجت من مكتبه أتيه فرحاً ببطاقة صحفي مكتوب بها أني أمثل وكالة يونايتد تليجرام.

قضيت الساعات التالية في بهو فندق «إيسبلاند». في التاسعة مساءً وصل صديقي ليبدأ نوبة عمله. من الباب غمز لي بعينه ثم اختفى خلف طاولة الاستقبال، ظهر بعد دقائق وأخبرني أن السيدة جوركي خارج

الفندق، قال: «إذا انتظرت بالبهو، فمن المؤكد أنك ستراها عند عودتها.

في الحادية عشرة التقطت إشارة صديقي، كان يشير خفية إلى سيدة كانت بالكاد قد تخطت الباب: كانت رقيقة دقيقة الحجم في حوالي منتصف الأربعينيات من عمرها، وترتدي رداء أسود محبوكاً على جسدها، وعليه معطف أسود من الحرير كان ينساب من خلفها على الأرض. وشت حركتها بأرستقراطية أصيلة حتى إنه كان من الصعب تخيل أنها زوجة شاعر «الشعب العامل»، وأصعب منه تخيل أنها مواطنة سوفييتية. اعترضت طريقها وانحنيت في احترام ووجهت إليها الحديث بأغرب نغمة في صوتي: «السيدة جوركي؟».

أخذتها المفاجأة لوهلة، ثم استردت عيناها بريقهما الجميل وردت بلغة ألمانية لا تشوبها إلا لكنة سلافية بسيطة لا تكاد تبين: «أخطأت.. أنا لست السيدة جوركي ـ اسمي كذا.. كذا» (وذكرت لي اسماً روسياً طويلاً إلا أنني نسيته) أصررت على رأيي قائلاً: «كلا يا سيدة جوركي.. أنا متأكد أنني لم أخطئ، وأعلم أيضاً أنك لا تودين أن يزعجك الصحافيون ـ إلا أن هذا الأمر يعني لي الكثير ـ بل الكثير جداً إن سمحت لي بالحديث بضع دقائق فقط. هذه أول فرصة لي لأثبت بها ذاتي. أنا متأكد أنك لا تودين تدمير فرصتي وما يترتب على ذلك من آثار سيئة على مستقبلي العملي في الحياة..؟» ثم أظهرت لها بطاقتي الصحفية قائلاً: «لقد حصلت عليها اليوم فقط، ويتحتم عليَّ إعادتها إلا إذا قدمت حديثاً أجريه مع السيدة جوركي».

استمرت السيدة الأرستقراطية في التبسم: «وإذا أخبرتك بكلمة شرف أنني لست السيدة جوركي، هل ستصدقني حينئذ».

قلت لها: «كل ما تذكرينه لي مقروناً بكلمة شرف منك سأصدقه على الفور».

صدرت منها ضحكة رقيقة مفاجئة وقالت: «يبدو أنك شاب لطيف، (كان رأسها الجميل يصل بالكاد إلى كتفي) لن أكذب عليك أكثر من ذلك. أنت تكسب، هل تمنحني شرف تناول الشاي في جناحي؟» وهكذا، كان لي شرف تناول الشاي مع السيدة جوركي في جناحها الخاص.

على مدى ما يقرب من الساعة وصفت بحرارة بالغة أحوال المجاعة التي تمر بها بلادها، وحين غادرتها بعد منتصف الليل، كان معي مجموعة سميكة من الأوراق التي سجلت بها الحوار.

فتح مساعدو التحرير الليليون في يونايتد تليجرام أعينهم في دهشة عندما رأوني في تلك الساعة من الليل، إلا أنني لم أهتم بهم فقد كان لدي عمل عاجل لا بد أن أتمه، كان عليَّ أن أنتهي من صياغة الحوار بسرعة قدر ما أستطيع، ثم حجزت مكالمات هاتفية عاجلة لكل الصحف المحلية المشتركة في يونايتد تليجرام دون إذن أو تصريح من رئيس التحرير.

في الصباح التالي دوت القنبلة الصحفية، فبينما خرجت صحف برلين اليومية الكبرى دون أية إشارة لوجود السيدة جوركي في برلين، كانت كل الصحف المحلية المشتركة لدى وكالة أنباء يونايتد تليجرام تنشر على صدر صفحاتها الأولى خبر إجراء الممثل الخاص للوكالة حديثاً شاملاً مع السيدة جوركي الموجودة سراً في برلين، وقدم موظف الهاتف سبقاً صحفياً كبيراً.

بعد الظهر عقد دكتور «داميرت» اجتماعاً للمحررين بمكتبه، وتم استدعائي لحضور الاجتماع، وبعد محاضرة استهلالية ركز فيها على أنه لا يجوز إرسال أي مادة صحفية إلى الصحف المشتركة بالوكالة مهما تكن أهميتها إلا بعد إجازتها من محرر الأخبار، أخبرني أنني قد رقيت إلى درجة محرر.

أخيراً أصبحت صحافياً.

[٤]

سمعت أصوات أقدام خفيفة قادمة على الرمال: إنه زيد، عائد من البئر بعد أن ملأ القرب بالمياه، أسقطها على الرمال بالقرب من النار فصدر عنها رنين ارتطام الماء بالماء، ثم أكمل إعداد العشاء: طهى أرزاً ولحم بعير كان قد اشتراه من القرية عند حلول المساء. وبعد أن قلب الطعام بالمغرفة التقليب النهائي والبخار يتطاير من الإناء، استدار إليّ متسائلاً: «هل تأكل الآن يا عمي؟».

ودون أن ينتظر ردي، أفرغ الطعام في قصعة متسعة في كومة كبيرة، قرب القصعة أمامي، ثم تناول وعاءً نحاسياً ملأه بالماء لأغسل يدي: «بسم الله، أدام الله عليك نعمة الحياة».

انهمكنا في الأكل، جالسين متربعي الساقين في مواجهة بعضنا ومن بيننا القصعة ونتناول الطعام بأصابع يدنا اليمنى.

رحنا نأكل في صمت، لم يكن أي منا من مكثري الحديث، عدا ذلك، كنت قد وجدت نفسي غارقاً في خضم ولجة ذكريات تتوالى على ذهني، أفكر في العمر الذي عشته قبل قدومي إلى الجزيرة العربية، قبل

أن أعرف زيد، لذا لم أتمكن من الحديث بصوت مرتفع، فرحت أتحدث في صمت مع نفسي وإلى نفسي، أتذوق طعم الحاضر عبر أحوالي في الماضي.

بعد أن تناولنا عشاءنا، وبينما أنا متكئ على سرج الناقة، وأصابعي تعبث بالرمال، أحملق في نجوم الجزيرة العربية الصامتة على صفحة السماء، فكرت أنه كان من الممكن والرائع لو وجدت بصحبتي من يمكنني أن أحكي له ما حدث لي في تلك الأيام البعيدة، إلا أنه لم يكن بصحبتي إلا زيد. كان زيد عظيماً ومخلصاً في وفاء نادر، وكان رفيقي في أيام الوحدة. كان أريباً، دقيق الفهم حسن الإدراك، وخصاله حميدة.

ألقيت عليه نظرة جانبية ـ كان وجهه بملامح حادة تحيطها خصل طويلة من الشعر، كان منحنياً بانهماك على إبريق القهوة، أدرت رأسي باتجاه الناقتين الباركتين تلوكان طعامهما في أناة ـ أيقنت أني أحتاج إلى مستمع آخر: امرؤ لم يلعب دوراً في حياتي الماضية، وبعيد عن مشاهد وروائح وأصوات الأيام والليالي الحالية: امرئ أستطيع أمامه أن أسرد الأفكار التي ترد إلى ذهني واحدة بعد أخرى بلا تزويق، فقد ترى عيناه ما بتلك الأفكار وأراها أنا من جديد وبذلك يساعدني على اصطياد أطراف حياتي وهي تمر من شبكات كلامي.

إلا أنه لم يكن يوجد معي إلا زيد. وزيد هو الحاضر.

الفصل الثالث

ريــاح

سرنا، وسرنا، رجلان على ناقتين، وانداح الصباح مبتعداً. كسر زيد حاجز الصمت السائد: «شيء غريب، شيء غريب جداً». سألته: ما الغريب يا زيد؟» قال: «أليس غريباً يا عمي، أننا كنا متوجهين منذ أيام قليلة إلى تايما وغيرنا وجهتنا الآن إلى مكة؟ أنا متأكد أنه لم يكن بنيتك التوجه إلى مكة قبل تلك الليلة التي تهت فيها. أعرف أنك متقلب مثل البدو.. مثلي تماماً. هل كان ذلك من عمل الجن يا عمي؟ مَنْ يغير وجهته هكذا فجأة، منذ أربعة أعوام مضت طلبت مني أن أوافيك بمكة ـ والآن تأمرني فجأة أن نغير اتجاهنا إلى مكة، هل نترك أنفسنا هكذا توجهنا الرياح كأننا لا نعرف ما نريد؟».

[١]

أجبته: «كلا يا زيد ـ أنت وأنا، نترك أنفسنا للرياح لأننا نعرف ما نريد: قلوبنا تدرك ما نريد، حتى لو كانت أفكارنا أبطأ في ملاحقة ما تريده قلوبنا، إلا أنها تدرك في النهاية ما يدور في القلوب ثم نعتقد بعد ذلك أننا اتخذنا قراراً...».

ربما كان قلبي يدرك هذا في ذلك اليوم منذ عشرة أعوام مضت، حين وقفت بجوار سور السفين التي أقلتني في أول رحلة إلى الشرق الأوسط، كان السفين يتجه جنوباً عبر البحر الأسود إلى مضيق البسفور، وكانت ليلة ضبابية لم يبد في عتمتها أي شيء، وتلى النهار نهار ضبابي أيضاً، كان الماء بلون الرصاص، يتناثر زبده ويتطاير على سطح السفين، أما محرك السفين، فكان له إيقاع يشبه دقات القلب.

وقفت بجوار السور المعدني، أتطلع عبر قتامة الضباب الشاحبة. إن سألني امرؤ عما كنت أفكر به وما توقعاتي التي أحملها في ذهني في أول رحلة لي إلى الشرق الأوسط، لما وجدت إجابة محددة لتساؤله. ربما كان الفضول.. ربما، إلا أنه لم يكن فضولاً يفصح عن نفسه بطريقة سافرة مباشرة، على الأقل لم تكن في ذهني أهداف عظيمة القيمة. وجد قلقي الداخلي علاقة تربطه بالضباب السائد على صفحة البحر. لم يشغل فكري أني أزور بلاداً غريبة وشعوباً مختلفة، كما لم يشغل فكري صور لمستقبل قريب أو مدن غريبة بأشكال غير مألوفة أوشك أن أصل إليها، وبشر بأزياء غريبة وسلوكيات مغايرة سأراها عاجلاً، اعتبرت أن تلك الرحلة حدث وقع بالمصادفة، ويحتمل أن تكون مبهجة، إلا أنها لا تحمل أهمية خاصة على الإطلاق. في تلك اللحظة تعكر فكري وتشتت بهموم الماضي.

الماضي؟ هل لي أي ماض؟ كان عمري اثنين وعشرين عاماً.. إلا أن أبناء جيلي ـ أولئك الذين ولدوا مع مطلع القرن العشرين ـ عاشوا عصراً سريع الإيقاع عن أي زمن عاشته أية أجيال أخرى سابقة، بدا الماضي الذي أتذكره كما لو كنت أنظر إلى مدى زمني سحيق غائر

القدم. نهضت من مخيلتي كل المصاعب والمشاكل والمغامرات التي خضتها فيما مضى من عمري، كل التطلع والشوق واللهفة والسعي وخيبة الأمل والخذلان والنساء وأول علاقات في حياتي.

كانت الليالي تبدو لنا بلا نهاية، نسير تحت ضوء النجوم، لا ندري على وجه التحديد ما الذي نريده، أسير برفقة صديق في شوارع تخلو من المارة، نتحدث عن أشياء تبدو لنا جوهرية، متغافلين عن جيوبنا الخاوية وافتقاد الأمان في الأيام المقبلة. تلك المشاعر من عدم الرضا السعيد التي لا يعرفها إلا الشباب والرغبة العارمة في هدم العالم وبنائه من جديد.. وإحساس يقيني بحتمية إعادة تشكيل المجتمع ليحيا الجميع حياة صائبة ومشبعة.. وتنظيم علاقاتهم لتحطيم عزلة الفرد، الحياة بصدق في تشارك تام.. ما هو الخير وما هو الشر؟ ما هو المصير؟ ما هي الأفعال الجوهرية التي يجب القيام بها دون تظاهر لتتطابق مع طبيعة المرء وحياته حتى يمكن له أن يقول بصدق وارتياح من الأعماق: «أنا وقدري شيء واحد»؟

مناقشات مثقفين لا تصل أبداً إلى نهاية ولا إلى حلول... على مقهى المثقفين في فيينا وبرلين، مناقشات ساخنة غاصة بمصطلحات عن «الشكل» و«المضمون» وتعبيرات ومصطلحات عن الحرية السياسية ومعناها، عن علاقة الذكر والأنثى.. جوع إلى المعرفة، وأحياناً إلى الطعام... وليالي الغرام بلا قيود: فراش مبعثرة أغطيته عند الفجر، في الوقت الذي تكون فيه إثارة الليل قد ذوت وانطفأت جذوتها وتحولت إلى لون رمادي فاتر لا حياة فيه: وحين يأتي صباح جديد ينسى المرء رماد الفجر ويسعى من جديد بخطوات مترنحة ويشعر أن الأرض

ترتجف في مرح تحت وقع أقدامه. . . والإثارة المصاحبة لكتاب جديد أو وجه جديد؛ البحث، ثم التوصل إلى أنصاف إجابات، وتلك اللحظات النادرة حين يتبدى العالم فجأة، ولثوان، وكأنه سكن تماماً وأضاءته ومضة عابرة من الفهم واعدة بكشف لم يصل إليه أحد من قبل: ومضة كاشفة تحمل إجابات كل الأسئلة الحائرة.

* * *

كانت سنوات عجيبة تلك السنوات التي شكلت واستهلت عشرينيات القرن العشرين في وسط أوروبا. كان الجو العام يسوده انعدام الأمان الاجتماعي والأخلاقي، وأدى إلى شيوع اليأس الذي عبر عن نفسه في أعمال موسيقية تجريبية تتسم بالجرأة، وعبر اليأس عن نفسه في التصوير والفنون التشكيلية والمسرح، كما بدا في تلمس اتجاهات جديدة دارت حول تساؤلات رائدة عن شكل الحضارة المطلوبة، إلا أن كل ذلك أفضى بمصاحبة التفاؤل الإجباري إلى فراغ روحي وغموض متشائم ولد من فقدان الأمل المتزايد في مستقبل البشر.

على الرغم من حداثة سني، فإنه لم يخف عني أنه بعد كارثة الحرب العظمى لم تعد الأمور تحتوي على أي قدر من الصواب في عالم أوروبي محطم، غير راض ومتوتر عاطفياً. إلههم الحقيقي لم يعد إلهاً روحياً: بل أصبح إلههم البحث عن الراحة والرفاهية. ولا جدال أنه كان هناك كثيرون أحسوا وفكروا بشكل روحي وبذلوا جهوداً يائسة ضد التيار ليصالحوا معتقداتهم الأخلاقية والروحية مع روح الحضارة المادية السائدة، إلا أن من نجح منهم كان استثناءً نادراً. أما الأوروبي العادي

الذي يمثل الغالبية ـ سواء الديموقراطي أو الشيوعي، العامل اليدوي والمفكر ـ فقد بدوا جميعاً وكأنهم باتوا لا يؤمنون إلا بمعتقد إيجابي واحد: هو عبادة التقدم المادي، والإيمان بأنه لا يوجد أي هدف للحياة أهم من تحويلها بصفة دائمة ومستمرة إلى حياة سهلة ومريحة، أو كما يذكر المصطلح الذي ساد: «الاستقلال عن الطبيعة». كانت معابد وكنائس تلك العقيدة هي المصانع العملاقة، ودور السينما، والمعامل الكيميائية، والمراقص، والكهرباء، كما كان قساوستهم ومبشروهم هم رجال البنوك، والمهندسون، والساسة، ونجوم الأفلام، والإحصائيون، وكبار رجال الصناعة، ورجال الطيران، ومفوضو الأحزاب الشيوعية. كان الفزع الأخلاقي واضحاً في افتقاد أي اتفاق حول معاني الخير والشر وخضوع كل القيم الاجتماعية والاقتصادية لقانون «النفعية» ـ حتى إنه صبغ بصبغته نساء الشوارع، اللاتي رحن يهبن أنفسهن لأي عابر في أي وقت يطلب منهن ذلك. التوق الذي لا يشبع للقوة والمتعة عند الضرورة الذي يقود إلى انفصال المجتمع الغربي إلى مجموعات متناحرة متعادية مسلحة حتى أسنانها ومصرة على إفناء بعضها البعض حينما وحيثما تتعارض اهتمامات تلك الجماعات أو تتناقض. وعلى الجانب الفكري، كان الناتج بشراً تنحصر أخلاقهم في إحراز المنفعة ومثلهم الأعلى للحق هو النجاح المادي.

رأيت كيف اضطربت حياتنا وافتقدت السعادة الحقة، وكيف تقلص التواصل والتعايش بين فرد وآخر على الرغم من الإصرار الهستيري على تماسك «المجتمع» و«الأمة»، وإلى أي مدى شردنا بعيداً عن الفطرة، وإلى أي مدى ابتذلت أرواحنا. شاهدت كل ذلك وعشته، إلا أنه لم يصبني ـ كما لم يصب بعضاً ممن عشت بينهم ـ ورأيت أن الحل، أو

على الأقل الحل الجزئي لتلك الحيرة موجود في ثقافة أخرى، كانت أوروبا هي بداية ونهاية تفكيرنا: حتى اكتشفت الحكيم لاو ـ تسي، وأنا في سن السابعة عشرة أو نحوها.

* * *

بدا اكتشافي لـ «لاو ـ تسي» اكتشافاً حقيقياً، لم أكن سمعت عنه قبل ذلك، حتى وقعت عيناي على ترجمة ألمانية لـ«تاو ـ تي ـ كنج» موضوعة على طاولة مكتبة بفيينا. أثار الاسم الغريب بعض فضولي ففتحت الكتاب بطريقة عشوائية، وجرت عيناي على فصل قصير من الحكم ـ شعرت برجفة مفاجئة في أعماقي، طعنة من السعادة المفاجئة جعلتني أنسى ما حولي ولا أشعر بوجوده وأتجمد في مكاني مسحوراً ومأخوذاً بما قرأت: كان ما أقرأه يظهر لي جوهر حياة البشر في صفائها، خالية من النزاعات والصراعات، تسمو إلى سعادة خالصة مفتوحة لا تنضب أمام القلب البشري إذا هفا إلى رفع ذاته إلى حريته وخلاصه: وجدت فيما قرأته صدقاً خالصاً، تعرفت إليه ونفذ إلى عقلي ومشاعري بفرح يماثل فرح العائد إلى وطنه بعد غياب طويل... على مدى أعوام، كان «لاو ـ تسي» بمثابة نافذة أتطلع من زجاجها النقي إلى حياة بعيدة عن ضيق الرؤى ومخاوف الذات، والهواجس الطفولية التي ترغم البشر إلى محاولة تأمين وجودهم في كل لحظة عن طريق «تحسين الوسائل المادية» بأي ثمن، لم أكن أرى أن تحسين الوسائل المادية غير ضرورية بالنسبة لي، بل على العكس، ظللت معتقداً أنها مهمة وضرورية، إلا أنني كنت مقتنعاً في الوقت ذاته أنها ـ أي الوسائل المادية ـ لا يمكن أن تحقق غاية نهائية أو هدفاً جوهرياً وهو تحقيق سعادة

البشر، إلا إذا صاحبها تصالح وتوافق مع المكونات الروحية وإيمان بالقيم المطلقة. أما كيفية تحقيق إعادة التصالح تلك، وأي نوع من القيم ذلك الذي كان يدور بخلدي، فلم يكن واضحاً تماماً في ذهني.

كان من الحماقة بالطبع أن أتوقع إمكانية تغيير البشر لأهدافهم، وبالتالي توجهاتهم ومسعاهم بمجرد أن يبشرهم أحد بذلك، كانت رؤية لاو ـ تسي تذهب إلى أن المبشر لا بد أن يفتح نفسه للحياة بدلاً من جذبها ومحاولة قهرها بالعنف.

لم يكن التبشير وحده، ولا الإدراك الذهني وحده أن يغير أي منهما على حدة المجتمع الأوروبي؛ فما كان ينقص المجتمع الأوروبي الإيمان النابع من القلب، واستسلام صادق وحميم للقيم لا يحتوي على «لو» و«لكن: متى يتحقق مثل ذلك الإيمان...؟

بشكل ما لم يتبادر إلى ذهني في ذلك الوقت أن أفكار لاو ـ تسي لا تهدف فقط إلى اختراق الذهن لتحقيق تغيير في المواقف الفكرية، بل كان يسعى أيضاً إلى تغيير المفاهيم الجوهرية التي تنبع منها المواقف الفكرية. لو كنت قد أدركت ذلك لكنت قد أدركت أن أوروبا لا يمكن أن تحقق ذلك الصفاء الروحي الذي يتحدث عنه لاو ـ تسي إلا إذا امتلكت أوروبا شجاعة التساؤل عن أصل وحقيقة جذورها الروحية والأخلاقية. كنت بالطبع أصغر من أن أصل بوعيي إلى مثل ذلك الاستنتاج: أصغر من أن أتمكن من الإحاطة بالتحدي الذي يطرحه الحكيم الصيني بكل عظمة مضامينه، حقيقة، صدمتني رسالته حتى الأعماق، لقد كشفت لي عن أفق الحياة يمكن فيه للمرء أن يصبح هو وقدره شيئاً واحداً، أي أن يتوحد المرء مع ذاته: ولكن حيث إني لم

أدرك بوضوح كيف يمكن لتلك الفلسفة أن ترسي مقاييس يمكن تطبيقها في الواقع العملي للحياة لذلك النسق الأوروبي، بدأت تدريجياً أتشكك في إمكانية تطبيقها. لم أتوصل حتى إلى نقطة ما أتوقف عندها وأتساءل إن كانت طريقة الحياة الأوروبية في جوهرها هي الطريقة الوحيدة الملائمة للحياة، أي أنني كنت مثل كل المحيطين بي، مغلف تماماً ومشبع كلياً بالنظرة الثقافية الذاتية الأوروبية.

وهكذا، وعلى الرغم من أن صوت لاو ـ تسي لم يصمت أبداً داخلي، فإنه تراجع خطوة بعد خطوة إلى أن احتل مكانه بين التأملات الفكرية الذهنية المجردة، وبمرور الوقت كفت أن تكون أكثر من رؤى فكرية رائعة في صياغة شعرية جميلة. داومت على قراءته من آن لآخر؛ وفي كل مرة كنت أشعر بطعنة الرؤى السعيدة، ثم أضع الكتاب جانباً مع الإحساس بالأسى أن ذلك لم يكن إلا نداءً حالماً إلى برج عاجي لا يوجد إلا في الخيال، وعلى الرغم من قسوة التناقضات والنزاعات ومرارة عالم تسوده الأطماع كنت جزءاً منه، إلا أنني لم أكن أبحث عن برج عاجي أحيا فيه من صنع لاو ـ تسي.

وجدت نفسي لا أشعر بحمية ولا حماس للأهداف والمساعي التي كانت تسري في الحياة الفكرية الأوروبية وتموج بها الآداب والفنون والاتجاهات السياسية وطنين المناقشات الحامية. فمع أوجه التناقضات بين كل التيارات والاتجاهات إلا أن هناك جانباً مشتركاً جمعها كلاً في افتراض واحد، هو الافتراض الساذج بأنه من الممكن انتشال الحياة من فوضاها الحالية والارتقاء بها إلى الأفضل لو تم تغيير الأحوال الاقتصادية والسياسية إلى الأفضل. كنت أوقن أن التقدم المادي في حد

ذاته ليس هو الحل، على الرغم من أنني لم أكن أعرف على وجه اليقين أين يمكن أن أجد الحل، كما لم أتمكن من إقناع نفسي بذلك الحماسة التي اعترت كل جيلي من أجل «التقدم».

لم أكن تعيساً، كما لم أكن انطوائياً، بل كنت في ذلك الوقت سعيداً بما هو أكثر من النجاح في حياتي العملية، لم أكن أستمد سعادتي من وظيفتي، كان عملي في وكالة يونايتد تليجرام يرجع إلى تمكني من عدة لغات، وكنت قد أصبحت نائباً لرئيس تحرير قطاع أخبار الصحافة الاسكندنافية، وفتح أمامي ذلك العمل سبلاً وطرقاً عريضة إلى عالم أرحب وأوسع. كان مقهى «دي فيستين» ومن بعده مقهى «رومانشيه» ملتقى الكتاب والمفكرين البارزين والفنانين ومشاهير الصحافيين وممثلين ومنتجين، وكانوا كلهم يمثلون لي البيت الفكري. ربطتني بهم جميعاً علاقات صداقة توفرت بها الندية، كان لي أيضاً شهرتي التي لم تقل عن شهرة كثيرين منهم. كانت حياتي مليئة بصداقات عميقة، وعلاقات حب وغرام عابرة. كانت الحياة مثيرة، مليئة بأحلام واعدة صاخبة الألوان. كلا، لم أكن تعيساً بالتأكيد ـ لكني لم أكن أشعر بالرضى ولا بالإشباع، لا أدري بالتحديد ما الذي أسعى إليه وما الذي أتوق إلى تحقيقه، وفي الوقت نفسه كنت مقتنعاً، مع فورة الشباب وجموحه، إنني سأعرف في يوم ما، ما أبحث عنه وأحققه. هكذا كنت أتأرجح بين ما أحسه في قلبي من رضا وعدم رضا مثلي مثل كثير من شباب تلك السنوات الغريبة: فمع أن أياً منا لم يكن تعساً، إلا أن قليلاً من كان سعيداً بوعي وإدراك. لم أكن تعساً: ولكن عزوفي عن المشاركة في الاتجاهات والصراعات المتعارضة للتوجهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نما مع الوقت ليتحول إلى إحساس غامض من

عدم الانتماء الكامل، وصحب ذلك الإحساس غموض آخر، رغبة عارمة للانتماء، إلى من؟ ـ وأن أصبح جزءاً من كل ـ أي كل؟

ثم في أحد أيام ربيع عام ١٩٢٢ ، تلقيت رسالة من خالي دوريان، كان خالي دوريان أصغر أشقاء أمي، ربطتني به علاقة صداقة أكثر منها قرابة. كان طبيباً نفسياً وأحد تلاميذ عالم النفس الشهير «فرويد»، وكان في ذلك الوقت يشغل وظيفة طبيب نفسي في مصحة عقلية في مدينة القدس. ولأنه لم يكن صهيونياً ولا يتعاطف مع المخططات الصهيونية ـ كما كان لا يميل إلى العرب، فقد شعر بوحدة وعزلة في عالم لا يفعل به إلا أن يعمل ويتلقى أجراً. لم يكن متزوجاً، ولذا فكر في ابن شقيقته كرفيق ملائم في تلك الوحدة، أشار في رسالته إلى تلك الأيام المثيرة حين كان يرشدني إلى ذلك العلم الفذ الجديد، علم التحليل النفسي، واختتم رسالته قائلاً:

«لماذا لا تأتي وتقيم بضعة أشهر هنا؟ سأدفع نفقات سفرك قدوماً وعودة، وسأترك لك تحديد موعد عودتك إلى برلين. وحين تكون معي هنا، ستعيش معي في منزل عربي قديم مشيد من الحجارة، جوه لطيف صيفاً وبارد حتى التجمد في الشتاء، سنقضي وقتاً ممتعاً معاً. لدي كتب كثيرة هنا، حين تشبع من تأمل المناظر الغريبة حولنا، يمكنك أن تقرأ كما تشاء. . .».

اتخذت قرار السفر بتصميم وعزيمة اتصفت بها دائماً قراراتي الكبرى، في الصباح التالي أخبرت دكتور «دامبرت» في وكالة يونايتد تليجرام أن هناك اعتبارات وأسباباً مهمة تحتم علي التوجه إلى الشرق الأوسط، وأنني سأترك العمل خلال أسبوع.

لو أخبرني أي امرئ في ذلك الوقت أن أول معرفة مباشرة لي بالعالم الإسلامي ستؤدي إلى ما يفوق كثيراً ما يخرج به أي مسافر في رحلة أو إجازة عمل، وأنها ستصبح نقطة تحول عظمى في حياتي، لكنت قد ضحكت كثيراً من مثل تلك المزحة المجافية للعقل. ليس بالطبع لأنني محصن ضد إغراءات البلاد التي ترتبط في ذهني - وذهن كل الأوروبيين - بالجو الرومانطيقي لحكايات ألف ليلة وليلة؛ فقد توقعت أن أرى ألواناً وأصنافاً من البشر، وأزياء مختلفة متباينة والمرور بمواقف رائعة مثيرة، إلا أنني لم أتوقع أية مغامرات روحية. لم تمثل لي تلك الرحلة وأنا أعد نفسي لها أي وعد خاص أو حلم بتحقيق أي جانب شخصي. كل ما كان يدور بذهني عن تلك الرحلة كنت أتعامل معه برؤية غربية، فقد كان رهاني لا يزال محصوراً في تحقق أعمق في المشاعر والإدراك من خلال البيئة الثقافية الوحيدة التي نشأت بها وهي البيئة الثقافية الأوروبية. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ لم أكن إلا شاباً أوروبياً صغيراً في مقتبل عمره، نشأت على الاعتقاد بأن الإسلام وكل رموزه ليس إلا محاولة التفافية رومانطيقية حول التاريخ الإنساني، محاولة لا تحظى حتى «بالاحترام» من الناحية الروحية والأخلاقية، وبالتالي لا يستحق الذكر، فضلاً عن أنه أقل من أن يقارن بالعقيدتين الوحيدتين اللتين يرى الغرب أنهما تستحقان الاهتمام والبحث وهما المسيحية واليهودية.

بذلك الفكر الضبابي الغائم، والانحياز الغربي ضد كل ما هو إسلامي (لا يشمل ذلك بالطبع المظهر الرومانطيقي الفولكلوري لمظاهر الحياة الإسلامية كما تبدو في نظر الغرب) ولو تعاملت بعدل مع ذاتي، لا بد أن أقرر أنني أيضاً كنت غارقاً حتى أذني في تلك الرؤية الذاتية

الأوروبية والعقلية الذاتية الثقافية التي اتسم بها الغرب على مدى تاريخه.

* * *

والآن، كنت على سطح سفينة في طريقي إلى الشرق، كان السفر ممتعاً من برلين حتى القسطنطينية، وفي هذا الصباح الضبابي على متن تلك السفين. ظهر شراع أحمر من بين حُجُب الضباب ومرق بجوار السفينة، عرفت أن الشمس على وشك الظهور. كانت حزم من ضوء شاحب، رفيعة كالخيوط، تسقط على العتمة الضبابية السائدة على سطح الماء، كان للعتمة الضبابية لون شاحب مثل الألوان المعدنية. تحت تواصل تزايد أشعة الشمس الموشكة على الإشراق، ترسبت الكتل اللبنية للضباب ببطء وتثاقل على سطح الماء، ثم تفرقت عن بعضها، ثم تناثرت محيطة بجوانب حزم ضوء الشمس المتزايد كأقواس متطايرة، مثل أجنحة الطيور.

سمعت من خلفي صوتاً عميقاً ممتلئاً يقول: «صباح الخير» استدرت وتعرفت على الفور على رفيقي في السفر ذي الرداء الكنسي الأسود، والذي قابلته في الليلة الماضية، وجه ودود تعلوه ابتسامة محببة جعلتني أميل إليه بسهولة. كان قساً جزويتياً نصف بولندي ونصف فرنسي ويعمل معلماً للتاريخ في واحدة من كليات مدينة الإسكندرية، وكان عائداً إليها بعد انقضاء إجازته. كنا قد تبادلنا الحديث في الليلة السابقة حول مواضيع مختلفة اتضح منها أننا مختلفان في مناحٍ فكرية عديدة، وكنت ناضجاً بما يكفي لأدرك أنه طراز من الرجال الأذكياء الجادين، كما يتمتع بروح مرحة.

رددت تحيته: «صباح الخير يا أب فيليكس، انظر إلى البحر. . .»
كان نور الصباح قد أشرق واستعادت المرئيات ألوانها الطبيعية بعد انقشاع الضباب. وقفنا على مقدم السفينة تهب علينا رياح الصباح. حاولت متابعة تغيرات الألوان السريعة والمتعاقبة في أمواج المياه المتلاطمة على صفحة البحر: أزرق، أخضر، رمادي. من الممكن أن تكون زرقاء إلا أنها عكست لوناً أرجوانياً من الشمس المتصاعدة، انزلق اللون المنعكس على صدر الأمواج، بينما تطاير زبد أبيض من نصل الأمواج وتشكل كأنه رغوة جليدية تجري على حافة ألوان معدنية مجعدة ثم تحولت الأمواج العاتية إلى مجرد حركة ارتجاجية وسطح مياه مرتجف ـ وإلى آلاف الدوامات الدقيقة المستقلة عن بعضها وتحول لون فجواتها من الأرجواني إلى الأخضر الداكن، ثم يتصاعد اللون الأخضر في قلب الدوامة متحولاً إلى لون بنفسجي مرتجف؛ ثم يتحول في لحظة إلى لون النبيذ القاني، ثم في وهلة إلى لون التركواز الأزرق ويصبح حافة موجه، ويتكسر من جديد، مرة بعد أخرى في الرغوة البيضاء التي نشرت شباكها على تلال الأمواج المتتابعة. . . مرة بعد مرة في تتابع لا ينتهي.

بعثت حركة الأمواج وألوانها المتغايرة في نفسي إحساساً بالقلق والتوتر لعدم قدرتي على متابعة تبايناتها السريعة. حين تطلعت إليها بنظرة شاملة، أحسست لثوان أنه يمكن أن ألم بكل ذلك من خلال صورة كلية متكاملة؛ فعادة التركيز الإرادي وربط مفهوم منفصل مستقل بمفهوم آخر لم يؤد إلا إلى إدراك سلسلة من الصور المنفصلة التي لا يربطها رابط ومن مشكلة العجز عن الفهم والإحاطة، والتشتت الذهني الغريب المقلق، تولدت فكرة سطعت في ذهني بوضوح شديد ـ أو

هكذا بدت لي في ذلك الوقت ـ قلت بطريقة لاإرادية معبراً عن الفكرة التي راودتني: «من يتمكن من الإلمام بكل تلك المتغيرات السريعة بحواسه سيكون بإمكانه السيطرة على قدره ومصيره».

رد الأب فيليكس: «أعرف ما تعنيه، ولكن لماذا يرغب البشر في السيطرة على أقدارهم؟ للنجاة من المعاناة؟ ألا يكون من الأفضل أن يتحرر البشر من أقدارهم»؟

قلت: «أنت تتكلم تقريباً مثل بوذي يا أب فيليكس. هل تعتبر أيضاً أن النيرفانا هي هدف الوجود؟».

رد قائلاً: «أوه، كلا، بالتأكيد لا أعني ذلك... نحن المسيحيين لا نسعى لإخماد الحياة والمشاعر ـ نحن نسعى فقط إلى السمو بالحياة فوق مستوى المادة والحس إلى مملكة الروح».

سألته: «ألا يعد ما تذكره نوعاً من إلغاء الذات والوجود والحياة لحساب الروح؟».

رد قائلاً: «لا، ليس كذلك يا صديقي الشاب، فما أذكره هو السبيل الوحيد للحياة الحقة، للسلام...».

فجأة ظهر أمامنا مضيق البسفور، بدا طريقاً مائياً واسعاً تحفه من جانبيه أمواج يتصاعد منها زبد أبيض من ارتطامها بالتلال الصخرية على جانبيه. تناثرت على التلال الصخرية قصور عالية شغلت جانباً من سماء ضفتي المضيق، من بينها حدائق بدت كشرفات تطل على المياه، وقلاع عثمانية قديمة بدت وكأنها كتل صخرية ضخمة معلقة على حافة الماء مثل أعشاش طيور جارحة.

سمعت صوت الأب فيليكس يتابع حديثه وكأنه آت من مسافة

بعيدة: «أنت تعرف أن أعمق رموز الطموح البشري هو رمز الجنة، ستجده في كل الديانات في صور تخيلية مختلفة، إلا أن المعنى هو ذات المعنى، وهو تحديداً، الرغبة في التحرر من القدر والمصير. البشر في الجنة بلا مصير؛ لقد استسلموا لإغراء البدن وسقطوا فيما نسميه الخطيئة الأولى. إثم الروح أمام متطلبات البدن المتدنية والتي تعتبر بقايا حيوانية في الطبيعة البشرية. أما الجوهر البشري، أي الجانب الإلهي المقدس فهو الروح فقط. الروح تجاهد ساعية إلى النور، النور هو الروح القدس، ولكن بسبب الخطيئة الأولى فإن طريق الروح إلى النور مليء بالعثرات المادية، وهي الجانب غير المقدس ـ البدن ـ واحتياجاته ورغباته وغرائزه. ما تهدف إليه التعاليم المسيحية، أن يحرر البشر أنفسهم من تلك المتطلبات الزائلة والمتطلبات الشهوانية الفانية وأن يعود البشر إلى ميراثهم الروحي الذي أخذوه من الرب».

ظهرت على حافة الصخور العالية في تلك اللحظة قلعة «روميلي حصّار» العثمانية الشهيرة ذات البرجين، كان أحد جوانبها الصخرية ينزل ممتداً حتى حافة المياه، وعلى الشاطئ، في شبه الدائرة التي تكونها جدران القلعة، كانت هناك مقبرة تركية صغيرة بشواهد حجرية محطمة.

قلت: قد يكون الأمر كذلك يا أب فيليكس، إلا أنني أشعر ـ وهو الشعور ذاته لدى أعداد كبيرة من جيلي ـ أن هناك خطأ ما في الفصل بين ما هو «جوهري» وما هو «غير جوهري» أي الفصل بين الروح والجسد. . . باختصار لا أوافقك على إنكارك لأهمية الاحتياجات الجسدية الفسيولوجية أو الغريزية، أو المصير المرتبط بالأرض والاحتياجات الدنيوية. ما أؤمن به وما أرغبه يسعى في اتجاه مختلف؛

فأنا أحلم بشكل للحياة ـ وأنا أعترف أنني لا أعرف ملامح هذا الشكل بوضوح ـ في ذلك الشكل من الحياة تجاهد الروح والبدن، لتحقيق أعمق وأعمق للذات، في ذلك النوع من الحياة الذي أنشده لا تغدو الروح والبدن عدوين لبعضهما ولا متناقضين في مسعييهما، وبذلك يمكن للإنسان أن يحقق التوحد بين ذاته، وقدره، حتى يمكنه أن يقول عند وصوله إلى تلك القمة «أنا هو قدري، وقدري هو أنا».

رد الأب فيليكس: «لقد كان ذلك هو الحلم الهيليني؛ فإلى أين قاد البشر ذلك الحلم الهيليني؟ قادهم إلى ألغاز أورفيوس وديونيس، ثم إلى فلسفة أفلاطون وبلوتينوس، وهكذا، حتى عاد بهم من جديد إلى يقين حتمي بتناقض الروح والجسد في مسعاهما. . إن الخلاص المسيحي يسعى إلى تحرير الروح من هيمنة الجسد، وهو معنى نستمده من إيماننا بتضحية المسيح بذاته على الصليب. . .»، وهنا توقف بغتة عن مواصلة حديثه والتفت إليّ وهو يغمز قائلاً: «أنا لست على الدوام من المبشرين. . . سامحني إن كنت قد تحدثت إليك بمعتقداتي وإيماني، التي تختلف عن معتقدك وإيمانك. . .».

قلت له مخففاً عنه الحرج الذي أحس به: «لا عليك، أنا بلا إيمان» رد الأب فيليكس: بلى، أعرف ذلك، نقص الإيمان، أو بمعنى أدق، عدم القدرة على الإيمان، تلك هي العلة في عصرنا الحالي أو المرض المتفشي، إنك، مثل آخرين كثيرين، تعيشون على وهم عمره آلاف السنين، وهو أن الذكاء وحده يمكن أن يقود الإنسان في جهاده، إلا أن الذكاء لا يمكن أن يقود الإنسان إلى معرفة الروح؛ فالذات غارقة في تحقيق أهدافها المادية الدنيوية، الإيمان، الإيمان وحده هو الذي

يمكن أن ينتشلنا من ذلك الغرق والاستغراق اللاهث وراء متطلبات البدن».

سألته: «الإيمان؟ أنت من جديد تذكر الكلمة على لسانك. هناك شيء لا أفهمه: لقد قلت إن العقل لا يمكن أن يصل وحده إلى اليقين وإلى الحياة الحقة؛ وأن هناك حاجة إلى الإيمان بجانب العقل كما ذكرت. وأنا أوافقك تماماً على ذلك. ولكن كيف يمكن للمرء أن يتوصل إلى الإيمان إن لم يكن لديه إيمان؟ هل هناك وسيلة لتحقيق ذلك ـ أعني معرفة طريق إرادتنا؟

رد الأب فيليكس: «يا صديقي العزيز، الإرادة وحدها لا تكفي. الطريق متاح فقط برحمة الله، إلا أنه لا يتاح إلا لمن يصلي بقلبه ومن أعماقه حتى ينير الرب طريقه».

قلت متسائلاً: «يصلي! ولكن حين يكون المرء قادراً على ذلك يا أب فيليكس فإنه يكون لديه إيمان أصلاً. إنك تدور بي في حلقة مفرغة ـ لأنه إذا كان المرء يصلي، لا بد أن يكون مقتنعاً أولاً بوجود الإله الذي يصلي له. كيف وصل إلى هذا الاقتناع؟ هل من خلال عقله؟ ألا يشير ذلك إلى أنه يمكن الوصول إلى الإيمان من خلال العقل؟ وعدا ذلك، هل تعني «الرحمة» أي شيء لمن يمر بتجربة إيمانية من هذا النوع؟».

رفع القس كتفيه بأسف، بدا وكأنه يريد أن يقول: «إذا لم يكن المرء قادراً على معرفة الرب بنفسه، فمن الأفضل أن يترك نفسه لينقاد إلى تجارب الآخرين الذين يعرفون الله بقلوبهم».

* * *

بعد عدة أيام أخرى رسونا في الإسكندرية، وفي مساء اليوم نفسه كنت متوجهاً إلى فلسطين. انطلق القطار بنا من الإسكندرية في عصر ذلك اليوم عبر أرض دلتا النيل المنبسطة. عبرنا قنوات مائية كثيرة متفرعة من النيل تعلو صفحة مياهها مراكب شراعية. كانت المدن الصغيرة تظهر وتختفي، وتجمعات من منازل طينية لقرى صغيرة ذات مآذن واطئة. وحقول قطن، وقصب السكر؛ وأشجار نخيل شاهقة؛ وقطعان جاموس أسود تعود وحدها بلا راع من البرك الطينية التي كانت تتمرغ بها طول اليوم. على مسافات كان يظهر رجال في ثياب طويلة: بدوا كأنهم طافون، كان الهواء خفيفاً ونظيفاً تحت سماء صافية زرقاء كالزجاج الشفاف. على ضفاف القنوات كانت نباتات البوص تتمايل في رشاقة تحت وقع النسيم، ونساء بملابس فضفاضة سوداء يملأن جراراً فخارية بالمياه: كان مشهدهن رائعاً، كن نحيفات طويلات السيقان؛ ذكرني مشيهن بأشجار طويلة السيقان تتمايل في طراوة إلا أنها قوية في مواجهة الرياح. كانت للشابات الصغيرات منهن والنساء الخطوات نفسها: رشيقة وخفيفة الوقع. زادت العتمة وناءت بثقلها كتنفس كائن عملاق يهجع إلى الراحة. الرجال نحاف القامة بوجه عام، يسيرون في جماعات عائدين من الحقول، بدت حركتهم متثاقلة وتختفي بالتدريج مع اختفاء نور النهار: كل خطوة كانت تبدو ذات وجود مستقل بذاته، كل خطوة مكتملة بذاتها: بين دهر ودهر هناك تلك الخطوة. ربما كان إحساسي بالخفة والنعومة راجعاً إلى أضواء الغروب المبهجة في أراضي دلتا النيل. وربما كان راجعاً إلى رؤية تلك المشاهد الجديدة عليّ ـ ولكن مهما يكن السبب، شعرت فجأة في داخلي بكل وطأة وثقل أوروبا: وطأة الهدف الإرادي في كل ما نفعله. فكرت: «ما أشق اقترابنا

من الواقع. . نحاول الإمساك به، ولكنه يستعصي على الإمساك، وحين يقهر الإنسان يجد الإنسان نفسه منصاعاً للاستسلام له».

كانت خطوات الفلاحين المصريين قد اختفت على البعد في الظلام الذي كان يتزايد، ما زالت تتأرجح في ذهني مثل ترنيمة وترتيل لكل ما هو وسام رفيع.

وصلنا قناة السويس فاستدار القطار بزاوية قائمة وواصل سيره لفترة باتجاه الشمال بمحاذاة ضفة القناة التي بدت رمادية داكنة. كانت القناة تبدو كنغمة مختلفة ممتدة تحت ضوء الليل الشحيح.

أحال ضوء القمر القناة إلى واقع قريب من الحلم، بدت صفحة المياه مثل طريق واسع عريض، كشريط داكن لمعدن لامع، تحول المشهد بسرعة مدهشة من أرض خصبة خضراء بوادي النيل إلى سلاسل من كثبان رملية أحاطت بالقناة على جانبيها فبدت باهتة في مواضع وحادة وبارزة في مواضع أخرى.

في السكون المخيم بدت هياكل رافعات الرمال العملاقة من قاع القناة، ومن خلفها على الضفة الأخرى، ظهر شبح رجل يركب جملاً ويحث السير في الظلام، لمحته بصعوبة ثم اختفى في أعماق الظلام.

ما أعظمه من ممر مائي يتسم بالبساطة: يمتد من البحر الأحمر، إلى البحيرات المرة، ثم عبر الصحراء إلى البحر المتوسط. ممر جعل خفقات المحيط الهندي تصل إلى أرصفة موانئ أوروبا.

انتهت رحلة القطار في مدينة القنطرة، وعبر ركاب القطار القناة في صندل بحري. كان قطار فلسطين سيبدأ رحلته بعد ساعة. جلست أمام محطة القطار. كان الهواء رقيقاً والجو دافئاً وجافاً والصحراء ممتدة إلى

اليمين واليسار. انتشر دخان في الهواء، من آن لآخر كنت أسمع عواء، ربما كانت ذئاباً أو كلاباً. نزل بدوي من العبارة وهو يحمل حملاً ثقيلاً من مخالي الإبل مصنوعة من أقمشة ملونة، سار باتجاه مجموعة تقف على مبعدة وبجوارهم مجموعة جاثمة من الجمال مسرجة وجاهزة للرحيل، كانوا ينتظرون ذلك الذي وصل، فقد ألقى بحمولته الثقيلة على ظهر أحد الجمال، وتبادل حديثاً سريعاً مع من كانوا ينتظرونه وركبوا الجمال التي نهضت أولاً على قوائمها الخلفية، ثم انتصبت على قوائمها الأمامية فمال الراكبون إلى الأمام بحدة ثم إلى الخلف، ثم انطلقوا وأقدام الجمال تبعث أصواتاً ناعمة من خطوها على الرمال، للحظات كان يمكن أن أتابع الألوان المتباينة للإبل المتأرجحة في عدوها والملابس الفضفاضة للبدو ذات الخطوط البنية والبيضاء. تقدم باتجاهي عامل من عمال السكة الحديد، كان يرتدي سروال العمال الأزرق ويبدو أن به عرجاً. أشعل لفافته من لفافتي، وسألني بلغة فرنسية ركيكة: «أنت ذاهب إلى القدس؟» وحين أجبته بالإيجاب، استطرد متسائلاً: «أول مرة؟» هززت رأسي مرة أخرى، كان على وشك الاستمرار في الحديث إلا أنه استدار قائلاً: «هل رأيت القافلة القادمة من صحراء سيناء؟ لا؟ إذن تعال معي لتراهم، ما زال أمامك وقت».

سرنا في فراغ صامت صاعدين درباً ممهداً باتجاه التلال الرملية. نبح كلب في الظلام. وبينما كنا ماضين في طريقنا، نتعثر في النباتات الشوكية، وصلت إلى مسامعنا أصوات مشوشة ومتداخلة لكثير من الناس واختلطت روائح حادة لحيوانات بهواء الصحراء الجاف. فجأة، ظهر شعاع ضوء ضيق من أسفل التل كما لو كان صادراً من أعماق الأرض، ويرتفع تدريجياً كلما هبطنا منحدر التل، كان ضوء نار عظيمة

مشتعلة في واد ضيق بين تلين رمليين، والوادي مغطى بأشجار شوكية كثيفة حتى يصعب أن ترى أرضه. تبينت بوضوح أصوات رجال يتكلمون وسمعت أصوات تنفس الجمال. ظهر فجأة شبح رجل أمام النيران، كان يركض حتى منحدر التل ثم يعود من جديد. بعد أن تقدمت خطوات أخرى، تبينت ما يحدث بوضوح، كانت هناك دائرة واسعة من الجمال الباركة وكوم عظيم من سروج الجمال ومخالي الأحمال متناثرة هنا وهناك؛ وبينهم أشباح الرجال. كانت رائحة الحيوانات مركزة كالنبيذ. أحياناً ما يحرك جمل جسمه فيتغير شكل شبحه في الظلام، ويرفع عنقه ويمدها في الظلام مع صوت شخير، كما لو كان يتنهد: هكذا سمعت لأول مرة تنهدات الجمال. ثغت بعض الماعز بنعومة؛ وزمجر كلب؛ أما خارج ذلك الوادي فقد كان الوجود مظلماً بلا نجمة واحدة في السماء.

كان الوقت قد حان، فبدأت العودة إلى محطة القطار، سرت متمهلاً نازلاً أسفل الممر الذي قدمت منه مندهشاً ومهتزاً من أعماقي، تجربة غامضة سكنت جانباً من قلبي ولن تبرحه بعد ذلك أبداً.

* * *

سار القطار عبر صحراء سيناء، كنت مجهداً، إلا أن النوم جافاني من شدة برودة الصحراء، واهتزازات القطار العنيفة فقد كان يمضي على قضبان ممدودة على رمال ناعمة غير متماسكة. جلس أمامي رجل بدوي في عباءة بنية فضفاضة وكان هو الآخر يعاني من شدة البرد فلف وجهه بغطاء رأسه. كان جالساً متربعاً، وعلى ركبتيه أراح سيفه المنحني ذا الغمد المزين بنقوش فضية. كان الوقت يقترب من الصباح، ويمكن تمييز الأشكال الخارجية لتلال الرمال، وتجمعات نباتات الصبار.

ما زلت أتذكر كيف انبثق نور الفجر - رمادياً، أزاح بعض العتمة، حدد الأشكال وراح ببطء يرسم خطوطها الخارجية، ويدفع بالتدريج تلال الرمال التي كانت غارقة في الظلام إلى عالم المرئيات، ظهر تجمع من الخيام واندفع مسرعاً إلى الخلف، بقرب الخيام كنت هناك شباك صيد ذات لون فضي داكن منشورة بين أعمدة لتجف وكانت تتطاير مثل ستائر الضباب: شباك صيد في الصحراء - تتطاير مع هبوب رياح الصباح - مثل حجب الأحلام، شفافة، في لاواقعية الحلم، ما بين حلكة الظلام ونور النهار.

إلى اليمين امتدت الصحراء وإلى اليسار امتد البحر. على الساحل كان راكب جمل يمضي وحده متهادياً؛ من الواضح أنه كان راكباً طول الليل فقد كان مستغرقاً في النوم على سرج الجمل، وكلاهما يهتز في حركة متناغمة: الرجل والجمل. ظهرت من جديد خيام بدوية سوداء، ونساء بدويات خارج الخيام يحملن جراراً فخارية على رؤوسهن، في طريقهن لجلب الماء. من بين طيات شبه الضوء الذي راح يتزايد إلى ضوء انبثق عالم شفاف وواضح، يتحرك بنبضات غير مرئية، معجزة على بساطتها إلا أنها لا تنتهي.

انسكب ضوء الشمس على الرمال بقوة متزايدة وتحول نور الفجر الرمادي إلى لون ذهبي أحمر ناري. اخترقنا واحات العريش، بدا نخيلها كأنه أعمدة كاتدرائيات ضخمة مشيدة من نخيل بسعفها المقوس. لوحة تشكيلية رائعة من اللونين البني والأخضر، من النور والظل. كانت هناك امرأة تحمل جرة على رأسها تسير تحت النخيل وتصعد منحدراً ببطء، ترتدي عباءة طويلة ملونة بالأحمر والأزرق، بدت سيدة سماوية خارجة من ثنايا أسطورية.

اختفت تجمعات نخيل العريش بسرعة كما ظهرت. . دخلنا في منطقة نورها كنور المحار والأصداف. خارج إطار نوافذ القطار المتأرجحة المهتزة، كان يعم سكون لم أجد مثيلاً له في أي مكان زرته. كل الأشكال والمرئيات كانت خارج نطاق الأمس والغد ـ أشكال متفردة تدير الرؤوس. رمال ناعمة حولتها الرياح إلى آكام رخوة تومض بألوان برتقالية باهتة تحت أشعة الشمس الوليدة، مثل مخطوطات نفيسة قديمة، رقيقة، متماسكة، تنحني حافة أسطحها انحناءات حادة صارمة، وتهبط في رقة على الأجناب، بظلال ألوان مائية شفافة ـ أرجواني ليلكي وقرمزي قاتم في التجاويف السطحية والفراغات البينية وسحب متلألئة وتجمعات نباتات صبار متناثرة هنا وهناك وأعشاب خشنة سميكة في مناطق أخرى. بدو حُفاة وقافلة جمال مُحمَّلة بسعف نخيل آتية من مكان وماضية إلى مكان أجهله. كنت مأخوذاً ومشدوهاً بالصحراء شديدة الاتساع.

توقفنا عدة مرات في محطات صغيرة، كل ما فيها لا يزيد على بضعة أكواخ مشيدة من الأخشاب وألواح الصفيح. وأولاد عليهم أسمال بالية ممزقة يتجولون داخل القطار وخارجه يبيعون ثمار التين، والبيض المسلوق وأرغفة خبز رقيق طازج. نهض البدوي الذي كان جالساً أمامي ببطء وأزاح غطاء رأسه عن وجهه وفتح نافذة القطار المجاورة له، كان وجهه نحيلاً داكناً حاد الملامح، يشبه وجوه الصقور الحادة. اشترى فطيرة، ثم هم بالجلوس، حين وقعت عيناه عليّ؛ دون أن ينطق بكلمة، قسم الفطيرة نصفين وقدم لي نصفها، حين لاحظ ترددي ودهشتي، ابتسم ـ لاحظت أن ابتسامته تليق بوجهه كما كانت لائقة عليه النظرات الصقرية الحادة ـ قال كلمة لم أفهم معناها في ذلك الوقت

ولكنني أعرف الآن أنها كانت تفضل. أخذت نصف الفطيرة وهززت رأسي شاكراً. مسافر آخر يرتدي ملابس أوروبية وطربوشاً أحمر - تدخل مترجماً: وبإنجليزية متعثرة قال: «يقول لك أنت على سفر وهو على سفر، وطريقكما واحد».

حين أفكر الآن في ذلك الحدث الصغير، يتبين لي أن كل الحب الذي أحببته للشخصية العربية بعد ذلك، لا بد وأنه قد تأثر تأثراً كبيراً بتلك الواقعة الصغيرة. كان لتلك اللفتة الكريمة من ذلك البدوي، الذي شعر بالصداقة تجاه مسافر معه بالصدفة رغم حواجز اختلاف الأجناس واقتسم معه خبزه، ما أشعرني بأنفاس الإنسانية الحرة الخالية من أية عاهات وعلل نفسية بشرية.

بعد فترة قصيرة وصلنا إلى غزة القديمة، كانت قلعة طينية تحيا حياتها المنسية على تل رملي بين نباتات صبار كثيفة، جمع رفيقي البدوي أجولته وحياني بابتسامة أسى وهزة من رأسه، وغادر عربة القطار، مثيراً للغبار من خلفه بردائه الطويل الفضفاض الذي كان يكنس الأرض. كان هناك بدويان آخران يقفان على رصيف المحطة صافحاه وقبلاه على خده.

وضع التاجر الذي يتحدث إنجليزية ركيكة كفه على ذراعي قائلاً: «هيا نتزل، أمامنا ربع ساعة قبل أن يسير القطار من جديد».

خلف مبنى المحطة كانت هناك قافلة من الجمال الباركة؛ كانت القافلة كما أخبرني مرافقي لبدو من شمال الحجاز. كانت لهم وجوه داكنة مترِبة عفوية ودودة. كان مرافقي البدوي بالقطار قد انضم إليهم، وبدا لي أنه شخصية مرموقة بين قومه، فقد تجمع حوله أفراد القافلة في

دائرة عفوية ويتحدثون معه. تحدث إليهم التاجر فاستداروا إلينا في مودة ـ فيما أحسست أنا ببعض التكبر والتعالي، إحساساً مني بتحضري عنهم. أحاطهم جو من الحرية، وراودتني رغبة عارمة في فهم حياتهم والإحاطة بها. كان الجو جافاً كأنه يخترق البدن وأذاب تكبري ومشاعر التعالي الأولى. كانت هناك حالة من انعدام الإحساس بالزمن مما جعل كل المرئيات والموجودات والأصوات والروائح تكتسب قيماً خاصة بها. بدأت تشرق في ذهني فكرة أن من يحيون في الصحراء يستجيبون للحياة ويستشعرونها ويتجاوبون معها بطريقة مغايرة تماماً عن أي بشر يحيون في مناطق أخرى، خمنت أنهم متحررون من أي مخاوف ـ وربما أيضاً من أي أحلام ـ التي يتصف بها سكان المناطق الباردة الغنية، ومتحررون بالتأكيد من عوائق وقيود كثيرة؛ فهم يعتمدون بشكل أكبر على إدراكهم الخاص؛ واستقروا على نسق من القيم مغايرة لأية أنساق أخرى.

ربما كان إحساسي المسبق بالتغير والتحول الذي سيقع لحياتي القادمة هو الذي جعل مشهداً للبدو يأسرني. كان إحساساً بعالم تخلص من كل محدودية البشر وشوائبهم، وكان له أنساق تجعله متماسكاً من داخله ومنفتحاً على الخارج في الآن نفسه: عالم يوشك أن يصبح عالمي أنا أيضاً.

لم أكن أعي بالطبع ما يخفيه المستقبل ويقدره لي، كان إحساسي يشبه إحساس من يدخل منزلاً غريباً عليه لأول مرة ويجد رائحة في مدخله لا يستطيع تحديدها إلا أنها تخلق لديه إحساساً داخلياً بأحداث ستقع فيه وستقع له أيضاً، وأنها إن كانت مبهجة، تبعث الجذل والنشوة

في نفسك وقلبك ـ وتتذكر تلك اللحظة بعد ذلك بزمن طويل، حين تتحقق كل الأحداث التي أحسست بها دون تحديد، حينها تقول لنفسك: «أحسست بذلك من زمن طويل مضى، في لحظات دخولي البيت الأولى، عند مدخله».

[٢]

هبت دفقة من الرياح القوية، لوهلة اعتقد زيد أننا مقبلان على عاصفة رملية أخرى. لم تتحول الرياح إلى عاصفة إلا أن حدتها لم تخف، تتابعت هباتها القوية ثم تجمعت وتلاشى الفاصل الزمني بينها لتصبح ريحاً متواصلة حين كنا نهبط إلى وادٍ رملي. كانت واحة من أشجار النخيل محتجبة وسط الوادي وراء ساتر ملأ الجو بدوامات الرمال التي تذروها الرياح، كانت الواحة مكونة من بيوت منفصلة يحيط كل منها سور من الطين.

كانت تلك المنطقة نوعاً من مناطق تجاويف الرياح؛ ففي كل يوم من مشرق الشمس حتى مغربها تظل الرياح تضرب ذلك الوادي الرملي بأجنحة قوية لا تكل، ثم تهدأ في الليل، وتهب في الصباح التالي كما كانت في اليوم السابق؛ لذا كانت أشجار النخيل لا تنمو أبداً إلى أطوالها الطبيعية تحت وطأة تلك الرياح الدائمة وتظل متأقزمة قريبة فروعها من سطح الرمال، وسعفها عريض ممتد، إلا أن النخيل في تلك الواحة مهدد بالدفن تحت الكثبان الرملية، بل إن الواحة بأجمعها مهددة بالدفن تحت الكثبان لو لم يقم أصحابها بزراعة أحزمة من أشجار الطرفاء، حول مواضع النخيل والبيوت، وأشجار الطرفاء طويلة السيقان وأشد مقاومة للكثبان الرملية، من جذورها القوية وفروعها اليانعة

الخضراء على الدوام، يتكون حائط حي حول النخيل والمزروعات الأخرى، يقدم لهم أمناً غير مأمون.

ترجلنا وحططنا رحالنا أمام منزل أمير القرية، نوينا أن نستريح في ذلك الموضع لاتقاء قيظ الظهيرة. كان موضع صنع قهوة الغرباء والضيوف بسيطاً عارياً يدل على فقر الواحة وأمامه وسادة من قش لجلوس الضيوف أمام موضع النار. ولكن، وكالمعتاد، فاق الكرم العربي أي فقر وتغلب عليه: مجرد أن جلسنا على وسادة القش، كانت النيران تئز في موقد القهوة، كما بعث رنين هاون طحن حبوب القهوة المحمصة روحاً من الحياة في المكان الصامت؛ ووضعت أمامنا قصعة عظيمة بها كوم كبير من التمر البني لسد جوع الضيوف المرتحلين.

دعانا مضيفنا ـ وهو رجل عجوز ضئيل الحجم له عين دامعة حولاء، يرتدي رداءً قطنياً بسيطاً وغطاء رأس ـ أن نتناول وجبتنا قائلاً:

«وهبكم الله الصحة والعافية، والبيت بيتكم، كلوا باسم الله، هذا كل ما لدينا» ـ وأشار بيده إشارة اعتذار، حركة بسيطة عفوية عبرت بصدق وبساطة عن رضاه بنصيبه من الحياة، نوع من التعبير الطبيعي الذي يميز من يحيون بالفطرة النقية ـ أردف قائلاً: «لكن التمر ليس رديئاً، كلوا مما نستطيع أن نقدمه لكم».

كان التمر من أفضل أنواع التمر التي ذقتها في حياتي، وسعد مضيفنا حين رآنا مقبلين بشهية على تناول تمرهم. وبدأ يحدثنا من جديد: «الرياح، الرياح تجعل حياتنا شاقة؛ إلا أنها إرادة الله. الرياح تدمر زراعاتنا. نقاوم الرمال حتى لا تدفنها. لم تكن الحال كذلك من قبل. في الأزمنة السابقة لم تكن هناك رياح كثيرة في هذه المنطقة، وكانت الواحة كبيرة وغنية. الآن تضاءلت؛ يهجرها كثير من الشباب،

مثل تلك الحياة القاسية لا يحتملها أي فرد. الرمال تحاصرنا وتزحف علينا يوماً بعد يوم. في القريب لن يبقى مكان للنخيل.. تلك الرياح.. إلا أننا لا نشكو كما تعرفون، فقال قال الرسول ص: «قال الله في حديث قدسي: لا تلعنوا الدهر، فأنا الدهر...».

لا بد أنني أجفلت فقد توقف العجوز عن الكلام، ونظر إليَّ في انتباه وتركيز، وكما كان قد أدرك لماذا أجفلت، ابتسم ابتسامة أقرب لابتسام النساء، وبدت غريبة على وجهه النحيل الجاف، ثم كرر بعذوبة كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «فأنا الدهر» ـ كان في إيماءة رأسه التي صاحب قوله فخار وتيه وقبول ورضا بما وهبته له الحياة، ولم أر أبداً حتى عند الأكثر حظاً من الناس قبولاً بالواقع ورضا به مثل قبول ذلك العجوز وبإشارة مبهمة غامضة من ذراعه التي رسمت دائرة في الفراغ ـ دائرة احتوت على كل شيء في حياته: الفقر، الجدران الداكنة المتهالكة، الرياح وطنينها الدائم، زحف الرمال، التوق إلى السعادة، التسليم بما يفوق القدرة عليه ولا يمكن تغييره، القصعة المليئة بالتمر، أشجار النخيل خلف أسوار أشجار الطرفاء، النار الموقدة، ضحكة فتاة شابة بالفناء الخلفي للدار: كل تلك الأشياء وحركة يده التي أحاطت بما يراه وما لا يراه كنت كمَن يستمع إلى غناء روحي عميق لا يعرف العجز أمام المصاعب والحوائل ويغمره سلام النفس التي أسلمت نفسها لله.

عاد بي ما أراه إلى زمن قديم مضيء، إلى يوم خريفي بالقدس من عشرة أعوام مضت، حين حدثني رجل عجوز آخر عن التسليم لله، كطريق وحيد يحقق به المرء صلة وثيقة بالله، ومن ثمّ، مع مصيره وقدره.

* * *

في خريف عام ١٩٢٢ كنت أعيش مع خالي دوريان في منزله بمدينة القدس القديمة. كانت الأمطار تهطل كل يوم تقريباً، وكنت أجلس بجوار نافذة تطل على فناء واسع خلف المنزل يملكه رجل عجوز عربي يطلقون عليه الحاج لأنه كان قد حج إلى مكة؛ وكان يؤجر حميراً للركوب ولحمل البضائع، وكان الفناء والزريبة الملحقة به يشبه نوعاً من الخان أو النُزل.

كانت أحمال الخضروات والفواكه تصل كل يوم قبل الفجر محملة على الجمال من القرى المحيطة بالمدينة، ثم تجزأ وترسل على الحمير إلى محلات البيع المنتشرة في حواري القدس القديمة الضيقة. في ضوء النهار ترى الجمال وهي باركة تستريح في الفناء الخلفي؛ ولا يكف الرجال الذين يعتنون بها عن الصياح، إلا إذا أرغمتهم شدة الأمطار على الاحتماء بالزريبة. كان سائسو الجمال والحمير رجالاً فقراء يرتدون أسمالاً بالية، إلا أنهم كانوا يبدون ويسلكون مسلك النبلاء حين يجلسون معاً على الأرض لتناول وجبة طعام من خبز القمح الرقيق مع قطعة جبن أو حبات من الزيتون، لم يسعني إلا الإعجاب بنبلهم وببساطتهم وهدوئهم النفسي العميق. كان الحاج يعرج في سيره ويستعين بعكاز ـ كان يعاني من التهاب المفاصل وركبتاه متورمتان ـ وكان بمثابة الزعيم بينهم، فقد كانوا يطيعونه بلا نقاش. كان يجمعهم عدة مرات كل يوم للصلاة، وإذا لم تكن الأمطار غزيرة، كانوا يصلون في الساحة المكشوفة: ينتظم الرجال في صف واحد طويل جنباً إلى جنب ويقف هو أمامهم إماماً عليهم. بدوا في نظري مثل جنود في تكامل وتوحد حركتهم ـ كلهم ينحنون في اتجاه مكة، ثم ينتصبون، ثم يسجدون، ويلمسون الأرض بجباههم، كأنهم يستجيبون لأوامر غير

مسموعة من قائدهم، الذي كان يقف بين السجدة والسجدة حافي القدمين على سجادة صلاته، مغمض العينين وذراعاه مضمومتان إلى صدره، يحرك شفتيه بلا صوت ويبدو عليه الاستغراق التام فيما يفعل: كان يصلي بكل وجدانه.

أصابتني الحيرة حين شاهدت صلاة تتضمن حركات آلية للبدن، فسألت الحاج ذات يوم ـ وكان يفهم بعضاً من اللغة الإنكليزية ـ: «هل تعتقد حقاً أن الله ينتظر منك أن تظهر له إيمانك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلي إلى ربك بقلبك وأنت ساكن؟ لماذا كل هذه الحركات بالجسد؟».

بمجرد أن انتهيت من تساؤلاتي أحسست بالندم، فقد أكون قد جرحت مشاعر الرجل الدينية، إلا أنه لم يبدُ على الحاج أي أثر لإهانة أو جرح. ابتسم كاشفاً عن فم يخلو من الأسنان ورد قائلاً:

«بأي وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد الله؟ ألم يخلق لنا الروح والجسد معاً؟ وكونه خلقنا جسداً وروحاً، ألا يجب علينا أن نصلي بالجسد والروح؟ اسمع، سأخبرك لماذا نصلي نحن المسلمين كما نصلي. نتوجه إلى الكعبة، وهي أول بيت لله في مكة، ونعلم أن وجه كل المسلمين في أي موضع كانوا من الأرض تتوجه إليه أثناء الصلاة، فنشعر أننا جسر واحد، نتوجه إلى مركز واحد بفكرنا ووجداننا. نبدأ أولاً بالوقوف منتصبين، ونتلو بعض آيات القرآن، واضعين نصب أعيننا أنها كلام الله، أُنزِلَ للبشر لهدايتهم ونفعهم في الحياة الدنيا. ثم نقول «الله أكبر» مذكرين أنفسنا أنه لا يوجد من يستحق العبادة غير الله وحده، ثم نركع أمامه لأننا نجله فوق كل شيء، ونسبح بعظمته وقدرته. ثم نسجد على الأرض وجباهنا على أديمها حتى نشعر أننا لسنا إلا تراباً،

وأننا لا شيء أمامه، وأنه خالقنا والحافظ لنا، ثم نرفع وجوهنا ونجلس، وندعوه أن يغفر لنا، وأن ينزل رحمته وسكينته علينا، وأن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يهبنا الصحة والرزق، ثم نسجد من جديد على الأرض ونمس الأرض بجباهنا اعترافاً بعظمته وقدرته. ثم نجلس وندعوه أن يصلي على النبي محمد(ص) الذي بلَّغ رسالة الله إلينا، كما ندعوه أن يصلي على الأنبياء الذين سبقوا محمد(ص)، وأن يباركنا ويبارك كل من اهتدى بهديه، ثم ندعوه أن يرزقنا من خير الدنيا وحسناتها، وأن يهبنا حسنات الآخرة، ثم نختم صلاتنا بأن ندير رؤوسنا إلى اليمين ثم إلى اليسار، قائلين في اتجاه، السلام عليكم ورحمة الله ـ وهكذا نحيي كل من اتبعوا الحق، أينما كانوا. هكذا صلى نبينا، وهكذا علَّم من آمنوا كيف يصلون في كل عصر وفي كل آن؛ فهم يسلمون أرواحهم وأبدانهم لله ـ وذلك هو ما يعنيه الإسلام ـ فيكون البشر في علاقة سلام مع الله ومع ما قدره لهم».

لم يستخدم الرجل العجوز الكلمات التي ذكرتها حرفيّاً، إلا أن ما ذكرته كان معناها، وهي المعاني التي تذكرتها من حديثه. بعد ذلك بسنوات أيقنت أن ذلك الشرح البسيط من الحاج قد فتح لي أول باب للإسلام، ولكن في ذلك الوقت، بدأت أشعر بتواضع لم آلفه من قبل كلما رأيت ـ وكنت أرى ذلك كثيراً ـ رجلاً يقف حافي القدمين على سجادة صلاته، أو على بعض القش، أو على أرض عارية، وذراعاه معقودتان على صدره ورأسه منحن في خشوع، مستغرق بكل حواسه، غائب عما يدور حوله، سواء كان في مسجد أو في ممشى جانبي لشارع مزدحم: رجل في سلام مع ذاته.

* * *

كان المنزل العربي المشيد من الحجر مبهجاً بالفعل كما ذكر لي خالي دوريان في رسالته. كان ينهض على حافة المدينة القديمة بالقرب من باب يافا. توحي غرفاته الواسعة عالية السقف بأنها مترعة بذكريات حياة نبلاء كثيرين مروا عليها في عصور سابقة، وتجاوبت الجدران بصدى الحاضر الحي الذي يسري إليها من الحوانيت التجارية المجاورة - مشاهد وأصوات وروائح لم أعايشها أبداً من قبل.

من شرفة السطح كنت أرى مشارف المدينة القديمة وشبكة شوارعها المتعرجة وحواريها المنحوتة في الصخر. على الجانب الآخر وفي ساحتها الواسعة، يظهر الموضع الذي كان به هيكل سليمان؛ والمسجد الأقصى - وهو الأقدس بعد الكعبة ومسجد الرسول بالمدينة - ينهض على الحافة الأبعد، وفي منتصف الساحة مسجد قبة الصخرة، من خلفهم كانت منازل المدينة القديمة تتدرج نزولاً حتى وادي قدرون، خلف الوادي تناثر تلال رقيقة القمم، فرشت منحدراتها أشجار الزيتون. باتجاه الشرق كانت هناك بقعة خصيبة أخرى، بها بساتين تنحدر باتجاه الطريق عميقة الحضرة، تحيطها أسيجة حجرية، الحديقة الجثمانية[1]. ومن بين أشجار الزيتون والسرو، كانت ترتفع قباب الكنيسة الروسية المذهبة والمشيدة على شكل البصل الجاف.

مثل مشهد يتأرجح بين الحلم والحقيقة، وكرجع الصدى، وبلون شفاف إلا أنه يموج بآلاف الألوان التي لا اسم لها، فوق قدرة الكلام على الوصف، بل فوق قدرة العقل عل التخيل، كان يبدو من فوق قمة جبل الزيتون وادي الأردن والبحر الميت.

---

(١) الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس. (المترجم).

تلال بعد تلال متماوجة التوزيع واضحة مدركة كالتنفس، وعرق شديد الزرقة يتماوج بينها هو نهر الأردن، ثم استدارة البحر الميت من خلفهم جميعاً - وإلى أبعد من ذلك، كان هناك عالم آخر يستقل بذاته وجماله، تلال منطقة موآب الترابية: سهوب ذات جمال أخاذ متعدد الأشكال والأوصاف يبعث في القلب ارتجافة نشوة.

كانت القدس بالنسبة لي عالماً جديداً تماماً. عبق التاريخ ينضح من كل زاوية وحجر بالمدينة العتيقة. الشوارع التي شهدت نبوءات أشعيا، حجارة الشوارع التي سار عليها المسيح، الجدران التي كانت عتيقة أيضاً حين تردد منها صدى صوت خطى فرسان الإمبراطورية الرومانية التي غزت المدينة، الأقواس الحجرية على الطرقات التي تحمل على صدرها نقوشاً ونصوصاً إسلامية من عصر صلاح الدين، سماء زرقاء صافية اللون، بدت لمن هو مثلي ومن عاش وتربى في طقس وجو أقل وداً، مثل نداء ووعد.

بيوت وشوارع وحارات تنبض بنبض خاص، والناس تملأهم حيوية خاصة ونبل حركة وإشارة. كان الناس - العرب بوجه خاص لأنهم من خلقوا لدي الانطباع بأنهم أصحاب المدينة - يرتدون ملابس فضفاضة غنية بالألوان تذكرك بالملابس الجوخية التوراتية المنسدلة حتى الأرض، يرتدي كل منهم أردية مميزة له من فلاحين أو بدو (كان البدو يفدون إلى المدينة على الدوام للشراء أو البيع).

أمام منزل دوريان، وعلى بعد أربعين ياردة، نهضت حوائط قلعة داوود ذات الجدران المنحدرة التي ظهرت عليها آثار الزمن، كانت في الماضي تكوّن جانباً من استحكامات المدينة مع أسوارها القديمة، ربما

شيدت القلعة على الأساسات التي أرساها هيرود الروماني، ويعلوها برج مراقبة رفيع يشبه المئذنة (على الرغم من أنها لا علاقة لها بالملك داوود، فإن اليهود اعتادوا إطلاق اسمه عليها، ويدعون أن قصره الملكي كان بهذا الموضع من جبل الزيتون).

على جانب من المدينة القديمة يوجد برج عريض، تمضي من أسفله بوابة تفضي إلى طريق رئيسي، وقنطرة من حجر فوق خندق مائي. كانت القنطرة الحجرية ملتقى البدو الذين يفدون إلى المدينة، ذات يوم رأيت بدوياً يقف عليها دون حركة، بدا في وقفته المنتصبة ومن خلفه سماء فضية داكنة مثل شخص بعث لتوه من ثنايا الأساطير القديمة. كان له وجه ناتئ عظام الوجنتين، تحيطه لحية كثة قصيرة داكنة، تحمل ملامحه هماً واستغراقاً في أمر ما يشغله، كمن كان يتوقع شيئاً إلا أن ما يتوقعه غير قابل للتحقق. كان قفطانه الواسع ذو الخطوط البنية والبيضاء بالياً ورثاً، رأيت بعين خيالي أن ملابسه قد بليت بعد أن تعرض لمخاطر كبيرة جعلته دائم الفرار من موضع إلى موضع. ربما كان واحداً من جماعة المقاتلين الذين صحبوا داوود في شبابه وفي فراره من غيرة الملك شاول الحقودة؟ قد يكون داوود مختبئاً في هذه اللحظة في أحد كهوف تلال منطقة يهودا، وذلك الرجل الواقف على القنطرة، صديقه الشجاع والمخلص، جاء خلسة مع رفيق آخر إلى المدينة ليستطلعوا أخبار ما يدبره شاول من مكائد، ويتبينوا إن كانت الأوضاع آمنة تسمح بعودة داوود أم لا، وأنه الآن ينتظر عودة رفاقه، مليئاً بالهواجس: لم تكن الأنباء سارة، ولا يمكن لداوود أن يعود. . .

فجأة، تحرك البدوي نازلاً عن القنطرة، وتبخرت تخيلات اليقظة

بابتعاده، تذكرت مجدداً أن ذلك البدوي من العرب، بينما كانت الشخصيات التي أتخيلها توراتية من العبرانيين. إلا أن دهشتي لم تستمر غير برهة؛ فقد أدركت على الفور بوضوح يتفجر أحياناً داخلنا مثل البرق الوامض، أن داوود وعصر داوود، مثله مثل إبراهيم وعصره، كانا أقرب إلى جذورها العربية وبالتالي أقرب إلى بدو العرب المعاصرين منهم إلى اليهود المعاصرين الذين يدعون أنهم من سلالتهم. كثيراً ما كنت أجلس على الإفريز الحجري تحت بوابة يافا أراقب الجموع الداخلة إلى المدينة القديمة والخارجة منها. فعند البوابة كان البشر يتلاحمون، ويتدافعون، العرب واليهود، كل الأنماط والأشكال المختلفة لكليهما. كان هناك فلاحون أقوياء الأبدان بأغطية رؤوسهم البيضاء والبنية أو عمامات برتقالية، وكان هناك بدو بوجوههم الحادة الواضحة الهزيلة، يرتدون عباءاتهم ويسيرون بثقة غريبة بأنفسهم، وغالباً ما تكون أكفهم على خواصرهم والكوعان مفرودان متباعدان، كما لو كانوا على ثقة أن كل من يقابلهم سيفسح لهم الطريق. نساء الفلاحين لهن زي مميز أسود أو أزرق مزين بزركشة بيضاء على الصدر، يحملن في الأغلب سلالاً على رؤوسهن ويمشين مشية لدنة هينة. من الخلف تبدو من بلغت الستين كأنها شابة صغيرة السن، كذلك جمال أعينهن الذي لا يتأثر بعمر ـ إلا إذا أصبن بالرمد الحبيبي، ذلك المرض «المصري» اللعين المتوطن في بلاد كثيرة شرق البحر المتوسط.

كان هناك أيضاً اليهود: يهود فلسطين يرتدون عباءات واسعة ويضعون الطرابيش على رؤوسهم، أما وجوههم فتماثل بشدة وجوه العرب؛ أما يهود بولندا وروسيا فقد كان يبدو عليهم أنهم حملوا معهم كثيراً من ضيق حياتهم الماضية في أوروبا وكانوا يطلبون مساواتهم بيهود

المغرب وتونس الفخورين بالبرنس المغربي الأبيض المميز للبلاد التي أتوا منها. وعلى الرغم أنهم كانوا خارج نطاق التجانس البشري والبيئة التي من حولهم، فإنهم هم من أرسى نسق الحياة والسياسة اليهودية، وكانوا مسؤولين عن الاحتكاكات والصدام والنزاع بينهم وبين العرب.

ما الذي كان يعرفه الأوروبي العادي عن العرب في تلك الأيام؟ عملياً: لا شيء حين هاجر اليهودي الأوروبي إلى فلسطين جاء مصحوباً بمفاهيم عاطفية مغلوطة، ولو كان لديه حسن نية وذكاء ذهن، كان سيقر أنه لم يكن لديه فكرة عن الوجود العربي بها. أنا أيضاً قبل أن آتي إلى فلسطين، لم أعرف أبداً أنها أرض عربية تخص العرب. كنت أعرف فقط بشكل مبهم أن «بعض» العرب يعيشون فيها، إلا أنني تخيلت أنهم بعض قبائل مرتحلة تعيش في خيام، وأنهم رعاة يسكنون واحات صحراوية، وأغلب ما قرأته عن فلسطين في أعوامي السابقة كتبه صهاينة ـ يعرضون قضيتهم فقط ـ لم أكن أعرف أن مدن فلسطين مدن عربية يعيش فيها العرب ـ كانت النسبة السكانية عام ١٩٢٢ تبلغ خمسة من العرب مقابل كل يهودي، ويعني ذلك بكل وضوح أنها بلد عربية.

حين ذكرت هذا الأمر للسيد «أوزيشكين»، رئيس جمعية «رواد المجتمع الصهيوني» الذي التقيت به في ذلك الوقت، كان يبدو لي أن الصهاينة لا يميلون إلى إعطاء أية أهمية إلى حقيقة الأغلبية العربية، ومعارضتها للظاهرة الصهيونية. ولذلك لم يبدُ على «أوزيشكين» أي رد فعل لما قلته غير إظهار ازدرائه للعرب، وقال: «لا توجد حركة مقاومة عربية حقيقية في فلسطين ضدنا، لا توجد حركة مقاومة ذات جذور بين الناس. كل ما تراه وتظنه مقاومة ليس إلا صراخاً وصياحاً من بعض

الساخطين الملتاثين، وسينهارون خلال بضعة أشهر أو بضعة أعوام على الأكثر».

كانت رؤيته بعيدة تماماً عن تصديقي. من البداية كان يتملكني اعتقاد أن فكرة إقامة مستعمرات يهودية في فلسطين ليس إلا فكرة مصطنعة، والأسوأ من ذلك، أنها تهدد بتحويل ونقل كل التعقيدات والمشاكل المستعصية على الحل في المجتمعات الأوروبية إلى بلد كان سيظل أسعد حالاً لو لم يأتوا إليه. لم يكن اليهود يأتون إلى فلسطين كما يعود الغائب إلى منزله، بل كانوا يحاولون ويسعون أن يجعلوها منازلهم مخدوعين بالنموذج الأوروبي. باختصار، كانوا غرباء يقفون على الأبواب، ولذلك لم أجد أي غضاضة في إصرار العرب على مقاومة فكرة إقامة وطن قومي لليهود في قلب بلادهم.

كان وعد «بلفور» الذي صدر عام ١٩١٧ واعداً اليهود «بوطن قومي» في فلسطين مناورة سياسية في غاية القسوة والوحشية، وتم إصداره لترسيخ السياسة التي اتبعتها كل القوى الاستعمارية، وهي سياسة «فرق تسد». فيما يخص فلسطين كان ذلك هو القرار الأقسى والأكثر إثماً؛ ففي عام ١٩١٦ وعد البريطانيون شريف مكة وهو الشريف حسين بدولة عربية مستقلة من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي مقابل تحالفه معهم ضد العثمانيين الأتراك. ثم حنثوا بوعدهم بعد ذلك بعام باتفاقية أخرى أقاموها مع فرنسا تحمل اسم «سايكس - بيكو» (أطلقت فيها بريطانيا يد فرنسا في سوريا ولبنان) كما تضمنت الاتفاقية استثناء فلسطين من وعدهم للشريف حسين.

ومع أنني كنت يهودياً، فإنني تبنيت موقفاً معادياً للصهيونية، وأدنت

الموقف اللاأخلاقي للقوة العظمى التي تدفع بالمهاجرين اليهود من كل أنحاء الأرض حتى يصبحوا أغلبية وينتزعوا الأرض والبلاد من أصحابها الشرعيين الذين يحيون فيها من أزمان سحيقة.

لذلك كنت أميل إلى الوقوف في صف العرب في كل مناسبة تثار فيها المسألة اليهودية ـ العربية. وكان موقف يصعب فهمه لكثير من اليهود الذين صادفتهم أو جمعتني بهم مناسبات مختلفة في تلك الشهور، لم يفهموا ما الذي أراه في العرب الذين لا يرون فيهم إلا أناساً متخلفين همجاً، ولم تكن نظرتهم إليهم ترقى عن نظرة الأوروبيين إلى الأفريقيين في وسط إفريقيا. لم يهتموا بأي قدر بما يشغل فكر العرب ولم يكلف أحد نفسه عناء تعلم اللغة العربية، تقبلوا جميعاً بلا أي قدر من التشكك أن فلسطين حق لهم وأنها إرثهم التوراتي.

ما زلت أتذكر مناقشة مختصرة مع الدكتور «حاييم وايزمان»، قائد الحركة الصهيونية بلا منازع؛ فقد أتى في واحدة من زياراته الدورية إلى فلسطين (كانت إقامته الدائمة على ما أظن في لندن)، والتقيت به في منزل صديق يهودي. لم أملك إلا الإعجاب بالطاقة الفائقة لذلك الرجل ـ وهي طاقة ظهرت في حركات بدنه بخطواته الواسعة التي كان يقطع بها الغرفة جيئةً وذهاباً وقوة عقلية وذهنية بدت في جبهة عريضة ونظرات نفاذة ـ كان يتحدث عن المصاعب المالية التي تعوق تحقيق حلم الوطن القومي اليهودي في فلسطين، واستجابة اليهود الضعيفة في الخارج. تملكني انطباع أنه هو أيضاً، مثل أغلب الصهاينة، يميل إلى إلقاء المسؤولية الأخلاقية لكل ما يحدث بفلسطين على «العالم الخارجي». دفعني ذلك إلى استغلال فترة صمت في حديثه إلى مستمعين ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير وسألته: «وماذا عن العرب؟».

بدا كما لو كنت قد ارتكبت خطأ جسيماً بتلك الملاحظة الشاذة؛ فقد أدار الدكتور «وايزمان» وجهه ببطء إليّ، ووضع القدح الذي كان يحمله بيده، وكرر سؤال: «ماذا عن العرب؟» وأكمل: «حسناً، كيف تتوقع بأية حال أن تكون فلسطين وطنك القومي وتلك المقاومة العنيفة من العرب تواجهنا، وعدا ذلك يشكلون أغلبية؟».

هز الزعيم الصهيوني كتفيه كإجابة لتساؤله ثم أردف بجفاء:

«نتوقع ألا يكونوا أغلبية بعد بضعة أعوام».

رددت قائلاً: «ربما، أنت تسعى في هذا الأمر على مدى أعوام طويلة ولا بد أنك تعلم حقائق الموقف أفضل مني، ولكن بعيداً عن المشاكل السياسية التي قد تضعها المعارضة العربية أو لا تضعها في طريق تحقيق أهدافكم ـ ألم يؤرقك الجانب الأخلاقي من المشكلة في أي وقت؟ ألا تظن أنه من الخطأ من جانبكم طرد شعب عاش طول عمره في هذا البلد؟».

أجاب «وايزمان» رافعاً حاجبيه في تحفز: «ولكنها أرضنا، نحن لا نفعل أكثر من استرداد ما سُلِبَ منا بطريق الخطأ».

رددت: «ولكنك كنت بعيداً عن فلسطين على مدى ألفي عام تقريباً. قبلها كنت سيد هذا البلد، ليس كله بالطبع، لمدة تقل عن خمسمائة عام. ألا تعتقد أن العرب بإمكانهم بالمنطق ذاته المطالبة بإسبانية ـ فهم على الأقل حكموا إسبانيا لمدة سبعمائة عام، وخرجوا منها من خمسمائة عام فقط؟».

تحول الدكتور «وايزمان» إلى حالة من نفاد الصبر الواضح، قال: «كلام فارغ. العرب غزوا إسبانيا فقط، لم تكن أبداً أرضهم، والصحيح والصواب في نهاية المطاف أن يطردهم الأسبان منها».

رددت على حجته قائلاً: «عفواً، يبدو الأمر وكأن هناك تجاوزاً في الرؤية التاريخية. فرغم أي شيء، جاء العبرانيون أيضاً كغزاة لفلسطين. قبلهم بعصور طويلة كانت قبائل سامية وغير سامية تسكن فلسطين - العموريون والأدوميون والفلسطينيون، والموآبيون، والحيثيون. واستمرت تلك القبائل في المعيشة في فلسطين حتى بعد غزو العبرانيين لها، وكذلك في عصر مملكتي يهودا وإسرائيل، واستمروا في العيش هنا بعد أن طرد الرومانيون أسلافنا اليهود من أرض فلسطين. وهم ما زالوا يحيون على الأرض ذاتها حتى اليوم. حتى إن العرب المسلمين الذين غزوا فلسطين وسوريا في القرن السابع الميلادي كانوا أيضاً أقلية مقارنة بسكان البلاد؛ كان السكان الذين يشكلون الأغلبية هم من نطلق عليهم اليوم عرب فلسطين وعرب سوريا أي سكان البلاد الذين تعربوا. بعضهم تحول إلى الإسلام عبر القرون الماضية، وظل آخرون على ديانتهم المسيحية، وتزاوج من أسلموا مع إخوانهم في الدين أهل الجزيرة العربية، ولكن هل تنكر أن الكتلة الرئيسة للشعب الذي يعيش على أرض فلسطين، ويتحدث العربية، سواء مسلم أو مسيحي، هم الامتداد المباشر ونسل السكان الأصليين الذين كانوا على هذه الأرض من آلاف السنين؟ وكانوا أيضاً يعيشون هنا قبل وصول العبرانيين بقرون طويلة؟».

ابتسم الدكتور وايزمن في أدب رداً على حماسي وأدار الحوار في اتجاه آخر ومواضيع أخرى.

لم أشعر بسعادة تجاه ما تمخضت عنه تلك المواجهة. لم أتوقع أن تكون الخطة الصهيونية بهذا التهافت وافتقاد المنطق والحجة: أملت أن

يبعث دفاعي عن القضية العربية بعض التشكك لدى قادة الخطة الصهيونية ـ عدم يقين قد يدفعهم إلى مراجعة أفكارهم ودوافعهم، وربما أدى عدم اليقين إلى استعداد أكبر لقبول وجود حق أخلاقي وراء المعارضة العربية. . إلا أن أي من ذلك لم يحدث. بل على العكس، وجدت أني أقابل بحائط بارد من النظرات المتسائلة: نظرات استنكار لتهوري وجرأتي على التشكيك فيما لا يقبل الشك، وهو حق اليهود في أرض أسلافهم. . .

تعجبت، كيف يمكن لأناس تميزوا بذكاء مبدع وخلاق مثل اليهود أن يفكروا في الصراع بوجهة نظر أحادية فقط؟ ألم يرد إلى أذهانهم أن مشكلة اليهود في فلسطين من الممكن أن تحل على المدى البعيد بتفاهم وتعاون ودي مع العرب؟ هل هم فاقدو البصر بدرجة ميؤوس منها لما يمكن أن تؤدي إليه سياستهم في المستقبل من آلام؟ معاناة، ومرارة، وكراهية ستتكون وتولد في نفوس العرب ضد جزيرة يهودية صغيرة ـ حتى لو نجحوا مرحلياً ـ وسط بحر عربي معاد؟

وتعجبت أيضاً، كيف لأمة، عانت مثل تلك المعاناة العسيرة ووقعت عليها مظالم عديدة في مسيرة هجراتها الطويلة المؤسفة، ثم توقع الظلم الذي عانت منه، برؤية أحادية الجانب، على أمة أخرى، بريئة من الآلام والفظائع والويلات التي تعرض لها اليهود في أرجاء العالم. مثل تلك الظاهرة، كما أعرف، لم تكن الأولى في التاريخ، إلا أنها كانت مبعث حزني الشديد لأنها تقع هذه المرة على مرأى مني.

* * *

لم يؤد المشهد السياسي في فلسطين إلى مجرد تعاطفي مع العرب،

ولكن أدى أيضاً إلى إيقاظ اهتمامي الصحفي: أصبحت مراسلاً خاصاً لصحيفة «فرانكفورتر زيتونج» الألمانية، وكانت واحدة من أهم الصحف الأوروبية. حدث ذلك أيضاً بالمصادفة. فذات مساء، كنت أعيد ترتيب المجلات والجرائد المتراكمة في حقائبي، ووجدت البطاقة الصحفية التي كنت أحملها في برلين كممثل لوكالة أنباء يونايتد تليجرام. حين هممت بتمزيقها، أمسك خالي دوريان بيدي وتساءل مازحاً: «لا تمزقها! لو قدمت هذه البطاقة إلى المندوب السامي البريطاني، ستتلقى بعد عدة أيام دعوة للغداء في دار المعتمدية.. ألا تعلم أن الصحافيين كائنات مرغوب فيها في هذا البلد؟

وعلى الرغم من أنني مزقت البطاقة التي لم أشعر بجدواها، فإن مزحة دوريان أثارت في ذهني استجابة من نوع آخر. لم أكن بالطبع مهتماً بالحصول على دعوة غداء في دار المعتمدية ـ ولكن، لماذا لا أستغل فرصة وجودي في فلسطين في الوقت الذي لا تتاح فيه فرصة السفر إلى الشرق الأوسط إلا لقلة قليلة من صحافيّي وسط أوروبا؟ لماذا لا أستعيد عملي بالصحافة ـ لا مع يونايتد تليجرام، بل مع إحدى الصحف اليومية الكبرى؟ فجأة، وكما اعتدت أن أتخذ قرارات كبرى، قررت في تلك اللحظة أن أقتحم الصحافة الحقيقية.

على الرغم من عملي لمدة عام ليونايتد تليجرام، لم يكن لدي أي اتصال مباشر بأي صحيفة مهمة، وحيث إنني لم أنشر أي شيء باسمي قبل ذلك، لم يكن اسمي معروفاً لأي صحيفة يومية، إلا أن ذلك لم يفت في عضدي. كتبت مقالاً عن انطباعاتي كما رأيتها على أرض الواقع في فلسطين وأرسلت نسخاً من ذلك المقال إلى ما لا يقل عن

عشر صحف ألمانية مصحوبة بعرض مني أن أكتب سلسلة من المقالات عن الشرق الأدنى وما يدور فيه.

كان ذلك في الشهر الأخير من عام ١٩٢٢ ـ وهو وقت الأزمة الاقتصادية الألمانية الكبرى. كانت الصحافة الألمانية تعاني بشدة من أجل الصمود في مواجهة الأزمة الاقتصادية، ولم يكن هناك إلا عدد قليل من الصحف التي تقدر على دفع راتب مراسل بالخارج بالعملة الصعبة، ولذلك لم يدهشني أن توالت عليَّ ردود عشر من الصحف التي أرسلت إليها نسخاً من المقال بالرفض والاعتذار الرقيق. واحدة فقط من الصحف العشر قبلت عرضي، وكان من الواضح أنه قد أعجبهم ما كتبته، وعينوني كمراسل خاص جائل في الشرق الأدنى، واحتوى المغلف الذي أرسلوه على عقد لأوقعه وأعيد إرساله إليهم. كانت تلك الصحيفة الوحيدة التي قبلت عرضي هي «فرانكفورتر ذيتونج».

أصابني الذهول ليس فقط لنجاحي في خلق علاقة بصحيفة ـ وأي صحيفة! ـ ولكن من أول مرة حققت صفة يحسدني عليها كثير من الصحافيين الكبار.

كان بالعقد بالطبع عقبة صغيرة، فبسبب الأزمة الاقتصادية الألمانية ومعدل التضخم العالي، لم يكن بإمكان الصحيفة أن تدفع لي راتبي بالعملة الصعبة وكان الراتب الذي عرضوه بالعقد مع اعتذار رقيق بالمارك الألماني، وكنت أعرف كما كانوا هم يعرفون أن ذلك الراتب بالمارك الألماني لا يكفي لشراء طوابع البريد التي سأضعها على المغلفات لأرسل فيها مقالاتي. ولكن أن أكون مراسلاً خاصاً «لفرانكفورتر ذيتونج» كان

تميزاً يفوق بمراحل العسر المالي المؤقت من عدم قدرتهم على الدفع بأي عملة أجنبية. بدأت بكتابة مقالات عن فلسطين، آملاً أن يتيح لي بعض الحظ أن أسافر إلى جميع أرجاء الشرق الأدنى.

* * *

أصبح لي الآن أصدقاء كثيرون بفلسطين، من اليهود والعرب. وفي الحقيقة، نظر إليّ الصهاينة نظرات دهشة واسترابة بسبب تعاطفي مع العرب الذي كان واضحاً في مراسلاتي التي أبعث بها إلى صحيفة «فرانكفورتر ذيتونج». كانوا في حيرة من أمري إن كان بعض العرب قد «اشتروني» (كان الصهاينة يؤمنون بأن شعب فلسطين اعتاد شرح مواقفه بالمال) أم أنني من ذوي الأفكار الشاذة الذين يهوون الإثارة.

ولكن، لم يكن كل اليهود الذين كانوا بفلسطين في ذلك الوقت من الصهاينة. كان بعضهم قد قدم إلى فلسطين من دون دافع سياسي، ولكن بشغف ديني للأرض المقدسة وما تثيره في أنفسهم الأحداث التوراتية من حنين لرؤيتها.

انتمى صديقي الهولندي «جاكوب دي هان» إلى تلك الفئة الأخيرة، كان قصيراً، بديناً، ذا لحية شقراء في بدايات الأربعينيات من عمره، وكان قد درس القانون في واحدة من كبرى جامعات هولندا وكان في ذلك الوقت مراسلاً خاصاً لجريدة «هاندلسبلاد» التي تصدر من «أمستردام» ولصحيفة «ديلي إكسبريس» اللندنية. كان ذا إيمان ديني قوي ـ مثله مثل يهود أوروبا «الأرثوذوكس» ـ إلا أنه لم يقبل المخطط الصهيوني، كان يؤمن بأن عودة شعبه إلى أرض الميعاد لا بد أن تنتظر حتى تتحقق عودة المسيح كما ورد في التوراة.

قال في أكثر من مناسبة: «نحن اليهود طردنا من الأرض المقدسة وتشتتنا في جميع أرجاء العالم لأننا رسبنا في أداء المهمة التي كلفنا الرب بها. لقد اختارنا لنبشر بكلمته، ولكن في ذروة عنادنا الأجوف اعتقدنا أنه اختارنا «كشعب مختار» من أجل خاطرنا نحن ـ وهكذا خنا ما اختارنا لأدائه. لم يتبق لنا إلا أن ننقي ونطهر قلوبنا، وحين نصبح مستحقين تلك الأمانة من جديد، وأن نكون حملة رسالته، فإنه سيرسل مسيحه ليقود عبيده إلى الأرض الموعودة. . .».

سألته: «ولكن ألا تشكل الفكرة المسيحانية هذه أساساً للحركة الصهيونية أيضاً؟ أنت تعلم أنني لا أوافق عليها، ولكن أليست رغبة طبيعية لكل شعب أن يكون له وطن قومي خاص به؟».

نظر الدكتور دي هان إليَّ بسخرية: «هل تعتقد أن التاريخ ليس إلا سلسلة من الحوادث؟ أنا لا أعتقد بذلك. لم يجعلنا الرب نفقد الأرض بلا غاية محددة ولم يشتتنا بلا هدف، إلا أن الصهاينة لا يريدون أن يقبلوا ذلك ويعترفوا به صراحة بينهم وبين أنفسهم. إنهم يعانون هم أيضاً من ذلك العمى الروحي الذي تسبب في انهيارنا. ولم تعلمهم الألفا عام من الشتات أي شيء. وبدلاً من السعي لفهم الأسباب الدفينة لتعاستنا، فإنهم يسعون الآن لتعميقها، ببناء «وطن قومي» على أسس مستمدة من القوى الغربية السياسية؛ وفي عملية بناء وطن قومي، يرتكبون جريمة أكبر بحرمان شعب آخر من وطنه».

كانت آراء «جاكوب دي هان» السياسية سبباً في أن يكون مكروهاً بشدة من قِبل الصهاينة (وبالفعل، بعد مغادرتي لفلسطين بفترة وجيزة، أصبت بصدمة حين علمت أنه اغتيل بإطلاق الرصاص عليه من قِبل

إرهابيين صهاينة). حين تعارفنا، كانت علاقاته الاجتماعية محدودة بعدد قليل من اليهود الذين يؤمنون بوجهة نظر مماثلة لوجهة نظره، وبعض الأوروبيين، والعرب. وفيما يخص العرب فقد بدا لهم أن لآرائه وزنها وتأثيرها، ومن جانبهم كانوا يقدرونه وكانوا يدعونه كثيراً إلى بيوتهم، وفي الحقيقة، كانوا في تلك الفترة غير متحاملين على اليهود مثلما هم الآن. لم يحدث ذلك إلا بعد إعلان وعد بلفور ـ فبعد قرون من الجيرة الطيبة وحسن المعاشرة والوعي بالأصل المشترك بدأ العرب بعد وعد بلفور ينظرون إلى اليهود كأعداء سياسيين. ولكن حتى في التغيرات السياسية التي واكبت بداية العشرينيات من القرن العشرين، كان العرب يفرقون بين الصهاينة واليهود الذين كانوا على علاقة طيبة بهم مثل الدكتور «دي هان».

* * *

تلك الشهور المصيرية الأولى التي عشتها في بلد عربي حركت قطاراً طويلاً من الانطباعات والانعكاسات؛ بعضها كان آمالاً ذات طبيعة شخصية لم أدر كنهها ولم أتمكن من التعبير عنها كانت تتطلب مني إبرازها بوضوح إلى مجال عقلي الواعي.

لقد واجهت مسألة مغزى الحياة وجهاً لوجه وكان ذلك جديداً تماماً على حياتي.

الأنفاس البشرية الدافئة تتدفق من مجرى دم أولئك الناس إلى أفكارهم وإيماءاتهم، بلا تمزقات روحية مؤلمة من عدم الاطمئنان والخوف والطمع والإحباط الذي جعل من الحياة الأوروبية حياة قبيحة وسيئة لا تعد بأي شيء.

أما مع العرب فقد وجدت لديهم ما كنت أبحث عنه بعقلي الباطن دون أن أحسه بشكل ظاهر: وجدت لديهم سهولة معنوية وفكرية في التعامل مع كل مشاكل الوجود ـ إحساس سامٍ مشترك، إذا جاز أن نطلق عليه ذلك. بمرور الوقت أحسست بضرورة فهم روح تلك الشعوب المسلمة: لم يكن ذلك بسبب أن ديانتهم جذبت اهتمامي (في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلا القليل عن الإسلام)، ولكن لأني وجدت لديهم تلاحماً عضوياً بين الفكر والحواس الذي فقدناه نحن الأوروبيين. اعتقدت أنه من خلال فهم أقرب وأفضل لحياتهم يمكن أن أكتشف الحلقة المفقودة التي تسبب معاناة الغربيين ـ وهي تآكل التكامل الداخلي للشخصية الأوروبية ـ وجذور تلك المعاناة. قد اكتشف كنه ذلك الشيء الذي جعلنا نحن أهل الغرب ننأى عن الحرية الحقة بشروطها الموضوعية التي يتمتع بها العرب، حتى في عصور انهيارهم الاجتماعي والسياسي، والتي يفترض أنها كانت تميزنا في عصور أسبق؟ ـ أو كيف يتسنى لنا أن ننتج تلك الفنون العظمى في الماضي، الكاتدرائيات القوطية في القرون الوسطى، والغنى الروحي والمعنوي الذي صاحب عصر النهضة، روعة «رامبراندت» في لوحاته، وروائع «باخ»، وهدوء وجلال «موتسارت»، الفخر التياه في فنون مزارعينا، هدير «بيتهوفن» وتطلعه وسعيه نحو الجوانب الغامضة من الوجود وقممه الموسيقية التي تدرك بصعوبة، إن أدركتها يمكنك وقتها أن تصيح في سعادة: «أنا وقدري شيء واحد».

لأننا لم نعد ندرك طبيعتهم الحقة، ولا أن نستخدم قوانا الروحية على الوجه الصحيح، لن ينهض بيننا «بيتهوفن» آخر ولا «رامبراندت» آخر. بدلاً من ذلك، لم نجد إلا ما نراه الآن من أن هناك مساعي يائسة

نحو «أشكال جديدة من التعبير» في الفن، والاجتماع، والسياسة، وذلك الصراع المرير بين الشعارات المتعارضة والمبادئ الشكية وكل منتجنا الآلي وناطحات السحاب التي لا يمكن أن تكون ذات جدوى في استعادة تكامل نفوسنا المحطمة. . . . إلا أنه يتبقى تساؤل ـ هل ضاعت العظمة الروحية للماضي الأوروبي إلى الأبد؟

ألا يمكن استعادتها، أو بعض منها باكتشاف كنه الخطأ الذي ألم بنا؟ ما كنت أشعر في البداية أنه لا يعدو أكثر من تعاطف مع الأهداف السياسية وشكل الحياة العربية والأمان المعنوي الذي أحسه بينهم، تحول بطريقة لا أدركها إلى ما يشبه المسألة الذاتية. زاد وعيي برغبتي الطاغية لمعرفة كنه ذلك الشيء الذي يكمن في أسس الأمن المعنوي والنفسي وجعل حياة العرب تختلف كلية عن حياة الأوروبيين: ارتبطت تلك الرغبة بشكل غامض بمشاكلي الشخصية الدفينة.

بدأت أبحث عن مداخل تتيح لي فهم أفضل الشخصية العربية، والأفكار التي شكلتهم وصاغتهم وجعلتهم يختلفون روحياً عن الأوروبيين. بدأت أقرأ كثيراً بتركيز في تاريخهم وثقافتهم ودينهم. . . وفي غمرة اهتمامي أحسست بأنني قد توصلت إلى اكتشاف ما يحرك قلوبهم ويشغل فكرهم ويحدد لهم اتجاههم، أحسست أيضاً بضرورة اكتشاف القوى الخفية التي تحركني أنا ذاتي، وتشكل دوافعي، وتشغل فكري، وتعدني أن تهديني إلى سبيل. . . . .

الفصل الرابع

أصـــوات

مضينا راكبين، وزيد يغني، أصبحت الكثبان أوطأ، وعلى مسافات أبعد، وفراغات أوسع. تنحسر الرمال من مكان إلى آخر كاشفة عن مساحات من الحصى وصخور البازلت الحادة. وأمامنا، بعيداً إلى الجنوب تبدو كتلة هائلة فوق مستوى الأفق: كانت مرتفعات جبال شمّار كلمات أغاني زيد تنفذ غير واضحة بين ثنايا نعاس، لم يلتقط ذهني الكلمات بوضوح، بدت وكأنها تحتوي على مغزى أعمق من معانيها السطحية المباشرة. واحدة من أغاني مسافري الصحراء على ظهور الإبل، أغانٍ تدفع الإبل إلى المحافظة على خطاها وتدفعها إلى السير السريع. أغانٍ يغنيها رجال اعتادوا على رحابة الصحراء واتساعها بلا حدود.

[١]

دائماً تبدو أغاني الصحراء ذات نغمة واحدة ومستوى صوتي رتيب، طويل الإيقاع قوي وأجش يأتي من أعلى الحلق، ويتلاشى بنعومة في هواء الصحراء الجاف: تبدو الأغاني كأنها تنفس الصحراء صاعد من صوت البشر. مضينا راكبين، وزيد يغني، كما كان والده يغني، وكما

غنى كل رجال قبيلته، والقبائل الأخرى التي سبقتهم على مدى آلاف الأعوام: مرت آلاف الأعوام حتى تشكلت تلك الأغنيات ذات المعاني المكثفة أحادية النغم. وبعكس الموسيقى الغربية متعددة الأصوات والتي تعبر في الغالب عن مشاعر فردية، تبدو تلك الأغاني العربية كأنها رموز صوتية لمخزون معنوي لملايين البشر وتنقل عواطفهم المكثفة. ولدت الأغاني من أزمان قديمة في بيئة الصحراء على إيقاع الرياح والعواصف وهجرات القبائل وأحاسيس الآفاق الواسعة والمسافات الكبيرة ومن تأمل الحاضر الأبدي: ومثل كل ما هو مهم في حياة البشر ويظل على جوهره، ظلت تلك الأغاني بلا تغير على مدى دهور.

من الصعب أن تجد مثل تلك الأغاني في الغرب، بسبب التعددية لا في الأصوات ولا في الموسيقى فحسب، بل في مشاعر البشر ورغباتهم. برودة الطقس، وغزارة المياه، وتتابع الفصول توجد تعددية شكلية لمظاهر الحياة تتباين في دلالاتها ومعانيها ولذلك يشعر الرجل الغربي برغبات كثيرة ودافع قوي لفعل أشياء من أجل فعلها. يجد أن عليه أن يبتدع ويبني ويتغلب حتى يرى ذاته متحققة مرة بعد أخرى في تعقيدات الحياة المتغيرة. وينعكس ذلك على موسيقاه أيضاً وغنائه الغربي الصاخب والصوت الآتي من الصدى، يوحي بطبيعة «فاوستية» تدفع بالرجل الغربي إلى أحلام كثيرة، ورغبات متعددة؛ الزمن ليس إلا عدواً، يتطلعون إليه بتشكك وريبة، ولا يحمل الحاضر لهم أبداً أي معنى من معاني الخلود والأبدية والديمومة...

أما عرب الصحراء فلا يوجد في صحاريهم وبواديهم الواسعة الممتدة ما يغري بالحلم: الصحراء قاسية واضحة كالنهار لا تعرف لون

المشاعر. الظاهر والباطن، الذاتي والعام، لا تناقض بينها عنده بقدر ما هي أوجه متباينة لحاضر لا يتغير؛ لا تهيمن على حياته مخاوف دفينة، وحين يقوم بفعل فإنه يقوم به لضرورة خارجية لا لرغبة داخلية ولا احتياجاً لتأمين ذاته. نتيجة لذلك لم يتقدم في الإنجاز المادي بنفس سرعة الرجل الغربي - إلا أنه احتفظ بروحه سليمة.

* * *

تساءلت في داخلي بفضول، إلى أي مدى يستطيع زيد وقومه أن يحافظوا على سلامة أرواحهم في مواجهة الخطر المتسلل إليهم والذي يكاد أن يطبق عليهم في قسوة وشراسة؟

إننا نحيا في عصر لا يمكن فيه للشرق أن يظل على سلبيته في مواجهة تقدم الغرب، آلاف القوى - سياسية، واجتماعية، واقتصادية - تحاول اقتحام أبواب العالم الإسلامي.

هل سيرضخ لغرب القرن العشرين، وإن خضع، ألن يفقد تقاليده وجذوره الروحية؟

[٢]

خلال الأعوام التي قضيتها بالشرق الأوسط، كمجرد متعاطف من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٦، ثم كمسلم من بعد ذلك له أهداف مشاركة مع العالم الإسلامي، شهدت حصار الغرب للحياة الثقافية الإسلامية وللاستقلال السياسي للعرب والمسلمين. وإذا حاولت الشعوب الإسلامية دفع تلك الهيمنة، يتهم الرأي العام الأوروبي تلك المقاومة، بطريقة البراءة الجريحة، بأنها «كراهية الأجانب».

اعتادت أوروبا لأزمان طويلة أن تتعامل مع كل ما يقع في الشرق الأوسط برؤية مصالحها فقط فيما أسمته «مجالات المصالح» الغربية.

وبينما أبدى الرأي العام الغربي خارج بريطانيا تعاطفاً تجاه الكفاح الإيرلندي للاستقلال عن بريطانيا. كما تعاطف الرأي العام الغربي (خارج ألمانيا وروسيا) مع أحلام بولندا في الاستقلال، إلا أن ذلك التعاطف الغربي لم يمتد ليشمل تطلعات المجتمعات الإسلامية. وحجة الغرب دائماً تنحصر في التمزق السياسي العربي والتخلف الاقتصادي للشرق الأوسط. وكل تدخل غربي في شؤون الدول الإسلامية يوصف بنفاق بأنه دفاع عن المصالح «المشروعة» للغرب بل والأغرب أنه يتم تبريره بأنه لتأمين تقدم ورقي شعوب تلك البلاد.

كان دارسو الشرق الأوسط على استعداد دائم لبلع ذلك الطعم من الادعاءات، متجاهلين أن كل تدخل مباشر أو غير مباشر من خارج البلاد لا يؤدي إلا إلى تعويق تطور ونمو أي مجتمع إسلامي بعكس ما يدَّعون لا يرى الدارسون إلا خطوط السكك الحديد التي مدتها القوى الاستعمارية، ولكنهم لا يرون ما دمره المستعمر من الصناعات الوطنية، ويحصون أعداداً من «كيلو ـ واط» خطوط الكهرباء، ولا يرون ما يدمرونه من اعتزاز قومي وروح قومية. إنها الشعوب الغربية نفسها التي لم تقبل أبداً دخول بعثة للإمبراطورية النمسوية لمنطقة البلقان، وقبلوا بتسامح شديد دخول بريطانيا إلى مصر، ودخول روسيا إلى وسط آسيا، ودخول فرنسا دول المغرب العربي، ودخول إيطاليا إلى ليبيا.

لم تمر أبداً في أذهانهم فكرة أن أكثر العلل والآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها الشرق الأوسط ليست إلا نتيجة مباشرة

«للمصالح» الغربية، وعدا ذلك، يهدف التدخل الغربي بشكل أو بآخر إلى توسيع وزيادة بؤر الاضطرابات الداخلية لتصعيب سيطرة الشعوب المعنية على مقدراتها.

* * *

تحققت من ذلك لأول مرة وأنا في فلسطين عام ١٩٢٢، وتأكدت من السياسة المراوغة ذات الوجهين التي تتبعها الإدارة البريطانية فيما يخص الصراع العربي ـ الصهيوني، واتضح لي بكامل أبعاده في بدايات عام ١٩٢٣، بعد أن قضيت عدة أشهر متجولاً في أنحاء فلسطين، كما ذهبت إلى مصر التي كانت في حالة غليان مستمر ضد «الوصاية» البريطانية عليها. كانت القنابل تلقى على مناطق يرتادها الجنود البريطانيون، وترد عليهم قوات الاحتلال بإجراءات في غاية القسوة والتعسف، من إعلان للأحكام العرفية العسكرية، إلى الاعتقالات السياسية، ونفي قادة المقاومة، وإغلاق الصحف ومصادرتها. إلا أن كل تلك الإجراءات القاسية لم تنل من عزيمة الشعب المصري وتطلعه إلى الحرية ونضاله من أجل تحقيقها. كان يسري في كل الأمة المصرية ما يمكن وصفه بموجة من التشنج العاطفي. لم يكن نشيج يأس، بل نشيج عزيمة وتصميم من اكتشف جذور قواه الكامنة.

كان الباشاوات فقط وهم أصحاب الإقطاعيات الزراعية الكبيرة متحالفين مع الحكم البريطاني، أما الأغلبية الساحقة من الشعب ـ بمن فيهم الفلاحون الفقراء ـ الذي كان الفدان الواحد من الأرض الزراعية يعد أثمن ممتلكات أسرة بكاملها، فقد دعموا جميعاً الحركة الساعية للاستقلال.

في صباح أحد الأيام تصاعد نداء باعة الصحف الجائلين في الشوارع: «القبض على قادة الوفد بأمر الحاكم العسكري» - في اليوم التالي كان قادة جدد قد حلوا محل من تم اعتقالهم، كانت الفجوة تمتلئ مرة بعد أخرى: تنامى شوق المصريين إلى الحرية كما تنامت كراهية المحتل. ولم يكن لدى أوروبا إلا كلمة واحدة إزاء كل ما يجري: «كراهية العرب للأجانب».

كان مجيئي إلى مصر في ذلك الوقت لتوسيع مجال تغطيتي الصحفية كمراسل لجريدة «فرانكفورتر ذيتونج». ولم تسمح أحوال خالي «دوريان» المالية بتمويل تلك الجولة، إلا أنه قدم لي مبلغاً مالياً صغيراً يكفي لدفع ثمن السفر من القدس إلى القاهرة بالقطار وما يعينني على المعيشة لمدة أسبوعين بالقاهرة.

وجدت مسكناً بسيطاً في القاهرة في حارة ضيقة يحيا بها الفنانون البسطاء، وبعض أصحاب المحلات الصغيرة من اليونانيين. كانت صاحبة المنزل سيدة كئيبة، طويلة، ثقيلة الوطأة، داكنة البشرة، وكانت تتجرع النبيذ اليوناني القوي من الصباح حتى المساء وتتناوب عليها حالات مزاجية متباينة. كانت ذات مزاج عاطفي سريع التقلب وعنيف، ويبدو أنها لم تحقق ذاتها أبداً من أي جانب من جوانب حياتها، إلا أنها رغم كل ذلك كانت ودوداً تجاهي، وكنت أشعر بمشاعر طيبة في حضورها.

بعد أسبوع أو نحو ذلك، أوشكت الأموال القليلة التي كانت معي على النفاد. لم أرغب أن أعود بتلك السرعة إلى فلسطين لأمكث في منزل خالي من جديد، فبدأت أبحث عن وسيلة لكسب العيش.

كان صديقي الذي تعرفت إليه بالقدس، الدكتور «دي هان» قد زودني برسالة توصية إلى رجل أعمال هولندي بالقاهرة، توجهت إليه وطلبت نصحه بشأن إيجاد فرصة عمل. كان رجل أعمال هولندياً يتسم بشخصية لطيفة واهتمامات ثقافية تتجاوز مجال عمله. علم من رسالة التوصية التي كتبها إليه «جاكوب دي هان» أنني مراسل لصحيفة «فرانكفورتر ذيتونج»، وحين أطلعته بناء على طلبه على بعض مقالاتي الأخيرة، رفع حاجبيه في دهشة:

- «قل لي، كم يبلغ عمرك؟».

- «الثانية والعشرون».

- «قل لي أيضاً، من فضلك: من أعانك على كتابة هذه المقالات، هل عاونك دي هان؟».

ضحكت وأجبته: «كلا بالطبع، كتبتها بنفسي، دائماً أقوم بعملي بنفسي، ولكن لماذا تشك في ذلك؟».

هز رأسه وكأنما فاجأه تساؤلي: «لأنها مدهشة.. كيف وصلت إلى هذا النضج حتى تكتب مثل هذه المادة الصحفية؟ وكيف تمكنت أن تعبر في نصف جملة عن معان تبدو ملغزة في ظاهرها؟».

راقني المديح الذي تضمنه رأيه ورفع ذلك من معنوياتي وإحساسي بذاتي. في سياق حوارنا تبينت أن الرجل ليس لديه عمل لي، إلا أنه يعتقد أن بإمكانه أن يجد عملاً لي في شركة مصرية يتعامل معها.

كان المكتب الذي أرشدني إليه يقع في أحد أحياء القاهرة القديمة، ولا يبعد كثيراً عن مسكني: كان يقع في ممر بين مبنيين، كان أحدهما من المباني العريقة القديمة التي تحولت إلى مكاتب شركات وشقق

رخيصة للإيجار. كان مدير العمل، وهو مصري أكبر مني عمراً أصلع الرأس، وكان في حاجة إلى موظف بعض الوقت يتولى مسؤولية مراسلاته باللغة الفرنسية؛ أقنعته أنني أستطيع أن أقوم بذلك مع أنه لا خبرة لي إطلاقاً بالأعمال التجارية. توصلنا إلى اتفاق بسرعة وسهولة، وهو أن أعمل ثلاث ساعات يومياً مقابل أجر بسيط، إلا أنه كان يكفي لدفع إيجار المسكن والمعيشة بالكاد على الخبز واللبن والزيتون».

كان حي الأضواء الحمراء في القاهرة يقع في المنطقة المحصورة بين مسكني ومكان عملي الجديد، حي بأكمله بحوارٍ ضيقة متعرجة تقطنه كبار وصغار الداعرات.

بعد الظهر، في طريقي إلى العمل، أجد تلك الحواري خالية يسودها صمت وسكون، عبر النوافذ أرى امرأة تتمطى في تراخ وكسل، ومن نافذة أخرى فتيات المنزل يرتشفن فناجين القهوة بصحبة رجال ملتحين على وجوههم علامات الجدية ويتحدثون في عبوس، عن أشياء تبدو بعيدة عن إثارة البدن والمتع المحرمة.

حين يحل المساء، وفي طريق عودتي من العمل إلى مسكني، يستيقظ الحي بأجمعه وتدب فيه الحياة، يصدح بموسيقى العود العربي تصاحبه الطبول والدفوف وضحكات النساء. حين تسير تحت أعمدة الإنارة والفوانيس الملونة، تجد فجأة ذراعاً ناعمة تلتف في رقة حول رقبتك، ذراعاً بيضاء أو داكنة أو قمحية اللون، إلا أنها جميعاً على اختلاف ألوانها توسوس بصوت الأساور والسلاسل الذهبية والفضية، ورنات خلاخيل القدمين الفضية، وتفوح منها رائحة المسك ورائحة البشرة الدافئة.

لا بد أن تكون قوي العزيمة والإرادة حتى تظل بمنأى عن أسر تلك الأحضان الدافئة وتفر من نداءات متكررة: «يا حبيبي» و«سعادتك». لا بد أن تشق طريقك بين أطراف بضة لامعة تغري بالنظر وتدير الرأس بما تتضمنه من إيحاءات. كل زائري مصر تراهم في تلك الأماكن، من مغاربة إلى جزائريين وسودانيين ونوبيين، وأبناء الجزيرة العربية وأرمينيا وسوريا وإيران. . . رجال في ثياب حريرية طويلة يجلسون على الأرائك بجوار حوائط المنازل، يشعرون بالبهجة، يضحكون ويداعبون فتيات الليل أو يدخنون الأراجيل صامتين متفرجين. ليسوا جميعاً من «زبائن» المتعة: جاء كثير منهم لقضاء بعض الوقت في مكان غريب سمعوا عنه، مبهج ومثير في جو غير تقليدي. .

أحياناً لا بد أن تتنحى بسرعة قبل أن يصطدم بك درويش من السودان يرتدي أسمالاً بالية، يغني أغاني المتسولين ووجهه مغيب وذراعاه مفرودتان للأمان. سحب البخور تتصاعد من مباخر تتأرجح وتدور وتمس وجهك بروائح ذكية. تتصاعد أصوات الغناء الجماعي وتتخافت من أكثر من موضع، مع التكرار بدأت في فهم معاني بعض الألفاظ العربية. . ومرات تسمع أصواتاً مصاحبة للمتعة ـ الأصوات الحيوانية لتلك الفتيات وهن يمارسن المتعة المحرمة ـ وفي أزيائهن التي لا تخفي أبدانهن وتتراوح بين الأزرق الفاتح، والأصفر، والأحمر، والأخضر، والأبيض، والذهبي، كلها من الحرير ونسيج التوللي، أو نسيج شفاف أو حرير دمشقي ـ كانت ضحكاتهن تبدو كأنها خطوات القطط على أحجار الطريق، ترتفع مجلجلة، وتتخافت، لتتصاعد ضحكات أخرى من أماكن أخرى.

كيف يمتلك المصريون تلك القدرة على الضحك؟ كيف يسايرون الأيام والزمن يوماً بعد يوم فوق شوارع القاهرة، منتصبي القامة بخطوات مرحة في قمصانهم الطويلة التي يسمونها «جلابية» المخططة عادة بكل ألوان الطيف ـ مرحين، عقولهم حرة، حتى يعتقد المرء أن كل ذلك الفقر الطاحن وعدم الرضا والاضطرابات السياسية لا تؤخذ بجدية إلا بشكل نسبي، وتجد أن مرحهم الصاخب المتفجر يبدو دائماً على استعداد لترك مساحة إلى صفاء النفس والهدوء الذي يصل إلى التراخي والكسل.

لهذا السبب، يعتبر أغلب الأوروبيين (وما زالوا) أن العرب سطحيون، إلا أنني اكتشفت أن ذلك الحكم على العرب ينبع من ميل الغرب إلى المبالغة في وصف الانفعالات التي تبدو لهم متجهمة وجادة ورزينة بأنها «عميقة»، وأن يصفوا «بالسطحية» أي سلوك فيه خفة ومرح. أدركت أن العرب قد ظلوا متحررين من تلك التوترات الداخلية والضغوط النفسية التي يتصف بها أبناء الغرب بصفة خاصة: فإذا لنا إذن أن نطبق عليهم مقاييسنا الخاصة؟

لو بدا أنهم سطحيون، فربما كان ذلك عائد إلى تدفق مشاعرهم وانفعالاتهم مباشرة إلى سلوكياتهم، وربما يتحولون تحت وطأة «التغريب» إلى فقد تدريجي لتلك التلقائية في تواصلهم مع الواقع: فمع أن التأثير الغربي يعمل في بعض المجالات والمناحي كحافز ومخصب للفكر العربي المعاصر، إلا أنه لا بد أن يعمل على خلق المشكلات الخطيرة نفسها التي تهيمن على المشهد الروحي والسياسي في الغرب.

* * *

مقابل المنزل الذي كنت أقطن به في القاهرة، مقابله تماماً في تلك الحارة الضيقة أو الممر، كان هناك مسجد صغير ذو مئذنة قصيرة كنت أسمع منها الأذان للصلاة خمس مرات كل يوم. يظهر رجل ذا عمامة بيضاء في شرفة المئذنة، يرفع كفيه إلى جانبي وجهه، ثم يرفع عقيرته بالأذان: «الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله»، في تحوله البطيء في شرفة المئذنة ليوجه النداء إلى الجهات الأصلية الأربع، يرتفع صوته متسلقاً الأعالي، ويتضخم ويتضاعف في الجو الصافي، بعمق الأصوات الحلقية للكلمات العربية، يتماوج، يتقدم ويتراجع، جهيراً عميقاً، ناعماً وقوياً واسع المدى، إلا أنك تدرك أن تلك الصفات الجمالية الصوتية التي تميز الأذان إنما هي ناتجة عن توهج إيماني، لا عن نوع من الصنعة الفنية.

كان أذان المؤذنين الذي كنت أسمعه في الأيام التي قضيتها بالقاهرة، هو ذاته الأذان الذي كنت أستمع إليه بالقدس، وقدر لي أن أسمعه بعد ذلك في كل البلاد الإسلامية رغم اختلاف اللغات واللهجات وأصوات الأداء: جعلني توحد الأذان أدرك في تلك الأيام عمق التوحد الإسلامي بين كل الشعوب الإسلامية، وأدرك أن الاختلافات مصطنعة ولا معنى لها. تميز ذلك التوحد عقيدة واحدة، وتوحد أساليب التفكير، والتمييز بين الصواب والخطأ والحلال والحرام، وإدراك واحد لما يجب أن يكون عليه صلاح الحياة.

بدا لي أنه لأول مرة أصادف مجتمعات تكون فيها الرابطة بين فرد وآخر لا تعود إلى انتماء لجنس واحد، ولا لاهتمامات مادية اقتصادية ومصالح مشتركة مبنية على المنفعة، بل تعود إلى ما هو أعمق من كل

ذلك وأشد رسوخاً: إلى الاشتراك في رؤية واحدة إلى الهدف من الوجود، رؤية تزيل كل الحواجز التي يمكن أن تعزل فرداً عن فرد آخر من بني البشر.

عدت في صيف ١٩٢٣ إلى القدس، وقد أثْرتني التجارب بفهم أفضل لطبيعة الحياة في الشرق الأوسط وما يتعلق بها من جوانب ومشاكل سياسية. وتعرفتُ إلى الأمير عبد الله ـ أمير عبر الأردن عن طريق صديقي الحميم «جاكوب دي هان»، ودعاني إلى زيارة بلده. كنت لأول مرة أرى بلداً عربياً بدوياً بأجمعه. كانت العاصمة عمان في ذلك الوقت ـ قد بنيت على حطام المستعمرة اليونانية القديمة التي أسسها بطليموس فيلادلفيوس وأسماها فيلادلفيا ـ مدينة صغيرة لا يزيد سكانها على ستة آلاف نسمة، تموج شوارعها بالبدو القادمين من الصحاري والبراري، كانت الخيول تعدو في شوارع عمان، كل بدوي كان مسلحاً بخنجر في حزامه وبندقية على ظهره، وكانوا من أصول جركسية (وكان الجراكسة هم من أسسوا المدينة الحديثة بعد هجرتهم من وطنهم شمال القفقاص بعد الغزو الروسي لبلادهم في القرن التاسع عشر)، يتجولون في جماعات كبيرة بالأسواق التي كانت تموج بالحركة وتناسب مدينة أكبر من عمان.

كان الأمير عبد الله في ذلك الوقت يعيش في معسكر من الخيام على تل يشرف على المدينة حيث لم تكن بها مبان كافية وملائمة له. وكانت خيمته أكبر من باقي الخيام، وتتكون من مساحات تفصلها عن بعضها حواجز من أقمشة الخيام السميكة المزركشة وتحتوي على أساس بسيط فقد كان بركن واحدة من تلك المساحات جلد دب أسود يستعمل

فراشاً للنوم، وفي غرفة الاستقبال كان هناك زوج من سروج الإبل يستعمل متكئاً لمن يجلس على البساط.

لم يكن بالخيمة أحد ـ باستثناء خادم أسود يرتدي زياً مقصباً ويضع خنجراً مذهباً في حزامه ـ عند دخولنا إليها أنا والدكتور رضا توفيق بك كبير مستشاري الأمير عبد الله. كان رضا توفيق بك تركياً وأستاذاً جامعياً سابقاً ووزير تعليم سابقاً أيضاً بتركيا على مدى ثلاثة أعوام قبل وصول كمال أتاتورك إلى الحكم. أخبرني الدكتور رضا أن الأمير عبد الله لن يتأخر كثيراً؛ إذ كان يعقد اجتماعاً مع بعض زعماء قبائل البدو بسبب الهجوم الذي شنه أهل نجد على جنوب الأردن. وشرح لي الدكتور رضا طبيعة المشكلة قائلاً: «أولئك النجديون الوهابيون لعبوا دوراً في الإسلام لا يقل عن دور الإصلاحيين البيوريتانيين في العالم المسيحي، فبقدر ما منعوا كل تقديس للأولياء والأسلاف الصالحين، ونهوا عن كل الخرافات الغيبية الغامضة التي تسللت إلى الإسلام عبر القرون؛ كانوا بنفس القدر أعداءً للعائلة الشريفة التي يتزعمها الشريف حسين ملك الحجاز، ووالد الأمير عبد الله، وطبقاً لما ذكره لي رضا توفيق بك، فإن وجهات النظر الدينية التي تبناها الوهابيون لا يمكن رفضها، لأنهم اقتربوا بالفعل من روح القرآن ومضمونه أكثر من أية اتجاهات أخرى كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وأنها من الممكن أن تؤدي مع مضي الزمن إلى تنقية الفكر الإسلامي من كل ما علق به من مدخلات، إلا أن تطرفهم الشديد، أدى إلى نفور كثير من المسلمين مما تدعو إليه الحركة الوهابية، وكانت تلك العقبة موضع ترحيب من «بعض الجهات» التي تخشى عودة اتحاد الشعوب العربية لدرجة الرعب.

بعد فترة وجيزة دخل الأمير عبد الله ـ كان في حوالي الأربعين من عمره، متوسط القامة، له لحية قصيرة شقراء، يخطو بنعومة لابساً خفاً من الجلد الأسود، وعباءة عربية فضفاضة من الحرير الأبيض الشفاف، فوق جلباب عربي أبيض. بادرني قائلاً: «أهلاً وسهلاً»، وكانت أول مرة توجه ليّ فيها تلك التحية العربية الحميمة.

كان بشخصية الأمير عبد الله جانب جذاب وآسر، روح ودود قوية، تعبيرات دافئة وسرعة بديهة. لم يكن من الصعب اكتشاف سر شعبيته في تلك الأيام وحب شعبه له. وبالرغم من عدم تقبل كثير من العرب للدور الذي لعبه في تنفيذ السياسة البريطانية في تمرد العائلة الشريفة بالجزيرة وعبر الأردن ضد الحكم التركي لصالح البريطانيين مما اعتبر خيانة مسلمين لمسلمين آخرين، إلا أنه اكتسب مكانة متميزة بسبب دوره الذي أداه للقضية العربية ضد الصهيونية، إلا أنه سيأتي يوم تؤدي فيه مواقفه المتغيرة مع التغيرات السياسية إلى جعل اسمه مكروهاً ومبغوضاً في كل أرجاء العالم العربي. كنا نحتسي القهوة في أقداح صغيرة يدور بها الخادم الأسود، وتحدثنا ـ كان الدكتور رضا يتدخل أحياناً للترجمة، وقد كان يجيد الفرنسية إجادة تامة ـ عن المصاعب الإدارية في الدولة الوليدة، بسبب اعتياد كل فرد على حمل السلاح، وعدم انصياع أي بدوي إلى أي قانون إلا قانون عشيرته.

قال الأمير: «العربي لديه كثير من حسن الفهم والإدراك، حتى البدو بدأوا يدركون أن عليهم التخلي عن الفوضى إذا أرادوا أن يتحرروا من الهيمنة الأجنبية، وحالات الثأر بين القبائل التي لا بد أنك سمعت عنها، تختفي الآن تدريجياً».

تناقشنا حول طبائع القبائل البدوية العنيدة التي اعتادت على قتال بعضها لأتفه الأسباب. كانت ثارات الدم تستمر على مدى أجيال ويورث الثأر المستحق من أب لابنه حتى على مدى قرون، وتؤدي إلى مزيد من إراقة الدماء في سلسلة ثأر متبادل لا ينتهي وما يتمخض عنه من كراهية مريرة تدوم على مدى دهور، مع أن السبب الأصلي الذي بدأ بسببه القتال يكون قد نسي، لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لوضع حد لتلك الانشقاقات: وهي تزويج شاب من القبيلة صاحبة الثأر من فتاة عذراء من القبيلة التي عليها الثأر، وتعد دماء العذرية رمزاً للدم المطلوب من القبيلة التي عليها الدم. كانت بعض القبائل قد أنهكت من سلسلة الثأر المتبادل المستمر من أجيال، واستنزف قوى كل من القبيلتين المتناحرتين؛ في مثل هذه الحالة، كان طرف ثالث يدبر ترتيب هذه الزيجة التي تنهي سلسلة الانتقام المتبادل.

قال لي الأمير عبد الله: «لقد فعلت ما هو أفضل من ذلك، لقد كونت مجالس تعويض لثأر الدم مكونة من رجال أجلاء محل ثقة الجميع يدورون في أنحاء البلاد لترتيب خطب العروس الرمزي والزواج بها بين القبائل المتحاربة، ولكن. . .»، وهنا ارتجف جفناه «دائماً أؤكد لأعضاء تلك المجالس أن يهتموا عند اختيارهم للعروس العذراء، حتى لا تنتقل الثارات داخل قبيلة العريس الذي أسيء اختيار زوجة له. . .» ظهر صبي في حوالي الثانية عشرة من عمره من خلف أحد الحواجز، مضى خلال ضوء الخيمة المعتم قليلاً بخطوات سريعة وقفز في سرعة على ظهر جواد طافر يشب على قائمتيه خارج الخيمة وخادم يمسك لجامه: كان الابن الأكبر للأمير عبد الله، الأمير طلال بقامته النحيلة، انقض على الجواد وبريق في عينيه رأيت فيه وجوداً بلا حلم جعل العرب يبدون أبعد ما يكونون، عن كل ما عرفته عنهم وأنا في أوروبا.

حين لاحظ إعجابي الواضح بابنه، قال الأمير عبد الله: «إنه مثل أي صبي عربي آخر، يكبر وفكرة واحدة في رأسه: الحرية، إننا لا نعتقد أننا بلا أخطاء، إلا أننا نحب أن نرتكب أخطاءنا بأنفسنا، وبذلك تتعلم كيف تتجنب الوقوع فيها من جديد ـ تماماً كما تتعلم الشجرة كيف تنمو باستقامة وذلك بقيامها بالنمو بنفسها، أو كما تشق المياه الغزيرة مجراها لتتدفق فيه، لا نريد أن يوجهنا أحد إلى الحكمة من قبل شعوب لا توجد لديها أصلاً أية حكمة، ليس لديهم إلا القوة فقط والمدافع والأموال ولا يجيدون إلا فقد أصدقائهم الذين كان يمكنهم الاحتفاظ بهم بسهولة...»[1].

* * *

لم يكن بإمكاني البقاء لأمد غير محدد بفلسطين دون مورد مالي؛ ومرة أخرى عاونني «جاكوب دي هان»، كان له اتصالات وعلاقات كثيرة عبر كل أوروبا كصحافي معروف. وأدت توصيته بي لدى صحف كثيرة إلى تعاقدين مع صحيفتين ناشئتين، واحدة في هولندا والأخرى في سويسرا، لكتابة سلسلة مقالات أتلقى أجرها بالجيلدر الهولندي والفرنكات السويسرية. ولأنها صحف محلية غير واسعة الانتشار فلم يكن بإمكانهم دفع أجر مجزٍ، إلا أنه لامرئ مثلي بسيط العادات، بدا الأجر كافياً لتمويل جولتي التي أخطط لها عبر الشرق الأوسط.

---

(١) لم يكن بإمكان أحد في ذلك الوقت (١٩٢٣) أن يتنبأ بالصراع المرير الذي سينشأ ويفسد العلاقة بين الأمير عبد الله وابنه الأمير طلال ـ كان ابن يكره خضوع والده التام لسياسات بريطانيا في العالم العربي، كما كره الأب أحاديث وخطب ابنه الوطنية، كما لم يتنبأ أحد بأية إمارة تدل على «الاضطراب العقلي» للأمير طلال، والذي اتخذ ذريعة للإطاحة به من على عرش الأردن عام ١٩٥٢.

قررت أن أبدأ بسوريا، إلا أن السلطات الفرنسية التي كانت تحتل سوريا وتواجه بعداء شديد من قبل شعب سوريا، رفضت إعطاء تأشيرة دخول لشخص يحمل الجنسية النمسوية حيث كانت النمسا معادية لفرنسا في الحرب العالمية الأولى، ولم يكن هناك ما أستطيع عمله إزاء ذلك؛ فقررت التوجه إلى حيفا، ومنها أسافر بحراً إلى استانبول، وكانت ضمن الجولة التي أخطط لها.

في رحلة القطار من القدس إلى حيفا، وقعت لي كارثة جديدة، فقد فقدت معطفي الذي كانت به حافظة نقودي وجواز سفري. لم يبق معي إلا بعض قطع نقود معدنية كانت بجيب سروالي. واتضح أن سفري إلى اسطنبول أصبح مستحيلاً أيضاً. لم يتبق أمامي إلا العودة إلى القدس بالسيارة العامة، وأن أدفع ثمن العودة عند وصولي إلى القدس مقترضاً إياه من خالي دوريان كالمعتاد. وفي حالة عودتي إلى القدس لا بد أن أنتظر عدة أسابيع حتى أحصل على جواز سفر جديد من القنصلية النمسوية بالقاهرة (لم تكن هناك قنصلية للنمسا في ذلك الوقت في فلسطين)، ثم أنتظر وصول قطرات مالية أخرى من هولندا وسويسرا.

هكذا وجدت نفسي في الصباح أمام مكتب السيارات العامة على مشارف مدينة حيفا. وانتهيت من التفاوض حول أجر الركوب، وتبقت ساعة على انطلاق السيارة إلى القدس، ولإضاعة الوقت، رحت أتمشى جيئة وذهاباً على الطريق، تملأني مشاعر الضيق من نفسي ومن القدر الذي أجبرني على تلك العودة المهينة ومن جولة انتهت قبل أن تبدأ. كان الانتظار يضايقني على الدوام وتشعرني فكرة عودتي إلى القدس مهزوماً وذيلي بين ساقيّ بمرارة أشد وزاد من إحساسي بالمرارة تشكيك

دوريان الدائم في قدرتي على تحقيق خططي بتلك الأموال الضئيلة الهزيلة. فوق كل ذلك لن أتمكن من زيارة سوريا، والله وحده يعلم إن كانت تتاح لي فرصة أخرى لزيارة سوريا. لن أرى دمشق. . لماذا؟

تساءلت بمرارة، هل دمشق محرمة عليّ؟

هل هي فعلاً محرمة عليّ؟ كانت الإجابة سريعة ومنطقية ـ فلا جواز سفر، ولا مال. ولكن هل من المحتم أن يكون هناك جواز سفر ومال. . . ؟

حين وصلت إلى ذلك المدى من التفكير، توقفت فجأة عن السير. . من الممكن إذا كانت هناك عزيمة كافية وقدرة على التحمل أن أقطع الرحلة سيراً على الأقدام وأن أقبل كرم ضيافة الفلاحين العرب، ويحتمل أن أتمكن من عبور الحدود خفية دون جواز سفر ولا تأشيرات دخول.

قبل أن أعي أبعاد الأمر تماماً، كان عقلي قد اتخذ القرار: سأتجه فوراً إلى دمشق.

في دقيقة أخبرت مشرفي السيارة العامة أنني قد غيرت رأيي، ولن أسافر إلى القدس. وفي بضع دقائق أخرى استبدلت ملابسي بملابس العمال الزرقاء والكوفية العربية (وهي أفضل حماية عربية للمرء من ضربة الشمس)، وقمت بشراء بعض المتطلبات الضرورية وضعتها في حقيبة ظهر صغيرة، وأنهيت إجراءات إعادة حقيبة سفري التي كان معي إلى دوريان بالقدس. وانطلقت مبتدئاً طريقي الطويل إلى دمشق.

كان من الصعب التمييز بين إحساسي الطاغي بالحرية الذي ملأني وإحساسي الطاغي بالسعادة التي اعترتني. كانت معي بعض العملات

المعدنية في جيبي، منطلق إلى مهمة غير مشروعة قد تنتهي بي إلى السجن، ومشكلة عبور الحدود تبدو أمامي غير واضحة وغير يقينية، راهنت على قدرتي العقلية وحدها: وبعث ذلك في نفسي قدراً كبيراً من السعادة.

* * *

سرت على طريق الجليل. بعد الظهر كانت سهول أزدر لون تقع إلى أسفل على يميني، مرصعة بمساحات من الظلال والضوء. مررت بالناصرة، وقبل حلول الظلام وصلت إلى قرية عربية تحوطها أشجار الفلفل والصبار. على باب أول منزل كان يجلس بعض الرجال والنساء. توقفت وسألتهم إن كانت هذه القرية هي الرانية، وبعد أن ردوا بالإيجاب وأوشكلت على مواصلة سيري، نادتني امرأة منهن: «يا سيدي، ترتاح قليلاً؟» كما لو كانت تتنبأ بعطشي، مدت إبريقاً مليئاً بالماء البارد تجاهي، شربت حتى الارتواء، سألني أحد الرجال ـ وكان من الواضح أنه زوج السيدة التي سقتني ـ «ألا تأكل معنا كسرة خبز، وتقضي ليلك عندنا»؟

لم يسألني أحد منهم من أكون، وإلى أين أمضي، أو ما عملي وبقيت الليل عندهم ضيفاً عليهم.

إن تكن ضيفاً على العرب؛ فهو شيء ذائع الصيت ومعروف لأطفال مدارس أوروبا. فأن تكون ضيفاً على العرب يعني أن تدخل عندهم لساعات، وعلى مدى بقائك عندهم يعاملونك كما لو كانوا أشقاءك وشقيقاتك. نزولك ضيفاً على العرب ليس مجرد تقليد نبيل يجعل منهم مضيافين بذلك السخاء: إنها حريتهم الدفينة. متحررون من مشاعر عدم

الثقة ويفتحون حياتهم بكل سهولة أمام ضيفهم. إنهم لا يحتاجون إلى جدران سميكة مثل تلك التي يقيمها أبناء الغرب بينهم وبين جيرانهم.

تناولت العشاء معهم، الرجال والنساء، كانوا جالسين متربعي الساقين على بساط حول قصعة كبيرة مليئة بالخبز الجاف المهشم، وعليه لبن كان أصحاب الدار يقطعون قطعاً من أرغفة خبز طرية رقيقة يدورونها ويغترفون بها مما بالقصعة دون أن تمس أصابعهم ثريد اللبن الذي بالقصعة. أما أنا فقد أعطوني ملعقة، إلا أني رفضتها وحاولت أن آكل مثلهم بنجاح مما أسعد مضيفي لمحاكاتي لهم في طريقتهم الطيبة في تناول الطعام.

عند النوم تمددنا جميعاً، حوالي دستة من البشر في الغرفة نفسها - رحت أحملق في القواطع الخشبية بسقف الغرفة الذي كان يتدلى منه حبال بها فلفل مجفف وباذنجان، كانت هناك طاقات بالجدار موضوع بها أواني طهو نحاسية وفخارية، دارت عيناي باتجاه الرجال والنساء النائمين، وسألت نفسي، هل كان من الممكن أن أشعر بمثل تلك المشاعر لو كنت في موطني؟

في الأيام التالية، بدأت تلال الأردن ذات اللون النبي الصدىء وظلالها الزرقاء الرمادية والبنفسجية في الاختفاء التدريجي كلما واصلت السير لتحل محلها تلال الجليل الخضراء الأكثر بهجة. من آنٍ إلى آخر تجد نبع ماء يشق مجرى لمياهه بين الأشجار، والحياة النباتية أصبحت أغزر وأكثف، أشجار الزيتون تنمو بكثافة، وتجمعات لأشجار صبار داكنة طويلة؛ كانت آخر أزهار الصيف ما زالت تنتشر هنا وهناك على جوانب التلال.

سرت جزءاً من الطريق برفقة أصحاب قوافل الجمال، وسعدت بصحبتهم البسيطة؛ ارتوينا من الماء الذي أحمله في وعاء مائي، دخنّا لفائف التبغ معاً، ثم انفصلت عنهم حين تفرعت مقاصد كل منا. قضيت ليالي في منازل العرب وأكلت معهم من خبزهم وسرت لأيام في منخفض الجليل الحار بجوار بحيرة الجليل، ثم في برودة الجو المحيطة ببحيرة هيول التي كان سطح مياهها يشبه مرآة معدنية يعلوها ضباب فضي رقيق تشوبه حمرة خفيفة تحت أشعة الشمس الغاربة. بالقرب من شاطىء البحيرة كان يسكن الصيادون الفقراء في أكواخ من حصير مثبت على قوائم من أغصان الأشجار الجافة. كانوا في غاية الفقر، وعلى الرغم من ذلك بدا عليهم أنهم لا يريدون أكثر من تلك الأكواخ في العراء، وتلك الملابس البسيطة التي محيت ألوانها، وحفن من الدقيق لعمل الخبز، والسمك الذي يصطادونه: ودائماً يبدو عليهم أن لديهم ما يزيد على حاجتهم حتى إنهم يصرون على استضافة الغريب ليشاركهم طعامهم القليل.

* * *

كانت أقصى نقطة شمال فلسطين هي مستعمرة المطلة اليهودية، كنت أعلم أنها منطقة تفصل بين منطقتي الإدارة البريطانية لفلسطين والإدارة الفرنسية لسوريا. وبناء على اتفاق بين الحكومتين كانت مستعمرة المطلة ومستعمرتان أخريان سيخضعان للإدارة البريطانية. في أثناء تلك الأسابيع قبل انتقال المستعمرات إلى السيطرة السياسية البريطانية، لم تكن المطلة تحت سيطرة أي من الحكومتين، ولذلك كانت مكاناً مثالياً أتسلل منه إلى سوريا. كانت أوراق الهوية الشخصية

مهمة جداً كما فهمت بعد ذلك لمن ينتقلوا عبر الطرق الرئيسية، وكانت السلطات الفرنسية في غاية التشدد، وكان من المستحيل أن أمضي على طريق رئيس داخل الأراضي السورية دون أن توقفني قوات الجندرمة الفرنسية. كانت المطلة ما زالت تعد رسمياً تحت الهيمنة الفرنسية، وكان كل فرد بالغ فيها يحمل أوراقاً ثبوتية من السلطات الفرنسية، وأصبح من الضرورة الحصول على مثل تلك الأوراق.

قمت ببعض التحريات في حذر، وأوصلني ذلك إلى منزل رجل من الممكن أن يتنازل، عن أوراقه كان رجلاً ضخماً في أواخر الثلاثينيات من عمره، وكان وصفه ذاك مذكوراً في الوثيقة التي يحملها. كانت الوثيقة مطوية قد تثنت وتهالكت وعليها بقع من الزيت. أخرجها من جيب سترته، ولأن الوثيقة كانت بغير صورة شخصية، بدا الأمر أكثر سهولة.

سألته: «كم تطلب ثمناً لها»؟

أجاب: «ثلاثة جنيهات»

أخرجت من جيبي كل العملات المعدنية التي أملكها وعددتها فوجدتها خمسة وخمسين قرشاً، وهو ما يزيد قليلاً على نصف الجنيه.

قلت له: «هذا كل ما أملك، وحيث إنني لا بد أن أحتفظ بشيء لباقي رحلتي فلن أستطيع أن أعطيك أكثر من عشرين قرشاً (وكان ذلك واحداً من خمسة عشر مما طلبه).

بعد دقائق من المساومة، استقر الثمن على خمسة وثلاثين قرشاً، وأصبحت الوثيقة ملكي. كانت ورقة مطبوعة على عمودين ـ أحدهما بالفرنسية والآخر بالعربية ـ أما بيانات حاملها فقد كانت مكتوبة بالحبر

على السطور المنقطة. لم تهمني خانة «الصفات الجسمانية»؛ لأنها كالمعتاد في مثل تلك الوثائق تذكر بغموض. ولكن العمر المسجل في الوثيقة كان تسع وثلاثين سنة ـ بينما كان عمري ثلاثة وعشرين عاماً؛ ويبدو على ملامحي عشرون عاماً فقط. كان لا بد لأكثر الضباط إهمالاً في عمله أن يلحظ فارق العمر بين ما هو مدون وما أنا عليه؛ لذلك كان من الضروري أن أغير العمر المذكور في الوثيقة. إذ بدلت العمر في أحد العمودين فقط، فإن التغيير لن يكون صعباً، إلا أنه لسوء الحظ كان العمر مسجلاً باللغتين. وعلى الرغم من حرصي الشديد أثناء تغيير العمر، فإن ما أنجزته لا يمكن وصفه إلا بأنه أسوأ أنواع التزوير وأوضحها، وأي امرئ ذي عينين سيكتشف على الفور أن الأرقام قد تم تزويرها في العمودين، إلا أنه لم يكن بإمكاني أفضل من ذلك. وكان عليَّ أن أعتمد على حسن الحظ، وعلى إهمال رجال الجندرمة.

في الصباح الباكر قادني صاحب الوثيقة إلى ممر خلف القرية، وأشار إلى بعض الصخور التي تبعد نحو نصف ميل وقال: «هذه سوريا». سلكت الممر، وعلى الرغم من أن الوقت ما زال باكراً في الصباح، فإن الجو كان حاراً، كانت امرأة عجوز تجلس أسفل الصخور التي تقع سوريا خلفها؛ نادتني العجوز بصوت مرتعش: «هل تعطي جرعة ماء لامرأة عجوز يا بني؟»، ناولتها وعاء الماء المعلق بكتفي وكنت قد ملأته قبلها بالماء البارد. شربت حتى ارتوت ثم أعادته إليَّ قائلة: «باركك الله، وحماك وهداك إلى ما تسعى إليه».

رددت عليها: «شكراً لك يا أمي، لا أبغي أكثر من هذا».

مضيت في طريقي، وبعد فترة التفتُ خلفي باتجاهها، رأيت شفتي العجوز تتحركان كما لو كانت تصلي وشعرت بارتفاع معنوياتي.

وصلتُ الصخور وتجاوزتُها: الآن أصبحتُ في سوريا، كان أمامي سهل واسع وعارٍ عند الأفق البعيد شاهدت أشباح أشجار وأشياء تبدو منازل؛ خمنت أنها لا بد أن تكون مدينة بانياس. لم أرتح لذلك السهل العاري والخالي من أي شيء يسترني لأنني كنت على منطقة الحدود، إلا أنه لم يكن هناك اختيار آخر. أحسست كما يشعر المرء أحياناً في الحلم حين يجد نفسه في شارع مزدحم وهو عار تماماً.

كان النهار قد انتصف حين وصلت إلى جدول ماء يقسم الوادي. وحين جلست وخلعت حذائي وجوربي، رأيت على مبعدة أربعة من الخيالة يتحركون باتجاهي، كانت بنادقهم على السروج أمامهم، بدا أنهم من رجال الجندرمة المشؤومين، واتضح أنهم كذلك. لم يكن هناك أي جدوى من محاولة الفرار؛ لذلك أهلت نفسي أن ما سيحدث لا بد واقع. لو ألقوا القبض علي الآن، فمن المتوقع أن أتلقى ضربات بمقابض البنادق ثم أساق إلى المطلة خارج سوريا.

خضت في جدول الماء وجلست على حافته الأخرى وانهمكت في هدوء في تجفيف قدمي منتظراً اقتراب رجال الجندرمة. وصلوا أمامي على الحافة الأخرى، تطلعوا إليّ في ارتياب؛ فعلى الرغم من أنني كنت أرتدي زياً عربياً، فقد كان من الواضح أنني أوروبي:

سألني أحدهم في حدة: «من أين أتيت؟».

أجبته: «من المطلة».

عاود سؤالي: «إلى أين ذاهب؟».

أجبته: «إلى دمشق».

سألني: «لماذا؟».

رددت في مرح: «رحلة ترفيه».

سألني: «معك أوراق تثبت شخصيتك؟».

أجبته: «بالطبع...».

أخرجت الوثيقة، وكأني كنت أخرج معها قلبي الذي طفر إلى فمي. فحص رجل الجندرمة الوثيقة وتطلع إليها وعاد قلبي منزلقاً إلى موضعه وبدأ في الخفقان بارتياح من جديد؛ فقد رأيته يمسك الوثيقة مقلوبة، اتضح لي أنه لا يعرف القراءة... وكانت الأختام الحكومية الكبيرة الثلاثة كافية لإقناعه، أعاد لطي الوثيقة بتثاقل وأرجعها إليّ قائلاً: «نعم، الوثيقة سليمة، اذهب».

لوهلة، ألحت علي فكرة أن أصافحه بحرارة، إلا أنني وجدت من الأفضل أن تظل العلاقة رسمية تماماً. أدار الرجال خيولهم وانطلقوا مبتعدين، بينما واصلت سيري.

قبل وصولي إلى بانياس ضللت الطريق. فما كان موصوفاً في خريطتي بأنه «طريق صالح لسير العربات»، تبين أنه ليس إلا ممراً يصعب تمييزه في جميع مواضعه، اختفى الطريق تماماً في منطقة تلال صخرية تنتشر عليها صخور كثيرة. تجولت عبر تلك التلال لساعات، صاعداً وهابطاً، حتى صادفت بعد الظهر بعض العرب يقودون حميراً تحمل عنباً وجبناً في طريقهم إلى بانياس فسرت معهم ما تبقى من الطريق، أعطوني بعض عناقيد العنب؛ وافترقنا عند حديقة على مشارف المدينة. كان تيار من الماء الصافي يتدفق في سرعة في مجرى ضيق على جانب الطريق. استلقيت على بطني وغمرت رأسي حتى أذني في الماء البارد وشربت حتى ارتويت...

رغم إجهادي الشديد، فلم أنو البقاء في بانياس، فلأنها أول مدينة على الجانب السوري، لا بد أن بها مركز شرطة لمراقبة الحدود كانت مقابلتي لرجال الجندرمة قد تركت في نفسي أثراً طيباً فيما يخص الأفراد السوريين في تلك القوات، فقد افترضت أن أغلبهم لا يعرفون القراءة. أما أي مركز شرطة فلا بد أن به ضابطاً وهنا سيختلف الأمر. لذلك انطلقت في همة عبر شوارع ضيقة ومسالك جانبية، مبتعداً قدر الإمكان عن الشوارع الرئيسة الواسعة التي يحتمل أن يقع بها مركز الشرطة. في إحدى الحواري سمعت عزفاً على عود يصاحبه غناء جماعي لرجال على وقع تصفيق بالأيدي، استدرت عند زاوية الحارة تجاه الموسيقى - وتسمرت في موضعي؛ فأمامي تماماً؛ على مسافة لا تزيد على عشر خطوات كان هناك باب كبير مكتوب عليه بالفرنسية «مركز الشرطة» وعدد من رجال الشرطة السوريين بينهم ضابط، جالسين على مقاعد في شمس ما بعد الظهيرة الحانية يستمعون إلى عزف واحد منهم ويصاحبونه بالغناء الجماعي. كان قد فات أوان التراجع، فقد رأوني، بل إن الضابط - وكان سورياً - ناداني: «أنت، تعال هنا» لم يكن بإمكاني إلا الطاعة. تقدمت على مهل، ثم اجتاحت عقلي فكرة سريعة. أخرجت آلة تصويري، وحييت الضابط بأدب بالفرنسية، وواصلت دون أن أعطيه فرصة لسؤال: «أتيت من المطلة في زيارة سريعة، ورأيت ألا أعود قبل أن ألتقط صورة تذكارية لك أنت وأصدقاءك فقط أطربني غناؤكم وأشجاني».

والعرب يحبون التملق، كما يحبون التقاط صور لهم؛ وافق الضابط في سرور وطلب مني أن أرسل إليه الصور بعد طبعها (وقد فعلت وأرسلت إليه الصور مع تحياتي). لم يهتم بعد ذلك بسؤالي عن أية

أوراق، بل إنه دعاني إلى قدح من الشاي وتمنى لي رحلة طيبة حين كنت أغادرهم للعودة إلى المطلة كما زعمت له، عدت أمامهم من حيث أتيت، ثم سرت في دورة واسعة حول المدينة، وغذذت السير باتجاه دمشق.

* * *

بعد أسبوعين بالضبط من مغادرتي حيفا، وصلت إلى قرية كبيرة - أو مدينة صغيرة - هي مجدل شمس، كان يقطنها أغلبية من الدروز والمسيحيين اخترت منزلاً يبدو عليه يسر الحال وطلبت من الشاب الذي فتح لي الباب أن يسمح لي بالمبيت عندهم، و«بأهلاً وسهلاً» المعتادة فتح الباب على مصراعيه، وخلال دقائق كنت كفرد من أفراد البيت.

وحيث إنني قد أصبحت في عمق سوريا، ومتاح لي طرق عديدة للوصول إلى دمشق، أوليت صاحب الدار الدرزي ثقتي وطلبت منه النصح وكنت على يقين أن العرب لا يخونون ضيوفهم، وضعت أمامه كل الحقائق، بما فيها أنني أسافر بوثيقة مزورة. قال لي إنها مخاطرة كبيرة إن رحلت على الطرق الرئيسة؛ لأنه توجد دوريات تجوب الطرق من مجدل شمس حتى دمشق من رجال الأمن الفرنسيين، ثم قال: «سأرسل ولدي لمرافقتك» وأشار إلى الشاب الذي فتح لي الباب عند قدومي: «سيقودك ولدي من طريق الجبال حتى لا تسير على الطرق الرئيسة».

بعد العشاء جلسنا في شرفة أمامية مفتوحة وتحدثنا عن المسار الذي سنسلكه في الصباح. كنت أفرد على ركبتي خريطتي المكتوبة بالألمانية لمنطقة فلسطين وسوريا التي أحضرتها معي من القدس وأحاول أن أتبين

عليها المسار الذي ذكره مضيفي الدرزي. حين كنا منهمكين في ذلك ظهر فجأة من زاوية الطريق ضابط سوري بزي الشرطة حتى إنه لم يتيسر لي وقت لطي الخريطة، عدا إخفائها. على الفور أدرك الضابط أنني غريب، فبعد أن مر من أمامنا وهو يهز رأسه محيياً مضيفي، استدار عائداً ببطء تجاهنا: سأل بالفرنسية بلطف: «مَنْ أنت؟».

أعدت عليه القصة المختلقة من أنني من المطلة في رحلة ترفيه، وحين طلب رؤية أوراقي الثبوتية، كان عليّ أن أطلعه عليها. تطلع إلى الوثيقة بتركيز وانتباه، زم شفتيه قائلاً في عبوس: «ما هذا الذي بيدك؟ وأشار إلى الخريطة الألمانية. قلت له إنها شيء غير مهم، إلا أنه أصر على رؤيتها، وفضها بأصابع فيها اتهام بإحراز خريطة، تطلع إليها لثوان، ثم طواها بعناية وأعادها إليّ مبتسماً، ثم قال بلغة ألمانية ركيكة: «لقد خدمت أثناء الحرب في الجيش التركي جنباً إلى جنب مع الألمان»، ثم حياني بالطريقة العسكرية، وعبست ملامحه من جديد ومضى منصرفاً. قال مضيفي: «لقد ظن أنك ألماني. إنه يحب الألمان ويكره الفرنسيين. لا تخشه فلن يسبب لك ضرراً».

في الصباح التالي انطلقت بصحبة الشاب الدرزي إلى أصعب مسيرة مررت بها في حياتي. سرت لما يزيد على إحدى عشرة ساعة، لم نسترح إلا لتناول الغداء، سرنا عبر تلال صخرية وفي باطن ممرات جبلية، وعبر مجار مائية جافة، ثم صعوداً إلى تلال جديدة بين كتل صخرية عملاقة وعلى حواف صخرية حادة، صعوداً وهبوطاً، حتى تهالكت وأحسست أنني لن أستطيع أن أسير أكثر من ذلك. ولما وصلنا مدينة القطنة على مشارف دمشق، كنت قد تهالكت تماماً، كان حذائي

قد بلي وتمزق وتورمت قدماي. أردت أن أتوقف لقضاء الليل، إلا أن مرافقي الشاب رفض بشدة وحسم، لأن المنطقة بها كثير من رجال الأمن الفرنسيين، ولأن القطنة مدينة وليست قرية، ولن أجد مكاناً أبيت فيه دون أن ألفت الأنظار كان البديل الوحيد هو ركوب إحدى سيارات الأجرة التي تجوب المسافة بين القطنة ودمشق.

في مكتب النقل المتهالك الواقع بالميدان الرئيسي لمدينة القطنة، أخبروني أن عليّ أن أنتظر نصف ساعة حتى موعد رحيل السيارة التالية. ودعت مرافقي الشاب الذي احتضنني مودعاً كما لو كنت شقيقه، وغادرني عائداً إلى قريته. جلست وحقيبة ظهري إلى جواري بمكتب السفر، غفوت تحت أشعة الشمس الغاربة ـ وأفقت على من يهز كتفي بطريقة خشنة ليوقظني! كان رجل أمن سوري. ألقى عليَّ الأسئلة المعتادة، وتبعتها الإجابات المعتادة، إلا أن الرجل لم يبد عليه الاقتناع وقال لي:

«هيا إلى قسم الشرطة وقل ما تريد للضابط المسؤول».

كنت في غاية الإجهاد حتى إنني لم أبال إن اكتشفوا حقيقة أمري.

كان الضابط في قسم الشرطة جاويشاً فرنسياً ضخم الجثة، يرتدي سترة مفكوكة الأزرار، يجلس خلف مكتب عليه زجاجة عرق لم يبق بها إلا قليل منه، وإلى جوارها كوب متسخ.

كان ثملاً تماماً ويبدو عليه الغضب، تطلع إلى رجل الأمن السوري بنظرات نارية قائلاً: «ماذا هناك؟».

أخبره رجل الأمن السوري بالعربية أنه وجد أنني رجل غريب أجلس في الميدان الرئيس وأنه يشك في أمري؛ أخبرته بالفرنسية أنني لست غريباً وأنني ملتزم بالقوانين.

صاح الجاويش الفرنسي: «ملتزم بالقوانين؟ لستم إلا أوغاداً متشردين تمضون جيئة وذهاباً لمضايقتنا. أين أوراقك؟» حين كنت أبحث في جيبي بأصابع متوترة لإخراج الوثيقة، دق المكتب بقبضته وتابع قائلاً: «لا تشغل بالك، أخرج من هنا» حين كنت أغلق الباب خلفي، لمحته يمد يده إلى الزجاجة ويتجرع ما بقي منها.

ما أجمل الراحة بعد العناء، بعد ذلك السير الطويل على الأقدام، ما أجمل الركوب، كلا، ليس ركوباً، بل انزلاق في سيارة تطوي الطريق المتسع العريض في سهل من البساتين الخضراء في الطريق إلى دمشق. في الأفق البعيد هدفي: بحر مترامي الأطراف من قمم الأشجار الخضراء، بينها بعض القباب اللامعة، ومآذن مساجد ترى بصعوبة تحت السماء. بعيداً إلى اليمين من الطريق، كان هناك تل وحيد عارٍ، تلمع حافته تحت ضوء الشمس، وظلال ناعمة تزحف تحت سفحه. في السماء فوق التل، كانت تسبح غيمة مستطيلة، تلمع حوافها بأضواء الشمس الذهبية ومن خلفها زرقة عميقة للسماء؛ ومن بعيد وراء السهل الأخضر، ظهرت جبال رمادية اللون، إلى اليمين واليسار، وهواء منعش من كل اتجاه.

تتابعت المشاهد من بساتين فاكهة تحوطها أسوار طينية، إلى راكبي حمير وعربات تجرها حمير، مجموعات من جنود (فرنسيين). تحولت العتمة إلى لون الماء الأخضر. مرق جوار السيارة ضابط دورية فرنسي يقود دراجة نارية، يضع عوينات كبيرة لحماية عينيه من الهواء المندفع فبدا مثل سمكة أعماق كبيرة، ثم أول بيوت المدينة، ثم: دمشق، موجة من الأصوات والضجيج بعد صمت السهل الواسع. كانت أول أضواء

الليل تضيء بعض النوافذ والشوارع، أحسست بسعادة وبهجة لا أتذكر أني شعرت بمثلها من قبل، إلا أن سعادتي لم تدم طويلاً؛ فقد توقفت السيارة عند نقطة تفتيش على مشارف المدينة.

سألت السائق: «ماذا هناك؟».

أجاب: «لا شيء، كل السيارات القادمة من خارج دمشق لا بد أن تسجل وصولها في نقطة التفتيش..».

خرج رجل شرطة سوري من المبنى الذي يشرف على الطريق وسأل السائق: «من أين؟».

أجاب السائق: «من القطنة فقط».

قال الشرطي: «في هذه الحالة امض في طريقك» (كان ذلك يعتبر انتقالاً محلياً من مسافة قريبة لا تستحق التمحيص) بدل السائق وضع عصا القيادة التي زمجرت وأنّت. تحركنا وتنفست بارتياح من جديد. في تلك اللحظة صاح صوت من الشارع «غطاء السيارة محلول» ـ أوقف السائق السيارة المتهالكة بعد أمتار قليلة من نقطة التفتيش لفحص غطاء السيارة الذي تدلى على أحد الجوانب. وبينما كان منهمكاً في تثبيته، اقترب منا رجل الشرطة في تراخٍ وهو يراقب المشكلة التي يعالجها السائق، ثم سقطت نظراته مصادفة على وجهي. رأيت وبدني يتيبس أمارات الاهتمام والانتباه تبدو عليه فجأة، كانت نظراته تتفحصني بتأمل اقترب أكثر، نقل نظره إلى حقيبة الظهر التي كنت أضعها على أرض السيارة.

سألني في ارتياب: «من أنت؟».

وبدأت: «من المطلة...»، إلا أنه كان يهز رأسه في عدم تصديق

كلما أوغلت في الرواية التي ذكرتها كثيراً قبل ذلك، ثم همس بشيء للسائق، لم أتبين منه إلا بضع كلمات هي: «جندي إنجليزي. . هارب» لأول مرة أدرك أن الزي الأزرق والكوفية البنية بالعقال الذهبي وحقيبة الظهر بطرازها العسكري (وكنت قد اشتريتها من محل يبيع الأشياء القديمة بالقدس) تشبه جميعاً زي الجنود الإيرلنديين الذين جندتهم السلطات البريطانية للخدمة العسكرية في فلسطين، وتذكرت أن هناك اتفاقية بين السلطتين الفرنسية والبريطانية تنص على إعادة الفارين من الخدمة لدى أي منهما إلى الطرف الآخر. . .

حاولت بلغتي العربية الركيكة أن أشرح للشرطي أني لست فاراً من الخدمة، إلا أنه تجاهل كل ما أقول وصاح: «اشرح كل ذلك للمفتش».

وهكذا، أجبرت على التوجه إلى نقطة الشرطة، بينما اعتذر السائق بكلمات مبهمة عن عدم استطاعته انتظاري، وقاد السيارة مبتعداً حتى اختفى عن نظري.

لم يكن المفتش موجوداً بالنقطة عند دخولي إليها، كان على وشك الوصول في أية لحظة. أدخلوني غرفة خالية لا يوجد بها إلا أريكة مستطيلة، وعدا باب الدخول إلى تلك الغرفة، كان بها بابان آخران فوق أحدهما مكتوب بالفرنسية: «حراس السجن»، وعلى الآخر كلمة واحدة: «السجن».

انتظرت في تلك الغرفة ذات المحتويات التي لا تسر ما يزيد على نصف الساعة، وكلما مرت دقيقة يزيد يقيني أن رحلتي قد وصلت إلى نهايتها؛ لأن «مفتشاً» أكثر وعياً من «ضابط»، ولو اكتشف أمري الآن، لا بد أن أقضي أسابيع في السجن حتى موعد المحاكمة، ومن بعدها

العقوبة المعروفة وهي ثلاثة أشهر بالسجن، بعدها أسير على قدمي مصحوباً بشرطة راكبة ـ إلى حدود فلسطين، ثم يتوج كل ذلك بطردي من فلسطين لخرقي قوانين الجوازات. لم تكن العتمة في الغرفة التي كنت أنتظر بها تقاس بأي حال مقارنة بالعتمة والإحباط اللذين كانا بداخلي في ذلك الوقت.

سمعت فجأة صوت محرك سيارة توقفت أمام المركز. بعد لحظات دخل رجل يرتدي ملابس مدنية ويضع على رأسه طربوشاً أحمر، كان سريع الخطى، ويتبعه الشرطي الذي أحضرني وهو يتحدث إليه بحماس، كان من الواضح أن المفتش في عجلة من أمره.

لم أعرف بالضبط كيف وقع ما وقع، إلا أن ما فعلته في تلك اللحظة الحرجة كان نتاج ومضة نادرة للعبقرية الكامنة، والتي تؤثر في مسار الأحداث في مواقف حرجة ـ وربما تؤدي عند رجال آخرين إلى تغيير مسار التاريخ ـ بقفزة واحدة اقتربت من المفتش، ودونما انتظار لأي سؤال منه، وجهت إليه سيل من الشكايات بالفرنسية من الإهانات الخرقاء التي قام بها رجل الشرطة الذي أخذني في حين أني مواطن بريء وهو يعتقد أني من الهاربين من الخدمة في الجيش البريطاني وتسبب في تخلفي عن السيارة التي كنت أستقلها إلى المدينة. حاول المفتش أكثر من مرة أن يقاطعني، إلا أنني لم أتح له فرصة للكلام وحاصرته بسيل من الحديث المتواصل بلا توقف خمنت أنه لم يدرك منه حتى عشره، وربما لم يدرك إلا أسماء «المطلة» و«دمشق» التي رحت أكررها بعدد لا نهائي من المرات. كان من الواضح أنه متوتر ويعتريه الضيق لتأخره عن مهمة كان لا بد أن يقوم بها فوراً، إلا أنني لم

أمكنه من الكلام واستمررت دون أن أتوقف حتى لالتقاط أنفاسي ووابل كلماتي لا ينقطع. في النهاية رفع يديه في يأس وصاح:

«توقف بحق الله. هل معك مستندات؟».

توجهت يدي بصورة آلية إلى جيب الصدر، وأنا مستمر في سيل الكلام، ودفعت إليه وثيقتي المزورة. ويبدو أن الرجل المسكين كان يشعر أنه يوشك على الغرق، فقد رفع حافة الوثيقة المطوية دون أن يفضها، ولمح الخاتم الرسمي، وألقاها من جديد صائحاً:

«حسن، حسن، اذهب، فقط اذهب» ـ ولم أنتظر أن يكررها أكثر من ذلك.

* * *

قبل ذلك بعدة أشهر، كنت قد التقيت بمدرس دمشقي في القدس، ودعاني أن أكون ضيفه متى جئت إلى دمشق، وفور وصولي بدأت السؤال. عرض صبي صغير أن يرشدني واصطحبني يداً بيد ليدلني على المنزل.

المساء المتأخر في المدينة القديمة، حوارٍ ضيقة، أضافت الشرفات الممتدة فوق الرؤوس إلى عتمة الشارع الضيق. محل فاكهي ينير مصباح كيروسين، وتكومت أمام محله أكوام من البطيخ وسلال العنب. الناس كالأشباح: أسمع أحياناً أصواتاً حادة لنساء خلف النوافذ العربية من الخشب المعشق. قال الصبي مشيراً إلى منزل: «هنا». دققت الباب. أجاب شخص من الداخل، رفعت السقاطة ودخلت عبر ردهة معبدة. ميزت في الظلام أشجار فاكهة خضراء وحوضاً صخرياً تتوسطه فسقية. نادى شخص من الدور العلوي: «تفضل يا سيدي»، صعدت درجات

ضيقة على امتداد الجدار الخارجي، أفضى الدرج إلى شرفة علوية مفتوحة وأفضت الشرفة إلى أذرع صديقي المفتوحة في ترحيب حار. كنت في غاية التهالك، تركت جسمي يتداعى بلا مقاومة على الفراش الذي خصني به. خشخشت أوراق الأشجار تحت وقع النسيم بالفناء الأمامي والحديقة الخلفية. ومن بعيد تناهت إلى سمعي أصوات مبهمة كثيرة: أصوات مدينة عربية كبرى توشك أن تنام.

* * *

تجولت في تلك الأيام الصيفية في الشوارع التجارية العتيقة الضيقة لدمشق، بإحساس رائع من الإثارة ناجم عن رؤية جديدة، وكلي أعين مفتوحة على جوانب لم ترد إلى وعيي من قبل وعلى رأسها عمق الجوانب الروحية عند أهل دمشق. كان الإحساس بالأمن الداخلي لدى الأفراد ظاهراً من خلال تعاملاتهم مع بعضهم البعض، وفي حرارة وحميمية التقائهم أو افتراقهم؛ في مشهد صديقين يسيران معاً وأيديهما متماسكة كالأطفال والعائد لإحساسهما بعمق الصداقة التي تربطهما، كما تراه في سلوك أصحاب المحال التجارية تجاه بعضهم، تبدو كأنها لا تحمل خشية خوف ولا منافسة ولا حسداً ولا ضغينة. قد يترك صاحب متجر متجره في حراسة جاره ومنافسه حين يضطره أي ظرف لترك متجره لبعض الوقت. رأيت في مرات كثيرة بعض الزبائن يقفون أمام متجر خلا من صاحبه، وحين يبدو عليهم التردد إن كانوا ينتظرون عودة صاحبه أم ينصرفون إلى متجر آخر، أجد أن جاره ومنافسه يدخل بلا تردد مكان جاره الغائب ويبيع للزبائن ما يريدون، ليس من بضائعه، ولكن من بضاعة جاره الغائب ـ ويترك ثمن ما باعه على طاولة جاره

الغائب. في أي مكان من أوروبا يجد المرء مثل تلك المعاملات التجارية الأمينة تجاه المنافسين؟

كانت بعض الشوارع التجارية مكتظة ببدو خشنين في أزيائهم الواسعة الطويلة الفضفاضة: إنهم يحملون معهم جميع أغراضهم اللازمة للحياة، ويعرفون طريقهم إلى ما يريدون. رجال طوال القامة، بنظرات حادة جادة يقفون في جماعة ويجلسون جماعة أمام المحلات. لا يثرثرون كثيراً ـ كلمة واحدة، جملة قصيرة يلقيها قائلها باهتمام، وتحل محل مجادلات ومحاورات طويلة، أولئك البدو لا يعرفون لغو الحديث، ولا الكلام لمجرد الكلام، فذلك علامة تآكل روحي؛ ذكروني بوصف الجنة في آية من آيات القرآن تقول: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما﴾[1]. الصمت صفة من صفات البدو الجوهرية. يضمون أطراف عباءاتهم الواسعة المخططة بالأبيض والبني أو الأسود ويمضون أو يجلسون صامتين؛ يمرون بك في صمت وينظرون نظرة مستطلعة مثل نظرة الطفل المستطلع، تياهين، ومتواضعين في حساسية عالية. حين توجه إليهم الحديث بلغتهم، وتضيء أعينهم بابتسامة مفاجئة. غير مستغرقين في ذواتهم وتسعدهم أن يشعر الآخرون بهم، نفوس عظيمة، متحفظين تماماً، إلا أنهم منفتحي الفكر على كل شيء في العالم..

يوم الجمعة ـ سبت المسلمين ـ تدرك أن هناك تغيراً في وقع الحياة في دمشق ـ دوامات صغيرة من الفرح والسرور مع إجلال ومهابة دينية. فكرت في أيام الآحاد في أوروبا؛ في الشوارع الصامتة في المدن يوم

---

(١) سورة الواقعة ـ آية ٢٥.

الأحد والمحال المغلقة؛ تذكرت كل تلك الأيام من الآحاد الخاوية والإحساس بالقهر الذي كانت تلك الأيام تجلبه.

لماذا هي كذلك؟

الآن بدأت أفهم وأدرك: الحياة اليومية لأغلب الناس في الغرب تشكل عبئاً ثقيلاً لا يحلهم منه إلا إجازة يوم الأحد، لم يعد الأحد يوم راحة بل يوم هروب نسيان وهمي مصطنع من وطأة الواقع الذي يحيونه، ويكون ثقله مضاعفاً وخطراً ذلك اليوم الأسبوعي للهروب.

أما عند العرب، فلا يبدو أن يوم الجمعة يوم هروب أو نسيان، ليس لأن ثمار الحياة تتساقط بسهولة في حجورهم بلا جهد ولا مشقة، بل يعود السبب ببساطة إلى أن أعمالهم ـ حتى أشقها ـ لا تتعارض مع رغباتهم الشخصية. لا توجد لديهم آلية لذاتها في العمل؛ على العكس من ذلك، هناك تواصل عميق ودفين بين العامل وما يعمله: لذلك تصبح الراحة ضرورية حين يشعر بالإجهاد. لقد رسخ الإسلام ذلك التناغم بين العامل وعمله كحالة تتسق مع التركيب والتكوين البشري، لذلك لا توجد راحة إجبارية يوم الجمعة. الحرفيون وأصحاب المحال الدمشقية يعملون يوم الجمعة بضع ساعات، ثم يغلقون أشغالهم بضع ساعات يذهبون فيها للجوامع لصلاة الجمعة وبعدها يلتقون بالأصدقاء على المقاهي ثم يعودون إلى أعمالهم وصناعاتهم لبضع ساعات أخرى في سعادة واسترخاء نفسي، كل واحد وما يود. محلات قليلة تغلق يوم الجمعة، وباستثناء وقت صلاة الجمعة تجد الشوارع مليئة بالناس مثل بقية أيام الأسبوع.

ذهبت مع صديقي ومضيفي إلى الجامع الأموي يوم الجمعة.

الأعمدة الرخامية التي تعلوها قبة عظيمة كانت تلمع تحت ضوء الشمس الساقط من النوافذ. الجامع يفوح برائحة المسك، الأرض مغطاة بأبسطة حمراء وزرقاء. اصطف مئات المصلين في صفوف طويلة منتظمة خلف الإمام، ركعوا، سجدوا، مسوا الأرض بجباههم، ثم نهضوا من جديد؛ كلهم في توحد مثل الجنود. كان المكان يسوده الصمت والناس وقوف، يسمع المرء صوت الإمام العجوز من أعماق صحن الجامع الواسع، يتلو آيات من القرآن؛ وحين يركع أو يسجد، يتبعه كل المصلين كرجل واحد، يركعون ويسجدون لله كما لو كان حاضراً أمام أعينهم.

في تلك اللحظة أدركت مدى قرب الله منهم وقربهم منه. بدا لي أن صلاتهم لا تنفصل عن حياتهم اليومية؛ بل كانت جزءاً منها ـ لا تعينهم صلاتهم على نسيان الحياة، بل تعمقها أكثر بذكرهم لله.

قلت لصديقي ومضيفي ونحن ننصرف من الجامع بعد الصلاة: «ما أغرب ذلك وأعظمه، إنكم تشعرون أن الله قريب منكم، أتمنى أن يملأني أنا أيضاً مثل ذلك الشعور».

رد صديقي: «ما الذي يمكن أن تحسه غير ذلك يا أخي؟ الله يقول في كتابه العزيز إنه أقرب إلينا من حبل الوريد».

* * *

مأخوذاً بمدركاتي الجديدة، قضيت جل وقتي في دمشق أقرأ من الكتب كل ما له علاقة بالإسلام. كانت لغتي العربية تسعفني في تبادل الحديث، إلا أنها كانت أضعف من أن تمكنني من قراءة القرآن، لذا لجأت إلى ترجمتين لمعاني القرآن ـ واحدة فرنسية والأخرى ألمانية ـ

استعرتهما من مكتبة. أما ما عدا القرآن، فقد اعتمدت فيه على أعمال المستشرقين الأوروبيين، وعلى ما يشرحه لي صديقي.

ومهما كانت ضآلة ما عرفت، إلا أنه كان أشبه برفع ستار، بدأت في معرفة عالم من الأفكار كنت غافلاً عنه وجاهلاً به حتى ذلك الوقت.

لم يبد لي الإسلام ديناً بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة دين، بل بدا لي أسلوباً للحياة؛ ليس نظاماً لاهوتياً بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع يرتكز على الوعي بوجود الله الواحد. لم أجد في أي آية من آيات القرآن أي إشارة إلى احتياج البشر إلى «الخلاص» الروحي. ولا يوجد ذكر «لخطيئة أولى» موروثة تقف حائلاً بين المرء وقدره الذي قدره الله له ـ ولا يبقى لابن آدم إلا عمله الذي سعى إليه. ولا توجد حاجة للترهب والزهد لفتح أبواب خفية لتحقيق الخلاص: الخلاص حق مكفول لكل البشر بالولادة، والخطيئة لا تعني إلا ابتعاد الناس عن الفطرة التي خلقهم الله عليها. لم أجد أي أثر يدل على الثنائية في الطبيعة البشرية: فالبدن والروح يعملان في المنظور الإسلامي كوحدة واحدة متكاملة لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

أدهشني في البداية اهتمام القرآن لا بالجوانب الروحية فقط، بل بجوانب أخرى غير مهمة من الأمور الدنيوية، ولكن مع مرور الوقت بدأت أدرك أنه حيث إن البشر وحدة متكاملة من بدن وروح ـ وقد أكد الإسلام على ذلك ـ لا يوجد وجه من أوجه الحياة يمكن أن نعده مهمشاً بل إن كل جوانب حياة البشر تأتي في صلب اهتمامات الدين. في كل المجالات، لم يدع القرآن المسلمين ينسون أن الحياة الدنيا

ليست إلا مرحلة في طريق البشر نحو تحقيق وجود أسمى وأبقى، وأن الهدف النهائي ذا سمة روحية. ويرى أن الرخاء المادي لا ضرر منه إلا أنه ليس غاية في ذاته: لذلك لا بد أن تقنن شهية الإنسان وشهواته ويتم السيطرة عليها بوعي أخلاقي من الفرد. وهذا الوعي لا يوجه إلى الله فقط بل يوجه أيضاً إلى علاقته بغيره من البشر؛ لا من أجل الكمال الديني وحده، بل لخلق حالة اجتماعية تؤدي إلى تطور روحي للمجتمع بأجمعه، حتى يتمكن المجتمع كله من أن يحيا حياة كاملة...

نظرت إلى كل تلك الجوانب الفكرية والأخلاقية بتقدير وإجلال. كان منهجه في تناول مشاكل الروح أعمق كثيراً من تلك التي وجدتها في التوراة. هذا عدا أنه لم يأت لبشر دون بشر ولا لأمة بذاتها دون أخرى، كما أن منهجه في مسألة البدن بعكس الإنجيل، منهج إيجابي لا يتجاهل البدن. الروح والبدن معاً يكونان البشر، كتوأمين متلازمين تساءلت، ألا يمكن أن يكون ذلك المنهج هو السبب الكامن وراء الإحساس بالأمن والتوازن الفكري والنفسي الذي يميز العرب والمسلمين؟

* * *

ذات مساء دعاني مضيفي إلى مصاحبته إلى احتفال في منزل أحد أصدقائه الأثرياء من أهل دمشق بمناسبة مولد ابن له.

سرنا عبر شوارع متعرجة في المدينة القديمة، كانت حواري ضيقة حتى إن الشرفات ذات الطراز العربي توشك أن تتلامس. الظلال والصمت يسودان المنازل المشيدة من الحجر؛ من آن لآخر كانت تقابلنا بعض نساء محجبات بحجب سوداء ويسرن بخطوات قصيرة سريعة، أو نلتقي برجل ملتح يرتدي قفطاناً طويلاً، يظهر من منحنى الطريق

ويختفي في بطء خلف منعطف يليه، الحي القديم مليء بشوارع ضيقة تتكرر وتتقاطع مع بعضها البعض في كل الاتجاهات، توحي إليك دائماً أنها تقودك إلى كشف مذهل، إلا أنها تفضي إلى حارة ضيقة أخرى مماثلة لا تختلف عنها في شيء.

إلا أن الكشف قد جاء في النهاية. توقف صديقي أمام باب لا يميزه شيء عن غيره من الأبواب، كان الباب في منتصف سور من الطين المدهون بالجص وقال: «ها قد وصلنا» ودق بقبضته الباب المغلق. فتح الباب وأصدر صريراً، وجدنا أمامنا رجلاً طاعناً في السن يرحب بنا بفم خلا من الأسنان «أهلاً، أهلاً وسهلاً» مضينا عبر ردهة قصيرة دارت بنا مرتين بزاوية قائمة أفضت بنا في النهاية إلى فناء ذلك المنزل الذي لا يشي مظهره الخارجي بأكثر من سور طيني مدهون بالجص. كان الفناء واسعاً ومكشوفاً، أرضه مصممة وكأنها رقعة شطرنج هائلة الاتساع بمربعات من الرخام الأبيض والأسود. في أوطأ مستوى كان هناك حوض فسقية من الحجر ثماني الأضلاع من منتصفه يخرج ماء الفسقية موسوساً رقراقاً. في مربعات بين رخام الأرضية نمت أشجار الليمون والدفلى، تنشر أريج أزهارها عبر الفناء بأجمعه وإلى داخل المنزل، أما جدران المنزل التي تحيط بالفناء فقد غطتها من الأرض حتى قمتها نقوش من الرخام دقيقة الصنعة رقيقة الجمال في أشكال هندسية عربية متداخلة لا يقطعها إلا نوافذ الغرف التي تطل على الفناء ويؤطرها رخام عريض محزم بأشكال بديعة الصنعة. على أحد جوانب الفناء كان هناك فراغ على ارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض ترتقي إليه بدرج عريض من الرخام وعلى جوانب هذا الفراغ - يسمى ليوان صُفَّتْ آرائك مقصبة بينما فرشت أرضه بأبسطة ثمينة. كانت حوائط الليوان مغطاة بمرايا ضخمة

يصل ارتفاعها إلى خمسة عشر قدماً ـ كان الفناء بأشجاره ومربعات أرضه من الرخام الأبيض والأسود، ونقوش الرخام البارزة بالحوائط، والنوافذ الرخامية والأبواب المنقوشة التي تفضي إلى داخل المنزل، والألوان الكثيرة لأزياء الضيوف الجالسين بالليوان والمجتمعين حول الفسقية ـ تضاعف كله خلال مرايا الليوان: وحين تنظر إلى تلك المرايا والتي يقابلها مرايا أخرى على الحوائط المقابلة، ينعكس المشهد مرتين، أربع مرات، بل مئات المرات بلا نهاية وبذلك يتحول إلى مشهد سحري من عقود رخامية لا نهاية لها، وفسقيات بلا نهاية، وأعداد لا نهائية من الضيوف، وغابات من أشجار الليمون وأزهار نبات الدفلى ـ مكان يشبه الحلم، يتألق تحت سماء المساء التي ما زالت وردية من آخر بقايا أشعة الشمس التي غربت.

مثل ذلك المنزل ـ البسيط من الخارج، والمبهج الثري من الداخل ـ كان جديداً تماماً على شخص مثلي؛ وبمرور الزمن أدركت أنه النمط والطراز لبيوت المسلمين التقليديين ميسوري الحال، ليس في سوريا والعراق وحدهما، بل في إيران أيضاً. لم يهتم العرب ولا مسلمو إيران في العصور المبكرة للإسلام بالواجهات الخارجية: فالغرض من المنزل أن نحيا داخله ووظيفته محدودة بداخله. ويختلف ذلك كلية عن التوجه العملي «النفعي» الذي يتبعه معماريو الغرب المحدثون. لقد سقط أهل الغرب في نوع من الرومانسية المعكوسة، وفي عدم ثقتهم بمشاعرهم الذاتية فإنهم يشيدون مشاكل لا منازل؛ أما العرب والإيرانيون فإنهم يبنون منازل لا مشاكل.

أجلسني صاحب الدار إلى يمينه على الأريكة، ودار خادم حافي

القدمين بأقداح صغيرة من القهوة مصفوفة على صينية من نحاس منقوشة بأشكال، اختلط الدخان المتصاعد من الأراجيل برائحة ماء الورد بالليوان وارتفع في موجات تجاه الفوانيس الزجاجية التي كانت تضاء واحداً بعد آخر على امتداد الجدران وبين الخضرة الداكنة للأشجار.

كان جمع الضيوف ـ وكلهم رجال ـ في أزياء متباينة: رجال في قفاطين من الحرير الدمشقي أو الصيني الخالص بلون العاج، عليها جبة من الصوف بألوان خفيفة متداخلة، وعمامة ذات حواف مذهبة تحكم وضع الطربوش على الرأس؛ بعض آخر في ملابس أوروبية، إلا أنهم كانوا يجلسون متربعي الساقين على الأرائك، وبعض زعماء البدو بشكلهم المعتاد: عيون سوداء تلمع ببريق حي يشي بالعظمة، ولحيً صغيرة حول وجوه نحيلة داكنة. ملابسهم الجديدة تصدر حفيفاً مع كل حركة ويحملون جميعاً سيوفاً في أغماد فضية. كان جميع الضيوف مسترخين في دعة واطمئنان عميق: أرستقراطية حقيقية. كان الجو الطيب يحوطهم، طقس جاف وصافي ـ الجو نفسه الذي أحسسته على حافة الصحراء، يحيطهم في بساطة ولا يقتحمهم. بدوا مثل أصدقاء متباعدين، مثل زائرين مارين بمكان؛ حياتهم الحرة الخالية تنتظرهم في مكان آخر غير هذا.

دخلت فتاة راقصة من أحد الأبواب، صعدت الدرج حتى الليوان. كانت في مقتبل شبابها، لا تتجاوز العشرين من عمرها، ذات جمال طاغ، ترتدي سروالاً فضفاضاً من الحرير الشفاف في ثنيات، وزوج من الأخفاف الذهبية بقدميها، وصدرية موشاة بما يشبه اللؤلؤ، لا يغطي ولا يخفي ثدييها بقدر ما يرفعهما ويزيد من نفورهما وفورتهما، كانت

تتحرك بإحساس من العظمة يحسه من اعتاد أن يكون موضع إعجاب ومرغوباً: سرت همسات الاستحسان والسرور بين الرجال عند رؤيتهم جسدها اللدن الفائر بالحيوية والشباب وبشرتها المشدودة في لون العاج.

رقصت بمصاحبة ضابط إيقاع دخل في إثرها، رقصة تقليدية تموج بالإيماءات البدنية الموحية وهو رقص يلقي إقبالاً في الشرق ـ رقص يثير كوامن الرغبات ويعد بتحقق يبهر الأنفاس.

همس صديقي وهو ينظر باتجاهها: «ما أجملك، ما أروعك»، ثم ضرب بكفه على ركبتي بخفة وقال: «أليست كالكف الحانية على الجرح؟» وكما ظهرت بسرعة، اختفت أيضاً بسرعة، لم يتبق منها إلا بريق خافت في أعين الرجال. احتل مكانها على البساط في الليوان أربعة موسيقيين ـ بعضهم من أفضل العازفين في سوريا كما أخبرني أحد الضيوف واحد منهم كان يحمل عوداً طويل العنق، وآخر كان يحمل طبلة، والثالث يحمل آلة القانون الوترية، وكان الرابع مصرياً يحمل طبلة نحاسية. بدأوا في شد الأوتار ونقر الطبول برقة، كل منهم على آلته دون توافق، كل منهم يضبط آلته وإيقاعها قبل أن يبدأ العزف في إيقاع متناغم. أجرى صاحب القانون أصابعه على الأوتار؛ أما حامل الطبلة النحاسية فقد كان ينقر عليها بأصابعه ويتوقف برهة ثم يعاود النقر، وعازف العود راح يجرب نغمات قرار كأنه شارد الذهن في تتابع سريع، نغمات أوتار بدت كأنها تتوافق بالمصادفة مع إيقاع الطبلة ثم نغمات القانون وقبل أن تعي تماماً ما يحدث، يبدأ اللحن الجماعي يربط العازفين الأربعة معاً في لحن متناغم واحد. لحن؟ لا أستطيع أن أقول

لحناً، فقد بدا لي أنني لا أستمع إلى أداء موسيقى بقدر ما أشاهد حدثاً مثيراً. فعدا النغمات الصادرة عن الآلات الوترية نما إيقاع جديد، يرتفع في دوامات حادة، ثم فجأة، يهبط ويتخافت - مثل إيقاع ارتفاع وانخفاض أداة معدنية، أسرع ثم أبطأ، أرق ثم أشد، هدوء ودوام، تنويعات لا نهائية، نغم يشي بالدوام، صوت يرتجف في سكر مقنن، ينمو، وينتشر بقوة، يقتحم العقل، ثم فجأة وبعد أن يصل إلى قمة عالية من التناغم ينتهي ويسود صمت. أحسست أنني وقعت في هوى تلك الموسيقى. شدتني النغمات التي كانت أحادية إيقاعها الظاهرة تستدعي إلى ذهني رتابة وقوع وتكرار الظواهر الأبدية في هذا الوجود وتدق أبواب المشاعر الدفينة وتستل منها خطوة بعد خطوة كل ما كان يموج داخلها دون أن نعيه... تعري أمامنا أشياء كانت داخلنا على الدوام وتجعلها واضحة حميمية وحارة صادقة تدفع قلبك إلى الخفقان.

كنت قد اعتدت بالطبع الموسيقى الغربية التي تتدفق فيها كل انفعالات المؤدى في أداء فردي يعكس على المستمع حالته المزاجية، إلا أن تلك الموسيقى العربية تبدو كأنها تتدفق من مستوى ما في اللاوعي، من توتر واحد إلا أنه ليس إلا توتراً، وبالتالي يمثل مزاج ومشاعر شخصية لدى كل مستمتع على حدة...

بعد ثوان من الصمت، تدفقت إيقاعات الطبلة النحاسية من جديد، ثم تبعتها كل الآلات معاً. نغمات راقصة رقيقة، لحن أنثوي أرق من سابقه، وراح المغنون يضبطون أصواتهم في إيقاع واحد، يحتضن كل صوت الآخر بدفء ونعومة ثم كأنها اتحدت معاً في دفقة واحدة، زادت بهجة وابتهاجاً؛ كانت الأصوات تلاحق بعضها، وتتدفق حول بعضها

في موجات ناعمة تتصادم في البداية مرة بعد أخرى، مع إيقاع الطبلة النحاسية التي يبدو كحائل تتصادم على دقاته الأصوات، إلا أن الأصوات تصاعدت فغلبت الحائل وقهرته وسيرته طبقاً لإيقاعها هي وجرته إلى إيقاع عام حلزوني متصاعد: أما الطبلة النحاسية التي قاومت في البداية فسرعان ما سقطت فريسة للهجوم العاتي من الأصوات المنشدة واتحدت في نشوة مع باقي الأصوات، وفقد لحن البداية المتماوج رقته النسائية وراح يعدو بعنف متزايد، أسرع، وأعلى، وأكثر حدة، إلى غضب بارد من عاطفة واعية تخلصت من كل الكوابح وتحولت إلى تصاعد متسلق إلى قمم غير مرئية من القوة والامتلاك، ومن تدفق النغمات الدائرة حول بعضها، انبثق تناوب عظيم من اتساق النغمات ـ اندفاع عجلات مندفعة من ديمومة إلى ديمومة، دون قياس ولا حدود ولا هدف، مبهورة النفس، كالسير مقيد على حد سكين، عبر حاضر المرء الأبدي، إلى وعي بالحرية والقوة، فوق كل فكر، وفجأة، في منتصف تدفق حميم: توقف مباغت وصمت مطلق. قاس. أمين. ونقي.

مثل خشخشة أوراق الشجر، استعاد المستمعون أنفاسهم، وهمسات مبهورة تسري: «الله، الله». كانوا مثل أطفال حكماء عقلاء يلعبون ألعاباً طالما حفظوها عن ظهر قلب، إلا أنها ما زالت تغريهم بلعبها. كان كل من بالفناء يبتسم في سرور وبهجة...

[٣]

كنا راكبين، سائرين، وزيد يغني: اللحن نفسه على الدوام، اللحن نفسه أحادي النغمة. روح العرب أحادية النغمة ـ لا بمعنى فقر الخيال

والإبداع، فهم يحوزون الكثير منه؛ إلا أن غريزته لا تمضي منطلقة مثل غريزة الرجل الغربي خلف فراغ ثلاثي الأبعاد ذي جوانب انفعالية متعددة. أما الموسيقى العربية فتعبر في كل مرة عن رغبة واحدة أو انفعال واحد يحمل تجربة عاطفية أو معنوية واحدة إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه تلك العاطفة المعنوية. وتدين الشخصية العربية بقوتها إلى أحادية النغم هذه، برغبة حسية ترمي إلى تكثيف المشاعر في خط متصاعد مستمر. وتدين إليها أيضاً بأخطائها. وهي خطأ؛ لأنه لا بد من المرور بالتجارب الشعورية في فضاء الأبعاد الثلاثية المجسدة بعيداً عن المشاعر المجردة وحدها. كما تستمد منها قوتها: في الإيمان بإمكانية الصعود الخطي المضطرد للمعارف الانفعالية، والتي يمكن في مجال العقل ألا تؤدي إلا لمعرفة الله. لقد نما التوحيد على أسس من ذلك الميل الفطري المميز فقط لأهل الصحراء، وظهر أول ما ظهر بين العبرانيين المبكرين الأوائل، واكتمل برسالة محمد(ص) المظفرة. ومن خلفهم جميعاً تقف الصحراء الأم.

الفصل الخامس

روح وجسد

مرت الأيام، وقصرت الليالي، ونحن نمضي راكبين باتجاه الجنوب في سير حثيث. كانت الإبل في أفضل حال ـ فقد شربت الناقتان حتى الارتواء وطعمتا كميات وفيرة من الكلأ والأعشاب. ما زال أمامنا أربعة عشر يوماً حتى نصل إلى مكة، وربما أكثر إن أمضينا وقتاً أطول في حائل وفي المدينة من بعدها، وهما تقعان في طريقنا إلى مكة.

[١]

كانت قد سيطرت عليّ حالة من افتقاد الصبر: حالة من التعجل لم أدر لها سبباً أو تفسيراً. فحتى تلك اللحظة كنت أستمتع بالترحال في استرخاء نفسي، دون دوافع ملحة تدفعني إلى الوصول إلى مقصدي بسرعة؛ كانت الأيام والأسابيع التي أقضيها مرتحلاً تحقق إشباعاً محبباً إلى نفسي، ولم يكن مقصدي يشكل الأهمية نفسها أبداً.

بدأت الآن أشعر بما لم أشعر به خلال كل الأعوام التي قضيتها بالجزيرة العربية: تعجل بنفاد صبر للوصول إلى نهاية الطريق. أي نهاية لرؤية مكة؟ قضيت بمكة المكرمة قبل ذلك أوقاتاً طويلة، وأعرف حياتها

اليومية بكل تفاصيلها، حتى إنها لم تعد تثير في نفسي أي إحساس بتوقع شيء جديد، أم أنه نوع جديد من الكشف أشعر به مقدماً؟ لا بد أنه كذلك ـ فمكة دائماً ما كانت تجذبني بإحساس وتوقع داخلي أستشعره في نفسي، كما لو كان ذلك المركز الروحي للعالم الإسلامي، بتجمعاته البشرية القادمة من كل أرجاء الأرض، نوعاً من الوعد، بوابة مرور إلى عالم أرحب من الدنيا والعالم الذي عشته حتى اللحظة. لم يكن تعجلي ونفاد صبري يعني أنني سئمت ومللت الجزيرة العربية؛ كلا بالطبع، فأنا أعشق صحاريها، ومدنها، وشعبها وأسلوب حياتها كما أحببته على الدوام قبل ذلك: فمنذ اللمحة الأولى التي رأيت فيها لأول مرة في صحراء سيناء من عشرة أعوام مضت بدواً من الجزيرة العربية، سكن في قلبي حبهم ولم يهن بعد ذلك أبداً، ثم أكدت الأعوام التالية انطباعاتي الأولى المبكرة: إلا أنه منذ تلك الليلة التي نزلت فيها البئر للاستحمام من يومين، نمت داخلي قناعة أن الجزيرة العربية قد وهبتني كل ما يمكن أن تهبه لي.

كنت ما زلت شاباً، قوي البنية، وصحتي في أفضل حال، يمكنني ركوب الإبل لساعات طويلة دون تعب أو إجهاد. يمكنني أن أرتحل ـ وقد فعلت ذلك على مدى أعوام ـ مثلما يرتحل بدو الصحراء، بلا خيمة ودون وسائل الراحة التي لا يستغني عنها أهل «مدينة» نجد، ويرون أنها ضرورية في رحلات الصحراء الطويلة على الإبل. أشعر كأني في منزلي في رحلات الصحراء، اعتدت دون أن أشعر، عادات وتقاليد عرب نجد، فهل ذلك ما أردته؟ هل عشت كل ذلك الزمن في الجزيرة العربية لأصبح عربياً فقط؟ ـ أم أن ما فات كان تحضيراً وإعداداً لشيء أجهله وسيأتي في حينه؟

* * *

كان افتقاد الصبر الذي أشعر به يماثل افتقاد الصبر الذي أحسسته عند عودتي إلى أوروبا بعد أول سفر لي إلى الشرق الأدنى: إحساس من أجبر على التوقف قبل وهلة من توصله إلى كشف عظيم سيميط عن نفسه الحجب لو أتيح لي مزيد من الوقت. . .

كان قد خفف من وطأة الانتقال من عالم العرب عائداً إلى أوروبا بقائي لشهور في تركيا بعد أن غادرت سوريا في خريف عام ١٩٢٣. لم يكن مصطفى كمال أتاتورك في تلك الأيام قد بدأ حركته «الإصلاحية»، وكانت تركيا ما زالت تحيا بكل تقاليدها الموروثة الأصيلة، ولانتمائها حتى ذلك الوقت إلى العالم الإسلامي كان نمط الإطار العام للحياة يمضي نفس الوتيرة الغريبة للحياة العربية، إلا أن إيقاع الحياة التركية الداخلي بدا أثقل وأشد وطأة وأقل شفافية ـ وأكثر تأثراً بالغرب من البلاد العربية.

حين رحلت بطريق البر من اسطنبول إلى صوفيا وبلجراد لم يكن الانتقال فجائياً من الشرق إلى الغرب؛ فالأشكال والصور كانت تتغير تدريجياً خلال ذلك الانتقال، يتقهقر عنصر من عناصر الحياة ليحل محله عنصر آخر بشكل مغاير ومختلف في بلد يليه، بدأت مآذن المساجد تقل أعدادها وتزداد بينها المسافات، قفطان الرجال الطويل يختفي تدريجياً يحل محله كلما اتجهت غرباً قميص طويل من فوقه حزام لمزارعي شرق أوروبا، الأشجار المتناثرة وبساتين الأناضول حلت محلها غابات كثيفة في مناطق الصرب ـ حتى وصلت إلى حدود إيطاليا: فجأة وجدت نفسي في أوروبا.

بدأت انطباعاتي عن تركيا تفقد حيويتها وأنا بالقطار المتجه إلى مدينة «تريست» إلى «فيينا»؛ أما ما ظل راسخاً فهو الثمانية عشر شهراً التي قضيتها في البلاد العربية. صدمني إدراكي أنني كنت أتطلع إلى المشاهد الأوروبية التي اعتدت عليها بعيني من هو غريب عنها. بدا الناس في نظري في غاية القبح، وحركاتهم حادة خالية من الرقة، ولا علاقة مباشرة بين حركاتهم وما يريدونه ويشعرونه، أدركت فجأة أنه بالرغم من المظهر الذي يشي بالغرضية وإدراك الهدف في مساعيهم، إلا أنهم لا يعون أنهم يحيون في عالم يصطنع المعتقدات.. اتضح لي أيضاً أن حياتي بين العرب غيرت منهجي ورؤيتي لما كنت أعده مهماً وضرورياً للحياة. تذكرت بشيء من الدهشة أن أوروبيين آخرين قد مروا بتجارب حياتية مع العرب وعايشوهم لأزمان طويلة؛ فكيف إذن لم تعترهم دهشة الاكتشاف كما اعترتني؟ أم أن ذلك قد وقع لهم أيضاً؟ هل اهتز أحدهم حتى أعماقه كما أنا عليه الآن...؟

(لم أتوصل إلى إجابة عن تلك التساؤلات إلا بعد أعوام وأنا في الجزيرة العربية: وقد أجاب عن تساؤلاتي الدكتور «فان دير فولين» سفير ألمانيا في جدة، وكان واسع الثقافة والمعارف، ويتعلق بإيمانه المسيحي باقتناع نادر وجوده بين الغربيين المعاصرين. وهكذا، بالرغم من أنه لم يكن أخاً في الإسلام، فإنه اعترف لي أنه يحب الجزيرة العربية أكثر من أي مكان آخر عرفه، ولم يستثن من ذلك بلده الذي ينتمي إليه. وحين أشرفت خدمته بالحجاز على نهايتها، ذكر لي مرة أخرى: «أعتقد أنه لا يوجد من يتصف بسلامة الحس ويظل منيعاً ضد سحر الحياة العربية، أو ينتزع ذلك السحر من قلبه بعد أن يكون قد عايش العرب لفترة من الزمن، حين يغادر المرء المنطقة العربية سيحمل داخله دائماً بيئة

الصحراء، وينظر إليها من بعيد برغبة قوية وشَوْق ـ حتى لو كان يحيا في بلده الأغنى، والأجمل. . . ».

توقفت لبضعة أسابيع في فيينا واحتفلت بتصالحي مع أبي. كان قد تجاوز غضبه عليّ لعدم إكمالي دراستي الجامعية ومغادرتي منزل الأسرة بتلك الطريقة الفجة. على أي حال، كنت مراسلاً لجريدة «فرانكفورتر ذيتونج». . وهو اسم كان يلقى التقدير والتبجيل في وسط أوروبا في ذلك الوقت، وهكذا حققت مصداقية في نظره فيما زعمت له قبل ذلك من أنني سأحقق ما أصبو إليه و«أصل إلى القمة».

رحلت بعد ذلك من «فيينا» مباشرة إلى «فرانكفورت» لأقدم نفسي شخصياً إلى الصحيفة التي كنت أمثلها بالخارج على مدى عام. كنت في طريقي إليها وأنا أشد ثقة بنفسي، فالرسائل التي كنت أتلقاها من «فرانكفورت» أظهرت لي أن مقالاتي كانت تلقى ترحيباً وتقديراً بالصحيفة. وبشعور من وصل بنفسه إلى المكان الذي كان فيه اسماً فقط خطوت داخل ذلك الصرح العريق العتيق في طرازه المعماري، أرسلت بطاقتي إلى رئيس تحرير الجريدة، وكان وقتها الدكتور «هنريك سيمون» الذي كان مشهوراً في أرجاء العالم.

حين دخلت مكتبه، تطلع إليَّ بدهشة دون أن يتفوه بكلمة، حتى إنه نسي أن ينهض من مقعده، إلا أنه تمالك نفسه بسرعة، ونهض ليصافحني قائلاً: «اجلس، اجلس، كنت أنتظر وصولك». لكنه استمر بعد ذلك في التطلع إليّ في صمت حين بدأت أشعر بعدم الارتياح. قلت: «هل هناك خطأ ما يا دكتور سيمون؟».

رد بسرعة: «كلا، كلا، لا يوجد أي خطأ ـ أو على الأصح، كل

شيء خطأ. . . .» ثم ضحك وأردف قائلاً: «توقعت أنني سأقابل رجلاً في منتصف العمر بعوينات ذات إطار ذهبي ـ والآن أجد أمامي صبياً. . أوه، أعذرني؛ ما عمرك على أي حال؟».

تذكرت فجأة ذلك الهولندي المرح الذي التقيته في القاهرة وسألني السؤال ذاته من عام مضى؛ فضحكت وقلت: «أنا أربو على الثالثة والعشرين يا سيدي ـ كدت أتم الرابعة والعشرين»، ثم أضفت: «هل تجد أنني أصغر مما يجب العمل في فرانكفورتر ذيتونج؟».

أجاب سيمون ببطء: «كلا، ليس لفرانكفورتر ذيتونج، ولكنه سن صغير بالنسبة لمقالاتك. لقد كنت أوقن أن الرجل الناضج وحده هو الذي بإمكانه أن يقهر ذاته ويتجاهل شخصيته وآراءه الشخصية، كما فعلت أنت عند كتابة مقالاتك. إن ذلك كما تعلم هو سر الصحفي الناجح والناضج: أن يكتب بموضوعية عما يراه ويسمعه، ويفكر دون أن يخلط كل ذلك مباشرة بخبراته وآرائه الشخصية والذاتية.. من جهة أخرى، وهذا الأمر ورد إلى ذهني الآن، فالشاب الصغير هو الذي يكتب بتلك الحماسة التي وجدتها في مقالاتك، وبذلك القدر من الإثارة والتشويق. . .» ثم تنهد وأردف: «أتمنى ألا تتآكل تلك الروح وألا تصبح من المتعالين ولا من المنهكين مثل باقي الكُتَّاب. . .».

ويبدو أن الدكتور «سيمون» قد وجد في صغر سني ما قوى من اقتناعه أنني مراسل صحفي واعد ومبشر: وافق بحماسة على عودتي إلى الشرق الأوسط بسرعة قدر ما أستطيع ـ وكلما كانت عودتي أسرع كان أفضل. أما من جهة التمويل، فلم يعد هناك عائق، فقد تم التغلُّب على التضخم المالي الألماني، وأدى ثبات قيمة العملة الألمانية إلى انتعاش

اقتصادي وأصبحت الصحيفة في وضع مالي يسمح بتمويل مراسليها في بلاد العالم.

قبل أن أرحل من جديد، كان لا بد أن أنتهي أولاً من الكتاب الذي تعاقدت مع الجريدة على كتابته.

وبالرغم من نفاد صبري وتطلعي إلى العودة إلى الشرق الأوسط، فإن الشهور التي قضيتها بمدينة «فرانكفورت» كانت فائقة الروعة. لم تكن «فرانكفورتر ذيتونج» مجرد صحيفة كبرى، بل كانت أقرب إلى مركز أبحاث. كان يعمل بها بتفرغ كامل خمسة وأربعون محرراً، عدا نواب التحرير ومساعدي تحرير الأخبار. كان العمل التحريري بالصحيفة شديد التخصص، كل منطقة من العالم لها متخصصوها وكل موضوع سياسي أو اقتصادي عالمي أو محلي يسند إلى المختص به: كان ذلك نتاج تاريخ طويل من المصداقية التي جعلت من مقالات ومراسلات الصحيفة أقرب إلى التوثيق المعرفي أكثر من كونها انعكاساً إخبارياً يومياً للأخبار، لذلك اتخذها السياسيون والمؤرخون كمصدر موثوق يعتمدون على أخبارها وتحليلاتها بمصداقية ومرجعية يعتمد عليها. وكان من المعروف أن مكتب الصحيفة في برلين يزود بنسخ من الملفات والمذكرات التي يتم تسليمها إلى الحكومات الأخرى (نقل عن بسمارك أنه قال ذات مرة عن مدير مكتب الأخبار الخارجية في برلين التابع لصحيفة فرانكفورتر ذيتونج وهو يوجه حديثه إليه «دكتور شاتين سفير فرانفكوتر ذيتونج في بلاط برلين». وأن أكون عضواً عاملاً في مثل تلك الصحيفة. كان مصدر فخر واعتزاز لشاب في سني، وعلى الرغم من أن مقالاتي عن الشرق الأوسط قد قوبلت باهتمام شديد من كل المحررين

وغالباً ما كانت موضوع اجتماعات التحرير اليومية، فإن نصري الكامل تحقق في اليوم الذي كلفت فيه أن أكتب مقالاً افتتاحياً بالصحيفة عن مشكلة الشرق الأوسط.

* * *

كان من نتائج عملي في جريدة «فرانكفورتر ذيتونج» النضج المبكر لتفكيري الواعي كما نتجت عنه رؤية ذهنية أكثر وضوحاً من أي وقت مضى فبدأت في مزج خبرتي بالشرق بعالم الغرب الذي أصبحت جزءاً منه من جديد. فمن شهور عديدة مضت اكتشفت العلاقة بين الاطمئنان النفسي والعاطفي السائد في نفوس العرب وبين عقيدة الإسلام التي يؤمنون بها، كما بدأ يتبلور في يقيني أن نقص واتقاد التكامل النفسي الداخلي للأوروبيين وحالة الفوضى اللاأخلاقية التي تسيطر عليهم قد تكون ناتجة عن عدم وجود إيمان ديني وقد تكونت الحضارة الأوروبية الحديثة في غيابه.

كان المجتمع الأوروبي الذي أراه يبحث عن إيمان روحي جديد بعد أن ابتعد عن طريق الرب والإيمان به، وكان قليل من الأوروبيين من يدرك ذلك. أما الأغلبية فقد كانت تمضي بوعي أو بلا وعي في إطار فكري يتلخص في الآتي:

«حيث إن السببية، وتجارب العلم، والحسابات العقلية، لم تتوصل بعد إلى إثبات علمي محدد عن أصل الحياة البشرية ومصير البشر بعد الموت؛ فإننا لا بد أن نركز كل طاقاتنا في التطوير المادي وتطوير إمكانيات العقل البشري وألا نخضع لمعوقات السمو الروحي والديني فوق عالم المادة والمسلمات الأخلاقية المعتمدة على فرضيات تتناقض

مع البرهان العلمي». وهكذا، في الوقت الذي لم يفكر فيه المجتمع الغربي في وجود الإله، لم يترك له مكاناً في أنساقه الفكرية. في الأعوام المبكرة من شبابي أصابني الإحباط وخيبة الأمل في العقيدة اليهودية التي أنتمي إليها، واتجه فكري إلى المسيحية بعد أن وجدت أن المفهوم المسيحي للإله يتميز عن المفهوم التوراتي؛ لأنه لم يقصر اهتمامات الإله في مجموعة معينة من الناس ترى أنها وحدها «شعب الله المختار»، ووجدت أن الإله في المسيحية يضفي أبوته على كل البشر. وعلى الرغم من ذلك كان هناك جانب من الفكر المسيحي قلل أيضاً من إمكانية تعميمه وصلاحيته لكل البشر: ألا وهو التفريق والتمييز بين الروح والبدن، أي بين عالم الروح وعالم الشؤون الدنيوية وبسبب تنائي المسيحية المبكر عن كل المحاولات الإصلاحية التي تهدف إلى تأكيد أهمية المقاصد والأغراض الدنيوية، كفت من قرون طويلة عن أن تكون دافعاً أخلاقياً للحضارة الغربية، وسادت فكرة أنه ليس من عمل الدين عامل ملطف، المقصود منه تقوية وتغذية الإحساس الغامض بالأخلاق - خاصة السلوكيات الجنسية - لدى الذكور والإناث. عاونهم الموقف التاريخي العتيق للكنيسة على ترسيخ ذلك الاتجاه في التفريق بين «ما لله، وما لقيصر»، ونتج من ذلك الفصل ترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي يعاني من فراغ ديني، وما ترتب على ذلك من غياب الأخلاق في الممارسات السياسية المسيحية والمعاملات الاقتصادية مع باقي دول العالم. ومثل ذلك فشلاً في تحقيق ما هدفت إليه رسالة المسيح، أو أي دين آخر، فالهدف الجوهري لأي دين هو تعليم البشر، ليس فقط كيف يدركون ويشعرون، بل الأهم كيف يعيشون معيشة صحيحة وينظمون العلاقات المتبادلة بطريقة سوية لا غبن فيها.

ولإحساس الرجل الغربي أنه قد خذل الدين فقد كرد فعل عبر القرون كل إيمانه بالمسيحية. وبفقد إيمانه، فقد اقتناعه بأن الكون والوجود تعبير لقوة خلق واحدة وأن الوجود وحدة عضوية واحدة، وبفقده تلك القناعة، عاش في خواء روحي وأخلاقي.

كان انحدار الغرب التدريجي بعيداً عن المسيحية مظهراً من مظاهر التمرد على نمط الحياة الذي فرضه «بولس» الرسول الذي أخفى في وقت مبكر من المسيحية كل تعاليم المسيح الحقيقية، فكيف يظل العالم الغربي مدعياً أنه عالم مسيحي؟ وكيف يأمل بلا إيمان، أن يتغلب على الفوضى الأخلاقية المعاصرة التي ينغمر فيها؟

عالم يعاني من غليان وتقلبات عنيفة: هذا هو عالمنا الغربي. إراقة دماء، عنف ينتشر على نطاق واسع، تدمير وانهيار قيم اجتماعية كثيرة، صدامات بين النظريات والمفاهيم والمناهج والمذاهب، صراعات وحروب مريرة لإيجاد سبل أخرى للحياة: كلها علامات بارزة في حياة الغرب المعاصرة. ومن بين دخان مجازر الحرب العالمية الأولى، نشبت حروب أخرى أصغر بأعداد لا تحصى، وثورات، وثورات مضادة، ومن بين الكوارث الاقتصادية التي جرفت كل شيء، تبين أن تركيز العالم الغربي على المادة، والتقدم التقني لا يحل، ولا يفضي إلى حلول للفوضى القائمة.

كان اقتناعي في شبابي المبكر أن الإنسان «لا يحيا بالخبز وحده» قد تبلور إلى اقتناع فكري بأن عبادة «التقدم» المادي ليس إلا بديلاً شبحياً للإيمان السابق القديم بالقيم المجردة، وأن الإيمان الزائف بالمادة يجعلهم يعتقدون أنهم سيقهرون كل المصاعب التي تواجههم حالياً.

كانت كل النظم الاقتصادية التي خرجت من معطف المادة علاجاً مزيفاً ومخادعاً ولا يصلح لعلاج البؤس الروحي للغرب: كان بإمكانهم في أفضل الحالات شفاء بعض أعراضه إلا أن من المستحيل علاج سبب العلة.

* * *

في الوقت الذي كنت أعمل فيه مع هيئة التحرير لصحيفة «فرانكفورتر ذيتونج»، قمت بزيارات كثيرة إلى برلين، حيث كان يقيم أغلب أصدقائي، وفي واحدة من تلك الزيارات التقيت بالسيدة التي ستصبح زوجة لي بعد ذلك.

من اللحظة التي قدموني فيها إلى «إلزا» بمقهى «رومانسكي»، انجذبت إليها بشدة، لا بسبب جمالها الرقيق ـ كانت ذات وجه دقيق، رقيقة الملامح، وعيناها حادتان ذات لون أزرق عميق الزرقة، وفم رقيق عطوف ـ بل لما يزيد على ذلك من حدس داخلي صادق وحسن تخمين وتوقع للأمور والناس والمواقف. كانت رسامة، لم تكن أعمالها متميزة بين ذوي الأعمال الفنية، إلا أن تلك الأعمال كانت تحمل صفاءً شديداً مثل ما كان عليه فكرها وحديثها.

على الرغم من أنها كانت تكبرني بخمسة عشر عاماً ـ كانت في أواخر الثلاثينيات من عمرها ـ إلا أن وجهها الرقيق، وبدنها النحيف في مرونة، كانا يعطيان انطباعاً لمن يراها أنها أصغر عمراً.

كانت خير تمثيل للجنس الاسكندنافي، ولديها كل صفاؤهم، كانت سليلة إحدى أسر «هولشتاين» العريقة وهي من أسر شمال ألمانيا العريقة، وتوازي في نبل المحتد الأسر البريطانية العريقة التي خدمت

التاج البريطاني، إلا أن نمط حياتها الحر جعلها متحررة من تقاليد تلك الأسر. كانت أرملة وكان لها ابن يبلغ السادسة من عمره، كرست كل حياتها له.

ويبدو أن الإعجاب كان متبادلاً من أول لقاء، فبعد تعارفنا الأول أصبحنا نلتقي بعد ذلك كثيراً. ولأنني كنت متخماً بانطباعاتي عن العالم العربي، فقد نقلت إليها تلك الانطباعات؛ وبعكس أغلب أصدقائي، أظهرت تفهماً غير عادي وتعاطفاً، حتى إنني عندما كتبت مقدمة لكتابي الذي أصف فيه رحلاتي إلى الشرق الأوسط، أحسست وأنا أكتب تلك المقدمة أنني أقدم نفسي إليها: كتبت في تلك المقدمة:

«حين يرحل أوروبي إلى دولة أوروبية أخرى لم يرها من قبل، فإنه يمضي في بلد مختلف وقد يلاحظ بعض الاختلافات والفروق في بعض الجوانب، وبغض النظر إن كنا ألماناً أو إنجليزاً، وبغض النظر إن كنا نزور فرنسا أو إيطاليا أو المجر، إلا أن الروح الأوروبية، روح الحضارة الغربية توحدنا جميعاً؛ فنحن نحيا داخل إطار محدد تماماً من التماثل، ويمكن أن يفهم بعضنا البعض كما لو كنا نتحدث لغة واحدة. ونطلق على تلك الظاهرة «البيئة الثقافية الواحدة» وهي ميزة بالطبع، إلا أنها تعد عيباً في الوقت نفسه: لأننا نجد أنفسنا أحياناً مغمورين في تلك الروح المشتركة كما لو كنا ملفوفين في ضمادات من القطن؛ وأن تلك الروح تهدهدنا كما يهدهد الطفل قبل نومه، مما يبعث على خمول القلب ويدفعنا إلى نسيان وتناسي المسيرة التي خضناها في العصور الغابرة، تلك الأزمنة الخلاقة القديمة، والتي بزغت على أوروبا بعد واقع لم تكن فيه أوروبا شيئاً. أما الرجال الذين أخذوا على عاتقهم تلك المهمة

الصعبة ـ سواء كانوا المكتشفين أو المغامرين أو الفنانين المبدعين ـ فإنهم كانوا يبحثون جميعاً عن الينابيع الداخلية الدفينة في أعماقهم. ونحن سلالتهم المعاصرة ونبحث أيضاً عن حياتنا، إلا أننا مليئون بالمخاوف التي تدفعنا إلى تأمين حياتنا دون أن نصل إلى أغوارها وأعماقها، ونشعر أن هناك خطيئة تكمن في مثل تلك الدوافع والمقاصد. لقد بدأ بعض الأوروبيين يشعرون الآن بالخطر العظيم المترتب على تجنب الخطر. في هذا الكتاب أصف رحلة إلى منطقة «اختلافها» عن أوروبا كبير، حتى إنه لا يمكن تجاوزه ولا اجتيازه، وهو اختلاف يقترب بشكل ما من حد الخطر. والخطر ناجم عن تركنا أمان بيئتنا الموحدة، التي لا نجد فيها ما يثير ولا ما يدهش، ونخوض غرابة أخرى لعالم «آخر» مختلف. دعونا لا نخدع أنفسنا: ففي ذلك العالم «الآخر» قد نظهر بعض التفهم لهذا أو ذاك من الانطباعات عن أمور نراها أو تصادفنا هناك، إلا أنه لا يمكننا ـ بعكس ما يحدث في دولة غربية ـ أن نتفهم بوعي الصورة الكلية. ما يفصلنا عن ذلك العالم «الآخر» ليس المسافة الجغرافية وحدها. كيف نتواصل معهم؟ لا يكفي أن نتحدث لغتهم؛ وحتى نتفهم ما يشعرون تجاه الحيا لا بد للمرء أن يدخل بيئتهم بكامل وعيه وإرادته ويحيا في تجمعاتهم. هل هذا ممكن؟

بل هل هو مرغوب؟ قد تكون صفقة سيئة أن نستبدل بعاداتنا التي اعتدناها من أنساق فكرية فكراً غريباً غير معروف لنا.

ولكن هل نحن مستثنون في هذا العالم؟ لا أعتقد ذلك.

فإحساسنا أننا مستثنون يرتكز أساساً على خطأ يكمن في طريقتنا الغربية في التفكير. فنحن نميل إلى التقليل من أهمية القيم الخلاقة لمن

لا نعرفهم كما نميل إلى السلوك العدواني تجاههم. كثيرون منا بدأوا يدركون أن المسافة الثقافية والفروق الحضارية يمكن التغلب عليها بوسائل أخرى غير الاغتصاب الفكري؛ إذ ربما يمكن التغلب على ذلك التغاير الثقافي بتسليم حواسنا إليه.

ولأن ذلك العالم «الآخر» المغاير يختلف كلية عن كل ما عرفناه في بيئتنا، فإنه يفاجئك أحياناً إذا أعطيته الاهتمام والانتباه الكافيين، ويذكرك بأشياء معروفة من آجال كما هي منسية من آجال، إلا أن تلك الحقائق المنسية تصل إليك من خلف الهاوية الفاصلة مع أنفاس التذكر. في هذا الموضع أؤكد على أهمية معرفة الآخر، أما بالنسبة لي، فإن معنى التجوال وأهميته يكمنان في إيقاظي لوعي بأن هناك عالماً آخر من حولنا، وأن وعينا بوجوده يزيد من إيقاظ وعينا بواقعنا الشخصي والمنسي...».

ولأن «إلزا» قد فهمت تخميناً ما حاولت قوله وإن لم يكن بوضوح كامل، مثل من يحاول تبين معالم شيء في الظلام، وإن لم أتمكن من إيضاح ما يعتمل في ذهني في تلك المقدمة المتلعثمة، فإنه كان لدي إحساس قوي أنها ـ هي وحدها ـ تستطيع أن تتفهم ما أسعى إليه، وأن تساعدني على البحث عنه.

[٢]

مر يوم آخر من أيام الرحيل، صمت داخلي يسيطر عليّ، وصمت الليل الخارجي يحوطني. الرياح تنزلق بنعومة فوق كثبان الرمال فتتموج الرمال الناعمة على منحدراتها. بدت هيئة زيد على ضوء دائرة النور المنبعثة من النار التي أشعلها، كان مشغولاً بآنيته وأدواته، الخروج

مكومة بالقرب منا حيث حططنا الرحال، بجوارها سروج الجمال بسناداتها الخشبية العالية. وراءها بقليل، تبرك ناقتانا بعد أن عقلناهما، منهكتين بعد مسيرة النهار الطويلة، عنقاهما ممتدان على الرمال، إلى أبعد منهما بقليل، تبدو الصحراء في غير وضوح تحت ضوء النجوم الشحيح، إلا أنها رغم ذلك قريبة منك قرب خفقات قلبك.

صحاري العالم كثيرة، إلا أن هذه الصحراء هي التي يمكن أن تشكل وجدانك، في مشاقها ومصاعبها واتساعها، تنزع منك الصحراء رغبتك في فهم الصغائر، وتنزع عنك كل الأوهام التي تدفعها الطبيعة وتأسر بها ذهن البشر وتدفعهم إلى تكوين تصورات خاصة تبعد عن الحقائق الكلية. أما الصحراء فجرداء وواضحة ونقية ولا تعرف المصالحات. تمحو من قلب المرء رغبته في متع الحياة وتحولها إلى أشكال مزيفة واضح زيفها، وبذلك تحرر المرء وتجعله يستسلم للمطلق في جوهره لا في صوره، ذلك المطلق الذي هو أبعد من كل بعيد، إلا أنه أقرب من كل قريب.

منذ أن بدأ وعي البشر في التكون، كانت الصحراء مهد كل إيمان بالخالق الواحد. حتى في المناطق المعتدلة الأطيب مناخاً والألطف طقساً، كان الإحساس الغامض بوجوده ووحدانيته يهيمنان على ذهن البشر، ظهر ذلك في المفهوم الإغريقي القديم عن «مويرا» كقوة غير محددة أعلى من آلهة جبال الأوليمب، إلا أن المفهوم لم يزد على كونه مشاعر مبهمة غير متبلورة إلى مفهوم متكامل، إحساس بالألوهية أكثر منه معرفة يقينية ـ حتى تفجرت المعرفة بيقين متوهج بين سكان الصحراء وفي قلب الصحراء. انبثق اليقين من عليقة متوهجة في صحراء ميديان

ومنها انبعث صوت الله إلى كليمه موسى؛ كما انبثق من صحراء الأردن التي تلقى فيها المسيح رسالة «مملكة الرب»؛ وانبثق اليقين من غار «حراء»، في تلال الصحراء بالقرب من مكة، حين نزل أول وحي على محمد، ابن الجزيرة العربية.

نزل عليه في ذلك الممر القاحل المقفر بين الجبال الصخرية، في ذلك الوادي العاري الذي أحرقته شمس الصحراء ـ نزل عليه ليصحح مفاهيم ويقدم إجابة صريحة واضحة بالإقبال على الحياة بالروح والجسد: رسالة أعطت شكلاً ومضموناً وهدفاً لأمة كانت بلا شكل وقبائل شتى متفرقة. بذلك المفهوم انتشرت الرسالة في بضعة عقود مثل الوعد والوعيد حتى أقاصي الغرب على مشارف المحيط الأطلنطي وإلى الشرق حتى سور الصين العظيم: نزلت الرسالة لتظل قوة روحية عظيمة حتى اليوم بعد ثلاثة عشر قرناً.

* * *

أغفو وأستيقظ، أفكر فيما خلا من أيام إلا أنها لم تمت: أغفو من جديد وأحلم، ثم أستيقظ من جديد وأجلس، فيتدفق الحلم مختلطاً بذكريات في وعيي ما بين يقظة وغفوة.

كان الليل قد اقترب من نهايته. والنار خمدت؛ وزيد ملتحف بملحفته ويغط في النوم؛ وجملينا مقعيان بلا حركة مثل مرتفعين من الأرض، النجوم لم تختف بعد، ينتابك إحساس أنه ما زال هناك وقت للنوم، إلا أن ضوءاً شاحباً وليداً ظهر في الأفق الشرقي، خطوط وعروق من الضوء الواهن خط فوق آخر، تختلط بعروق الظلام في شرق الأفق، إنها تباشير الفجر، وحان وقت صلاة الفجر.

في زاوية مائلة من صفحة السماء رأيت نجمة الصباح التي يسميها العرب «الزهرة»، أو النجم الأبرق. إن سألتهم عنها سيقولون لك إن «النجم الأبرق» أو «الزهرة» كان في سالف الزمان امرأة...

يقولون إنه في سالف الزمان كان هناك ملاكان، هما هاروت وماروت، نسيا فضيلة التواضع التي ينبغي ألا ينساها الملائكة، وتباهيا بنقائهما الذي لا يمكن تلويثه، كانا يقولان: «نحن مخلوقان من النور، فوق الخطايا والذنوب والرغبات، بعكس أبناء البشر ضعفاء الإرادة، أبناء الأرحام المظلمة، إلا أنهما تناسيا أن نقاءهما لا ينبع من إرادتهما، وأنهما صالحان لأنهما خاليان من الرغبات والشهوات، وبالتالي لم يطلب الله منهما أن يقاوما ما لا يشعران. لم يرض تباهيهما وتكبرهما ربهما الذي خلقهما، فقال لهما: «اهبطا الأرض واختبرا نقاءكما وقوة إرادتكما فيها». هبط الملاكان المتباهيان إلى الأرض وراحا يسعيان في مناكبها وهما في صورة بشرية بين أبناء البشر. في أول ليلة لهما على الأرض مرّا بامرأة ذات جمال يخلب الألباب حتى إن الناس كانوا يسمونها «المتألقة». حين تطلع إليها الملاكان بعيون البشر ورغبات البشر، أصابتهما حيرة وبلبلة، مثل أبناء البشر التهبت رغبتهما في إتيانها. قال كل منهما لها: «أشتهيك فاستجيبي»، إلا أن المرأة المتألقة قالت لهما: «هناك رجل أنتمي إليه، إن أردتماني حرراني منه أولاً» فذبحا الرجل، وحين كان دم الرجل ما زال يقطر من أيديهما، أتياها وأشبعا رغبتهما وجوعهما الذي كان مشتعلاً، ولكن بمجرد أن انطفأ وهج رغبتهما، بدأ الملاكان الأرضيان يعيان أن في أول ليلة لهما على الأرض اقترفا كبيرتين ـ هما القتل والزنا ـ وأن افتخارهما بنقائهما لم يكن له أي معنى ما داما خاليين من الرغبات.. قال الله لهما: «اختارا

ما بين العقاب في الحياة الدنيا أو العقاب في الآخرة»، في مرارة ندمهما اختار الملاكان الساقطان عقوبة الحياة الدنيا: فحكم الله عليهما أن يعلقا في سلاسل ما بين السماء والأرض، وأن يظلا معلقين حتى يوم الدين كتحذير للملائكة والبشر من أن كل فضيلة تدمر ذاتها إذا خلت من التواضع، ولكن لأن عيون البشر لا ترى الملائكة، حوَّل الله «المتألقة» إلى نجم في السماء ليراها البشر ويتذكرون القصة، ويتذكرون مصير هاروت وماروت.

ويعود الإطار العام للأسطورة إلى زمن أقدم من زمن ظهور الإسلام، ويبدو أنها مستمدة من أساطير أقدم نسجها الساميون حول ربتهم «عشتار»، ثم نسجها الإغريق حول ربتهم «أفروديت»، ونسبت الاثنتان، عشتار وأفروديت إلى الكوكب الذي نعرفه اليوم باسم الزهرة. أما القصة بالشكل الذي سمعتها بها، قصة هاروت وماروت، فهي ليست إلا من نتاج الفكر الإسلامي، وهي تصوير لفكرة أن النقاء الخالص، أو الخلو من الذنوب والمعاصي، لا يحمل أي قيمة أخلاقية ما دام ذلك النقاء موجوداً في غياب الدوافع والرغبات والشهوات: فالاختيار بين الصواب والخطأ يتطلب وجود منطق أخلاقي.

لم يدرك هاروت وماروت ذلك، فهما كملاكين، لم يتعرضا أبداً للإغراء والإغواء، واعتبار نفسيهما تقيين نقيين أكثر من البشر - ولم يتحققا أو يدركا أن إنكار «مشروعية» الاحتياجات وإشباع رغبات البدن يتبعه بشكل مباشر ويترتب عليه إنكار كل القيم الأخلاقية في المقاصد البشرية: في الإحساس بالاحتياج في وجود الإغراء والإغواء لإشباع ذلك الاحتياج ينشأ الصراع الذي يضع البشر في موضع الاختبار

والاختيار الأخلاقي؛ أي أن البشر وجود وكينونة أخلاقية، إلا أنهم وهبوا روحاً.

على أساس من ذلك المفهوم، كان الإسلام وحده من بين كل الديانات السماوية، الذي اعتبر روح البشر أحد جوانب وجودهم وأنها ليست مكوناً مستقلاً بذاته، وبالتالي، لا ينفصل النمو ولا السمو الروحي للمسلم عن أوجه وجوده الأخرى أي وجوده الدنيوي.

لذلك اعتبر الإسلام الرغبات الجسدية جزءاً متكاملاً من طبيعة خلق الإنسان، وأن تلك الرغبات ليست وليدة «الخطيئة الأولى» ـ وهو مفهوم يتناقض مع مفاهيم المسيحية ـ بل إن رغبات البدن مكون إيجابي، خلقها الله في البشر ليقبلوها ويمارسوها في أوجهها الصحيحة: ومن ثم، فمشكلة البشر ليست في كبت احتياجات الجسد، بل على الأصح، في كيفية توظيفها في شكل يتكامل مع متطلباته والتزاماته الروحية، وبطريقة تجعل من الحياة حياة كاملة وصحيحة.

ويعلن الإسلام أن جذور المبدأ التوحيدي للوجود لدى البشر موجودة بالفطرة البشرية بعكس المفهوم المسيحي الذي يرى أن الإنسان يولد وهو يحمل ذنب «الخطيئة الأولى، وبعكس التعاليم الهندوسية أيضاً التي ترى أن البشر بطبيعة خلقهم أدنياء ومذنبون، ولا بد لهم أن يجاهدوا بكل عنت ومعاناة عبر سلسلة طويلة من التجسد وحلول الروح في كائنات مختلفة حتى تحقق هدفها النهائي للوصول إلى الكمال، أما في القرآن، فيقول الله جل شأنه: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ والتقويم ليس إلا حالة من النقاء لا يلوثها ولا يدنسها إلا السلوك السيئ للإنسان ـ ﴿ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

[٣]

لاحت أمامنا بساتين نخيل «حائل»، وتجمعات بيوتها من بعيد، توقفنا عند مشارفها بجوار أنقاض برج مراقبة قديم حتى نهيئ أنفسنا لدخول المدينة؛ فالعادات العربية لا تهمل أبداً جوانب المظهر الجمالي للفرد، ويستدعي ذلك من المسافر والمرتحل أن يدخل أي مدينة يقصدها وهو في أبهى حلة، منتعش ونظيف وكأنه بالكاد ركب ناقته غير مترب ولا أشعث. استعملنا كل ما تبقى معنا من ماء في غسل أيدينا ووجوهنا، وتشذيب ما تشعث من لحانا، وأخرجنا من الخروج أنصع ملابسنا بياضاً. أزلنا بفرشاة ما تراكم على العباءات من رمال خلال أسابيع السفر وما علق من رمال بشرابات الخروج ذات الألوان البهية ووضعنا على الجمال أجمل السروج؛ وهكذا، هيأنا أنفسنا للدخول إلى مدينة «حائل».

«حائل» مدينة عربية خالصة، دعنا نقول أكثر من بغداد بل حتى من «المدينة»؛ فهي لا تحتوي على أي عنصر من شعوب غير عربية، نقية في عذرية ونقاء اللبن المحلوب لتوه. لا تلمح زياً أجنبياً في أسواقها، لا تجد بالمتاجر إلا الأزياء والعباءات العربية، والكوفية والعقال. شوارعها أكثر نظافة من أي شوارع مدينة عربية - بل حتى أنظف من نجد المشهود بنظافتها الفائقة عن مدن الشرق. البيوت مشيدة من قوالب الطين المجفف، لا تجد منها حائطاً متهدماً باستثناء ركام أسوار المدينة التي تشهد بآثار الحرب الأخيرة بين ابن سعود وبين ابن راشد، وانتصر فيها ابن سعود وغزا مدينة حائل عام ١٩٢١.

كانت دقات مطارق صائغي النحاس المنهمكين في تشكيل أنواع الآنية تتصاعد، ومناشير النجارين تأكل الخشب في شراهة،

والإسكافيون يدقون النعال والأخفاف، جمال محملة بحطب وقرب السمن تشق طريقها في الزحام، وجمال كثيرة أحضرها بدو الصحراء لبيعها وراحت تملأ المكان بهديرها. أكوام من خروج الجمال المزينة والمزركشة بألوان زاهية آتية من «الحساء» والأيدي الخبيرة تتفحص جودتها. والباعة الجائلون الذين يكونون مشهداً متكرراً في كل المدن العربية، يتحركون في السوق جيئة وذهاباً، يعرضون ما يبيعون بأصوات عالية. هنا وهناك ترى صقور الصيد تتقافز فوق مجاثمها الخشبية ومقيدة إليها بحبال رفيعة من الجلد.. وإلى جوارها كلاب صيد من فصيلة السلوقي تتمطى في الشمس بأطرافها الطويلة. بدو نحاف الأبدان في عباءات فضفاضة، خدم في أزياء نظيفة وحراس الأمير - كلهم تقريباً من جنوب الجزيرة - يختلطون بتجار من بغداد والبصرة والكويت وأبناء حائل - أبناء حائل أولئك - من الرجال فقط، فنادراً ما تظهر النساء بعباءاتهن السوداء التي تخفي الرأس والبدن - ينتمون إلى أجمل أجناس الأرض، فكل سمو الحركة وجمال المنظر لدى العرب يتجلى في أنقى صورة في أبناء قبائل شمار، الذي قال عنهم شاعر جاهلي ما معناه: «في الشدائد رجال من صلب، وفي الخدور نساء من عفة».

وصلنا إلى حصن الأمير حيث انتوينا أن نبقى يومين، وجدنا مضيفنا يعقد مجلسه في العراء أمام باب الحصن، كان الأمير ابن مسعد ينتمي إلى فرع الجلويين من قبيلة ابن سعود وكان شقيق زوجة الملك وواحداً من أقوى الحكام الذين عينهم الملك على الولايات كما كان يسمى «أمير الشمال» لأنه لم يكن حاكماً على مناطق جبال شمار وحدها، بل كل شمال منطقة نجد حتى مشارف سوريا والعراق، وهي منطقة تبلغ مساحتها مساحة فرنسا على وجه التقريب.

كان الأمير (وكان صديقاً لي من زمن طويل) يجلس مع عدد من الشيوخ قبائل الصحراء على مصاطب من الحجر أسفل جدار الحصن، وأمامه على الأرض جلس صف طويل من «الرجاجيل» مسلحين بالبنادق والسيوف المحدبة في أغمدة فضية، لا يتركونه طول اليوم، لا لحمايته بالطبع، ولكن دلالة على النفوذ والهيبة، ويلي الرجاجيل حملة الصقور حيث تقف على أيديهم المغطاة بقفازات جلدية سميكة، يليهم خدم أقل شأناً، ثم البدو وجماعات من ساسة الجمال، حتى غلمان مرابط الجمال ـ كلهم متساوون كرجال بالرغم من اختلاف وظائفهم ومراكزهم. وكيف يكون الأمر غير ذلك في بلاد لا يوجه فيها الحديث لأي رجل مهم مهما يكن وضعه بلقب «سيدي» حيث لا سيادة إلا لله؟

كان الأمير يجلس مواجهاً للبدو الذين جلسوا القرفصاء على الرمال في نصف دائرة واسعة وقد جاءوا ليحكم الأمير بينهم في خصومات ونزاعات من كل لون.

أنخنا الجمال خارج الدائرة، وتركناها في رعاية ساسة الجمال الذين أسرعوا إلينا، ترجلنا وتقدمنا باتجاه الأمير. نهض الأمير ونهض معه كل من كانوا يجلسون جواره وكذلك من كانوا أمامه على الأرض. ومد يده إليَّ مصافحاً وهو يرحب بنا: «أهلاً وسهلاً، طال عمرك»، قبلت الأمير على قمة أنفه وجبهته، وقبلني هو على الخدين، وجذبني لأجلس بجواره. ووجد زيد لنفسه مكاناً بين الرجاجيل.

قدمني ابن مسعد إلى باقي ضيوفه، بعض الوجوه كنت أراها لأول مرة، وبعضها كان لي به سابق معرفة من أعوام سابقة، كان من المعروفين لي منهم الشيخ غضبان بن رمال كبير مشايخ سنجارا شمار ـ

أحد قدامى المحاربين الشجان المرحين وكنت أناديه «يا عمي» ولا يخمن من يراه من مظهر ملبسه العادي أنه واحد من أقوى المشايخ في الشمال، وأنه وهب زوجته الشابة من الذهب والجواهر ما يتطلب طبقاً للمتناقل من الأقوال خادمتين ليسندانها حين تخرج من الخيمة الضخمة القائمة على ستة عشر من أعمدة الخيام. غمز بعينه وهو يهم باحتضاني ثم همس في أذني: «ألم تتخذ زوجة جديدة بعد؟» وأجبته بابتسامة وهزة من كتفي.

ويبدو أن سؤاله قد وصل إلى سمع الأمير ابن مسعد، فقد ضحك عالياً وقال: «المسافر المتعب يحتاج إلى قهوة، لا لزوجة» ثم صاح بصوت أعلى: قهوة.

كرر الخدم الأقرب للأمير صائحين «قهوة؛ حتى وصل الأمر بالتتابع إلى آخر واحد بالصف على حافة المجلس، ثم بالتتابع إلى باب الحصن وتردد صدى الأمر بداخله. في الحال ظهر خادم يحمل إبريق القهوة العربي التقليدي بيده اليسرى وعدداً من الأقداح الصغيرة بيده اليمنى، ملأ القدح الأول للأمير، والثاني، لي، ثم قدم لباقي الضيوف طبقاً لمكانتهم. ويملأ الفنجان مرة أو مرتين، وحين يظهر الضيف أنه اكتفى، فإنه عند إعادة ملئه يناوله لمن يليه.

كان الأمير شغوفاً لمعرفة أخبار مهمتي إلى حدود العراق، إلا أنه دارى رغبته عبر بعض أسئلة سريعة عما صادفني من مشاق في الطريق، واحتفظ برغبته في معرفة التفاصيل حتى نصبح على انفراد. ثم أكمل ما كان يفعله قبل وصولي من استماع إلى شكايات أصحاب الشكاوى والآتين للتحكم في خلافاتهم ونزاعاتهم.

قد يكون ذلك الشكل من أشكال التحكيم غير مقبول في الغرب. الأمير كحاكم وقاض يحظى باحترام مطلق - إلا أنه لا يوجد أي قدر من خنوع أو ذل في ذلك النوع من الاحترام وكل من الشاكي والمشكو في حقه أو المدعى والمدعى عليه يثقون ثقة مطلقة في إنسانيته الحرة؛ ولا يبدو عليهم ما يشي بتردد أو خوف أو خشية، فأصواتهم قوية مرتفعة وواثقة وجميعهم يوجهون الحديث إلى الأمير كما لو كان شقيقهم الأكبر، يوجهون إليه الحديث - كعادة البدو عند توجههم بالحديث حتى للملك - باسمه الأول لا بألقابه الرسمية الملكية، ولا تجد أي قدر من التعالي أو العجرفة في سلوك ابن مسعد. وجهه جميل بلحية قصيرة، متوسط القامة وبدنه يميل إلى الامتلاء، ويشي كل ما يبدو منه بانضباط النفس وبساطة التعامل. كل صفات العظمة والبساطة والتواضع تمضي مع قوة المكانة وقدر السلطة، يحكم في المشاكل التي يمكن حلها، أما المشاكل الأكثر تعقيداً التي تحتاج إلى دراية قانونية عميقة فيحيلها إلى قاضي المدينة.

ليس سهلاً أن تكون سلطة عليا في منطقة عظمى من مناطق البدو. لا بد أن تتوفر لك دراية كاملة بكل قبائل المنطقة، وعلاقات القرابة والنسب والمصاهرة، ومعرفة بالشخصيات القيادية الفعالة في المنطقة، وفي مناطق الرعي المختلفة، كما لا بد أن تكون ملماً بأحداث الماضي وأحداث الحاضر حتى تكون الأحكام دقيقة وعادلة عند فض اشتباكات مشاكل البدو وشكاياتهم التي قد تكون شديدة التعقيد في بعض الأحيان وتحتاج إلى حكمة ودراية ومعارف كافية. واللباقة لا تقل في أهميتها في تلك المجالس عن حدة الذكاء، ولا بد للصفتين أن تعملا معاً بكل دقة وحساسية حتى لا تصدر أحكاماً ظالمة، لأنه بنفس القدر الذي لا ينسى

به العرب معروفاً أسديته إليهم، لا يمكن أن ينسوا حكماً ظالماً صدر ضدهم أو يشعرون أنه لا يتسم بالعدل. والأحكام في الغالب، بل دائماً ما تقبل بروح طيبة حتى من أولئك الذين صدرت الأحكام ضدهم، ويتميز ابن مسعد بتوفير كل تلك الصفات أكثر من أي نائب آخر للملك على مناطق المملكة المختلفة، فهو صريح، هادئ، يخلو من النزعات والأهواء المتناقضة، إحساسه الغريزي بالصواب والخطأ يهديه حين تتعطل لديه أسباب الاستدلال العقلي. صقلته الحياة بخبرات كثيرة وتجارب لا تحصى، ثم تمكن من تلابيب الحياة بعد أن خبر دروبها ومسالكها.

كان اثنان من البدو رثا الثياب يعرضان عليه في تلك اللحظة خصومتهما وعرض كل واحد ما عنده في حماسة وبكلمات منفعلة. والبدو بوجه عام يصعب التعامل معهم؛ فهناك دائماً جوانب من تكوينهم لا يمكن التنبؤ بها ـ حساسية مستثارة لا تعرف الحلول الوسط ـ دائماً هناك خيط رفيع يفصل بين النعيم والجحيم. رأيت كيف ينزع عنهم ابن مسعد غليانهم وفورانهم الانفعالي وكيف يهدئهم بكلماته الرزينة الهادئة. قد تظن أنه قد يأمر أحدهم بالصمت ويطلب الآخر بعرض ما يرى أنه حقه: كلا، لا يفعل أي من هذا، بل يترك الطرفين يتحدثان في الآن نفسه، ويتهمان بعضهما البعض، لا يتدخل إلا من آن لآخر بكلمة صغيرة هنا وسؤال هناك ـ وينغمسان من جديد في محاجاتهما الانفعالية؛ ويصمت هو ويتركهما يتجادلان ثم يقاطعهما من جديد بإبداء ملاحظة سديدة في الوقت الملائم. مشهد يسلب اللب، توظيف عقل المحكم في صراع طرفين هما رجلان غاضبان: لا يعد بحثاً عن الحقيقة بالمعنى العدلي القانوني بقدر ما هو رفع الستار

تدريجياً عما هو خافٍ، وعن واقع موضوعي. ويقترب الأمير من تحقيق ذلك بكر وفر، يستل الحقيقة كما لو كان يستلها بخيط رفيع غير مرئي، ببطء وصبر، دون أن يدرك ذلك أي من المدعى والمدعى عليه. حتى يتوقف المتخاصمان فجأة، وينظر كل منهما للآخر في دهشة ويتحققان كلاهما أنهما قد توصلا إلى الحكم ـ وهو حكم عادل وواضح حتى إنه لا يحتاج إلى شرح أو تفسير، وعلى ذلك يقف أحدهما في تردد، ويفرد عباءته ويشدها ويشبد خصمه من كمه بطريقة ودودة: «تعال» ـ وينسحب الخصمان بعد أن تصالحا، تعتريهما بعض الحيرة، إلا أنهما سعيدان ويتمتمان بالدعاء للأمير.

مشهد رائع وقطعة فنية فريدة: لا مثيل لها، تبدو لي أنها من ذلك الجمع المثمر بين الإدعاء والقضاء الذي لا تعرف عنه محاكم الغرب شيئاً. إلا أنه يمارس هنا على أكمل وجه في ميدان السوق المترب أمام حصن أمير عربي...

يتراخى ابن مسعد مستنداً إلى الحائط الطيني للحصن، ليبدأ نظر المشكلة التي تليها، قوي الملامح عابس الوجه في غير تجهم، ينظر من عينين عميقتي المحجرين نظرات دافئة نافذة، وجه قادة حقيقيين من الرجال، ممثل للسيادة في أعلى مستوياتها بين بني جنسه من رجال المنطقة بعلو حس داخلي دفين.

بعض الحضور الآخرين يشعرون بالإعجاب به. قال رجل يجلس أمامي على الأرض بعد أن رفع رأسه باتجاهي وابتسامة على وجهه ـ وهو بدوي من رجال قبيلة حرب، وأحد جنود الأمير ـ: «ألا يشبه الأمير ذلك السلطان الذي قال عنه المتنبي، ما معناه:

قابلته وسيفه في غمده، ورأيته وسيفه يقطر بالدم.

في الحالين أفضل الورى، وأفضل ما فيه حسن ذكاء وفطنة.

لم يبد في نظري أن هناك أي تعارض أو تناقض حين سمعت بدوي أمي ينشد أبياتاً من الشعر لأحد كبار شعراء العرب الذي عاش بالقرن العاشر - بالتأكيد لم يبد لي أن هناك أي تناقض مثلما أجد تناقضاً على سبيل المثال إذا سمعت فلاحاً من بافاريا في شمال أوروبا ينشد أبياتاً لـ«جوته» أو لأحد كبار الشعراء الإنجليز مثل ويليام بلاك أو شيللي. فعلى الرغم من انتشار التعليم بالغرب، فإن الثقافة الغربية الرفيعة غير متاحة للأوروبي العادي أو الأمريكي، بينما نجد أن شريحة عظمى من غير المتعلمين تعليماً عالياً، بل من الأميين المسلمين يشاركون بوعي في النهل من الإنجاز الثقافي الرفيع لماضيهم، مثلما استطاع ذلك البدوي الأمي أن يستدعي إلى ذاكرته أبياتاً ملائمة من شعر المتنبي ليصور بها موقفاً شهده وتنطبق عليه الأبيات التي استلها من ذاكرته، كذلك تجد كثيرين من أهل إيران في أثمال بالية وغير متعلمين من سقائين وحمالين في أسواق، أو جنود في منطقة حدودية، ويحفظون بالذاكرة نصوصاً طويلة وأشعاراً لحافظ وجامي والفردوسي وينسجون ما يحفظونه في استمتاع شديد مع جملهم التي يتحدثون بها في حواراتهم اليومية. وبالرغم من أن المسلمين المعاصرين فقدوا تلك القدرة الإبداعية الخلاقة التي جعلت من إرثهم الثقافي ذلك الإرث العظيم، إلا أنهم ما زالوا على اتصال مباشر ووثيق بتلك المنابع والذرى السامية الرفيعة لأسلافهم.

* * *

ما زلت أتذكر ذلك اليوم حين توصلت إلى ذلك الاكتشاف في سوق دمشق بالحي القديم. كنت أتفحص وعاءً فخارياً من الطين المحروق، كان جميلاً ومتميزاً وفريداً ومستديراً مثل كرة مسطحة قليلاً ذات أبعاد متناسبة ومتناغمة، تبرز من جداره الخارجي الذي يشبه استدارة خدود امرأة يدان في انحناء خارجي بميل متقن يماثل تلك القوارير الإغريقية المشهورة. الوعاء واليدان مصنوعان صنعة يدوية، تستطيع أن تميز ذلك بسهولة، حتى إنك تكاد تميز بصمة العامل الذي صنعها وهو بالتأكيد عامل بسيط يعمل بتشكيل الطين، حول حافته الداخلية نقش أشكالاً نباتية دقيقة. كان بالتأكيد يعمل في سرعة وبراعة وحذق، وبلا تركيز كافٍ في اعتياد يومي متواتر، إلا أنه يخلق عملاً فنياً يحمل تلك الروعة في بساطتها تستدعي إلى الذاكرة عظمة الفن السلجقي في سوريا وأعمال السيراميك الفارسية التي تحظى بالإعجاب والتقدير في متاحف أوروبا مع أن أولئك العمال البسطاء لا يضعون في أذهانهم وهم يصنعونها أنهم يقومون بأعمال تشكيلية فنية إبداعية، كل ما يدور في ذهنه أنه يصنع إناء للطهي أو للزينة ـ لا شيء غير إناء للطهي، عن تلك الآنية التي يمكن لأي فلاح أو بدوي أن يشتريها في أي يوم من أي سوق مقابل بضع قطع معدنية صغيرة. . .

أعرف أن الإغريق قد أبدعوا مثل تلك الإبداعات أو أفضل منها وأكثر إتقاناً، وربما كانت أيضاً في أواني الطهي: هم أيضاً من سقائين وحمالي أسواق، وجنود وعاملي تشكيل أواني ـ ساهموا جميعاً في حضارة لم تكن تعمل فقط أعمالاً إبداعية لإرضاء الصفوة والنخبة بل حضارة تشمل كل الأفراد. وافتخارهم بجمال المصنوعات افتخار بحضارة راقية ذات نتاج راق إلا أنه جزء من الممارسات اليومية.

حين كنت أتفحص ذلك الإناء في سوق دمشق القديم طاف بذهني هاتف يبارك من سيأكلون في ذلك الإناء وجباتهم، أولئك الذين ينتسبون لإرث حضاري فاق في مضمونه الافتخار الخاوي...

[٤]

أفقت من استغراقي في أفكاري على صوت الأمير مسعد: «ألن تسعدنا بتناول الغداء معي الآن يا محمد؟». رفعت رأسي متطلعاً وتقهقرت ذكريات دمشق في سرعة لتستقر في موضعها من الماضي إلى حيث تنتمي، وعدت إلى حاضري الذي كنت أجلس فيه بجوار «أمير الشمال». كانت جلسة التحكيم قد انتهت؛ وانفض جميع المتشاكين واحداً بعد آخر. نهض ابن مسعد؛ ونهض معه ضيوفه وحرسه. وتفرق جمع الرجاجيل ليفسح طريقاً لنا للمرور. وحين كنا نمر عبر البوابة أحكموا انتظامهم خلفنا من جديد وتبعونا إلى داخل فناء الحصن.

بعد فترة، كنت أنا، والأمير مسعد، والشيخ غضبان بن رمال مجتمعين حول وجبة غداء مكونة من قصعة ضخمة من الأرز وعليها خروف كامل مشوي. بالقرب منا وقف اثنان من خدم الأمير وزوج من الكلاب السلوقي.

وضع الشيخ غضبان يده على كتفي وقال: «لم تجب عن سؤالي بعد ـ ألا توجد زوجة جديدة؟».

ضحكت من إصراره على هذا الأمر، وقلت: «عندي زوجة في المدينة كما تعلم، لماذا يتحتم عليَّ أن أتزوج بأخرى؟».

رد بسرعة: «لماذا؟ فليحمني الله ـ زوجة واحدة ـ وأنت ما زلت في شبابك؟ لماذا؟ حين كنت في عمرك..».

قاطعه الأمير مسعد: «قيل لي، إن أداءك لم يقل إلى الآن يا شيخ غضبان».

قال الشيخ غضبان: «لقد أصبحت حطاماً بالية، أطال الله عمرك يا أمير، ولكني أحتاج أحياناً إلى جسد غض ليدفئ عظامي العجوز المسنة.. ولكن أخبرني...» استدار إليَّ من جديد: «ماذا حدث لتلك الفتاة المطيرية التي تزوجتها من عامين؟ ماذا فعلت معها؟».

أجبت: «لماذا تسأل؟ لم أفعل، شيئاً، أظن أن ذلك ما تريد معرفته».

ردد الشيخ العجوز: «لم تفعل شيئاً؟ هل كانت قبيحة إلى هذا الحد؟» أجبته: «كلا، بالعكس، كانت فائقة الجمال...».

سأل الأمير مسعد: «ما الحكاية؟ أي بنت مطيرية تتحدثان عنها؟ نورني يا محمد».

هكذا رحت «أنوّر» الأمير بما حدث في ذلك الزواج الذي لم يؤد إلى شيء. كنت أعيش بالمدينة وحيداً بلا زوجة، واعتاد بدوي من قبيلة مطير اسمه فهد على قضاء عدة ساعات معي يومياً لإعداد القهوة ويسليني بحكايات طريفة عن رحلاته الاستكشافية مع «لورانس» أثناء الحرب العظمى. وذات يوم قال لي: «لا يصلح للرجل أن يعيش بمفرده، دماؤك ستتجمد في عروقك، لا بد أن تتزوج»، وحين سألته مازحاً عن العروس التي يرشحها للزواج مني، أجاب: «هذا أمر سهل. ابنة زوج أختي مطرق، وهي الآن في سن الزواج، وأنا، بصفتي خالها، أستطيع أن أطمئنك أنها فائقة الجمال»، كنت ما زلت أمزح حين قلت له أن عليه أن يعرف أولاً إن كان أبوها موافقاً أم لا. وهكذا، في اليوم

التالي أتى مطرق نفسه لمقابلتي، وكان الحرج بادياً عليه بعد عدة أقداح من القهوة، وبعض الأحاديث المتفرقة، أخبرني في النهاية أن فهد قد حدثه عن رغبتي في الزواج من ابنته، وقال: «يشرفني أن تكون زوج ابنتي، ولكن رقية ما زالت طفلة - إنها في الحادية عشرة من عمرها. . .».

استشاط فهد غضباً حين أخبرته بزيارة مطرق، وما قاله لي. صاح في غضب: «إنه نذل ووغد. الوغد الكاذب. الفتاة في الخامسة عشرة، إنه لا يحبذ تزويجها من غير عربي، ولكنه يعلم صلتك الوثيقة بابن سعود ولا يريد أن يضايقك برفضه المباشر، لذلك ادعى أنها طفلة، ولكني أؤكد لك أن ثدييها هكذا. .» ووصف بحركة من كفيه نصف المكورتين نهدين ذات حجم مغرٍ، وأردف: «مثل ثمر الرمان الذي يطلب من يقطفه».

التمعت عينا الشيخ غضبان حين أتى ذكر وصف نهديها وعلق قائلاً: «خمسة عشر عاماً، جميل، وعذراء. . . وبعد ذلك تقول لي لا شيء، ماذا تريد أكثر من هذا؟».

أكملت قائلاً: «صبراً حتى أكمل لك باقي الحكاية. . أعترف لكم أن اهتمامي راح يتزايد، وربما ازداد بعد معارضة مطرق أبي الفتاة وهبت فهد عشر هدايا ذهبية وبذل كل جهده لإغراء أبويها أن يزوجاني إياها، وأرسلت بهدية مماثلة لأمها، شقيقة فهد. لم أعرف بالضبط ما حدث في منزلهم؛ كل ما عرفته أن فهد وشقيقته بذلا كل ما يمكنهما من ضغوط على مطرق حتى يرضى بتزويجي ابنته. . .».

قال الأمير ابن مسعد: «يبدو أن هذا الفهد كان صديقاً ماكراً. . توقع هو وأخته عطاءً سخياً منك يا محمد. ماذا حدث بعد ذلك؟».

حكيت لهم كيف حل يوم الزفاف بعد ذلك بعدة أيام في غياب العروس، التي طبقاً للعادات، يمثلها والدها كوكيل شرعي عنها، ويتم تأكيد موافقة العروس على توكيل أبيها بشهادة اثنين من الشهود. وتبع عقد القران حفل زفاف سخي مترف وفخم، مع الهدايا المعتادة والهبات للعروس (التي لم أكن قد رأيتها حتى تلك اللحظة)، ولأبويها، ولبعض الأقارب المقربين ـ من ضمنهم بالطبع فهد الذي حظي بأكثر الهدايا قيمة، وفي المساء نفسه أحضرت العروس إلى بيتي بصحبة أمها وبعض النسوة المختمرات، بينما كانت النساء تغني أغاني الأعراس من فوق أسطح المنازل المجاورة على إيقاع الدفوف والطبول.

في الساعة المعنية دخلت الغرفة التي كانت بها العروس تنتظر هي وأمها. لم أميز الأم من الابنة، كلتاهما كانت مغطاة تماماً بملابس سوداء من الرأس حتى الأرض، وحتى أعرف من الأم ومن الابنة قلت: «يمكنك أن تنصرفي الآن»، فنهضت واحدة منهما وخرجت في صمت؛ هكذا عرفت أن التي بقيت هي زوجتي.

حثني ابن رمال عندما توقفت عن الحكي عند هذا الموضع، بينما تطلع إليَّ الأمير ابن مسعد: «وبعد يا بني، ماذا حدث؟ وماذا فعلت؟».

أكملت: «ثم.. ظلت البنت في موضعها، تلك الفتاة المسكينة، من الواضح أنها كانت في شدة الخوف من تسليمها إلى رجل لا تعرفه. حين طلبت منها بأرق صوت استطعته أن تميط لثامها، لم تفعل إلا أن تحكم وضع عباءتها حول جسدها في خوف».

هتف الشيخ ابن رمال في حماس: «يفعلن ذلك دائماً، يظهرن الخوف في البداية في ليلة الزفاف، إلا أنهن بعد ذلك يصبحن مسرورات، أليس كذلك؟».

أكملت: «حسناً، ليس تماماً، كان عليَّ أن أزيل عن وجهها اللثام بنفسي، وحين فعلت، أذهلني أن أرى وجهها في غاية الجمال، وجه بيضوي قمحي اللون، وعيون واسعة وضفائر شعر طويلة تدلت حتى الوسائد التي كانت تجلس عليها، إلا أن وجهها كان بالفعل وجه طفلة، لم يكن عمرها يزيد على أحد عشر عاماً، تماماً كما ذكر والدها.. دفع الجشع فهد وأخته إلى تصوير الأمر لي على أنها في سن الزواج، بينما كان المسكين مطرق بريئاً من أي كذب أو ادعاء».

سأل الشيخ ابن رمال وعلى وجهه أمارات عدم فهم ما كنت أرمي إليه: «وبعد؟ ما مشكلة أحد عشر ربيعاً؟ البنات يكبرن، أليس كذلك، بل إنهن يكبرن أسرع في فراش أزواجهن...».

إلا أن الأمير ابن مسعد قال: «كلا يا شيخ غضبان، إنه ليس نجدياً مثلك. له عقل أكبر في رأسه» وابتسم إليَّ وواصل: «لا تسمع إلى غضبان يا محمد، إنه نجدي، وأغلبنا نحن النجديين ليس لنا عقل هنا - وأشار إلى رأسه - بل هنا»، وأشار إلى موضع ذكورته.

ضحكنا جميعاً، وتمتم غضبان من بين لحيته وشاربه: «على ذلك فلدي عقل أكبر من عقولكم جميعاً، أليس كذلك يا أمير؟».

تحت إلحاحهم رحت أكمل الحكاية، أخبرتهم أنه مهما تكن وجهات نظر الشيخ غضبان، فإن صغر سن العروس لم يكن ميزة كبيرة لي، فلم أشعر نحوها إلا بالشفقة فقد كانت ضحية خداع خالها الوضيع. عاملتها كما يعامل الأطفال، طمأنتها أنه لا يوجد ما تخشاه مني، إلا أنها لم تنطق بكلمة وفضح ارتعاشها خوفها وجزعها. وجدت على أحد الأرفف قطعة من الحلوى - شيكولاتة - قدمتها إليها إلا أنها لم

تكن رأت الشيكولاتة في حياتها، فرفضتها بهزة عنيفة من رأسها، حاولت أن أطمأنها بأن أقص عليها قصة مسلية من ألف ليلة وليلة، ولم يبد عليها أنها فهمت أي شيء مما كنت أقصه عليها. أخيراً تمتمت بأول كلمات لها: «رأسي يوجعني...» أحضرت بعض أقراص الإسبرين ووضعتها في كفها ومعها كوب ماء، إلا أن ذلك تسبب في مزيد من خوفها (علمت بعد ذلك أن بعض السيدات من معارفها أخبروها أن الرجال الغرباء القادمين من بلاد أجنبية يخدرون زوجاتهم في ليلة الزفاف حتى يغتصبوهن في سهولة)، بعد ساعتين أو نحو ذلك نجحت في إقناعها أنني لن أؤذيها. في النهاية سقطت في نوم عميق مثل أي طفلة في سنها، وأعددت فراشاً لي على البساط في ركن الغرفة.

في الصباح أرسلت من يستدعي أمها، وطلبت منها أن تصطحب ابنتها معها. بدا على المرأة الغباء وعدم الفهم؛ فهي لم تسمع في حياتها عن رجل يرفض لقمة شهية ـ عذراء في الحادية عشرة ـ وظنت أن هناك خللاً في عقلي.

وسأل الشيخ غضبان: «وماذا بعد ذلك؟».

أجبته: «لا شيء طلقت الطفلة، وتركتها على حالها الذي أتتني به. لم تكن الصفقة سيئة لأسرتها، فقد احتفظوا بالفتاة والمهر الذي دفعته وكذلك بالهدايا التي أهديتها إليهم هم وأقاربهم. أما أنا، فلم أنل إلا شائعة انتشرت وذاعت أنني لا أملك من الرجولة ما يكفي لفض عذرية عروس، وحاول بعض ذوي النيات الطيبة أن يقنعوني أن هناك من عمل لي عملاً من أعمال السحر يعوقني عن ممارسة رجولتي، وأنني لن أستعيد رجولتي إلا إذا قمت بعمل سحري مضاد يبطل السحر الأول الذي أصابني بالعنة».

قال الأمير وهو يضحك: «حين أتذكر زواجك بعد ذلك بالمدينة، وإنجابك لطفل، أتأكد أنك قمت بعمل سحري مضاد أقوى من الذي كان يؤثر فيك...».

[٥]

في وقت متأخر من الليل، حين كنت أهم بالذهاب إلى فراشي، وجدت زيداً صامتاً أكثر من المعتاد. كان يقف بالباب، وكان من الواضح أن ذهنه شارد في أفكار أخذته بعيداً عن الحاضر واللحظة، كانت ذقنه مرتكزة على صدره وعيناه ثابتتان على النقوش الزرقاء والخضراء الطحلبية التي تزين بساطاً من خراسان مفروش على الأرض.

سألته: «كيف تشعر الآن يا زيد بعد أن عدت إلى موطن شبابك بعد كل تلك الأعوام؟» ـ كان قبل ذلك يرفض دخول مدينة حائل كلما كان هناك سبب لمجيئي إليها.

أجاب بتؤدة: «لا أدري يا عمي، أحد عشر عاماً.. مرت منذ كنت هنا آخر مرة، أنت تعرف أن قلبي لم يكن يطاوعني للمجيء قبل ذلك وأرى أهل الجنوب يحكمون من بيت ابن رشيد. ولكن في الفترة الأخيرة قلت في نفسي، ما ذكره الله في القرآن: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾.

لقد وهب الله الملك لابن رشيد إلا أنه لم يدرك كيف يستخدمه على الوجه الصحيح. كانوا كرماء مع الناس قساة على أهلهم وعشيرتهم، كانوا تياهين بلا سبب؛ وتسببوا في إراقة الدماء ودفعوا الأخ

لقتل أخيه، لذلك نزع الله عنهم الملك وأعاده إلى ابن سعود. أظن أنه لا يجب أن أحزن عليهم أكثر من ذلك ـ فالقرآن يقول: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم﴾ ـ صدق الله العظيم.

كان هناك انطباع بالتسليم الجميل في صوت زيد، تسليم لا يتضمن أكثر من قبول حدث وقع ولا يمكن تغييره. ذلك التسليم الذي يتصف به المسلمون إزاء حتمية أحداث الماضي، وهو التسليم بأن ما حدث كان لا بد أن يحدث وبالكيفية التي حدث بها، لا بغيرها ـ وهو ما يخطىء الغربيون في فهمه بأنه نوع من الجبرية القدرية الموروثة في الإسلام. والحقيقة أن تسليم المسلم خاص بالماضي الذي انتهى لا بالمستقبل: أي أنه ليس رفضاً للفعل أو تجنب العمل والسعي، وهو لا يخرج عن كونه اعتبار ما حدث ليس إلا مشيئة الله.

أردف زيد: «عدا كل ذلك، لم يقس ابن سعود على شمّار، وهم يدركون ذلك، ألم يساندوه بعد ذلك بسيوفهم من ثلاثة أعوام حين تمرد ذلك الكلب الداويش وحاول إثارة فتنة؟».

كانوا بالفعل قد نضوا سيوفهم تحت راية ابن سعود. بكل شهامة المهزوم لم يحملوا ضغينة ضد ابن سعود ووقفوا معه ضد الداويش. في العام المصيري ١٩٢٩، حين اهتزت دعائم مملكة ابن سعود تحت وقع الهجمات التي شنها تمرد البدو الكبير الذي قاده فيصل الداويش، نهضت كل قبائل شمّار التي تحيا في منطقة نجد بعد أن نحوا جانباً العداوة التي كانت بينهم وبين الملك ذات يوم، والتفوا حوله حتى حققوا النصر على المتمردين. كان ذلك التصالح مشهوداً، بعد أن كان

ابن سعود قد غزا مدينة حائل بقوة السلاح وبذلك استعاد سيطرة الجنوب على الشمال. كان التصالح مشهوداً وعظيماً بشكل أخص على ضوء تنافس تاريخي أعمق من أي خلافات قبلية وأعمق من أي تنافس على السلطة والقوة ـ بين قبائل شمار وشعوب جنوب نجد الذين ينتمي إليهم ابن سعود. وإلى حد كبير، كانت تلك الكراهية والنفور الفطريان بعيداً عن تنافس الجنوب والشمال والذي امتد بطول التاريخ العربي، والتي لها ما يقابلها في دول كثيرة أخرى: وفي الغالب نجد أن اختلاف طفيف في نمط وأسلوب الحياة يترتب عليه عداوات بين قبائل من المفترض أنها مرتبطة بعلاقات حميمة، عداوة قد تزيد من العداوة المترتبة على اختلافات عرقية بين أمم متجاورة.

باستثناء التنافس السياسي: كان هناك عنصر آخر لعب دوره في إذكاء التنافس بين الشمال والجنوب. حدث ذلك في جنوب نجد، فيما جاور الرياض، من مائتي عام مضت حين ظهر المصلح التصحيحي محمد بن عبد الوهاب، وأثار ذلك قبائل كثيرة قاومت إصلاحاته ـ كانت قبائل مسلمة اسماً فقط ـ فقد دعا إلى ممارسة الدين في شكله النقي، كانت الحركة التصحيحية قد بزغت من بيت آل سعود الذي لم يكن مشهوراً في ذلك الوقت، ودعم زعماء مدينة صغيرة، هي مدينة دارية، المصلح محمد بن عبد الوهاب بالأسلحة النارية مما دفع الحركة الإصلاحية إلى موقف قوي، وخلال بضعة عقود جمع حوله أغلب مناطق شبه الجزيرة وعرفت الحركة باسم «الوهابية». وفي كل الحروب الوهابية والغزوات الإصلاحية التي قامت بها خلال المائة وخمسين عاماً الأخيرة، كان أهل الجنوب من رفعوا ألوية تنقية الدين، بينما سايرهم الشمال بنصف قلب وبلا اقتناع كامل، وبالرغم من أن قبائل شمار كانوا

نظرياً تحت راية الوهابيين، إلا أن قلوبهم ظلت نائية عن الإصرار الإصلاحي لأهل الجنوب، ولأنهم كانوا يعيشون على الحدود القريبة من سوريا والعراق، فقد كانوا مرتبطين بهما بعلاقات تجارية مستديمة، واكتسب أهل شمار على مر الزمن حساً تجارياً عالياً واكتسبوا صفات المصالحة وإبرام الصفقات وترجيح كفة المصالح وهو ما لا يعرفه ولا يتصف به أهل الجنوب، فأهل الجنوب لا يعرفون إلا الوضوح الكامل وعلى مدى قرن ونصف القرن لم يشغلهم إلا رفع راية الجهاد في حماسة، وفي غطرسة رجال اعتبروا أنفسهم الممثلين الوحيدين للإسلام وأن كل مسلمين آخرين خارجون على العقيدة ومنشقون عنها.

على الرغم من ذلك، لم يكن الوهابيون بالتأكيد طائفة مستقلة. فالطائفة الدينية تقتضي وجود تعاليم مستقلة قاصرة على أتباعها. أما في الوهابية لم تكن هناك تعاليم خاصة ـ على العكس: سعت تلك الحركة إلى نبذ كل المدخلات الغريبة والإضافات التي تسللت إلى الفكر الإسلامي عبر قرون طويلة، ودعت إلى العودة إلى جوهر تعاليم الإسلام كما جاء بها الرسول. كان سعي الحركة إلى إجلاء وجه الدين وجوهره من كل ما شابه عبر القرون دون حلول وسطية ولا مساومة، سعياً عظيماً ومحاولة جليلة، وكان من الممكن أن تؤدي تلك الدعوة مع مرور الزمن إلى تحرير الإسلام تحريراً كلياً من كل ما شابه من مدخلات وخرافات أخفت الوجه الحقيقي للإسلام.

وفي الحقيقة، كانت كل الحركات الإسلامية التصحيحية في العصور الحديثة، بدءاً من حركة «أهل الحديث» في الهند، والحركة السنوسية في شمال أفريقيا، وأفكار ودعوة جمال الدين الأفغاني،

وأفكار محمد عبده المصري، كانت كلها حركات تصحيحية تستمد قوتها من قوة الدفع الروحية التي انطلقت في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب.

إلا أن تبني أفكاره الإصلاحية على يد أهل نجد عانى من قصورين أعاقا نموها الطبعي حتى تصبح قوة روحية متنامية.

جاء القصور من ضيق النظر الذي اتسم به اتباع الحركة وسعيهم إلى إجبار الناس على أداء الشعائر الدينية حرفياً وبالأمر، متجاهلين أهمية النفاذ إلى الجوهر الروحي ومحتواه. القصور الثاني يعود كلياً إلى الشخصية العربية ذاتها، وهو تعصب الشخصية العربية وإحساسها بصواب الذات؛ والتي لا تسمع ولا تقبل وجود اختلاف مع الآخر: وهو مركب واضح في الساميين كنقيض عكسي يؤدي إلى التراخي والتحلل من جوانب العقيدة وهو مركب مأسوي لدى العرب يجعلهم دائماً ما يتأرجحون ما بين قطبين ولا يتخذون أبداً طريقاً وسطاً. ففي وقت ما ـ من قرنين على وجه التقريب ـ كان عرب نجد أبعد عن الإسلام من أي شعوب إسلامية أخرى؛ وبعد ظهور محمد بن عبد الوهاب، اعتبروا أنفسهم لا مجرد أبطال وقادة للحركة الإصلاحية، بل أصحاب العقيدة الوحيدين والقيمين عليها.

تسرب الفساد إلى المعنى الروحي للحركة الوهابية ـ وهو الشوق والرغبة في تجديد المجتمع الإسلامي، في اللحظة التي سعت فيها إلى تحقيق أهدافها بالحصول على القوة الاجتماعية والسياسية وكان ذلك عند تأسيس المملكة في نهاية القرن الثامن عشر وامتداد الحركة إلى أغلب أرجاء الجزيرة مع بدايات القرن التاسع عشر. وبمجرد أن أحرز

أتباع محمد بن عبد الوهاب القوة الكافية، تحولت أفكاره إلى مومياوات محنطة: فالروحانيات لا يمكن أن تتحول إلى خادمة للقوة، كما أن القوة لا يمكن أن تصبح خادمة للروح.

إن تاريخ وهابيي نجد هو تاريخ أفكار إصلاحية دينية بزغت في بدايتها على أجنحة الحماسة والرغبة القوية والتطلع ثم سرعان ما ابتلعت في جوف المتظاهرين بالقوة من المتعصبين. فكل القيم تدمر ذاتها بمجرد أن يزول عنها التوق والتشوق والحماسة وتكف أن تكون متواضعة: هاروت! وماروت!

الفصل السادس

أحــلام

أن تكن ضيفاً على أمير عربي كبير فذلك يعني أنك تعامل كصديق وضيف من كل من يتبعونه، من «رجاجيل» وأصحاب المتاجر في عاصمته، بل حتى من قبل بدو الصحراء في منطقة سلطته. ولا يبوح الضيف برغبة إلا وتتحقق له في الحال، طالما يمكن تحقيقها؛ من ساعة إلى أخرى يجد نفسه مشمولاً بدفء الكرم والترحاب والحب الذي يحيطه حتى لو كان في سوق المدينة، والذي لا يقل في دفئه عن المشاعر التي يلقاها في أروقة الحصن وردهاته وقاعاته.

[١]

لقيت المعاملة الكريمة ذاتها في كل زياراتي السابقة لمدينة «حائل»، كما لقيتها في اليومين اللذين قضيتهما هذه المرة ضيفاً على الأمير ابن مسعد أمير مدينة «حائل» والمنطقة الشمالية. إذا رغبت في تناول قهوة سمعت على الفور صوت رنين الهاون الذي تطحن فيه حبوب البن المحمصة لإعداد قهوة طازجة. في الصباح، أحكي لزيد وأنا أحادثه على مسمع من أحد خدم الأمير عن سرج جميل رأيته بالسوق، في

المساء أجد السرج تحت قدمي. يتحفنا الأمير بهداياه كل يوم: قفطان طويل من صوف كشمير، كوفية مزركشة، جلد غنم بغدادي أبيض يوضع على سرج الناقة، خنجر نجدي معقوف بمقبض من الفضة.. وأنا.. المرتحل الذي لا يثقل نفسه بأحمال زائدة، لم أجد لدي ما أهديه للأمير ابن مسعد إلا خريطة مكبرة للجزيرة العربية بالإنجليزية، ترجمت عليها بمشقة أسماء المناطق بالعربية، وأسعدت الهدية الأمير ابن مسعد.

كان كرم الأمير ابن مسعد قريباً من كرم الملك ابن سعود: وهو ما لا أستغربه بأي حال حين أتذكر قرابتهما. لم يكونا فقط أبناء عمومة، بل إنهما اشتركا - منذ أن كان ابن سعود شاباً في مقتبل عمره وابن مسعد في صباه - في مجابهة المصاعب التي قابلتهما معاً، وواجها معاً تقلبات الأحوال والأحلام المبكرة عند بداية تكوين المملكة. وعدا كل ذلك فقد ترسخت عرى علاقتهما بزواج الملك ابن سعود من جوهرة، شقيقة ابن مسعد، وهي السيدة التي كان لها شأن عظيم في حياة الملك ابن سعود أكثر من أي امرأة أخرى ممن تزوجهن قبلها أو بعدها.

وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس حازوا صداقة الملك عبد العزيز بن سعود، فإن قليلاً منهم من حظي بمعرفة تفاصيل حياته الشخصية، وربما كان من بين أشد أموره خصوصية وتميزاً، ذلك الجانب الخاص برجولته وقدراته الفائقة في أمور الحب والنساء، ولو أتيح لذلك الجانب أن يمضي على سجيته فربما كان قد أدى به إلى أبعد كثيراً مما أنجزه في ذلك الجانب. لقد وضعت قيود شديدة حول معرفة العدد غير المحدود من النساء اللاتي تزوجهن وطلقهن حتى إن المتابعين لشؤون الجزيرة

العربية من الأجانب اعتبروا أنه منغمس في الملذات والمتع الحسية، إلا أن قليلين ممن عرفوه عن قرب كانوا يعلمون أن كل زيجة من زيجات ابن سعود ـ باستثناء زواجه من بنات قبائل حليفة لاعتبارات سياسية ـ لم يكن إلا رغبة غامضة لم تتحقق في العثور على بديل لذلك الحب الكبير في حياته والذي فقده وضاع منه بموت جوهرة.

كانت السيدة جوهرة، أم ولديه محمد وخالد هي حبه الكبير؛ وإلى الآن، بعد أن ماتت منذ ثلاثة عشر عاماً، لم يتحدث عنها الملك قط إلا واعترته غصة تبدو في صوته.

لا بد أنها كانت امرأة غير عادية ـ لا مجرد سيدة جميلة (فقد تزوج ابن سعود من جميلات كثيرات في إقباله الدائم على الزواج)، إلا أنها قد وهبت تلك الحكمة النسائية الغريزية النادرة التي تمازج بين متع الروح ومتع البدن. في الغالب لم يكن ابن سعود يترك نفسه للانغماس العميق في المشاعر العاطفية تجاه النساء، ويفسر ذلك سهولة زواجه وسهولة طلاقه لهن. أما مع جوهرة فقد كان يبدو كأنه عثر أخيراً على الإشباع الكامل للروح والبدن ولم يتكرر ذلك الإشباع من بعدها مع أية امرأة أخرى. وبالرغم من أنه كانت له زوجات أخريات أثناء حياتها، فإن مشاعره وكل حبه كان يحتفظ بها لها وحدها مكتملاً كما لو كانت الزوجة الوحيدة له. اعتاد أن يكتب فيها وعنها قصائد حب، وذات مرة، في إحدى اللحظات التي انطلق معي فيها على سجيته، قال لي: «كلما كان العالم مظلماً من حولي لا أتبين منه طريقاً للخروج من المخاطر التي تحيط بي والمصاعب التي تواجهني، كنت أجلس وأكتب إليها قصيدة حب، وحين أنتهي منها، أجد العالم قد أضاء أمامي فجأة، وينكشف أمامي ما يجب علي أن أفعله».

إلا أن جوهرة ماتت أثناء وباء الأنفلونزا الكبير عام ١٩١٩، وأودى الوباء أيضاً بحياة ابن الملك عبد العزيز البكر، وأكثر من أحبهم من أبنائه وهو الأمير تركي، وتركت تلك الخسارة المضاعفة جرحاً لم يندمل أبداً في أعماقه.

لم يكن حبه موجهاً إلى زوجة وابن فقط: فقد أحب أباه حباً نادراً لا تراه إلا في أقل البشر. كان أبوه ـ عبد الرحمن ـ والذي عرفته في أعوامي المبكرة في الرياض، عطوفاً وتقياً، إلا أنه لم يكن بارز الصفات كابنه، كما لم يلعب دوراً متميزاً أثناء حياته. إلا أن ابن سعود بعد أن كوّن المملكة بمجهوده الشخصي وأصبح ملك البلاد بلا منازع، كان يسلك مع أبيه مسلكاً شديد التواضع حتى إنه لم يكن يسمح لنفسه ولا لغيره أبداً أن يضع قدمه في غرفة من القلعة إذا كان أبوه عبد الرحمن في غرفة تحتها، لأنه كما كان يقول: «كيف أسمح لنفسي أو لغيري أن يسير فوق رأس أبي؟».

لم يجلس أبداً في حضرة أبيه إلا إذا سمح له أبوه أن يجلس. ما زلت أذكر المأزق الذي أوقعني فيه تواضع الملك تجاه أبيه في الرياض (أظن أن ذلك كان في ديسمبر ١٩٢٧). كنت في ذلك الوقت في إحدى زياراتي المعتادة لوالد الملك في جناحه بالقلعة الملكية؛ كنا جالسين على حشايا على الأرض، وكان والد الملك يحدثني في موضوع ديني محبب إلى قلبه. فجأة، دخل أحد أفراد الحاشية إلى الغرفة وأعلن: «الشيوخ قادمون»، في اللحظة التالية كان ابن سعود يقف بالباب. بالطبع، أردت النهوض وهممت به، إلا أن الرجل الكبير أمسك معصمي ومنعني من النهوض، كما لو كان يفهمني أنني ضيفه. وأصابني

حرج شديد لا تعبر عنه الكلمات لبقائي جالساً، بينما كان الملك، بعد أن حيا أباه، واقفاً بالباب، كان من الواضح أنه ينتظر إذناً من أبيه لدخول الغرفة؛ ويبدو أنه قد اعتاد ذلك من أبيه، لأنه قد غمز لي بعينه وشبه ابتسامة على وجهه حتى يزيل عني الحرج. في الوقت ذاته، استمر العجوز في تفسيره وشرحه، كما لو لم تكن هناك أي مقاطعة لحديثه. وبعد بضع دقائق رفع بصره، وأومأ لابنه قائلاً: «أدخل يا بني واجلس». كان الملك في ذلك الوقت في السابعة أو الثامنة والأربعين من عمره.

بعد ذلك بعدة أشهر ـ وكنا بمكة في ذلك الوقت ـ جاءت الأخبار للملك بأن أباه قد توفاه الله في الرياض. لن أنسى ما حييت تلك النظرة المحدقة دون استيعاب أو فهم، ظل على ذلك بضع ثوان متطلعاً إلى من أبلغه، ثم راحت إمارات اليأس تغزو ملامحه ببطء، ذلك الوجه الذي اعتدنا أن نراه هادئاً جليلاً، ثم قفز من مجلسه وهو يصيح بصوت عال: «مات أبي»، وبخطوات واسعة جرى خارج الغرفة جاراً عباءته على الأرض من خلفه، ثم ركض على السلالم والحرس يجرون من خلفه وهو لا يدري إلى أين يمضي، أو لماذا يمضي، ظل يصيح: «مات أبي، مات أبي»، وعلى مدى يومين بعد ذلك رفض أن يقابل أي إنسان، لم يتناول فيهما طعاماً ولا شراباً وقضى النهار والليل في صلاة متصلة.

كم من الأبناء في منتصف أعمارهم، وكم من الملوك الذين كوّنوا ممالكهم بمجهودهم وقدراتهم قد حزنوا ذلك الحزن لوفاة الأب، مع أنه مات ميتة الشيخوخة الهادئة؟

[٢]

كوّن عبد العزيز بن سعود مملكته الواسعة الأرجاء بمجهوداته الشخصية تماماً. حين كان طفلاً، كانت أسرته قد فقدت آخر مظاهر قوتها في مركز الجزيرة العربية على يدي من كانوا حلفاء وتابعين لهم في يوم من الأيام وهم عائلة ابن رشيد الذين حكموا منطقة حائل. كانت تلك الأيام مريرة على عبد العزيز؛ فقد شهد الفتى الفخور والمتحفظ أميراً من خارج أسرته يحكم مدينة الرياض، مدينة آبائه وأجداده وهو الأمير ابن رشيد وأصبحت عائلة ابن سعود التي كانت تحكم ذات يوم كل الجزيرة العربية على وجه التقريب معزولة عن الحكم على أيدي ابن رشيد الذي لم يعد يخشاهم. وفي نهاية المطاف أصبح ذلك عبئاً لا يطاق على أبيه عبد الرحمن المحب للسلام؛ فغادر الرياض هو وكل عائلته، آملاً أن يقضي ما تبقى من عمره في بيت صديقه القديم حاكم الكويت، إلا أنه لم يكن يعلم ما تخبئه الأقدار؛ لأنه لم يكن يعلم ما بقلب ابنه عبد العزيز.

من بين جميع أفراد العائلة لم تكن هناك إلا واحدة تشعر بما يحتويه ذلك القلب الجياش: كانت عمته، الأخت الصغرى لأبيه، لم أعرف عنها الكثير، كل ما عرفته أن الملك كان يتحدث إليها بتأثر شديد كلما تحدث عن أيام شبابه المبكر، كان يقول: «أحبتني ربما أكثر مما أحبت أبناءها، وحين كنا نجلس بمفردنا، كانت تجلسني في حجرها وتحكي لي عن الأشياء العظيمة التي لا بد لي أن أفعلها حين أكبر، كانت تقول لي: لا بد أن تستعيد عظمة بيت آل سعود، تخبرني بذلك مرة بعد مرة،

وتبدو أقوالها لي كأنها مداعبة: ولكن أحب أن أؤكد لك يا عُزيِّز[1] أن استعادة مجد آل سعود ليس نهاية المطاف؛ إذ لا بد أيضاً أن تستعيد مجد الإسلام، الناس تحتاج من يقودهم على طريق الرسول الكريم، وستكون أنت ذلك القائد، وظلت أقوالها حية في قلبي».

هل ظلت أقوالها بالفعل حية في قلبه؟

كان ابن سعود طول حياته بأجمعها يحب الحديث عن الإسلام وكأنها رسالة أوكلت إليه، وحتى في الأيام الأخيرة، حين بدا أن القوة الملكية أصبحت تفوق في الأهمية البطولات السابقة في سبيل المثاليات، نجحت فصاحته ودقة بيانه في إقناع كثير من الناس ـ وربما هو ذاته ـ أن تلك المثاليات الإسلامية هي أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها.

كانت الأوقات التي يستعيد فيها ذكريات الطفولة والصبا غالباً ما تحدث خلال جلوسه مع المقربين من الأصدقاء في الرياض، وكان ذلك يحدث عادة بعد صلاة العشاء. فبمجرد أن ينتهي المصلون من أداء صلاة العشاء في مسجد القلعة. نجتمع حول الملك في إحدى الغرف لنستمع على مدى ساعة إلى أحداث من سيرة الرسول أو تفسير لآيات القرآن. بعد ذلك يصطفي الملك اثنين أو ثلاثة من خلصائه ليجالسوه في جناحه الخاص.

أتذكر ذات ليلة، حين كنا نغادر الغرفة التي كنا نجلس بها بعد صلاة العشاء، أدهشني من جديد الطول الفارع للملك الذي فاق كثيراً

---

(١) اسم تدليل لعبد العزيز. (المترجم).

كل من حوله. واعتقد أنه قد لمح اهتمامي ودهشتي ونظرة الإعجاب التي لم أتمكن من إخفائها، فقد رأيته يبتسم ابتسامة هينة ساحرة لا يمكن وصفها وأمسك بيدي وسألني: «لماذا تنظر إليّ هكذا يا محمد؟».

قلت له: «كنت أفكر، أطال الله عمرك، أنه لا يمكن أن يخطئ أحد في تمييز الملك وهو بين حشد من الناس فرأس الملك يكون فوق كل الرؤوس في أي زحام».

ضحك ابن سعود، وهو ما زال ممسكاً بيدي متقدماً ببطء عبر الردهة، وقال: «نعم، من المبهج أن أكون بهذا الطول، إلا أنه جاء عليّ وقت لم يكن فيه ذلك الطول إلا سبباً من أسباب شقائي. كان ذلك من أعوام طويلة مضت حين كنت صبياً وكنت أعيش وقتها في قلعة الشيخ مبارك، بل حتى المنتمين إلى عائلتنا.. يتخذونني هدفاً لسخريتهم وفكاهتهم، كأنني فلتة أو أعجوبة، وقد سبب لي ذلك ضيقاً شديداً، حتى ظننت أحياناً أنني غير طبيعي. كنت خجولاً من طول قامتي المفرط حتى إنني كنت أحاول أن أخفض رأسي وعنقي بين كتفي لأقصر من قامتي حين كنت أسير عبر أرجاء القصر أو في شوارع الكويت».

كنا قد وصلنا إلى جناح الملك. وكان ابنه الأكبر الأمير سعود ـ ولي العهد ـ بانتظار أبيه هناك. كان في مثل عمري، وبالرغم من أنه لم يكن في طول أبيه إلا أنه كان أكثر تجهماً، كما لم يكن له صفات أبيه من حيوية فائقة ودفء المعاملة وحميمية المودة. إلا أنه كان عطوفاً محبوباً من شعبه.

جلس الملك على حشية من الحشايا المتناثرة على امتداد الغرفة وأشار لنا بالجلوس، ثم أمر: «قهوة» فراح النداء يتردد عبر الممرات في تتابع سريع، نداء بعد آخر: «قهوة»، «قهوة»، حتى يصل إلى مطبخ إعداد قهوة الملك على بعد بضع غرف من مكاننا: في لحظات يظهر أحد أفراد الحاشية وخنجره الذهبي في منطقته وإبريق القهوة النحاس في يد وأقداح القهوة الصغيرة باليد الأخرى. يقدم القدح الأول إلى الملك ثم يوزع باقي الأقداح على الحاضرين بترتيب جلوسهم بعد الملك. في مثل تلك الجلسات غير الرسمية، يتحدث ابن سعود على سجيته عن كل ما وقع له أو صادفه ـ أو عن وقائع وأحداث وقعت في دول أخرى من العالم، عن اختراع جديد وصلت أخباره إلى مسامعه، عن شعوب وعادات وهيئات، وفوق كل ذلك، كان يتحدث عن خبراته وتجاربه الشخصية، ويشجع الحضور على المساهمة في الحديث أو الحوار الدائر. في ذلك المساء، بدأ الأمير سعود في إدارة دفة الحديث حين استدار إلي ضاحكاً وهو يقول: «أحد من الناس، قال لي اليوم إنه يشك في أمرك يا محمد. قال إنه ليس متيقناً على الإطلاق إن كنت جاسوساً إنجليزياً يدّعي الإسلام.. ولكن لا تنزعج؛ فقد أكدت له أنك مسلم قولاً وفعلاً».

لم أتمكن من إخفاء عبوسي، وأجبته: «هذا كرم كبير منك يا أمير، أطال الله عمرك، ولكن من أين لك بذلك اليقين؟ ألا يعلم الله وحده ما تخفي الصدور؟».

رد الأمير: «هذا حقيقي، إلا أنني لدي بصيرة خاصة؛ فقد رأيت حلماً في الأسبوع الماضي وهبني تلك البصيرة فيما يخصك... كنت

أقف في ذلك الحلم أمام مسجد وأنا أنظر إلى المئذنة، وفجأة ظهر رجل في شرفة المئذنة، كور كفيه حول فمه وراح يرفع الأذان: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله - وحين دققت النظر، وجدت أن المؤذن هو أنت. حين استيقظت، تأكدت على وجه اليقين - على الرغم من أنني لم أشك في ذلك قط - أنك مسلم حقيقي. فحلم يعلو فيه اسم الله لا يمكن أن يكون هراءً».

تأثرت بشدة بذلك التأكيد من ابن الملك، وبإيماءة الملك الراضية تصديقاً على كلام ابنه الأمير، ثم التقط الملك طرف الحديث وعلق قائلاً: «كثيراً ما ينير الله بالفعل قلوبنا خلال الأحلام لينبئنا أحياناً بما يمكن أن يواجهنا في الأيام القادمة وأحياناً ينير لنا ما غمض أمامنا من حاضر. ألم يمر بك شيء مشابه يا محمد؟».

قلت: «بالفعل حدث لي ذلك يا إمام، من زمن طويل مضى، زمن يسبق كثيراً أي فكرة لي عن اعتناق الإسلام - وحتى قبل أن أضع قدمي في أي دولة إسلامية. كنت في ذلك الوقت قد بلغت التاسعة عشرة من عمري أو نحو ذلك، وكنت ما زلت أعيش بمنزل أسرتي بمدينة «فيينا». وكنت شديد الولع بعلم حياة الإنسان الداخلية (كان ذلك أقرب تعريف للتحليل النفسي يمكنني أن أذكره للملك) لذلك حرصت على الاحتفاظ بأوراق وقلم بجوار فراشي حتى أتمكن من تدوين ما أتذكره من أحلام بمجرد تيقظي من النوم. وبتلك الوسيلة كنت أدون الأحلام ليس بدقة كاملة بالطبع ولكن بطريقة تحفظها من النسيان بعد ذلك. في ذلك الحلم الذي رأيته، وجدت نفسي في «برلين» متنقلاً في قطار الأنفاق الذي يستعملونه هناك - كان القطار يمضي أحياناً في أنفاق تحت الأرض، وأحياناً فوق قناطر عالية فوق سطح الأرض.

وازدحمت العربة التي كنت بها بحشد كبير من البشر ـ كانوا كثيرين حتى إنه تعذر عليّ أن أجد مقعداً أجلس عليه، وكلهم وقوف متلاصقون، دون أن أجد حتى مسافة أو فُرجة صغيرة للحركة؛ ولم يكن هناك ضوء إلا ضوء شاحب خافت ينبعث من مصباح كهربي ضعيف بالعربة. بعد فترة خرج القطار من النفق الذي كان به، إلا أنه لم يسر على واحدة من تلك القناطر العالية، فقد رأيته يسير في واد مهجور منعزل هائل الاتساع، إلا أنه واد من الطين غير ذي زرع، فانغرست عجلات القطار في ذلك الطين حتى إنه عجز عن السير، لا للأمام ولا للخلف.

«نزل كل المسافرين، وأنا منهم، من العربة وبدأنا في التطلع حولنا. بدا الوادي من حولنا بلا نهاية، خاوياً وقاحلاً بلا نبتة عشب، ولا بيت ولا حتى حجر ـ أصابت الناس حيرة وارتباك: فقد أصبحنا جميعاً معزولين في ذلك المكان، فكيف نجد سبيلاً إلى العودة حيث يحيا الناس؟ ظهر ضوء شفق فوق الوادي الهائل الاتساع، كما لو كان تباشير ضوء فجر.

«إلا أنني لم أجد بنفسي حيرة ولا ارتباكاً، فقد شققت طريقي مبتعداً عن ذلك التجمع البشري، ولدهشتي، وعلى مسافة عشر خطوات تقريباً، كانت هناك ناقة جاثمة على الأرض، بسرجها ولجامها ـ بالطريقة ذاتها التي رأيت الجمال تسرج بها هنا يا إمام ـ وعلى السرج كان يجلس رجل يضع عباءة مخططة باللونين، الأبيض والبني وأكمامها قصيرة. وكانت كوفيته تخفي وجهه حتى إنني لم أميز ملامحه. ملأني يقين أن تلك الناقة المباركة كانت بانتظاري، وأن راكبها الذي لم تصدر عنه

حركة هو دليلي ومرشدي؛ وهكذا، دون كلمة واحدة اعتليت ظهر الناقة خلفه مثلما يركب الرديف هنا في الجزيرة. في لحظة، نهضت الناقة وانطلقت في خطوات خفيفة واسعة سريعة، أحسست بسعادة لا يمكن أن أصفها بالكلمات تشيع داخلي. رحلنا بتلك الخطوات السريعة الخفيفة للناقة لزمن بدا لي كأنه ساعات، ثم أيام، ثم أشهر، حتى فقدت أي إحساس بالزمن، مع كل خطوة من خطوات الناقة كانت سعادتي تزداد وتتوهج، واستمر ذلك حتى شعرت كأنني أهيم في الهواء. في النهاية، بدأ الأفق على يميننا في التوهج كما يتوهج الأفق قبل شروق الشمس. إلا أنني رأيت في الأفق البعيد ضوءاً آخر: كان ذلك الضوء يأتي من خلف بوابة ضخمة قائمة على عمودين ـ كان نور أبيض مبهر لا يشبه ضوء الشمس المشرقة التي كانت على يميننا ـ كان نوراً بلا حرارة يزداد تألقاً كلما اقتربنا منه ومن البوابة وأشاع بين جوانحي سعادة تفوق أي سعادة يمكن للكلمات أن تصفها. وكلما اقتربنا من البوابة ونورها، أسمع صوتاً من مكان ما يعلن: «هذه آخر مدينة بالغرب» ـ ثم استيقظت».

تعجب الملك ابن سعود قائلاً: «يا سبحان الله، ألم يعن ذلك الحلم أن الله سيهديك إلى نور الإسلام؟».

هززت رأسي بالنفي: «لا، أطال الله عمرك، فكيف لي أن أعرف ذلك؟ لم يرد الإسلام على ذهني قبل ذلك، ولم ألتق حتى ذلك اليوم بأي مسلم.. بعد ذلك بسبعة أعوام، وكنت قد نسيت ذلك الحلم من زمن طويل، اعتنقت الإسلام. لم أتذكر ذلك الحلم إلا مؤخراً حين وجدت الأوراق التي سجلت عليها الحلم في حينه، كنت قد سجلته وقتها كما رأيته بتفاصيله في منامي بمجرد أن استيقظت».

قال الملك: «هي نعمة أظهرها الله لك في الحلم يا بني! ألم تتبين ذلك بوضوح؟ ذلك الحشد من البشر وأنت بينهم، متجهين إلى وجهة ليس فيها إلا الضياع بلا مخرج، وتنتابهم حيرة: ألا يرمز أولئك الناس في حيرتهم إلى ما ذكرته سورة الفاتحة من القرآن في كلمة «الضالين»؟ وتلك الناقة وراكبها اللذان كانا ينتظرانك: ألا يقابل ذلك ما ذكرته السورة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ والذي ذكرت بمواضع كثيرة من القرآن؟ وراكب الناقة الذي لم يتحدث إليك ولم تتمكن من رؤية ملامح وجهه: من يمكن أن يكون ذلك الراكب غير الرسول(ص)؟ لقد كان يحب أن يلبس جلباباً قصير الأكمام. . . ألم تذكر كتب السنة أن ظهوره في الحلم لغير مسلم، أو لأولئك الذين لم يسلموا بعد، يكون وجهه دائماً غير ظاهر؟ وذلك النور الباهر بلا حرارة الذي ظهر في الأفق: ماذا يمكن أن يكون غير وعد بنور الإيمان الذي يضيء دون أن يحرق؟ ولم تصل إلى ذلك النور في الحلم لأنك كما قلت لم تهتد إلى الإسلام إلا بعد ذلك بأعوام. . .».

قلت: «قد يكون الأمر كذلك يا طويل العمر. . . ولكن، ما المقصود بأقصى مدينة في الغرب والتي كانت البوابة عند الأفق تؤدي إليها؟ فبالرغم من أي شيء لم يقدني اهتدائي إلى الإسلام إلى الغرب: بل على العكس قادني بعيداً عن الغرب».

أطرق ابن سعود في صمت وراح يفكر، ثم رفع رأسه ووجهه تعلوه تلك الابتسامة الحلوة التي أحبها، وقال: «ألا يعني ذلك يا محمد أن اهتداءك للإسلام قد يكون أقصى نقطة في الغرب من حياتك، وأنها ستكف أن تكون حياتك بعد ذلك؟».

بعد برهة تحدث الملك من جديد: «لا يعلم الغيب إلا الله. إلا أن الله يشاء في بعض الأحوال أن يهبنا رؤية، لمحة مما يمكن أن يحدث في المستقبل. أنا نفسي قد رأيت مثل تلك الرؤى مرتين أو ثلاثاً، وقد تحقق ما رأيته بالفعل. واحدة من تلك الرؤى جعلتني ما أنا عليه الآن.. كنت في السابعة عشرة من عمري في ذلك الحين، كنا نحيا كمنفيين بالكويت، إلا أنني لم أكن أحتمل أن يحكم ابن رشيد أرض موطني. كنت ألح على أبي - رحمه الله - وأترجاه «فلنحارب يا أبي لنطرد ابن رشيد من أرضنا، لا يوجد من هو أحق بعرش الرياض منك، إلا أن أبي كان يتغاضى عن طلباتي العاصفة وكأنها حماسات خيالية، ويذكرني أن ابن رشيد الآن أقوى حاكم في الجزيرة، وأنه يفرض سيطرته على مملكة تمتد من صحراء سوريا في الشمال، حتى صحراء الربع الخالي في الجنوب، وأن كل البدو يخشونه ويخشون بطشه.

وفي ليلة رأيت رؤيا غريبة. رأيت نفسي على صهوة جواد في أرض جرداء في ظلام دامس، ورأيت محمد بن رشيد على صهوة جواد آخر، لم يكن أي منا مسلحاً، إلا أن ابن رشيد كان يحمل بيده مصباحاً منيراً ويرفعه عالياً. حين رآني أقترب منه، رأيت العداوة في نظراته واستدار بجواده ولكزه وانطلق به؛ إلا أنني طاردته، حتى قبضت على عباءته من كتفه، ثم أطبقت على ذراعه وانتزعت المصباح من يده - ونفخت فيه وأطفأته. حين استيقظت، تأكدت على وجه اليقين أن الله قد قدر لي أن أستعيد الحكم من بيت ابن رشيد...

* * *

في السنة التي رأى فيها عبد العزيز ذلك الحلم، وكان ذلك عام

١٨٩٧، مات محمد بن رشيد. وبدا ذلك في نظر ابن سعود لحظة مواتية للهجوم، إلا أن أباه عبد الرحمن، لم يكن يميل إلى المخاطرة بالحياة الآمنة التي يحياها بالكويت، ويخرج للقيام بمهمة مشكوك في نتائجها، إلا أن إصرار الابن وحماسته غلبا تحفظ الأب، وفي النهاية استسلم الأب. وبمساعدة صديقه الشيخ مبارك حاكم الكويت، جمع بعض قبائل البدو التي كانت ما زالت على إخلاصها وولائها لعائلة ابن سعود، وهاجموا قوات ابن رشيد بالطريقة التقليدية العربية، معركة بالخيالة وراكبي الجمال وحاملي الرايات والبيارق، وحسمت بسهولة نظراً لقوة جيش ابن رشيد مقارنة بقوات ابن سعود المحدودة وعاد بعدها أبوه إلى الكويت وقد أراحه ذلك أكثر مما سبب له من ضيق، وقد قرر ألا يعكر صفو شيخوخته بمغامرات حربية جديدة إلا أن الابن لم يستسلم بالسهولة نفسها. كان دائماً ما يتذكر الرؤية التي رآها في المنام والتي انتصر فيها على ابن رشيد؛ وحين جدد الأب دعواه بحقه في عرش نجد، كانت تلك الرؤية ما حثت الشاب عبد العزيز على أن يأخذ على عاتقه تلك المهمة الخطيرة. ارتبط بعلاقة قوية مع مجموعة من الأصدقاء الشباب ـ كان من بينهم أبناء عمومته عبد الله بن جلوي وابن مسعد وجمعوا معهم بعض المغامرين من البدو، حتى بلغ عدد فصيلهم أربعين رجلاً.

انطلقوا خارجين من الكويت خلسة، دون بيارق ولا طبول أو أغاني حرب حماسية؛ وتجنبوا السير على طرق القوافل، يختبئون نهاراً ويسيرون ليلاً، حتى وصلوا مشارف الرياض ونزلوا بوادٍ مهجور. في اليوم نفسه، انتقى عبد العزيز خمسة رفاق من الأربعين رجلاً، وخاطب الباقين قائلاً: «نحن الستة سنضع أرواحنا اليوم بين يدي الله. سنتوجه

إلى الرياض ـ لنغزوها أو لنفقدها إلى الأبد. إن سمعتم أصوات قتال تأتيكم من المدينة، انهضوا مسرعين لمعاونتنا، أما إذا لم يصلكم أي شيء حتى غروب شمس الغد فاعلموا أنّا قد متنا، وليرحمنا الله. إن حدث ذلك، عليكم بالعودة من حيث جئنا سراً وبأقصى سرعة إلى الكويت».

وانطلق الرجال الستة سيراً على الأقدام. عند حلول الظلام وصلوا مدينة الرياض ودخلوها من جانب مهدم من أسوارها كان قد هدمه محمد بن رشيد قبل ذلك بأعوام ليذل به أهلها كلما رأوا أسوار مدينتهم منهارة. ذهبوا وهم يخفون أسلحتهم تحت عباءاتهم رأساً إلى بيت الأمير. كان البيت مغلقاً فقد كان الأمير يخشى على حياته من أهل الرياض، وكان اعتاد أن يقضي لياليه في القلعة المقابلة للمنزل. دق عبد العزيز ورفاقه الباب، فتح لهم عبد، تغلبوا عليه في لمح البصر وأوثقوه وكمموا فمه؛ وقاموا بنفس الأمر مع من كانوا بالمنزل ـ وكانوا في تلك الساعة بضعة خدم وامرأة. وتناول المغامرون الستة بعض التمر من خزين الأمير وقضوا ليلتهم يقرأون القرآن بالتناوب.

في الصباح، فتحت أبواب القلعة، وخرج الأمير من بابها، يحيط به الحراس والعبيد. صاح عبد العزيز: «يا الله، بيدك روح ابن سعود» وهجم هو ورفاقه الخمسة بسيوفهم المجردة من أغمادها على عدوهم المأخوذ. قذف عبد الله بن جلوي رمحه بقوة على الأمير، إلا أنه تنحى في الثانية الأخيرة فأخطأه الرمح ورشق في الجدار الطيني للقلعة وعوده يتذبذب ويئز ـ ما زال الرمح مرشوقاً بموضعه حتى اليوم ـ وتقهقر الأمير في خوف وفزع إلى داخل القلعة بينما طارده عبد الله بمفرده. وهاجم

عبد العزيز والأربعة رجال الذين معه حرس الأمير، الذين كانوا مأخوذين رغم تفوقهم في العدد من هول المفاجأة التي أربكتهم. بعد لحظات ظهر الأمير على سطح القلعة وكان عبد الله بن جلوي يحاصره ويسد عليه مسالك الهرب، وراح يطلب الرحمة التي لم تكن مضمونة ولا مطلوبة في تلك اللحظات العصيبة، وحين تقهقر حتى سور السطح وسقط عليه تلقى طعنة سيف قاتلة، وصاح عبد العزيز بأعلى صوته من أسفل، «هلموا يا رجال الرياض، ها أنذا، عبد العزيز، ابن عبد الرحمن آل سعود، حاكمكم الشرعي» فهرع أهل الرياض يحملون سلاحهم لنصرة رجلهم، وأقبل رفاقه من خارج المدينة في هجوم صاعق وهم على جمالهم من أبواب المدينة وتغلبوا على كل ما واجههم من مقاومة كالريح العاصف. خلال ساعة، كان عبد العزيز قد أصبح حاكم مدينة الرياض بلا منازع.

كان ذلك عام ١٩٠١، كان عمره آنذاك واحداً وعشرين عاماً. أنهى مرحلة شبابه ودخل المرحلة الثانية من حياته، مرحلة الرجل الناضج، والحاكم.

خطوة بعد أخرى، ومنطقة بعد منطقة استعاد ابن سعود كل نجد من آل رشيد، ودفعهم إلى التقهقر والعودة إلى ديارهم في جبل شمار وإلى عاصمتهم في حائل. كان ذلك التمدد واسترداد الأرض يتم كما لو كان تحت تخطيط وإشراف مجموعة من قادة وهيئة حربية متمرسة بالخرائط وتخطيط المعارك والاتصالات وتوفير المؤن وتأمين الطرق ووعي بمفاهيم الجغرافيا السياسية ـ بالرغم من أن ابن سعود لم تكن لديه القيادات المؤهلة ولم تقع عيناه على خريطة من قبل ـ كانت غزواته تتم

في نطاقات حلزونية مركزها الثابت مدينة الرياض، لم يتخذ أبداً قراراً بالهجوم على مدينة أو منطقة إلا إذا كانت المناطق التي سبق غزوها مؤمنة تماماً وتحت سيطرة كاملة من قواته. في البداية اتجه إلى ما يلي الرياض من الشرق والشمال، ثم مد نفوذه إلى المناطق الغربية من الرياض. كان زحفه إلى الشمال بطيئاً، فقد كان ابن رشيد ما زال يمتلك قوات لا يستهان بها كما كان مدعوماً من الأتراك الذين تحالفوا معه من عقود سابقة. كما أعاق ابن سعود فقره: فلم تكن المنطقة الجنوبية من نجد تدر عليه ما يكفي من عوائد لتمويل قوات كبيرة من المقاتلين لمدى زمني طويل.

أخبرني ابن سعود ذات مرة: «في يوم من الأيام كنت فقيراً إلى درجة دفعتني إلى رهن سيوف مرصعة بأحجار كريمة كان قد أهداها إليَّ الشيخ مبارك حاكم الكويت ـ رهنتها لدى مرابٍ يهودي بالكويت. لم يكن بإمكاني أن أوفر غطاءً على سرج جملي ـ فوضعت بدلاً عنه أجولة فارغة من التي توضع تحت قرب الماء على الجمال».

كانت هناك مشكلة أخرى جعلت الأمر في غاية المشقة والعسر على ابن سعود: وهي مشكلة قبائل البدو.

فعلى الرغم من المدن والقرى الموجودة بالمنطقة المركزية فإن أغلب سكانها كانوا قبائل بدوية. وكان موقفهم الذي يتخذونه مع عبد العزيز أو ضده يحدد بشكل كبير نتائج المعارك بينه وبين ابن رشيد.

كان البدو متقلبين ويبدلون مواقفهم بسهولة طبقاً لما يرونه من رجحان كفة طرف على آخر في أي لحظة، أو يوالون من يتوسمون أنه سيهبهم غنائم أكثر. وكان منهم فيصل الداويش، زعيم قبائل مطير،

الذي كان انحيازه إلى أحد الجانبين يرجح كفته على الآخر. كان يذهب إلى حائل ويمضي من عندهم محملاً بالهدايا والهبات، وفي أوقات أخرى يدير ظهره لابن رشيد ويفد على الرياض ويقسم يمين الولاء لابن سعود ـ ليخونه بعد شهر، لم يكن مخلصاً لأحد، كان شجاعاً وجشعاً ويتملكه طمع وتطلع هائل للقوة والسلطة، وكثير ما كانت مواقفه سبباً في ليالٍ كثيرة قضاها ابن سعود بعيون مسهدة جفاها النوم.

بينما كان ابن سعود محاصراً بكل تلك المشاكل، واتته فكرة بدا الغرض منها في البداية وكأنه غرض سياسي، إلا أنها تطورت ونمت وتحولت إلى فكرة عظيمة تبين أنها من الممكن أن تغير وجه كل الجزيرة العربية: كانت الخطة تهدف إلى تسكين القبائل المرتحلة المتنقلة. كان من الواضح أن مجرد تسكين تلك القبائل في أماكن ثابتة لن يكون متاحاً لها اللعب على الجانبين المتحاربين. أما حياتهم كقبائل مرتحلة فقد كانت تجعل من السهل عليهم في أي لحظة حل خيامهم في وقت قصير ويرحلون بقطعان أغنامهم وإبلهم جيئة وذهاباً، من جانب إلى جانب مضاد، والعودة متى غيروا رأيهم، أما إذا استقروا فإن لجوءهم إلى نقل ولائهم إلى جانب آخر سيهددهم بفقد ممتلكاتهم المستقرة من منازل وقطعان إبل وأغنام: ولا يوجد ما هو أعز وأغلى على البدوي من ممتلكاته.

جعل ابن سعود من مسألة استقرار البدو من أهم نقاط برنامجه. وقد دعم هذا الاتجاه ما تنص عليه تعاليم الإسلام، التي كانت تعلي من شأن المستقر على المرتحل. وأرسل الملك معلمين من المشايخ ليغرسوا تلك القيمة في نفوس البدو ويلقنونهم تعاليم الإسلام الصحيحة

ولم يكن يتوقع نجاحاً كبيراً. كان تنظيم الإخوان ـ وهو الاسم الذي أطلقه البدو الذين أخذوا في الاستقرار على أنفسهم ـ قد بدأ يتخذ شكلاً وكان أول شكل مستقر للإخوان مكون من علوا ـ مطير، وهي القبائل التي ينتمي إليها الداويش؛ أما المنطقة التي استقروا بها وهي منطقة الأرطاوية، فقد نمت خلال بضع سنوات وتحولت إلى مدينة بلغ عدد سكانها من البدو ثلاثين ألفاً، ثم تبعتهم قبائل أخرى من البدو في الاستقرار.

تحول الحماس الديني للإخوان وميلهم لخوض الحروب إلى قوة جديدة في يد ابن سعود، وبدأت حروبه من ذلك الوقت تكتسب شكلاً جديداً: اكتسبت وجه الحماس الديني الذي يخوض المعارك لا من أجل مكاسب دنيوية بل من أجل إعلاء شأن العقيدة. أما بالنسبة للإخوان، فقد كانت الولادة الجديدة للإيمان تحتوي على الأقل على مضمون أشمل من المضامين الشخصية الذاتية. كانوا يلتزمون بالعقيدة وتعاليمها بلا تهاون أو تحريف ملتزمين بالتعاليم الإصلاحية للمصلح الديني محمد بن عبد الوهاب التي أعلنها في القرن الثامن عشر (كان يستهدف منها استعادة الوجه الحقيقي للإسلام في نقائه الأول «ونبذ» كل البدع التي أدخلت إليه على مدى العصور)، كان الإخوان بلا أدنى شك يمتلئون حماساً يغذيه إحساس مبالغ فيه بأنهم يمثلون الوجه الصحيح والوحيد للإسلام؛ وما تاقوا إليه أكثر من أي شيء آخر لم يكن الحق المطلق بقدر ما كان تأسيس مجتمع جديد يتسم بالعدل، ويمكن أن يسمى بحق مجتمعاً إسلامياً.

حقيقة، كانت مفاهيم أغلبهم مفاهيم بدائية، وكان حماسهم يتسم

بالتعصب الزائد؛ ولو تم تعليمهم وإرشادهم بشكل أفضل مع إيمانهم الديني العميق لكان ذلك قد خلق منهم نواة أصلية وحقيقية واجتماعية وروحية لبعث جديد لكل الجزيرة العربية.

ولسوء الحظ، لم يتمكن ابن سعود من التقاط تلك الرؤية وما يمكن أن يترتب عليها من فوائد وظل قانعاً وراضياً بما هم عليه من مظاهر بدائية وفهم سطحي للدين وابتعادهم عن المعارف الدنيوية - في الحقيقة، لم يفعل لهم إلا ما وجده بالكاد ضرورياً للحفاظ على حماسهم الديني. وبعبارة أخرى، لم ير ابن سعود في حركة الإخوان إلا قوة في يد السلطة. وفي الأعوام الأخيرة قدر لهذا القصور أن ينقلب ويصبح قوة مضادة تهدد المملكة التي شيدها بجهده، وخلق ذلك أول انطباع مبكر بنقص العبقرية الداخلية التي توقع شعبه أن يتصف بها، إلا أن خيبة أمل الإخوان في ملكهم وخيبة أمل الملك في الإخوان فقد نتجت عن عدم فهم متبادل من زمن طويل...

في عام ١٩١٣، وبتلك القوة الضاربة للإخوان تحت إمرة الملك، وجد ابن سعود أنه قد أصبح قوياً بما يمكنه من استعادة منطقة «الحسا» على الخليج الفارسي، والتي كانت تابعة لنجد، إلا أن الأتراك كانوا قد احتلوها قبل ذلك بخمسين عاماً.

لم تكن محاربة الأتراك بالأمر الجديد على ابن سعود؛ فقد واجه قبل ذلك فصائل المدفعية التركية التي كانت تدعم ابن رشيد، إلا أن الهجوم على «الحسا»، التي كانت تحت السيطرة التركية المباشرة، كان يحمل وجهاً مختلفاً: سيضعه مثل ذلك الهجوم في صدام مباشر مع قوة عظمى. لم يكن أمام ابن سعود اختيارات أخرى. فإن لم يسترد منطقة

الحسا بموانيها، ستظل صلاته بالعالم الخارجي مقطوعة، ولن يتمكن من الحصول على احتياجاته الأساسية من السلاح، والذخيرة وضرورات الحياة اللازمة لأي جيش. برر الاحتياج مواجهة ذلك الخطر الكبير؛ ولكن المخاطرة كانت جسيمة، خاصة، إذا ترتب عليها الانغماس في حروب مباشرة ضد الأتراك، وتردد ابن سعود كثيراً قبل أن يتخذ قرار مهاجمة «الحسا» وعاصمتها، مدينة «الهفوف». حتى اليوم ما زال الملك مغرماً بإعادة سرد الظروف التي اتخذ في ظلها قرار مهاجمة الأتراك في «الحسا» لانتزاعها منهم: يروي الملك:

«كنا قد أصبحنا على مشارف الهفوف. من فوق التل الذي كنا عليه كنت أرى أسوار القلعة الحصينة التي تشرف على مدينة الهفوف. كانت الحيرة تملأ قلبي في الموازنة بين المكاسب والمخاطر التي قد تنجم عن مهاجمة الهفوف. أحسست بالتعب، واشتقت للهدوء والأمان وإلى بيتي، وحين ورد البيت على ذهني، طاف بخيالي وجه زوجتي جوهرة، وراحت تتوارد إلى ذهني القصائد الشعرية التي يمكن أن أقولها لها لو كانت بجانبي في تلك اللحظة.. وقبل أن أنتبه من ذلك، وجدت نفسي مستغرقاً في تأليف قصيدة شعرية لها، نسيت تماماً أين أنا كما نسيت القرار الخطير الذي أتردد في اتخاذه، وبمجرد أن اكتملت القصيدة في ذهني كتبتها، وضعتها في مغلف، وأمرت أحد حملة الرسائل: «خذ أسرع ناقتين لديكم، واذهب إلى الرياض دون توقف وسلم هذه لأم محمد» وفي الوقت الذي كاد فيه الرسول أن يختفي في زوبعة الرمال المثارة من انطلاق الناقتين، وجدت نفسي فجأة أتخذ قرار الحرب الذي كنت متردداً في اختياره: سأهاجم الهفوف، وسيكتب الله النصر لي».

ثبت أن ثقته كانت في موضعها؛ فقد كان الهجوم جريئاً، اجتاح مقاتلوه القلعة، واستسلمت القوات التركية، وسمح لهم الملك بالانسحاب بأسلحتهم ومعداتهم إلى الساحل؛ حيث رحلوا بالبحر إلى البصرة، إلا أن الحكومة العثمانية لم تكن لتسلم بانتزاع الهفوف منهم بهذه السهولة. اتخذت حكومة استانبول العثمانية قراراً بتجهيز حملة عسكرية لمعاقبة ابن سعود واسترداد الهفوف. ولكن قبل تنفيذ القرار، انفجرت معارك الحرب العالمية، مما أجبر الأتراك على توظيف كل قواتهم العسكرية وتوجيهها إلى معارك أهم؛ وعندما انتهت الحرب، كانت الإمبراطورية العثمانية قد انهارت.

ومع حرمان قوات ابن رشيد من الدعم التركي، انحصر وجودهم في المناطق الشمالية المتاخمة لمناطق النفوذ البريطاني والفرنسي، ولم تظهر لهم بعد ذلك أي مقاومة فعالة. وبقيادة فيصل الداويش ـ الذي أصبح من أشجع أنصار ابن سعود ـ استولت قوات الملك على مدينة «حائل» عام ١٩٢١ ـ وفقد بيت آل رشيد آخر مدينة كانت تحت سيطرتهم.

أما قمة توسعات ابن سعود فقد حدثت في ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥، حين غزا الحجاز، بما فيها من مدن، مكة والمدينة وجدة، وطرد أسرة الشريف حسين التي كانت قد استولت على السلطة في الحجاز بعد ثورة الشريف حسين بدعم بريطاني ضد السلطة التركية عام ١٩١٦، وبغزوه للأراضي المقدسة علا نجمه في العالم الخارجي، وكان قد بلغ في ذلك الوقت الخامسة والأربعين من عمره.

أشاع صعوده غير المسبوق إلى حيازة السلطة والقوة في بلد عربي

إسلامي مستقل، في الوقت الذي كانت فيه أغلب الدول العربية والإسلامية ترزح تحت سيطرة الاستعمار الأوروبي، أملاً لدى الشعوب العربية والإسلامية بأنه أخيراً ظهر القائد العربي الذي سيخلص كل الأمة العربية من نير العبودية والاحتلال الأجنبي، كما نظرت إليه شعوب الدول الإسلامية غير العربية نظرتها إلى من يعيد إحياء قوة الإسلام إلى كامل مجدها بتأسيسه دولة تعتمد في حكمها روح نصوص القرآن، إلا أن تلك الآمال لم تتحقق. فكلما زادت قوته وتمكنت، كان يتضح أكثر أن ابن سعود لم يكن أكثر من ملك، لا يهدف إلى ما هو أكثر مما استهدفه كثير من حكام الشرق الذين حكموا بلادهم حكماً أوتوقراطياً من قبله.

كان ابن سعود كريماً وعادلاً في حياته الشخصية، وفياً لأصدقائه ومؤيديه كما كان كريماً إزاء أعدائه في نبل وشهامة، وهبه الله ذكاء فطري فاق كثيراً ذكاء أقرانه وأتباعه، إلا أنه لم يظهر ما يدل على شمول الرؤية وإلهام القيادة التي توقعه منه كثيرون. لقد حقق بالفعل الأمن لكل شعبه في الأرجاء الشاسعة لبلاده لم يتحقق مثله في أي بلد عربي من عصر الخلفاء الراشدين المبكرين من ألف عام مضت، إلا أنه بعكس الخلفاء الراشدين، حقق ذلك الأمن بقوانين صارمة وعقوبات شديدة، لا بخلق الإحساس بالمسؤولية لدى أبناء شعبه.

وأرسل عدداً من الشباب إلى خارج البلاد لدراسة الطب والاتصالات اللاسلكية، إلا أنه لم يشرب شعبه كل الرغبة في التعليم حتى ينتشلهم من وهدة الجهل التي انزلقوا إليها عبر قرون طويلة. واعتاد أن يتحدث ـ بكل ما يدل على إيمانه بذلك ـ عن عظمة الحياة

الإسلامية، إلا أنه لم يفعل شيئاً لبناء مجتمع متطور عادل بالطريقة التي تتحقق بها عظمة الحياة الإسلامية.

كان بسيطاً، متواضعاً ويعمل بدأب دون كلل، إلا أنه في الوقت نفسه انغمس هو ومن حوله في ترف مسرف بلا حدود. كان متديناً بعمق ويلتزم حرفياً بكل ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، إلا أنه نادراً ما اهتم بالجوهر الروحي والغرض من تلك الوصايا التشريعية.

كان يؤدي الصلوات الخمس بمنتهى الالتزام ويقضي الساعات الطويلة من الليل في تعبد وتهجد؛ إلا أنه لم يرد إلى ذهنه أن الصلاة وسيلة لا غاية في ذاتها. كان يحب الحديث عن مسؤولية الحاكم تجاه رعاياه، وكان غالباً ما يذكر حديث الرسول ص: «كلكم راعٍ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته»، غير أنه أهمل إعداد أبنائه الإعداد الملائم لمواجهة المهام التي كان عليهم القيام بها. وحين سئل ذات مرة، لماذا لا ينظم المملكة على أسس أقل فردية حتى يرث أبناؤه دولة منظمة ذات مؤسسات. أجاب: «لقد غزوت أرجاء مملكتي بسيفي وبمجهودي الشخصي، فليبذل أبنائي أيضاً مجهودهم من بعدي».

أتذكر حواراً دار مع الملك عن الإسراف الزائد وغياب الرؤية الإدارية الصحيحة. كان ذلك بمكة، في أواخر عام ١٩٢٨، حين كان قائد حركة الاستقلال السوري الشهير، شكيب أرسلان يقوم بزيارة الملك. وقدمني ابن سعود إليه بهذه الكلمات: «هذا محمد أسد، ابننا، عاد لتوه من المنطقة الجنوبية. إنه يهوى الرحيل بين مناطق البدو».

أثار ذلك على الفور فضول الأمير شكيب ارسلان الذي لم يكن مجرد قائد سياسي، بل كان متعدد الاهتمامات ودارساً رفيع المستوى

واسع الإطلاع والمعرفة، وأراد أن يعرف انطباعاتي حين علم أنني أوروبي واعتنقت الإسلام. وصفت له بعض جوانب تلك الرحلة إلى الجنوب، خاصة ما لاحظته في وادي بيشا الذي لم يطأه أي أوروبي من قبل، وحكيت له عن الإمكانيات الهائلة المتوفرة بذلك الوادي، وثروته المائية وأرضه الخصبة التي تعد أساساً لمشروع واعد، واستدرت باتجاه الملك وقلت له: «أنا متأكد يا إمام، أن وادي بيشا من الممكن تحويله إلى مصدر للغلال يكفي كل منطقة الحجاز، إذا تم إعداده بطريقة علمية لزراعته».

استمع الملك باهتمام، فقد كان ما يستورد من قمح لمنطقة الحجاز يستنفذ كثيراً من دخل المملكة ـ وكان عجز الموارد يشغل فكر ابن سعود.

سألني: «كم يستغرق تطوير وادي بيشا بهذه الطريقة؟».

ولأنني لست خبيراً، لم أتمكن من إعطاء إجابة دقيقة محددة؛ واقترحت عليه أن تقوم هيئة من خبراء أجانب بمسح المنطقة، وتقدم خططاً علمية مدروسة لتطويرها، وقلت له إن ذلك قد يستغرق في الغالب من خمسة إلى عشرة أعوام حتى يحقق الوادي أقصى إنتاج من الغلال.

تساءل ابن سعود: «عشرة أعوام؟ هذا زمن طويل جداً. إننا معشر البدو لا نعرف إلا شيئاً واحداً: مهما يكن بيدنا فإننا نضعه في أفواهنا ونأكله. التخطيط لعشرة أعوام يشكل زمناً طويلاً جداً بالنسبة لنا».

حين سمعنا ذلك التعليق المدهش، تطلع الأمير شكيب إليّ، مفتوح الفم دهشة، كما لو كان لا يصدق ما يسمعه، ولم أجد إلا أن أبادله النظرات المشدوهة.

بدأت بعد ذلك أتساءل: هل ابن سعود رجل عظيم جرفه المُلك والرفاهية بعيداً عن العظمة ـ أم مجرد رجل ذي شجاعة عظيمة وذكاء خارق ولا يتطلع إلى ما هو أكثر من السلطة والقوة؟

حتى اليوم لم أتوصل إلى إجابة شافية، فبالرغم من أنني عرفته لسنوات طويلة معرفة جيدة وعميقة، غير أن جانباً من شخصيته ظل مستعصياً على فهمي لا أستطيع تفسيره. ولا يعني ذلك أنه كان غامضاً بأي حال؛ كان يتحدث عن نفسه بتلقائية، وغالباً ما كان ينسب خبراته إلى مصادرها التي استقاها منها: إلا أن شخصيته كانت متعددة الأوجه حتى إنه كان من الصعب الإحاطة بكل جوانبها، كما كان مظهره الخارجي البسيط يخفي خلفه قلباً مثل أعماق البحر، متعدد الانفعالات والتناقضات الداخلية.

كانت سلطته هائلة، إلا أنها لم تعتمد على القوة، بقدر ما اعتمدت على ما توحي به قوة شخصيته. مكنته روحه الديموقراطية الحقة من تبادل الحوار والتواصل مع البدو الذين كانوا يفدون عليه في ملابس قذرة بالية كما لو كان واحداً منهم كان يدعهم ينادونه باسمه الأول مجرداً من أي ألقاب، عبد العزيز. من جهة أخرى كان متعالياً وغير متسامح مع كبار موظفي ومسؤولي الدولة حين كان يشعر بخنوعهم ونفاقهم، فقد كان يكره النفاق ويزدريه. أتذكر واقعة حدثت بمكة أثناء العشاء بالقصر الملكي. فقد أبدى واحد من أشراف مكة اشمئزازه من «فجاجة البدو» التي رآها من بعض أهل نجد الذين كانوا يأكلون الأرز في قبضات كبيرة؛ وحتى يظهر رقيه راح يأكل الأرز بأطراف أصابعه ـ وفجأة انفجر صوت الملك قائلاً: «أنتم أيها المتأنقون تأكلون طعامكم

بتأنق وحذر وبأطراف أصابعكم: هل السبب في ذلك تعودكم النبش بأصابعكم في القاذورات؟ نحن أهل نجد لا نخشى شيئاً من قبضاتنا: فهي نظيفة، ولذلك نأكل بعزيمة بملء القبضة».

أحياناً، حين يكون مسترخياً تماماً، تبدو على فمه ابتسامة لا تقل في جاذبيتها عن جمال وجهه. وكنت على يقين أن الموسيقى لو لم تكن محرمة في المذهب الوهابي الذي كان الملك يتبعه، لكان قد وجد نفسه في الموسيقى وعبر عنها بالموسيقى؛ ولكن لأن الأمر كذلك، كان يظهر ميوله الموسيقية في قصائده التي يكتبها، وفي وصفه الحي لتجاربه وخبراته، وأغانيه عن الحب والحرب التي ذاع صيتها في نجد وغناها الرجال على ظهور جمالهم عبر ارتحالهم بالصحراء، وغنتها النساء في خدورهن. وأفصحت طبيعته تلك عن نفسها في نمط حياته اليومية المنتظم والمرن الذي كان يتلاءم مع إدارة الشؤون اليومية للمملكة.

كان مثل يوليوس قيصر، يمتلك قدرة عالية على متابعة أكثر من موضوع ومشكلة في آن واحد دون أن يخلط بينها أو يشوب القصور متابعته لأي منها، وهي موهبة مكنته من إدارة جميع شؤون المملكة بنفسه على الرغم من اتساع أرجائها دون أن يصيبه ذلك بأي تشوش أو إحساس بالإرهاق والإجهاد، ويجد بعد كل تلك الأعباء من الوقت ما يشبع فيه ميله وإقباله على نسائه. كانت حواسه على درجة عالية من الحدة، فقد كان يتمتع برؤية باطنية غريزية لم تخذله أبداً في إدراك دوافع كل من يتحدثون إليه. وحدث مراراً ـ وقد شهدت ذلك بنفسي ـ أنه كان يقرأ أفكار كثير من الناس قبل أن يتفوهوا بكلمة، كما كان يستشعر مشاعر الداخلين إليه تجاهه بمجرد تخطيهم عتبة بابه، وقد مكنه

ذلك من إجهاض وإفشال محاولات عديدة تم الإعداد لها بعناية للاعتداء على حياته، كما مكنته القدرة نفسها من اتخاذ قرارات فورية عاجلة وموفقة في التطورات السيابسية الطارئة.

باختصار، كان ابن سعود يتميز بصفات كثيرة من الصفات التي تخلق العظماء، إلا أنه لم يبذل جهداً إرادياً لإحراز العظمة، لم يكن بفطرته تلك انطوائياً، وكان يمتلك موهبة هائلة في فهم منطق الأمور بعقلانية، وأدى به ذلك إلى الإحساس بصحة مواقفه وأنه دائماً على صواب في كل ما يتخذه من قرارات، وبذلك كان يتجنب محاسبة الذات. أما من أحاطوا به ـ رجال الحاشية والأعداد الكبيرة المحيطة به وتعيش على كرمه وسخائه ـ فلم يفعلوا أي شيء لتصحيح ذلك الميل المتنامي لإحساسه بصواب كل ما يتخذه من قرارات.

لقد خذل الوعد العظيم الذي ملأه في شرخ شبابه، حين كان حالماً بطموحات تطاول السماء، وخذل أحلام أمة ناشئة ـ ربما دون أن يدرك ذلك ـ كانت ترى فيه رسول العناية الإلهية لانتشال الأمة الإسلامية بأجمعها مما تعانيه. لقد توقعوا وانتظروا منه أن يحقق لهم ما ينتشلهم من خيبة الآمال كزعيم ملهم طال انتظاره، ويتحدث بعض أفاضل أهل نجد بمرارة عما اعتبره خيانة للطموحات والآمال التي راودتهم إلا أنها لم تتحقق.

لن أنسى نظرة الإحباط والبؤس التي بدت على وجه صديق من أهل نجد ـ وكان في يوم من أشد المتحمسين لقيادة ابن سعود ووقف معه في أوقات الرخاء والشدة وفي أصعب أيام تكوين المملكة ـ وعندما كنا نتحدث عن الملك، قال:

«حين انضممنا إلى ابن سعود ضد ابن رشيد في تلك الأيام المبكرة؛ وحين ركبنا معه، تحت رايات كتب عليها لا إله إلا الله، ضد خائن الإسلام الشريف حسين، كنا نؤمن أن ابن سعود «موسى» جديد أرسلته العناية الإلهية ليقود شعبه ويخرجه من وهدة الجهل والتخلف إلى أرض الإسلام الموعودة، إلا أنه تقاعس واستراح إلى ما وصل إليه من حياة الرغد والرخاء، ناسياً شعبه ومستقبل شعبه، واكتشفنا ونحن مرعوبين أنه فرعون. . .».

كان صديقي بالطبع قاسياً جداً وبعيداً عن العدل في إدانته تلك لابن سعود؛ لأنه لم يكن فرعوناً، ولا طاغية، كان شفيقاً وودوداً وعطوفاً ورقيق القلب والحاشية، ولم أشك لحظة واحدة في حبه العميق لأبناء شعبه. إلا أنه أيضاً لم يكن «بموسى». الأصح أن إخفاقه من وجهة نظر بعض الناس يرجع إلى الطموحات التي راودتهم والصورة التي تخيلوا ابن سعود عليها ـ الأرجح أنه استجاب لنداء حيوية الشباب وحماسة الرجولة المبكرة. لقد كان صقراً لم يحوِّم بأجنحته كما ينبغي.

ببساطة، أرى أنه ظل على طبيعته كزعيم قبيلة مطبوع على المروءة والشهامة وحب الخير، زعيم قبيلة إلا أنها تنتشر على نطاق واسع متباعد الأرجاء[1].

---

(١) بعد فترة قصيرة من كتابة هذا الكتاب (١٩٥٣)، توفي الملك ابن سعود عن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عاماً؛ وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الجزيرة العربية. حين رأيته آخر مرة عام ١٩٥١ (كنت أقوم بزيارة رسمية للمملكة العربية السعودية كممثل رسمي لدولة باكستان)، بدا لي أنه كان على وعي بأنه أضاع عمره فيما كان أقل مما يجب عليه عمله. بدا وجهه، الذي كان يطفح بالقوة والحيوية، مليئاً بالمرارة، بدا وكأنه يتحدث عن إنسان آخر قد مات فعلاً ودفن ومن الصعب تذكره.

[٣]

في الصباح المبكر لليوم الذي كنت سأغادر فيه مدينة «حائل»، استيقظت على صوت موسيقى عالية وصلت إلى مسامعي من نافذة غرفتي المفتوحة بحصن الأمير ابن مسعد: غناء، شقشقة مثل شقشقة الطيور والحشرات، وجذب أوتار مختلفة، مثل مائة كمان وآلات نفخ متباينة يجربها العازفون قبل بدأ عزف مقطوعة موسيقية، ثم كأصوات آلات مفككة متراخية الأوتار، ولأنها نغمات كثيرة غير منتظمة، بدت كلحن غامض، كأنه لحن وهمي وشبحي في توحد أصواته ثم تفرقها.. لا بد أنها فرقة موسيقية هائلة العدد؛ فالأصوات الصادرة كانت عديدة وهائلة...

خطوت إلى النافذة ورحت أحدق في ضوء الفجر الوليد، إلى ما وراء ساحة السوق الخالية، وإلى ما وراء منازل المدينة الرمادية المبنية من الطين الجاف، وباتجاه سفوح التلال التي تنمو عليها أشجار الطرفاء وتجمعات النخيل ـ وأدركت مصدر الصوت: كانت موسيقى صادرة من آبار المياه وسط بساتين النخيل والتي كانت تبدأ عمل يوم جديد، مئات الآبار، كانت المياه ترفع في دلاء من الجلد باستخدام الجمال. كانت الدلاء مربوطة إلى حبال، والحبال تمر على بكرة عند فوهة البئر وتنتهي بربطها إلى أحد الجمال، وكل بكرة تدور حول محور خشبي وتنبعث منها تلك الأصوات عند دورانها، تلك الأصوات التي تتفاوت من أصوات تشبه الغناء إلى أصوات صرير وصفير، أصوات ترتفع وتنخفض حتى يتدلى الحبل إلى آخره في باطن البئر وتتوقف البكرات عن الدوران، وتصدر صوتاً عالياً مثل الصياح قبل توقفها، ويتخافت صوت

الصياح تدريجياً مع ارتخاء الحبال، لتحل محلها أصوات اندفاع المياه في الأحواض الخشبية بجوار آبار أخرى؛ ثم تستدير الجمال وتذهب ببطء مبتعدة عن البئر لجذب الدلاء من أعماق الآبار، فتصدر البكرات أصواتاً جديدة والحبال تجري فوقها حتى تصل الدلاء إلى حافة البئر. ولكثرة عدد الآبار، لم تتوقف الأصوات للحظة واحدة، تتوافق نغماتها أحياناً، وتختلف وتتباين في أحيان أخرى، بعضها يبدأ في ميلاد جديد، وأخرى تخفت حتى تموت. شلالات من الأنغام والأصوات تندفع معاً ثم تتفرق وتنفصل عن بعضها ـ أزيز، تحطم، رنين، غناء ـ ما أعظمها من فرقة موسيقية لم تؤلفها ولم تضع ألحانها مخيلة بشرية: لذلك تصل تقريباً إلى مستوى إبداع وعظمة الطبيعة، التي يصعب فهم مكنونها.

الفصل السابع

منتصف طريق

تركنا «حائل»، وتوجهنا على الجمال قاصدين المدينة: كنا ثلاثة؛ فقد رافقنا أحد رجال ابن مسعد، وهو منصور العساف ليصحبنا في الطريق ولإنجاز مهمة كلفه بها الأمير.

[١]

كان منصور في غاية الوسامة، لو سار في شوارع أوروبا لأدار رؤوس النساء. كان فارع الطول، بوجهٍ قوي الملامح متناسق القسمات، شديد الرجولة. كانت بشرته بيضاء داكنة قليلاً - وهي علامة على حُسن المنشأ في عرف العرب - أدعج العينين حلو النظرة، يعلو عينيه حاجبان حسنا الصورة. لم يكن به شيء من رقة زيد وتحفظه، فقد كانت ملامح وجهه تنم عن عواطف جياشة وأضفت عليه هالة لا تشبه ذلك الحزن الهادئ الذي يبدو على صديقي الشمّاري، إلا أن منصور، كان مثل زيد، في سعة خبراته التي اكتسبها من تنقله بين أماكن كثيرة، ولذلك كانت صحبته ممتعة.

كانت طبيعة المنطقة مختلفة، تحولت إلى تربة يختلط فيها الرمادي بالأصفر بعكس صحراء النقود التي اجتزناها قبل الوصول إلى حائل.

وضح لنا اختلاف الحياة البرية في تلك المنطقة وكانت غنية بها: سحالٍ رمادية تندفع مارقة بين أرجل الجمال في سرعة البرق، لتختبئ بين أعشاب شوكية ثم تراقب عبورنا بعيون لاسعة، فأر صغير رمادي اللون له ذيل مثل العشب ويشبه السنجاب، وأبناء عمومتهم من حيوان الجربوع الذي يستطيب أهل نجد لحمه، وقد تذوقته وكان لحمه بالفعل من أطيب ما تذوقت من لحوم. كانت هناك أيضاً زواحف كثيرة ذات سيقان طويلة تشبه السحلاة، ولكن أكبر منها حجماً وتسمى الضب وتحيا على أكل سيقان النباتات وطعم لحمها يجمع ما بين طعمي الدجاج والسمك، وهناك أيضاً الخنافس السوداء ذات الأربع، والتي يصل حجمها إلى حجم بيضة الدجاجة الصغيرة، تشاهد في الأغلب وهي تدحرج في صبر بعرة جمل، تدفعها بسيقانها الخلفية القوية وتميل ببدنها على أرجلها الأمامية، تدحرج كنزها الثمين باتجاه جحرها، وأحياناً تكون خلفها حفرة فتنقلب على ظهرها، ثم تكافح حتى تعتدل بصعوبة بالغة، وتبدأ من جديد في دفع لقيتها الثمينة بضع بوصات أخرى لتقع وتنقلب من جديد وتعاود العمل بلا كلل. . .

فجأة يقفز أرنب بري رمادي في قفزات طويلة سريعة خارجاً من بين أكمة أعشاب رمادية. ورأينا غزلاناً إلا أنها كانت أبعد من مرمى نيران بنادقنا واختفت في الظلال الرمادية الزرقاء بين التلال.

سألني منصور: «أخبرني يا محمد، كيف وقع لك أن تأتي وتحيا مع العرب؟ وكيف اعتنقت الإسلام؟».

رد زيد: «سأخبرك كيف وقع له ذلك»، صمَت برهة ثم أجابه: «وقع في هوى العرب أولاً، ثم بعد ذلك في دينهم، أليس ذلك صحيحاً يا عمي؟».

قلت: «ما قاله زيد صحيح يا منصور. من أعوام طويلة، حين وصلت بلاد العرب، جذبني أسلوب العرب في الحياة. وحين بدأت أراجع فكري بيني وبين نفسي، وأسأل نفسي عما أؤمن به، أوصلني ذلك إلى اعتناق الإسلام».

سألني منصور: «وهل توصلت فجأة يا محمد وفي مرة واحدة إلى أن الإسلام هو كلمة الله الحقة؟».

أجبته: «لم يكن مرة واحدة، لم يحدث ذلك بتلك السرعة لسبب واحد؛ ففي ذلك الوقت لم أكن أؤمن أن الله قد تحدث مباشرة إلى بشر، كما كنت أعتقد أن الكتب التي يدعي البشر أنها من عند الله لم تكن إلا من وضع رجال حكماء...».

حدق فيَّ منصور بعدم تصديق، وسأل متعجباً: «كيف يمكن أن يحدث ذلك يا محمد؟ ألم تؤمن حتى بالكتاب المقدس الذي جاء به موسى، أو إنجيل عيسى؟ لقد كنت أعتقد على الدوام أن شعوب الغرب تؤمن بتلك الكتب على الأقل».

أجبته: «بعضهم يؤمن يا منصور، وآخرون لا يؤمنون أنها من عند الله. ولقد كنت واحداً من أولئك الآخرين».

شرحت له كيف أن أعداداً كبيرة من أبناء الغرب كفوا عن الإيمان بأن الكتب المقدسة ـ كتبهم أو كتب غيرهم من شعوب ـ هي كلمة الله الحقة، ولا يرون فيها إلا تاريخاً بشرياً لتطلع البشر الديني وتطوره عبر العصور.

وواصلت: «إلا أن وجهة نظري تلك سرعان ما اهتزت أول ما عرفت مضمون الإسلام»، أضفت: «علمت ما علمته عن الإسلام حين

وجدت المسلمين يعيشون بطريقة مختلفة عما يعتبره الأوروبيون الطريقة المثلى للحياة؛ وكنت كلما عرفت شيئاً جديداً من تعاليم الإسلام، أشعر أني أكتشف شيئاً طالما كنت أعرفه داخلي دون أن أدرك ذلك. . .».

هكذا، رحت أحكي لمنصور عن أول رحلة إلى الشرق الأوسط - وعن كيفية تكون أول انطباع لي عن العرب في صحراء سيناء، وما رأيته شعرت به في فلسطين وفي مصر، وفي عبر الأردن وسوريا، وكيف واتاني أول إحساس داخلي عميق في دمشق بأنني على وشك ولوج طريق لم أتوقعه للتوصل إلى الحق والحقيقة، وأن ذلك الطريق اتضح أمامي رويداً رويداً؛ وكيف رجعت، بعد زيارتي لتركيا إلى أوروبا، وكيف اكتشفت أنه من الصعب جداً أن أحيا في عالم الغرب: لأنني، من جهة، كنت شغوفاً بالتوصل إلى فهم أعمق لذلك الإحساس الغريب الذي انتابني عند أول معرفة لي بالعرب وثقافتهم، وكنت أسعى إلى فهم أفضل لما أريده أنا من الحياة وما أتوقعه منها؛ ومن جهة أخرى، كنت قد وصلت إلى نقطة اتضح لي معها وعندها أنني لن يمكن لي أبداً بعد ذلك أن أتعرف على نفسي وذاتي في إطار من الأهداف التي تكون الفكر والمجتمع الغربي.

* * *

في ربيع عام ١٩٢٤، أرسلتني جريدة «فرانكفورتر ذيتونج» إلى ثاني مهمة لي بالشرق الأوسط. كنت قد انتهيت من الكتاب الذي أكتبه عن رحلتي السابقة إلى الشرق الأوسط (تم نشره بعد رحيلي من ألمانيا بعدة أشهر تحت عنوان «رحلة غير حالمة إلى أرض الأحلام»، ورغم معاداتي للصهيونية وميلي لشرح وجهة نظر العرب بالكتاب قد أحدث

بعض الاهتياج في الصحف الألمانية، إلا أن الكتاب لم يحقق مبيعات جيدة).

مرة أخرى عبرت البحر المتوسط وشاهدت من البحر سواحل مصر ونحن نقترب منها. وكانت رحلتي من بور سعيد إلى القاهرة بالقطار تشبه من يقلب صفحات كتاب سبقت له قراءته. بين قناة السويس وبحيرة المنزلة كان بعد الظهر المصري يفصح عن مكنونه، كان البط البري يسبح في مجموعات كبيرة بالبحيرة وأشجار الطرفاء بفروعها المروحية تتماوج مع الرياح. كانت بعض القرى تظهر من آن إلى آخر في السهل الممتد الذي كان رملياً عند بدايته لا تغطيه أية نباتات، ثم بدأ يظهر في الخلاء الجاموس المصري الأسود وهو متراخ في تربة الربيع. وحين تحول بنا القطار إلى الغرب مبتعداً عن قناة السويس، غطتنا الخضرة المصرية. شاهدت من جديد النساء المصريات الرشيقات طويلات القامة وهن يعملن في الحقول ويحملن أواني المياه الفخارية على رؤوسهن دون أن يسندنها بأيديهن، فكرت في تلك المشاهد: «لا يوجد في العالم بأجمعه ـ لا أفضل السيارات، ولا أجمل المنشآت المعمارية ولا أمتع الكتب ـ ما يمكن أن يبعث في نفسي تلك الراحة التي شعرت بها والتي أصبحت غير موجودة بالغرب، ومهددة الآن بالضياع والاختفاء من الشرق ـ تلك الراحة وذلك الرضا اللذين يعبران عن التوافق الساحر بين الذات الإنسانية والعالم الذي يحيط بها..

كنت أسافر هذه المرة بالدرجة الأولى من القطار. لم يكن هناك إلا مسافران آخران في مقصورتي. رجل أعمال يوناني من الإسكندرية، كنت قد اعتدت عادة الشرق من تبادل الأحاديث مع الأغراب في سهولة

وأشركني في مناقشة حامية راح يوجه فيها سخريته وانتقاده لكل ما يراه، وكان المسافر الثاني عمدة مصري، والعمدة في مصر حاكم قرية، والذي ـ إذا حكمنا بالقفطان الحريري الغالي الذي يرتديه، وسلسلة ساعة ذهبية سميكة تتدلى من فتحة قفطانه ـ كان غنياً، إلا أنه بدا راضياً عن عدم تعلمه: في الحقيقة؛ وبمجرد أن اشترك في الحوار معنا، اعترف أنه لا يكتب ولا يقرأ، إلا أنه أظهر فطنة وشت بذكائه ودقة ملاحظاته، وكثيراً ما تصادم بحجة قوية مع اليوناني.

كنا نتحدث، كما أتذكر، عن بعض المبادئ الاجتماعية في الإسلام، والتي كانت تثير اهتمامي بشدة في ذلك الوقت، ولم يرض المسافر اليوناني بإعجابي الشديد بمبادئ العدل في الإسلام، ورد عليَّ قائلاً بالفرنسية:

«إنه ليس عادلاً كما تظن يا صديقي العزيز»، ثم استدار إلى العمدة قائلاً: «وأنتم أيها المسلمون تدعون أن دينكم دين عدالة؛ فهل يمكنك أن تشرح لنا كيف يسمح الإسلام للرجال بالزواج من فتاة مسيحية أو يهودية في حين لا يسمح لبناتكم وأخواتكم بالزواج من مسيحي أو يهودي؟ هل تسمي هذا عدلاً؟ هه؟».

رد العمدة المهيب دون أن يبدو عليه التردد لحظة واحدة: «سأشرح لك لماذا شرع الإسلام ذلك. نحن المسلمين لا نؤمن أن المسيح(عليه السلام) ابن الله، ونحن نؤمن أنه هو وموسى وإبراهيم وكل الرسل المذكورين في الكتاب المقدس، هم رسل من عند الله، وقد أرسِلَ كل منهم إلى البشر بالطريقة نفسها التي أرسل بها خاتم الرسل، محمد(ص) ولذلك إذا تزوجت فتاة مسيحية أو يهودية من رجل مسلم، فهي على

يقين من أنه لن يوجد بأسرتها الجديدة من يتحدث بسوء عما تؤمن به، بينما من جهة أخرى، إذا تزوجت فتاة مسلمة من غير مسلم، فمن المؤكد أنها ستواجه ما يسيء إلى إيمانها وعقيدتها.. وربما من أبنائها أنفسهم: ألا يؤمن الأبناء عادة بما يؤمن به آباؤهم؟ هل تعتقد أنه من العدل أن نعرضها إلى ذلك الألم وتلك المهانة؟».

لم يجد اليوناني ما يرد به على هذا التساؤل إلا بهزة ضيق من كتفيه، أما أنا، فقد رأيت أن ذلك العمدة الأمي بتلك العقلانية التي اشتهر بها شعبه، قد مس جوهر وقلب تلك المشكلة المهمة، ومرة ثانية، شعرت أن أبواباً جديدة للإسلام تفتح أمامي، كما شعرت تماماً وأنا أتحدث إلى ذلك الحاج العجوز بمدينة القدس.

* * *

ترتب على تغير أحوالي المالية، أن أصبح بإمكاني أن أعيش بالقاهرة في مستوى لم يخطر لي على بال من شهور قليلة مضت. لم أعد مضطراً لحساب القروش القليلة والتقتير في إنفاقها. ونسيت تلك الأيام التي قضيتها في أول مرة جئت إلى القاهرة، والتي كان عليَّ أثناءها أن أعيش على الخبز وحده، والزيتون واللبن، إلا أنني ظللت مخلصاً لتقاليد الماضي؛ فبدلاً من الإقامة في أحد الأحياء الراقية بالقاهرة، استأجرت غرفة في منزل صديقتي القديمة، المرأة البدينة التي قطنت عندها في أول زيارة للقاهرة، والتي استقبلتني بأحضان مفتوحة وقبلة على كل خد.

في اليوم الثالث بعد وصولي، وعند غروب الشمس، سمعت صوتاً قوياً لمدفع ينطلق من القلعة. وأضاءت حلقات من المصابيح في

الشرفات العليا لمئذنتي مسجد القلعة، وتبعته مآذن القاهرة التي أضيئت شرفاتها العليا في استجابة لمئذنتي القلعة: في كل مئذنة حلقة من الضوء، سرت حركة غير عادية في شوارع القاهرة القديمة: إيقاع أسرع يشي باحتفالية، وصارت الضوضاء الصادرة عن الشوارع أعلى صوتاً، أرى وأسمع وأشعر بإيقاع حماسي مختلف في جميع الأنحاء.

كان سبب ذلك ظهور القمر الوليد، أي بداية شهر عربي جديد (يعتمد التقويم الإسلامي على الأشهر القمرية والأعوام القمرية)، وكان الشهر الجديد هو شهر رمضان، وهو الشهر الذي له قدسية خاصة في التقويم الإسلامي. ففي هذا الشهر احتفاء بذكرى مرت عليها ثلاثة عشر قرناً، حين نزل أول وحي على محمد(ص) بالقرآن. وفي هذا الشهر يصوم المسلمون صياماً كلياً عن الطعام والشراب، رجالاً ونساء باستثناء المرضى، لا يأكلون ولا يشربون (ولا حتى يدخنون) من لحظة انبلاج ضوء الفجر حتى غروب الشمس لمدة ثلاثين يوماً تقريباً. خلال تلك الأيام الثلاثين يمضي الناس في شوارع القاهرة بوميض خاص في عيونهم، كما لو كانوا قد رفعوا إلى مرتبة عالية سامية. في الثلاثين ليلة تسمع صوت المدافع التي تعلن موعد تناول الطعام أو الامتناع عنه عند الفجر، وتسمع غناءً وصيحات فرح، بينما تشع المساجد والجوامع بالأضواء حتى الصباح. علمت أن هناك هدفين من شهر رمضان: الأول هو الامتناع عن الطعام والشراب يشعر كل امرئ بما يشعره الفقير والجائع، ويغرس هذا المسؤولية الاجتماعية في الوعي البشري كفرض ديني.

والهدف الثاني هو التعود على ضبط الذات والسيطرة على النفس،

وهو أحد أوجه الأخلاق الفردية وتؤكد عليها كل تعاليم الإسلام (على سبيل المثال يمنع منعاً كلياً تناول كل ما هو ضار للبدن وكل ما يُذهب الوعي، ويعدها الإسلام وسائل لإخماد الوعي لتغييب الإحساس بالمسؤولية). من هذين الهدفين ـ أخوة البشر، وضبط النفس، والسيطرة على الشهوات ـ بدأت أميز الخطوط الأساسية في منهج الإسلام.

في سعيي إلى تكوين صورة متكاملة لما يعنيه الإسلام وما يهدف إليه، استفدت إفادة عظيمة من الشرح الذي قام به بعض أصدقائي القاهريين. كان من أبرز أولئك الأصدقاء الشيخ مصطفى المراغي، وكان واحداً من أبرز العلماء المسلمين في عصره وأحد أبرز علماء جامعة الأزهر (وقد أصبح شيخاً للأزهر بعد ذلك بأعوام).

كان في منتصف الأربعينيات من عمره في ذلك الوقت، إلا أن قوته البدنية وتكوينه العضلي البارز كانا يضفيان عليه حيوية وتركيز ابن العشرين. وبالرغم من سعة إطلاعه وحديثه، إلا أن حس الدعابة كان من أبرز صفاته. كان تلميذاً للمصلح المصري الكبير الشيخ محمد عبده، كما كان من حضور جلسات الثوروي الإسلامي جمال الدين الأفغاني، وكان الشيخ المراغي ذاته من المفكرين الإسلاميين الراصدين والناقدين لأوجه الخلل. كان يؤكد لي على الدوام أن المسلمين المعاصرين قد تداعوا وسقطوا دون أن يحققوا الهدف من كونهم مسلمين، وأنه من الخطأ الفادح أن يقيسوا أهداف رسالة محمد)ص) على ما هم عليه الآن من نمط حياة وأسلوب تفكير. قال: «بالضبط، كما نحكم قياساً لما نراه من جفاء بين اثنين من المسيحيين على رسالة المسيح بأنها لا تدعو إلى المحبة».

بهذا التحذير، أدخلني الشيخ المراغي إلى الجامع الأزهر.

من شارع الموسكي، وهو من أكثر الشوارع ازدحاماً، وأقدم الأسواق بالقاهرة، وصلنا إلى ميدان جانبي صغير يبعد عن الشارع، ويشغل أحد جوانب ذلك الميدان واجهة عريضة من واجهات الجامع الأزهر. دخلنا من بوابة مزدحمة تُفضي إلى صحن مغطى يؤدي إلى فناء واسع مكشوف للجامع، وهو مساحة مربعة هائلة الاتساع محاطة بعقود قديمة ترتكز على أعمدة. كان الدارسون يرتدون الجبة الطويلة الداكنة ومن تحتها قفطان أبيض، يجلسون على حصر من القش ويقرأون بأصوات خافتة كتباً ومخطوطات يدوية.

كانت الدروس والمحاضرات تعقد في الجوانب المسقوفة. كل مدرس يجلس على فرش من الحصير تحت الأعمدة التي تمتد في صفوف طويلة، وأمام كل مدرس يجلس الطلاب في شبه نصف دائرة أمامه. ولا يرفع أي مدرس صوته أبداً، ولذلك كان على المتلقين أن ينتبهوا ويركزوا كل حواسهم حتى لا تفوتهم كلمة. وقد يعتقد مَنْ يراهم أن مثل ذلك الاستغراق لا بد أن ينتج عنه علماء حقيقيون، إلا أن الشيخ المراغي سرعان ما أطاح بتصوراتي، فقد سألني:

«هل ترى أولئك المدرسين هناك؟ إنهم مثل أبقار الهند المقدسة، إنهم كمنْ يأكلون كل ورقة مطبوعة يجدونها في أي مكان وأي شارع... ويلتهمون كل الكتب التي كتبت من قرون مضت، إلا أنهم لا يهضمونها.. لم يعودوا يفكرون؛ إنهم يقرأون ويحفظون عن ظهر قلب ويعيدون ما قرأوه ويرددونه كما هو، أجيال بعد أجيال».

قاطعته: «ولكن يا شيخ مصطفى، بالرغم من أي شيء، فالأزهر

هو مركز الدراسات الإسلامية الرئيسي، وأقدم جامعة في العالم، واسمه موجود في كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي. ماذا عن المفكرين العظام، والمفكرين، والمؤرخين، والفلاسفة، وعلماء الحساب الذين تعلَّموا وتخرَّجوا فيه خلال القرون العشرة الأخيرة؟».

أجاب بأسى: «لقد كفَّ عن تخريج أمثالهم من بضعة قرون مضت»، ثم أردف: «حسن، ربما كان ذلك غير دقيق تماماً؛ فمن حين لآخر كان يتخرج في الأزهر بعض المفكرين المستقلين حتى عصرنا الحالي: ولكن بوجه عام، أصابت الأزهر حالة من العقم مثل تلك التي يعاني منها كل العالم الإسلامي، وخمدت قوة الأزهر المحركة. أما أولئك المفكرون الإسلاميون الذين ذكرتهم، فلم يحلموا أبداً أثناء حياتهم أن أفكارهم ستظل تعاد وتكرر وتجترها أجيال بعد أجيال بدلاً من تطويرها والإضافة عليها، كما لو كانت أفكار وحقائق لا يأتيها الباطل. التغيير إلى الأفضل يستوجب تشجيع التفكير الحر بدلاً من ترديد الأفكار السابقة».

أعانني تشخيص الشيخ المراغي الحاد واللاذع لحالة الأزهر أن أفهم أحد أهم أسباب الركود الفكري والثقافي الذي يخيم على كل أرجاء العالم الإسلامي. ألا يعكس ذلك الركود الفكري والثقافي الذي يرين على أقدم جامعة إسلامية عقمَ المجتمع الإسلامي في الوقت الراهن؟ ألم يؤد ذلك الركود إلى التقاعس والتقبل السلبي لذلك الفقر الذي يعيش فيه المسلمون، وقبولهم الصامت لأخطاء اجتماعية كثيرة يتعرضون لها دون اعتراض؟

تساءلت: هل لي أن أتعجب، بعد أن فهمت تلك الأدلة الدامغة

على انحطاط حال المسلمين، إن وجدت تلك الآراء السائدة عن الإسلام في الغرب؟

الآراء الشائعة في الغرب عن الإسلام يمكن إجمالها فيما يلي: «انحطاط حال المسلمين ناتج من الدين الإسلامي ذاته، ولا يمكن اعتباره عقيدة دينية مثل المسيحية واليهودية، وأنه أقرب إلى خليط غير مقدس من خيالات الصحراء، والحسية الشهوانية، والخرافات، والاتكالية والإيمان بالقدر، وهي قيم تحول بين المسلمين وبين إحراز أي تقدم اجتماعي للأرقى والأفضل؛ وبدلاً من تحرير البشر من عراقيل الغموض والظلام؛ كبَّلهم الإسلام أكثر؛ وبمجرد تحررهم من العقيدة الإسلامية، وتبنيهم مفاهيم الغرب في أسلوب حياتهم وفكرهم، يكون ذلك أفضل لهم وللعالم كله. . .».

إلا أن ما وجدته من مفاهيم وما توصلت إلى فهمه من مبادئ الإسلام وقيمه، أقنعني أن ما يردده الغرب ليس إلا مفهوماً شائهاً للإسلام. فما وجدته في القرآن لم يكن «نظرة مادية» فقط للحياة، بل على العكس، وجدته يظهر وعياً شديداً بالخالق، عبر عن نفسه بقبول كل ما خلقه الله: فهو متوازن ومنسجم يمازج بين العقل والاحتياجات البدنية، كما يوازن بين الاحتياجات الروحية للفرد ومتطلباته الاجتماعية. اتضح لي أن تخلف المسلمين لم يكن ناتجاً من الإسلام، ولكن لفشلهم أن يحيوا كما أمرهم الإسلام، وفشلهم في التمسك بتعاليمه.

لقد كان الإسلام هو ما حمل المسلمين إلى ذُرى فكرية وثقافية سامية حين وجه كل طاقاتهم إلى تدبر أمور العقل والوعي المستنير كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة الخلق وقدرة الخالق وبالتالي الوعي بمشيئته

من خلقهم. لم يطلب منهم اعتناق عقيدة جامدة أو صعبة الإدراك والفهم؛ ففي الحقيقة، لم تكن توجد برسالة النبي(ص) أي عقيدة جامدة غير مفهومة.

وهكذا، كان التعطش للمعرفة الذي ميَّز المسلمين الأوائل يخلو من عسف وتعسف العقيدة الذي كان سائداً في أرجاء العالم، كانت المعرفة في أرجاء العالم تناضل نضالاً مريراً للوقوف على أقدامها ضد ما تمليه وتفرضه العقائد السائدة لديهم. على عكس ذلك، كانت المعرفة في الإسلام تنبثق مباشرة من مبادئ العقيدة ذاتها. لقد أعلن النبي العربي: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، وبذلك رسخ لدى المسلمين مفهوم أن اكتساب العلم هو السبيل للإيمان الكامل ومعرفة الخالق معرفة حقة. ولما تدبروا ما ذكره الرسول ص: خلق الله الداء كما خلق الدواء، تحققوا أن بحثهم عن الدواء ليس إلا تحقيقاً لإرادة الله: وبذلك كانت الأبحاث الطبية تستمد دافعها من إحساس المسلم أنها واجب ديني وفريضة واجبة. وقرأوا ما ذكره القرآن: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ (صدق الله العظيم)، وفي سعيهم إلى النفاذ للمعنى الذي تضمنته هذه الآية، ودرسوا الكائنات الحية والقوانين التي تحكم نموها وتطورها: وهكذا أسسوا مبادئ علم الأحياء. وأشار القرآن إلى تناسق دورات ومواقع النجوم وأفلاك السماء كدليل على عظمة إبداع الخالق: فدرسوا علوم الفلك والحساب بحماسة في الوقت الذي كانت فيه علوم الفلك مقصورة في الديانات الأخرى في تحديد أوقات العبادة فقط، كما نجد أن نظريات «كوبرنيكوس» التي توصلت إلى أن الأرض تدور حول نفسها وأنها هي والكواكب تدور حول الشمس، وأعلنها في أوروبا في القرن السادس عشر (وقوبلت بمعارضة

شديدة من متعصبي الكنيسة وكبار رجالها الذين وجدوا أن تلك النظريات تتصادم مع التعاليم الحرفية للإنجيل): إلا أن التأسيس الفعلي لتلك النظريات كان قد تم وضعه قبل ذلك بستمائة عام في البلاد الإسلامية لما توصل الفلكيون الإسلاميون إلى النتيجة ذاتها وهي أن الأرض كروية وتدور حول محورها، وتوصلوا إلى حسابات دقيقة لخطوط الطول والعرض؛ وأدرك كثير منهم دون أن يتهموا بالكفر والهرطقة، أن الأرض تدور حول الشمس. بالحماسة نفسها درسوا الكيمياء والفيزياء ووظائف الأعضاء، كما اقتحموا علوماً أخرى كثيرة، وجد عباقرة المسلمين أنها مهمة لبناء صرح حضاري دائم ومتجدد. وفي بناء ذلك الصرح، كانوا أكثر من مقتدين بتعليمات الرسول(ص) في قوله: «مَنْ فَتَحَ بَاباً مِنْ أبْوَابِ العِلْمِ فَتَحَ الله لَهُ بَاباً مِنْ أبْوَابِ الجنَّة»، وقوله: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِس فيه عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً في الجَنَّة».

في ذلك العهد الخلاق من تاريخ الإسلام ـ أي القرون الخمسة الأولى بعد وفاة الرسول ـ لم ير العلم عصراً أزهى من عصر الحضارة الإسلامية. ولم تنعم بيوت بالأمان مثلما نعمت كل بيوت المدن الإسلامية في ذلك العصر.

وتأثرت الحياة الاجتماعية بدورها بتعاليم الإسلام كما جاء بها القرآن. ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا المسيحية تعتبر أن الأوبئة ليست إلا لعنة من الله ونقمة وعقاباً لا بد أن يتقبلوه ولا يحاولوا منعه أو الحد من آثاره، كان المسلمون يتبعون تعليمات الرسول الذي علمهم مواجهة الأوبئة بعزل المناطق الموبوءة والمدن المصابة. وفي الوقت الذي كان فيه حتى ملوك وأمراء أوروبا المسيحية يعتبرون الاستحمام

نوعاً من العرف غير المستحب دينياً، كان أفقر منزل إسلامي في العصر ذاته يحتوي على الأقل على حمّام واحد، بينما كانت الحمامات العامة الرائعة منتشرة في كل المدن الإسلامية (في القرن التاسع الميلادي، كان بمدينة قرطبة في الأندلس ثلاثمائة حمَّام عام)، وكان ذلك أيضاً استجابة لتعليمات الرسول من أن: «النظافة من الإيمان».

لم يعرض الإسلام المسلمين لذلك الصراع النفسي الداخلي من أن الحياة الروحية تتعارض مع مُتع الحياة الدنيوية. فقد قال الرسول: «اعْمَل لدُنيَاكَ كَأَنَّكَ تَعيشُ أبَداً، واعمَل لآخِرَتَكَ كأَنَّكَ تَمُوت غدَاً».

باختصار، وفَّر الإسلام حافزاً قوياً للتقدم المعرفي والثقافي والحضاري الذي شكل واحدة من أروع صفحات التاريخ الإنساني، وقد زود ذلك الحافز بمواقف إيجابية حين حدد في وضوح: نعم للعقل ولا لظلام الجهل، نعم للعمل والسعي ولا للتقاعس والنكوس، نعم للحياة ولا للزهد والرهبنة. ولذلك لم يكن عجيباً أن يكتسب الإسلام أتباعاً في طفرات هائلة بمجرد أن تجاوز حدود بلاد العرب، وجدت الشعوب التي نشأت في أحضان مسيحية القديس «بولس» والقديس «أوغستين» مثل شعوب سوريا وشمال إفريقيا وإسبانيا القوطية من بعدهم، ديناً لا يُقر عقيدة ومفهوم الخطيئة الأول لآدم وتؤكد على كرامة الحياة البشرية الأرضية: ولذلك دخلوا في دين الله أفواجاً، ذلك الدين الذي حدد لهم أن الإنسان خليفة الله في الأرض.

كل ذلك يفسر كيفية انتصار الإسلام وانتشاره الواسع والسريع في بداياته التاريخية، ويفند مزاعم مَنْ روجوا أنه انتشر «بحد السيف»، لم يكن المسلمون إذن هم مَنْ خلقوا عظمة الإسلام، بل كان الإسلام من

خلق عظمة الإسلام. وبمجرد أن تحول إيمانهم إلى عادة وكفّ عن أن يكون منهجاً وأسلوباً للحياة، وعن تطبيق تعاليمه بوعي ودراية، وأن يعوا ما يأمرهم به، خبأ وهج النبض الخلاق في تلك الحضارة وحلّ محلها التقاعس والعقم وتحلل الثقافة تدريجياً.

* * *

كانت الرؤية التي توصلت إليها، والتقدم الذي كنت أحرزه في تعلم اللغة العربية (كان أحد طلاب الأزهر يعلمني اللغة العربية في دروس يومية)، تجعلني أشعر أنني تمكنت أخيراً مما يماثل المفتاح لعقلية المسلمين، ولم أعد على يقيني السابق «باستحالة أن يتفهم الأوروبي بوعي العقلية الإسلامية» كما ذكرت قبل ذلك في كتابي الذي صدر في «برلين» من شهور سابقة. أيقنت أنه لو تحرر المرء تماماً من عاداته التي نشأ عليها ومناهجها الفكرية وتقبل مفهوم أنها ليست بالضرورة الأساليب الصحيحة في الحياة، لأمكن له أن يفهم ما يبدو غريباً في نظره عن عالم الإسلام.

وبالرغم من أنني وجدت في الإسلام ما يرضي الفكر والروح كما يرضي البدن ويشبع الغرائز، إلا أنني كنت ما زلت أرى أنه من الذكاء لأي امرئ ذي بصيرة أن لا يحصر فكره في إطار منهج عقائدي لم يصل إليه بذاته باقتناع مطلق.

سألت صديقي واسع المعارف الشيخ مصطفى المراغي في ذلك: «قل لي يا شيخ مصطفى: لماذا يتوجب على المرء حصر فكره في إطار تعاليم معينة وأوامر وتوصيات محددة؟ أليس من الأفضل للمرء أن يترك ذلك لبصيرته الداخلية ويستلهم منها الأخلاق والمناهج السامية؟».

أجاب: «سؤالك بالتحديد، يا أخي الشاب، هو لماذا يتوجب وجود عقيدة مؤسسة. والإجابة بسيطة: فقلة قليلة من البشر ـ الأنبياء فقط ـ لديهم القدرة على فهم صوت الفطرة الداخلي. أغلبنا يقع في شراك المتطلبات والاهتمامات الشخصية والرغبات الذاتية، فلو اتبع كل فرد هواه، سيتحول أي مجتمع إلى حالة من الفوضى الأخلاقية ولا يُتفق على نمط أخلاقي موحد. وقد تسألني: ألا يوجد استثناء لذلك التعميم، مثل المستنيرين الذين يشعرون بعدم حاجتهم إلى «التوجيه»؛ ولكني أسألك، ألا يدعي أغلب الناس أنهم باستثناء الآخرين على صواب فيما يرونه؟ وما الذي يمكن أن ينتج عن ذلك؟».

* * *

كان قد مضى على وجودي بالقاهرة ستة أسابيع حين أصابتني حمى الملاريا، هل المقصود أني أُصبت بانتكاسة حمى الملاريا الراجعة؟، كانت قد أصابتني أول مرة في فلسطين في العام السابق. بدأت الحمى بصداع في الرأس ودوار وآلام في كل أعضاء الجسم، وعند حلول الليل كنت طريح الفراش لا أقدر على تحريك أصبع. راحت السيدة «فيتيللي» صاحبة المنزل الذي كنت أقطن به تشرف على رعايتي بحماسة وكأنها تستمتع بعدم قدرتي على الحركة؛ إلا أن اهتمامها كان اهتماماً حقيقياً. كانت تعطيني لبناً لأشربه، وتضع الكمادات الباردة على رأسي لخفض درجة حرارة بدني المحموم ـ وحين اقترحت عليها أنه ربما كان من الأفضل استدعاء طبيب، ردت في غضب وسخط:

«طبيب؟ بووه، ما الذي يعرفه أولئك الجزارون عن الملاريا؟ أنا أعرف عنها أكثر مما يعرفه أي طبيب. لقد مات زوجي الثاني بها في

ألبانيا، كنا وقتها نسكن في مدينة «دوراتسو» في ألبانيا وعشنا بها لأعوام، وكان المسكين يعاني من نوبات ألم أشد مما تعاني أنت الآن، إلا أنه ظل على ثقته بي حتى النهاية. . .».

كنت في حالة من الضعف والإعياء لا أتمكن معها من مناقشتها، وتركتها تسكب في جوفي كميات من النبيذ المعتق اليوناني الساخن ودواء الكينين ـ ولم يكن ينتج بعد على شكل حبوب مغلفة بمادة سكرية، بل المسحوق ذاته الذي كان يسبب لي صدمة بمذاقه المر مثل العلقم وكان ألم تجرُّعه أشد من آلام الملاريا ـ ولكن الغريب أنني وثقت بالسيدة «فيتيللي» بالرغم من إشاراتها المشؤومة إلى «المرحوم زوجها الثاني».

في تلك الليلة، حين كان بدني يلتهب بالحمى، سمعت فجأة موسيقى عذبة مجسمة آتية من الشارع: كان صوت آلة «البيانوللا». لم يكن صوت واحدة من تلك الآلات التي تصدر ألحانها بالطَّرْق على أنابيب مفلجة، لقد رأيت آلات «البيانوللا» قبل ذلك في شوارع القاهرة: رجل يحمل صندوق الموسيقى على ظهره، وصبي يعاونه ويسير خلفه، يدير يد الصندوق؛ فتصدر الألحان فرادى، قصيرة وقوية، مثل سهام تصيب أهدافها، مثل صوت تحطم زجاج، ومسافة زمنية تفصل بعضها عن بعض، لا تشعر المستمع إليها يستمع إلى لحن متكامل، ولكنها تجره إلى اهتزازات عصبية استجابية لأعضائه، كانت تشبه اللغز الذي يتوجب عليك حله، إلا أنك لا تستطيع أن تنفذ إلى ما لا وجود له؛ فتتحول تلك النغمات إلى نوع من العذاب المضني والمرهق للأعصاب وتكرار ألحانها في صمت الليل، مثل دوامات عاصفة لا مهرب منها ولا

فكاك، مثل الإيقاعات الحركية لحلقة الذكر التي أقامها الدراويش وشاهدتها في مدينة «سكوتاري» هل كان ذلك من شهور، أم كان من أعوام طويلة مضت؟ - لقد رأيت ذلك بعد أن مررت بمنطقة ينبت فيها الصبَّار بكثافة.

كانت من أغرب الغابات، تلك المدافن التركية في منطقة «سكوتاري»، والتي تقع مباشرة عبر البوسفور أمام مدينة اسطنبول: مسالك وممرات بين نبات صبار شديد الكثافة، وتحت نبات الصبار، أعداد لا نهائية من قبور، بعضها سقط شاهده وبعضها ما زال قائماً بموضعه وتعلوها حروف عربية تآكل بعضها بفعل الزمن. كانت مدافن قديمة مهجورة من أزمان، ومن أجساد موتاها التي تحللت نبتت في المقابر أشجار هائلة ذات جذوع ضخمة يصل ارتفاعها إلى ستين أو ثمانين قدماً، تنمو بالرغم من تفاوت الفصول في أحضان الموت والسكون الذي تجلى في أجل صوره في تلك الأيكة التي لا تتيح لك فرصة للانقباض. لم أشعر بمثل المشاعر التي أحسستها في ذلك المكان، سيطر علي إحساس أن الموتى غير موتى إلا أنهم نائمون. أو أنهم موتى عالمٍ سمح لأحيائه أن يحيوا في سلام، موتى من بشر ماتوا دون عجلة...

بعد جولة قصيرة في أرجاء تلك المدافن، سرت في الشوارع الضيقة لمدينة «سكوتاري» المبنية فوق التلال، شوارع تصعد وتنحدر في اتجاهات متباينة، وصلت إلى مسجد صغير لا تميزه إلا بعض النقوش العربية فوق بابه. كان الباب نصف مفتوح فدخلته - وقفت في قاعة معتمة قليلاً في منتصفها بدت لي هيئة أناس يجلسون في حلقة دائرية

على بساط حول رجل عجوز طاعن السن. كانوا جميعاً يرتدون قفاطين طويلة ويضعون على رؤوسهم طواقي بنية بلا حواف. كان الإمام العجوز يتلو سورة من سور القرآن في صوت رتيب وإلى جوار الجدار جلس مجموعة من الموسيقيين: رقوق ودفوف وناي وقيثار.

بدر إلى ذهني أنه تجمع الدراويش الذين سمعت عنهم قبل ذلك كثيراً: وهو نظام صوفي يسعى إلى الوصول بالوعي إلى حالة من الارتقاء عن الوجود المادي إلى حالة من النقاء الروحي الخالص وذلك بأداء حركات إيقاعية رتيبة تزداد سرعة إيقاعها وتتصاعد حتى تصل بهم إلى حالة من الانفصال عن الواقع المادي للحياة وتمكن صاحبها من تحقيق حالة من التواصل الروحي السامي والذوبان في عصمة الرب.

دام الصمت برهة بعد انتهاء الإمام من تلاوة القرآن، ثم قطع الصمت صوت مفاجئ للناي، وبعدها صاحبته باقي الأدوات في إيقاع رتيب متكرر، كالانتحاب، كالعويل. ثم نهض الدراويش كما لو كانوا وحدة واحدة فنزعوا عنهم قفاطينهم ووقفوا بجلاليب بيضاء تصل إلى كواحلهم وعليها أحزمة عند الخصور. استدار كل منهم نصف دورة في اتجاه واحد، حتى إنهم وهم يقفون في دائرة، يواجهون بعضهم: كانوا يعقدون أذرعهم في صدورهم وينحنون انحناءة شديدة وهم يستديرون بجذوعهم في نصف دائرة (ذكرني ذلك بفرسان العصور الوسطى في أوروبا وهم ينحنون بالطريقة ذاتها أمام السيدات)، في اللحظة التالية، كان الدراويش يقذفون أذرعهم في الاتجاه المعاكس، الكف اليمنى ترتفع واليسرى تنزل إلى الجانب. وتخرج من حلوقهم مع كل نصف انحناءة واستدارة أصوات مثل غناء هامس: «هُو» يقصدون ومع الصوت

الهامس الخارج من الشفاه يبدأ الدراويش في الاستدارة البطيئة حول جذعه، على نغمات من إيقاع الدفوف والناي التي كانت كأنها تأتي من مكان متنائي البعد. ثم يطوحون رؤوسهم للخلف، مغمضين أعينهم، ويجتاح ملامحهم تقلص ناعم. ثم تتصاعد وتتسارع إيقاعات الحركة؛ وترتفع الجلابيب لتكون دائرة متسعة حول كل درويش مثل دوامات البحار؛ يبدو على وجوههم الانهماك والذوبان في عالم مختلف... تحولت الدائرة إلى دوامات، اجتاحهم الانهماك، وشفاههم تكرر بلا نهاية كلمة واحدة: هُو... هو... هو؛ أبدانهم تدور وتدور، سحبتهم إيقاعات الموسيقى إلى عالم من الرتابة التكرارية الخالصة من صوت وحركة، رتابة متصاعدة، متسارعة، تشعر وأنت المراقب كأنها تسحبك معهم إلى داخل الدوامة المتصاعدة، على درج يعلو في التفاف حلزوني، أعلى فأعلى، دائماً إلى أعلى، على درج صاعد متصاعد، دائماً إلى أعلى، صعود حلزوني دائم لا تسبر علوه، ولا تصل إلى نهايته...

إلا أن أفكاري وصلت إلى نهاية حين أحسست باليد الحانية للسيدة «فيتيللي» والتي وضعت حداً لتلك الدوامات التي كانت تتصاعد في ذهني، وعادت بي من مدينة «سكوتاري» إلى برودة الغرفة الحجرية التي كنت أقطنها بالقاهرة.

كانت السيدة «فيتيللي» على صواب على أي حال. وأعانتني على قهر وتخطي نوبة حمى الملاريا الراجعة. إن لم يكن بسرعة، فعلى الأقل في نفس المدى الزمني الذي كان سيتطلبه من أي طبيب محترف. خلال يومين شفيت من الحمى، وفي الثالث انتقلت من الفراش إلى

مقعد مريح، كنت ما زلت في حالة من الضعف والوهن لا تمكنني من الخروج من المنزل، وراح الوقت يمر ثقيلاً متباطئاً. وزارني مرة أو مرتين طالب الأزهر الذي يُدرِّس لي اللغة العربية وأحضر لي بعض الكتب لقراءتها.

شغلت فكري ذكرى حلقة الذكر التي قام بها الدراويش في مدينة «سكوتاري»، واتضحت في ذهني معانٍ لم تبدُ لي عندما شاهدت حلقة الذِّكر. كان ذلك الطقس الديني لتلك الجماعة - وهي واحدة من جماعات كثيرة شاهدتها في مختلف البلاد الإسلامية - لا يتفق مع صورة الإسلام التي كانت تتبلور في ذهني ببطء. طلبت من صديقي الأزهري أن يحضر لي بعض كتب المستشرقين التي تتناول موضوع الذِّكر؛ وتبين لي أن شكي كان في موضعه، وأن تلك الممارسات والطقوس دخيلة على الإسلام من جهات ومصادر غير إسلامية.

لقد شابت تأملات وأفكار المتصوفة الإسلاميين أفكار روحية هندية، وفي أحيانٍ أخرى تأثيرات رهبنة مسيحية - مما أضفى على بعض ذلك التصوف مفاهيم وممارسات غريبة تماماً على الرسالة التي جاء بها النبي.

لقد أكدت رسالة النبي على أن السببية العقلية هي السبيل الوحيد للإيمان الصحيح، بينما تبعد التأملات الصوفية وما يترتب عليها عن ذلك المضمون. والإسلام قبل أي شيء مفهوم عقلاني لا عاطفي ولا انفعالي، والانفعالات مهما تكن جياشة، معرضة للاختلاف والتباين باختلاف رغبات الأفراد وتباين مخاوفهم بعكس السببية العقلية، كما أن الانفعالية غير معصومة بأي حال.

* * *

من تلك الجزئيات يا منصور راح جوهر الإسلام يتضح أمامي: لمحة من هنا وومضة من هناك، ومن حوارات، من كتب من ملاحظات مباشرة ـ راحت الصورة تتكاسل ببطء في ذهني ودون أن أعي أنها تتكون وتتكامل داخلي...».

[٢]

حين حططنا رحالنا في الليل؛ انشغل زيد في إعداد الخبز. عجن طحين القمح الخشن بالماء وبعض الملح وشكله على هيئة أرغفة مستديرة بسُمك بوصة، ثم حفر حفرة في الرمال، ملأها بأغصان جافة ثم أشعل فيها النار؛ وحين خمدت ألسنة اللُّهب ولم تتبق إلا الجمرات الملتهبة، وضع الأرغفة عليها، وغطاها بأغصان جافة أشعل فيها النيران. بعد فترة أزاح الأغصان العلوية وقلب الأرغفة على الوجه الآخر، ثم أخرجها بعد ذلك ودق عليها برقة لإزالة أي رمال عالقة بالخبز. أكلنا الخبز الطازج مع بعض الزبد والتمر. لم أذق قط خبزاً أشهى من ذلك الخبز.

أشبعنا جوعنا، إلا أن فضول منصور لم يشبع. وحين تمددنا بجوار النار، واصل إمطاري بأسئلته عن كيفية اعتناقي الإسلام ـ وبينما كنت أشرح له كيف حدث ذلك، أدهشني صعوبة سرد أحداث ذلك الطريق الطويل وما صاحبه من أحداث وأفكار حتى وصلت إلى الإسلام، قلت:

«الإسلام يا منصور، دخلني كما يدخل المتسلل إلى منزل ليلاً، دون صخب ولا جلبة: الفارق الوحيد بالاختلاف مع المتسلل، أنه دخل إلى عقلي ليبقى به إلى الأبد. غير أن الأمر استغرق أعواماً قبل أن أكتشف أنني قد آمنت من أعماقي بالإسلام...».

عاد فكري من جديد إلى أيام رحلتي الثانية إلى الشرق الأوسط ـ حين كان التفكير في الإسلام يشغل ذهني ـ إلا أن الأمر بدا لي في ذلك الوقت على أنه رحلة استكشاف ما لا أعرفه من تلك المناطق. كل يوم كان يمر كان يضيف لي معارف جديدة؛ كما يطرح أسئلة جديدة تنبع من داخلي لأجد إجاباتها تأتيني من خارجي. كلها أيقظت شيئاً ما كان كامناً بأعماقي؛ وكلما نَمَت معارفي عن الإسلام كنت أشعر مرة بعد أخرى، أن الحقائق الجوهرية التي كانت كامنة في أعماقي دون أن أعي وجودها، بدأت تنكشف تدريجياً، ويتأكد تطابقها مع الإسلام.

في بدايات صيف ١٩٢٤ انطلقت من القاهرة في جولة طويلة خططت لها أن تدوم عامين. عدت مرة أخرى إلى عبر الأردن وقضيت بعض الأيام مع الأمير عبد الله، مستمتعاً بأصالة الطبيعة البدوية التي لم تكن قد تأثرت بعد بأنماط الحياة الغربية. وحصلت على موافقة فرنسية دبرتها لي جريدة «فرانكفورتر ذيتونج»، ودخلت سوريا مرة أخرى. جاءت دمشق ومضت، واحتضنتني الحياة الشرقية في بيروت لبعض الوقت، ومنها توجهت إلى مدينة طرابلس التي كانت تتبع سوريا في ذلك الوقت، كانت مدينة خارج نطاق وإطار أية أحداث وتحيا حياة سعيدة هادئة أقرب إلى النعاس. كانت القوارب الشراعية البسيطة ترسو في مراسيها بالميناء المفتوح، كانت أشرعتها اللاتينية الطراز تتماوج وتئن في وهن، وأبناء المدينة يقضون أوقاتهم بالجلوس على مقاعد واطئة أمام المقاهي في مواجهة الميناء، يتناولون في استرخاء أقداح القهوة ذات الرائحة النفاذة ويدخنون الأراجيل في الأمسيات تحت أشعة الشمس الموشكة على المغيب، لا تجد في أنحائها إلا الهدوء والسلام والرضا مع توفر الرزق؛ حتى المتسولون بدوا وكأنهم يستمتعون بأشعة

الشمس المائلة للمغيب، كأنهم يقولون في سريرتهم: «ما أجمل أن تكون شحاذاً في طرابلس».

ثم وصلت إلى مدينة حلب. ذكرتني شوارعها ومبانيها بمدينة القدس، مبانٍ حجرية قديمة كأنها نبتت من الأرض، ذات ممرات مظلمة مسقوفة، وميادين هادئة صامتة، ونوافذ منحوتة. أما قلب حلب فقد كان يختلف تماماً عن القدس. فالجو السائد في القدس يسوده صراع التيارات الدولية، وكانت تلك الصراعات مثل التقلص العضلي المؤلم شديد التعقيد؛ يعكس هو الآخر تعقيدات المواقف الدولية، وأفرخت المعتقدات الدينية المتباينة سحابة من سم الكراهية على ساكنيها. أما حلب. . على الرغم من أنها كانت خليطاً من البدو العرب والشرقيين مع مسحة تركية لقربها منها ـ فقد كانت متآلفة وهادئة وصافية. المنازل الحجرية بشرفاتها الخشبية تبدو حية حتى في صمتها. كانت سوقها القديمة تتميز بالصناعات اليدوية الشرقية الدقيقة، وأحواشها ذات العقود الحجرية المليئة بصنوف البضائع، وتنافس مرح بين تجارها الخالين من أي أنواع الحسد والضغينة؛ الكل متمهل، ارتخاء وراحة تحتضن حتى الغريب وتجعله يتمنى أن تكون كل حياته بتلك الراحة والاسترخاء: عناصر كثيرة تجتمع في حلب تتدفق معاً لتكون لحناً قوياً رائعاً.

من حلب توجهت بالسيارة إلى مدينة دير الزور، وهي مدينة صغيرة بأقصى شمال سوريا، ونويت أن أتوجه منها إلى بغداد عبر طريق التجارة القديم المجاور لنهر الفرات؛ وفي تلك الرحلة قابلت زيداً لأول مرة.

بعكس طريق دمشق ـ بغداد الذي كانت السيارات قد اعتادت

سلوكه، كان الطريق المجاور لنهر الفرات من دير الزور حتى بغداد غير مطروق للسيارات؛ وفي الحقيقة كانت سيارة واحدة قد سلكت ذلك الطريق من قبل وصولي بعدة أشهر. وكان قائد السيارة الأرمني الذي اتفقت معه لم يخرج خارج دير الزور بالسيارة قبل ذلك، إلا أن الثقة كانت تملؤه بأنه يستطيع القيادة عبر الطريق القديم حتى بغداد، خاصة إذا استفسر ممن يعرفون الطريق عن بعض المعلومات التي تنقصه، فذهبنا إلى الشارع التجاري لتقصي تلك المعلومات.

كان الشارع التجاري يمتد من بداية مدينة دير الزور حتى نهايتها، وكان يُعَدّ شكلاً غير رسمي من أشكال التقسيم يفصل ما بين الجزء الحضري السوري وبين القسم البدوي، ومع أن المدينة بأجمعها كانت أقرب إلى الطابع البدوي. في أحد المحالّ الحديثة، كانت توجد البطاقات التذكارية سيئة الطباعة، وفيما يليه تجد بعض البدو واقفين يتناقشون في أحوال سقوط الأمطار على الصحراء، وعن النزاع الذي نشب بين قبيلة بشر ـ عنازا السورية وقبائل شمار العراقية؛ وراح واحد منهم يحكي عن الغارة التي شنها زعيم بدو نجد، فيصل الداويش، على جنوب العراق، كما ورد على لسانهم اسم رجل الجزيرة العربية العظيم، ابن سعود.

كانت المتاجر تعرض بنادق قديمة ذات مواسير طويلة ومقابض مزينة بالفضة ـ طرز قديمة لم يعد أحد يشتريها الآن، لأن البنادق الحديثة الآلية أصبحت أكثر فعالية ـ ومحلات أخرى تعرض أزياء رسمية مستعملة من أرجاء القارات الثلاث، وسروج جمال من نجد، وإطارات سيارات ماركة جوديير، ومصابيح عواصف من «لايبزج»، وعباءات

بدوية يمنية من الجوخ. لم تبد البضائع الغربية دخيلة بين الأنواع والأصناف الأخرى؛ كانت فوائدها العملية تعطيها شرعية وجودها. كان البدو بوعيهم العملي يعتادون بسرعة تلك السلع الجديدة كأنها من إبداعهم، لم أكن أدرك تماماً حتى ذلك الوقت ما يمكن أن تسببه «الحداثة» الغربية لأولئك الناس البسطاء الأميين...

في الوقت الذي انشغل فيه قائد السيارة الأرمني بالتقصي عن حال الطريق إلى بغداد من بعض البدو، أحسست بمن يجذب كم قميصي: استدرت. وجدت أمامي رجلاً عربياً حسن الوجه تبدو عليه إمارات الجد والحزم، في بداية الثلاثينيات من عمره. قال في صوت خشن بطيء:

«بإذنك يا أفندي، سمعت أنك مسافر إلى بغداد بالسيارة وأنك تجهل الطريق، ومسالكه. دعني أذهب معك؛ قد أكون ذا فائدة لك».

«أنا زيد بن غانم، من قوات (العجايل) العاملة في العراق».

لم ألحظ إلا في تلك اللحظة لون القفطان الكاكي الذي يرتديه والنجمة سباعية الأضلاع التي يثبتها على عقاله الأسود وهي رمز قوات الصحراء العراقية، كانت تلك القوات، التي يطلق عليها العرب اسم «العجايل»، قد أسسها الاستعمار التركي: وهي قوات من المتطوعين يُنتقون من بين أهل وسط الجزيرة العربية المتمرسين بالصحاري وركوب الجمال.

أخبرني زيد أنه قدم إلى دير الزور بصحبة أحد ضباط تلك القوات في مهمة إدارية تتعلق بالحدود السورية العراقية. وبينما كان الضابط قد عاد إلى العراق، بقي زيد لبعض الأمور الشخصية. وهو الآن يفضل

السفر معي إلى العراق بدلاً من سلوك الطريق التقليدي الذي يستلزم العودة إلى دمشق أولاً، ومنها إلى العراق، واعترف لي أنه لم يسلك الطريق الذي ننوي السير فيه قبل ذلك بمحاذاة نهر الفرات، وقال إنه يعرف كما أعرف أنا أن سبب انحناءات الطريق أن النهر لن يكون ملاصقاً للطريق عبر كل المسافة ـ و«لكن»، أضاف زيد، «الصحراء هي الصحراء، والشمس والنجوم هي الشمس والنجوم في أي مكان، وإن شاء الله نستطيع أن نجد طريقنا إلى بغداد». أسعدتني ثقته الجادة بنفسه، ووافقت بكل سرور أن يصحبنا في ذلك السفر.

في الصباح التالي غادرنا دير الزور. وفتحت صحراء «حمادا» الكبرى أحضانها لعجلات سيارتنا التي كانت من طراز «تي ـ فورد»: سهول لا تنتهي من الحصى الصغير، يستوي أحياناً كالأسفلت ويمتد أحياناً في تموجات صاعدة أو هابطة من الأفق حتى الأفق المقابل.

أحياناً يبدو نهر الفرات قريباً إلى اليسار، وتبدو مياهه بلون الطمي وهادئ، بضفاف منخفضة، كبحيرة هادئة، حتى تلمح قطعة طافية من الأخشاب أو قارباً فوق سطح مياهه يكشف سرعة تدفقه وجريانه. نهر عريض له عظمة الملوك، تجري مياهه في صمت؛ لم يكن صاخباً؛ ولا أهوج، وبلا أمواج تهدر. يمضي منساباً في شريط عريض، متحرراً من أي قيد، يختاره مساره ومجراه عبر منحنيات لا نهائية في صحراء مترامية، ند لند، تيه وفخار يشق طريقه داخل تيه وفخار: فالصحراء التي يمضي فيها لم تكن تقل عنه قوة.

جلس زيد، مرافقنا الجديد بجوار السائق ضاماً ركبتيه إلى صدره، التمع في قدميه حذاء جديد من الجلد الطبيعي المغربي كان اشتراه في اليوم السابق من سوق دير الزور.

كنا نلتقي أحياناً براكبي جمال يظهرون من لا مكان في قلب الصحراء، يتوقفون بجمالهم للحظات ويتأملون السيارة في دهشة، ثم يحثون إبلهم على مواصلة السير، كانوا من رعاة الإبل، أحالت الشمس بشرتهم إلى لون برونزي داكن. كنا نتوقف فترات قصيرة بمفردنا في استراحات الطريق المهدمة ولا يوجد غيرها في صحراء لا نعرف مداها، اختفى نهر الفرات خلف الأفق. الرياح تهب بقوة على رمال الصحراء، مساحات شاسعة من الحصى تتناثر بينها تجمعات عشبية ونباتات شوكية، إلى اليمين سلاسل من التلال الواطئة وعارية من أية نباتات وذات فروع، تظهر فجأة لتخفي وراءها لا نهائية الصحراء، يتساءل المرء عما يمكن أن يوجد وراء تلك التلال؟ وبالرغم من إدراكك أن ما خلفها ليس إلا تلالاً أخرى ومساحات من الحصى تعرض نفسها لوابل حرارة الشمس، فإن التساؤل يظل معلقاً بلا إجابة؟ وهدوء ما بعد الظهر لا يقطعه إلا صوت المحرك وصوت احتكاك إطارات السيارة بحصى الأرض. هل سقطت حافة العالم في هذا المكان وشكلت تلك الهاوية البدائية؟

بعد الظهر أدرك السائق أنه نسي تزويد مبرد المحرك بالماء عند آخر استراحة توقفنا بها. كان النهر غير ظاهر وبعيداً ولا نعلم موضعه من مكاننا؛ كل ما كان حولنا حتى الأفق المتموج البعيد لا يظهر إلا فراغاً، سهل جيري أبيض شديد الحرارة؛ تجري فوقه رياح شديدة السخونة، تأتي من المجهول وتمضي إلى المجهول، بلا بداية ولا نهاية، بصوت مكتوم يأتي من الأبدية ذاتها.

قال السائق في لامبالاة شرقية (وهي صفة سائدة كنت أعجب بها

أحياناً - إلا في ذلك الوقت): «على أي حال سنصل إلى استراحة تالية»، ولكن بدا لي «على أية حال» هذه التي قالها السائق لن تتحقق قط. كانت الشمس لافحة، وقرقر الماء في المبرد كما يقرقر الماء الفائر في غلاية الشاي على النار. التقينا ببعض البدو من الرعاة. ماء؟ لا، لا يوجد إلا على مسيرة خمسة عشر ساعة بالجمال. سألهم السائق الأرمني في تعجب: «وماذا تشربون؟»، ضحكوا قائلين: «نشرب حليب النوق». لا بد أنهم ضحكوا في أعماقهم من أولئك المجانين الذين يركبون تلك الآلة الشيطانية السريعة، يسألون عن ماء - بينما يعرف أي طفل بدوي أنه لا يوجد أي ماء في تلك الأنحاء.

تطور غير سار: أن نبقى محاصرين في تلك الصحراء بمحرك معطل، دون ماء، ولا طعام، وننتظر حتى تمر سيارة أخرى - ربما غداً أو بعد غد - أو ربما بعد شهر...

بمرور الوقت بدأ السائق يفقد ابتسامة اللامبالاة، أوقف السيارة وحل غطاء المبرد؛ اندفع بخار ماء كثيف صدر عنه هسيس وصفير من شدة اندفاعه، كان معي بعض ماء الشرب في قنينتي ضحيت بها من أجل محرك السيارة. أضاف الأرمني قليلاً من الزيت على الماء، وحملتنا السيارة الشجاعة لمسافة أخرى.

قال الأرمني المتفائل: «أعتقد أننا يمكن أن نجد ماءً في تلك الجهة إلى اليمين، تلك التلال تبدو خضراء - وحيث ينمو العشب في هذا الوقت من العام، لا بد أن هناك ماء. وما دام هناك ماء، لماذا لا نسوق باتجاهه؟

المنطق دائماً ما يحوطه شيء ما لا يمكن مقاومته؛ وبالرغم من أن

منطق الأرمني كان منطقاً أعرج، إلا أنه انحرف بالسيارة عن مسارنا وقاد عدة أميال باتجاه التلال البعيدة التي أشار إليها: لم نجد ماءً. . . كانت التلال مغطاة بحجارة متناثرة خضراء اللون.

بدأ صوت الفحيح والهسيس الصادر من المحرك يزداد من جديد، وبدأت مكابس المحرك تصدر أصواتاً خشنة منذرة بتحطمه من الداخل، كان الدخان الرمادي قد بدأ يتصاعد من فتحة بغطاء السيارة الأمامي، بعد دقائق أخرى لا بد أن يتحطم شيء ما: تحطم عامود الحركة أو شيء غيره، كنا في ذلك الوقت قد انحرفنا بعيداً تماماً عن طريق القوافل الذي كنا عليه؛ وإن حدث أي انهيار للمحرك الآن، سنبقى هنا بلا أمل. أفرغنا كل ما معنا من زيت في مبرد الموتور، أصبح السائق في حالة هستيرية وهو يبحث عن الماء، يقود تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، وأحياناً في دوائر ومنحنيات؛ إلا أن الماء رفض أن يظهر، حتى قنينة «الكونياك» التي أفرغتها في حسرة في المبرد لم تؤثر بأي حال باستثناء أنه غلفنا في سحابة من بخار الكحول جعلت زيد (الذي لم يعرف الكحول في حياته) على وشك القيء من شدة الغثيان الذي أحس به. كانت المحاولة الأخيرة وهي ما جعل زيد يتخلى عن جموده وتعطل فكره. بحركة غاضبة جذب الكوفية إلى أسفل فوق عينيه، ومال بجذعه فوق حافة السيارة الساخنة وبدأ يحدق في أرجاء السهل الصحراوي الذي كنا به، يحدق بتركيز وانتباه أولئك الذين نشأوا وتربوا في الخلاء واعتادوا الاعتماد على حواسهم الحادة. انتظرنا في ترقب وتحفز، دون أمل كبير، فقد أخبرنا من قبل، أنه لم يمر بتلك المنطقة في حياته. إلا أنه أشار بيده تجاه الشمال وقال: «هناك». كانت الكلمة التي نطقها بمثابة أمر لا راد له؛ أطاع السائق الأمر في الحال، كما لو كان قد

أراحه أن يتولى أحد مسؤولية البحث. بأنين شديد صادر من المحرك اتجهنا إلى الشمال. فجأة رفع زيد بدنه كمَنْ يهم بالنهوض، ووضع كفه على ذراع السائق، وأمره بالتوقف. جلس للحظات ورأسه منحنٍ للأمام مثلما يتشمم كلب الصيد؛ وبدت حول شفتيه المزمومتين ارتعاشة طفيفة لا تدركها إلا العين الفاحصة.

ثم قال فجأة: «كلا، قُدْ في هذا الاتجاه»، وأشار إلى الشمال الشرقي، ثم أردف بحزم: «بسرعة»، ومرة أخرى أطاع السائق الأمر دون كلمة. وبعد دقيقتين صاح من جديد: «قف»، وقفز بخفة من السيارة، جامعاً عباءته الطويلة بين يديه وجرى للأمام في خط مستقيم، ثم توقف، واستدار وكرر ذلك عدة مرات كأنه يبحث عن شيء أو يستمع إلى صوت داخلي ـ نسيت المحرك والورطة التي نعانيها وأصبحت أسير مشهد رجل يستجمع كل حواسه، ما ظهر منها وما بطن ويندمج مع عناصر الطبيعة، وفجأة تحرك في خطوات واسعة في البداية ثم هرول واختفى بين تلين، وبعد فترة ظهر رأسه ولوح بيديه قائلاً: «ماء».

جرينا باتجاهه ـ وكان الماء هناك: في حفرة محمية من الشمس بصخور معلقة فوقها التمع سطح بركة صغيرة من الماء، بقايا أمطار الشتاء الماضي، كانت صفراء بنية بها عوالق طينية، إلا أنه ماء، ماء حقيقي. بعض غرائز أهل الصحراء غير المفهومة لدى رجل صحراء نجد كشفت عن موضعه... وبينما انهمكت أنا والسائق الأرمني في الاغتراف من سطح المياه وإفراغها في صفائح الوقود الفارغة، وتنقله إلى المحرك الذي أضناه نقص الماء، تمشى زيد مبتسماً ابتسامة البطل الصامت بجوار السيارة جيئة وذهاباً.

* * *

في ظهر اليوم الثالث وصلنا إلى أول قرية عراقية ـ قرية آنا على نهر الفرات ـ وقدنا السيارة لساعات بين بساتين النخيل التي تحوطها أسوار طينية. على طول المسافة التي قطعناها كانت تنتشر قوات «العجايل»، وكان أغلبهم كما أخبرنا زيد من أبناء قبيلته، ينتشرون بخيولهم بين ظلال أشجار النخيل تنعكس عليهم بقع الشمس والضوء الأخضر الساقط من قمم الأشجار فبدوا في عظمة وكبرياء الملوك. حيا زيد بعضهم ونحن نمر بهم، وكانت جوانب كوفيته السوداء تخفق في الهواء وتضرب على جانبي وجهه. وبالرغم من اعتياده قسوة الصحراء وحرارتها، إلا أنه كان فائق الحساسية، فعندما كنا نمر على طريق القرى الترابية كان يلف كوفيته ويغطي بها فمه لتجنب تنفس الغبار المثار ـ وهو الغبار الذي لم نأبه له ونحن أبناء المدن المنعمين ـ وحين أصبحت السيارة في منطقة حصى لا يثير غباراً، أزاح كوفيته إلى الخلف في حركة ناعمة تشبه حركات الفتيات المدللات، وبدأ في الغناء: فجأة وبلا أي تمهيد بدأ في الغناء، كما لو كان جبل ينزل فجأة على واد. كان ينشد قصيدة نجدية من قصائد الشعر الغنائي ـ نغمات طويلة صعوداً وهبوطاً والإيقاع لا يتغير، يتدفق مثلما تتدفق رياح الصحراء، قادمة من مجهول وماضية إلى مجهول.

في القرية التالية طلب من السائق أن يتوقف، قفز من السيارة وشكرني على السماح له بمرافقتنا، علق بندقيته على ظهره، واختفى بين النخيل، وظلت بالسيارة رائحة لا اسم لها ـ رائحة إنسانية مكتملة بذاتها، ذكرى نابضة ببراءة الروح التي طال نسيانها والمستعصية على النسيان في الآن نفسه. في ذلك اليوم في قرية آنا ظننت أنني لن أرى زيداً بعد ذلك أبداً؛ إلا أن ظني لم يكن صحيحاً. . .

* * *

في اليوم التالي وصلت إلى «حت»، وهي مدينة صغيرة تقع على نهر الفرات، في نقطة التقاء الطريق الصحراوي القادم من دمشق إلى بغداد بالطريق الذي سلكناه. كانت «حت» تتوج قمم تل بأسوارها وأبراجها، فقد كانت المدينة تشبه حصناً قديماً. لم تبد بها أية حياة ولا من حولها. كانت منازلها الخارجية كأنها حوائط نبتت من الأرض؛ بلا نوافذ، باستثناء فتحات ضيقة مثل فتحات الرماية بالبنادق في الحصون، ومن منتصف المدينة ارتفعت مئذنة مسجد أعلى من بيوتها.

توقفت لقضاء الليل في استراحة قريبة من النهر. وبينما كان العشاء يعد لي أنا وسائق السيارة، ذهبت للاغتسال في البئر الموجودة بالفناء، حيث جلست القرفصاء لأغتسل، مدَّ شخص يده وتناول الإبريق ذا الفوهة الطويلة، وراح يسكب لي الماء لأغتسل. تطلعت إليه فرأيت رجلاً متين البنيان ذا بَشرة داكنة ويضع على رأسه غطاء رأس من الفراء؛ ساعدني على الاغتسال دون أن أطلب منه. كان من الواضح أنه ليس عربياً. حين سألته من هو؟ أجاب بلغة عربية تشوبها لكنة: «أنا من التتار، من أذربيجان».

كانت له عينان رقيقتان في رقة عيون الكلاب، وكان زيه الذي كان عسكرياً في يوم ما زياً رثاً بالياً، تبادلنا الحديث، بالعربية أحياناً، وببعض الكلمات الفارسية حيناً آخر وكنت قد تعلمتها من طالب إيراني كان يدرس بالأزهر في القاهرة. علمت أن اسمه إبراهيم. قضى أغلب عمره ـ وكان يناهز الأربعين ـ على الطرق الإيرانية؛ اشتغل لأعوام بقيادة عربات نقل البضائع من «تبريز» إلى «طهران»، ومن «مشهد» إلى «بيرجند»، ومن «طهران» إلى «أصفهان»، و«شيراز». وذات يوم امتلك

مجموعة من الخيول، وخدم كجندي في قوات الحرس الراكبة، وكحارس شخصي لزعيم محلي تركماني، وسائس خيول في استراحة بأصفهان، وفي الوقت الذي التقيته كان قد جاء إلى العراق كسائق بغل في قافلة حجاج إيرانيين إلى مدينة كربلاء، واشتجر وقائد القافلة ففقد عمله في بلد أجنبي وأصبح عاطلاً.

في تلك الليلة تمددت لأنام على أريكة خشبية في الفناء المليء بالنخيل. كان الجو شديد الحرارة مشبعاً برطوبة خانقة، وجحافل أسراب البعوض تتطاير من حولي وقد انتفخت بالدماء التي امتصتها. ألقت بعض المصابيح ضوءاً هزيلاً لم يبدد ظلمة الليل. كانت بعض الخيول مربوطة إلى أحد الجدران وربما كانت لصاحب الخان. كان إبراهيم التتاري يمسد واحداً من تلك الخيول، بطريقة تظهر ولعه وحبه للخيل، كانت أصابعه تمسد عرف الحصان كما يمسد المحب شعر محبوبته.

طرأت على ذهني فكرة جديدة. لقد كنت في طريقي إلى إيران، وربما أقضي بها شهوراً طويلة منتقلاً على ظهور الخيل، فلماذا لا أستعين بهذا الرجل؟ بالتأكيد سأكون في حاجة إلى رجل يعرف مسالك إيران وطرقها ويعرف خاناتها كما يعرف المرء منزله.

حين أخبرته في الصباح أنني أفكر في ضمه إليّ كخادم، أوشك على البكاء من شدة امتنانه وقال لي بالفارسية: «يا حضرة، لن تندم على ذلك أبداً...».

كان الوقت ظهراً في خامس يوم بعد مغادرتي حلب حين ظهر أول مشهد لمزارع النخيل الشاسعة التي تحيط ببغداد. وبين تجمعات قمم

النخيل لمعت قبة مسجد ومئذنته العالية. على جانبي الطريق كانت هناك مدافن قديمة بشواهد قبور محطمة ومتداعية ويعشش فوقها التراب الذي ظهر كحجاب من قماش فضي في ضوء شمس الظهيرة - كحاجز فضي غامض بين عالم الأموات المنقضي والحاضر الحالي الحي. مضينا إلى قلب أشجار النخيل - ميلاً بعد ميل لا تجد إلا أعداداً هائلة من جذوع النخيل الصاعدة إلى السماء ومحملة في نهايتها بأسباط البلح - حتى انتهت فجأة على حافة نهر دجلة. لم يكن نهر دجلة يشبه الفرات بأية حال: كانت مياهه طينية خضراء ثقيلة متماوجة مقارنة بالتدفق المهيب الجليل لنهر الفرات.

عبرنا نهر دجلة على معبر متأرجح متهالك، وهبطت علينا حرارة الخليج الفارسي الخانقة.

لم يتبق في بغداد شيء من عظمتها وروعتها التاريخية القديمة. دمر هجوم المغول في القرون الوسطى المدينة بأجمعها فلم يبق منها شيء يذكر بعظمة هارون الرشيد. لم يبق إلا مدينة موحشة كئيبة عشوائية - ربما كانت مباني مؤقتة. كانت المدينة قد بدأت في التغير والحراك، كانت هناك مبانٍ حديثة عالية؛ فمن سبات الإدارة التركية الخاملة كانت عاصمة عربية تبرز إلى الوجود ببطء.

نركت الحرارة الشديدة بصماتها حتى على حركة البشر المتثاقلة. كان الناس يسيرون ببطء متناه في الشوارع وكأن دماءهم ثقيلة، بلا مرح ودون مهابة وجلال. وجوههم عابسة لا تحمل وداً، وتعلوها كوفيات مخططة بالأبيض والأسود؛ وإن رأيت مصادفة وجهاً حسن المحيا وتحمل ملامحه اعتداداً واعتزازاً بالذات لا بد أن تجد أن كوفيته مخططة

بالأحمر والأبيض مما يعني أنه لا ينتمي إلى بغداد، ربما كان من الشمال من سوريا أو من الجزيرة العربية.

كان يبدو على وجوه أهل بغداد كراهية عميقة للقوى الأجنبية التي حرمتهم من حريتهم، كان تطلعهم إلى الحرية يسيطر على تفكيرهم. قد يتغير ذلك العبوس الذي يعلو وجوههم عندما يلتقون بأهلهم في الحواري الضيقة وفي المنازل المحاطة بالأسوار. لو تفحصت تلك الوجوه، ستجد أنها لا تخلو من سحر وجاذبية. وربما يضحكون أحياناً مثلما يفعل العرب الآخرون. نساؤهم تسير بالطرقات في ملاءات زاهية الألوان: أثواب غالية ترتديها نساء منقبات بألوان من الأسود والأحمر، أو الأزرق الفضي وأحمر «بوردو» القاني، مجموعات من الملاءات الزاهية تتهادى في الطرقات دون أن يصدر عنهن صوت لوقع أقدامهن.

* * *

بعد عدة أسابيع من وصولي إلى بغداد، وبينما كنت أمشي في السوق الكبير للمدينة، سمعت صيحة من أحد طرقات السوق المسقوفة، وتردد صداها في شوارع السوق. من إحدى زوايا الشارع اندفع رجل هارباً، ثم تلاه آخر، ثم ثالث، وبدأ الناس يركضون كأنما يطاردهم خوف يعلمون سببه ولا أعلمه. ثم سمعت وقع حوافر خيول: وظهر راكب حصان يركض به في خوف والناس يفسحون له الطريق وهم هاربون، ثم مزيد من الراكضين آتين كلهم من جهة واحدة يحملون ما اشتروه في فوضى عارمة وراحوا جميعاً يندفعون هاربين في اتجاه واحد. راح أصحاب المحلات يغلقون أبوابها في عجلة ويضعون العوارض الخشبية على الأبواب، لا أحد يتحدث إلى أحد، الكل يهرب

في صمت، لا تسمع من آن إلى آخر إلا صرخات من يسقطون أرضاً أثناء فرارهم؛ أو صراخ طفل مفزوع.

ماذا حدث؟ لا إجابة، الوجوه شاحبة في كل مكان، اندفعت عربة بنصف ما كانت تحمله من بضائع بخيولها دون سائق في حواري السوق الضيقة. من مكان لا أراه سمعت صوت تساقط وتحطم أكوام من الأواني الفخارية وميزت صوت تدحرج بعضها على الأرض.

باستثناء تلك الأصوات المتناثرة وعدو الناس ولهاثهم، ساد صمت ثقيل الوطأة، مثل ذلك الذي يحدث أحياناً في بدايات الزلازل. لم يكن يقطع الصمت إلا صوت احتكاك الأقدام العادية بالأرض؛ أو صرخة امرأة أو بكاء طفل. ثم بعض راكبي الخيل الفارين. فزع، فرار، وصمت. فوضى مجنونة في تقاطعات شوارع السوق المسقوفة.

انحشرت وسط أحد تلك الحشود عند أحد التقاطعات، لا أستطيع أن أتقدم ولا أن أتقهقر، وفي الحقيقة، لا أعرف إلى أين يجب أن أمضي. في تلك اللحظة أحسست بيد تقبض على ذراعي: التفت فوجدته زيد، كان يجذبني تجاهه خلف حاجز من البراميل بين بابي محلين. همس قائلاً: «لا تتحرك».

أز صوت حاد ـ طلقة بندقية؟ مستحيل. . .

من بعيد، من أعماق السوق الداخلية، جاء خليط من أصوات بشرية. مرة أخرى أز صوت طلقة نارية لا يمكن أن تخطئه إذن، هذه المرة: كانت طلقة بندقية. . .

من بعيد أتى صوت واهن لقرقعات على الأرض، كصوت حبات البازلاء الجافة حين تتساقط على الأرض. اقترب الصوت ببطء وازداد

علواً، ذلك الصوت المريب، المنطلق في دفقات: تعرفت عليه أخيراً: كان صوت مدفع رشاش.

كانت بغداد تعلن التمرد مرة أخرى. في اليوم السابق، التاسع والعشرين من مايو ١٩٢٤، كان البرلمان العراقي قد أقر معاهدة تتعارض مع رغبة الشعب العراقي، معاهدة صداقة وتحالف مع بريطانيا العظمى، والآن يحاول الشعب اليائس أن يدافع عن نفسه ضد صداقة القوة الأوروبية العظمى...

علمت بعد ذلك أن القوات البريطانية أغلقت كل منافذ السوق من الخارج لإجهاض خروج مظاهر معادية، وأن كثيرين لقوا مصرعهم في ذلك اليوم نتيجة لإطلاق القوات البريطانية النار بطريقة عشوائية بالسوق. ولو لم يظهر زيد في اللحظة المناسبة، ربما كنت قد عدوت عن جهل في اتجاه المدافع الرشاشة.

كان ذلك اليوم هو بداية صداقتنا الحقة. كانت حكمة زيد ورجولته تجذبني بقوة إليه، وكان من الواضح أنه أيضاً قد مال إلى أوروبي شاب لم يجد لديه ما يسيء للعرب. أخبرني زيد بقصة حياته البسيطة، فقد نشأ في خدمة الأسرة الحاكمة في مدينة حائل مثل أبيه من قبله، وكانت تلك الأسرة الحاكمة من قبائل شمار وهي أسرة ابن راشد؛ وحكى لي كيف غادر موطنه هو وكثيرون من أبناء قبائل شمار بعد أن غزا ابن سعود مدينة حائل عام ١٩٢١ واعتقل آخر حاكم من أسرة ابن راشد، غادر زيد بلاده مفضلاً مواجهة مستقبل غامض على الخضوع لحاكم آخر ليس من أبناء قبيلته. وها هو، يضع على عقاله النجمة السباعية العراقية، ويتوق شوقاً إلى موطنه.

خلال الأسابيع التي قضيتها بالعراق كنا نلتقي كثيراً، وظللنا على اتصال في الأعوام التي تلت ذلك. كنت أكتب إليه أحياناً، ومرة أو مرتين أرسلت إليه هدية بسيطة كنت أشتريها من أحد المتاجر الإيرانية أو الأفغانية؛ وفي كل مرة يرد برسالة ركيكة الخط يذكرني فيها بأيام العراق وأيام السفر بالسيارة بموازاة نهر الفرات أو زيادة الأسود المجنحة بين أنقاض مدينة بابل.

وأخيراً، حين جئت إلى الجزيرة العربية عام ١٩٢٧، أرسلت إليه في العراق طالباً منه أن يلحق بي، وقد فعل ذلك في العام التالي، ومنذ ذلك الوقت أصبح مرافقاً لي، كان مرافقاً أكثر منه خادماً.

* * *

في بدايات العشرينيات من القرن العشرين، كانت السيارات نادرة في إيران، وكان عدد محدود منها معروضاً للإيجار بين المدن الرئيسية. ولو أراد مسافر أن يخرج عن نطاق ثلاثة أو أربعة طرق رئيسية، كان لا بد له أن يعتمد على العربات التي تجرها الخيول، وحتى عربات الخيول لم يكن بمقدورها أن تمضي إلى كل مكان، فقد كانت هناك مناطق كثيرة بإيران لا توجد بها طرق من أي نوع. ولامرئ مثلي، يتوق إلى الاختلاط بالناس ومعرفتهم في أماكن معيشتهم، لم يكن أمامي بديل من التنقل على ظهور الخيل؛ ولذلك وخلال آخر أسبوع لي ببغداد، وبمعاونة إبراهيم التتاري، كنت أتوجه كل صباح إلى سوق الخيل خارج المدينة. وبعد مفاوضات دامت أياماً، اشتريت جواداً لي وبغلاً لإبراهيم. كان جوادي في لون البندق من سلالة من جنوب إيران، بينما كان البغل ـ وهو حيوان عنيد له عضلات من فولاذ ـ رمادي اللون من

تركيا؛ كان بإمكانه أن يحمل بسهولة بالإضافة إلى راكبه، الحقائب وأجولة الأمتعة التي تحتوي على كل ضرورات الحياة.

امتطى إبراهيم جوادي وجر البغل من مقوده وانطلق ذات صباح قاصداً مدينة خانقين، وهي آخر مدينة عراقية على الحدود الإيرانية، ونهاية خط السكة الحديد الواصل من بغداد إلى خانقين؛ وتبعته بعد يومين بالقطار لألحق به هناك.

غادرنا خانقين تاركين العالم العربي خلفنا. أمامنا نهضت تلال صفراء اللون، تقف كالخفراء أمام جبال شاهقة العلو: جبال الهضبة الإيرانية، عالم جديد بانتظاري.

كانت نقطة العبور على الحدود مبنى صغيراً وحيداً يعلوه علم باهت بألوان خضراء وبيضاء وحمراء ورسم رمزي لأسد يحمل بيده سيفاً. تحت شمس ساطعة كان موظفو نقطة العبور يرتدون زياً رسمياً موحداً بادي الاتساخ والإهمال ويضعون من أقدامهم خفوفاً بيضاء سود الشعر بيض البشرة، فحصوا أمتعتي القليلة بطريقة ودودة ولكن متحفظة، ثم وجه أحدهم حديثه إلي قائلاً: «كل شيء مضبوط جناب العالي. كرمك على صحارينا، هل تتفضل بتناول كوب من الشاي معنا؟».

بينما كنت ما زلت مندهشاً من عبارات الترحيب الغريبة، ورد إلى ذهني مدى الاختلاف بين العربية والفارسية بالرغم من احتواء الفارسية على كثير من المفردات العربية. تبدو الفارسية ذات نغم جميل، وتبدو مفرداتها الناعمة الجميلة الرقيقة بمقاطعها الصوتية وكأنها لغة «غربية» بعكس الأصوات الحادة للغة العربية.

لم نكن المسافرين الوحيدين، كانت هناك عربات مثقلة بالأحمال

من المنسوجات، يجر كل منها أربعة من الخيول، وكانت هناك قافلة من البغال على مقربة. كان رجال القافلة يطهون طعاماً على نار أشعلوها. بدا أنهم تخلوا عن فكرة استكمال السفر في الحال، بالرغم أن الوقت كان في الساعات الأولى بعد انتصاف النهار. قررت أن نفعل الشيء نفسه ولا أتذكر السبب. قضينا الليل في العراء فوق أغطيتنا التي فرشناها على الأرض.

في باكورة الفجر بدأت العربات والقافلة في التحرك باتجاه الجبال العارية، ركبنا وسرنا معهم، كان الطريق صاعداً باضطراد، سبقنا القافلة والعربات البطيئة، توغلنا أعمق في مناطق الأكراد الجبلية، أرض الرعاة الشقر طوال القامة.

رأيت أول راع منهم عند أحد منحنيات الطريق، كان يخرج من كوخ واطئ مصنوع من أغصان الأشجار الجافة وقدم لنا دون كلمة وعاءً خشبياً مليئاً بلبن دسم. كان يافعاً في السابعة عشرة من عمره تقريباً، حافي القدمين، في ملابس رثة، قدر الوجه واليدين وآثار غطاء رأس بادية على شعره الحاسر. حين كنت أشرب اللبن البارد المضاف إليه قليل من الملح، رأيت من فوق حافة الوعاء العيون الزرقاء التي كانت مصوبة إلى وجهي في تأمل، كان بعينيه بريق لامع مثل ذلك الذي نجده في عيون الحيوانات المولودة لتوها ـ نعاس بدائي، لم يكسر أصالته شيء بعد...

فيما بعد الظهيرة وصلنا إلى قرية كردية من الخيام تقع بين سفوح التلال. كانت تشبه خيام بدو العراق وسوريا: غطاء خشن مصنوع من شعر الماعز مفرود على بعض الدعامات الخشبية والأجناب من القش

المجدول. كان جدول ماء يتدفق على مقربة من الخيام؛ وتجمعت على حواف الماء طيور بيضاء؛ وحطت على صخرة في الماء مجموعة من طيور اللقلق تنقر أجنحتها في متعة. كان رجل يرتدي سترة زرقاء يتجه في خطوات حثيثة إلى الخيام. وكانت امرأة تحمل إناءً فخارياً على كتفها تدنو من الماء، ترتدي ثوباً أحمر فضفاضاً طويلاً، كانت سيقانها الطويلة بادية من تحت ملابسها: سيقان طويلة ومشدودة مثل أوتار الكمان. ركعت بجوار حافة الماء على ركبتيها ومالت على الماء تملأ جرتها؛ ومال غطاء رأسها الأحمر ومس طرفه سطح الماء وكأنه تيار من الدماء ينسكب في الماء. بعد ذلك بفترة جلست على حافة الماء بصحبة رجل عجوز أربع فتيات في شرخ الشباب كلهن ذوات سحر خاص طبيعيات بلا افتعال نتيجة حياتهن الحرة بين أحضان الطبيعة: كان جمالهن من ذلك النوع الذي يعتد بذاته إلا أنه عفيف وطاهر، فخار واعتداد لا يدارينه ولكنك تدركه من الخجل والتواضع الذي يغلب عليه. كانت أجملهن ذات اسم موسيقي هو: «توتو» (وتنطق مقاطعه كما تنطق بالفرنسية)، كانت جبهتها مغطاة حتى حاجبها الرقيق بوشاح أحمر، وجفناها مصبوغين، من تحت الوشاح، تدلت من أذنيها سلاسل فضية رقيقة؛ في كل لفتة من رأسها كانت السلاسل تصدر صوتاً معدنياً رقيقاً.

استمتعنا جميعاً بالحوار الذي تبادلناه بالرغم من لغتي الفارسية الضعيفة (للأكراد لغة خاصة بهم، ويفهم أغلبهم الفارسية ولغتهم مشتقة منها)، كن نساء بدائيات لم يذهبن أبداً إلى خارج نطاق قبيلتهن؛ وكن يفهمن بسهولة ما أريد قوله وغالباً ما كن يجدن الكلمة التي أتعثر في نطقها. سألتهن عن حياتهن وما يقمن به من أعمال، أجبن عن سؤالي

بأنهن يطحن الغلال بالرحى؛ ويخبزن الخبز على جمرات الحطب؛ ويحلبن الماعز، ويخضن اللبن في قرب جلدية حتى يتحول إلى زبد؛ ويغزلن بمغازل يدوية خيوطاً من صوف الأغنام، وينسجن الأبسطة والسجاجيد في أنماط قديمة قدم جنسهن ذاته، ويحملن ويلدن الأطفال؛ ويهبن أزواجهن الراحة والحب. . .

حياة لا تتغير: اليوم مثل الأمس والغد. . . عند أولئك الرعاة لا وجود للزمن، باستثناء كر الأيام والليالي والفصول. فالليل جُعِلَ مظلماً للنوم، والنهار مضيئاً لقضاء حاجات الحياة وضروراتها، والشتاء يُعرف باشتداد برودة الجو وندرة الكلأ والعُشب على سفوح الجبال، فينتقلون بقطعانهم وخيامهم إلى السهول الأكثر دفئاً، إلى ما بين النهرين بالقرب من نهر دجلة، وحين يعود الدفء تدريجياً معلناً قدوم الصيف برطوبته وهوائه اللافح، يعودون إلى الجبال، إما إلى الموضع ذاته، وإما إلى موضع غيره في نطاق منطقة القبيلة.

سألت الرجل العجوز: «ألم ترغب قط في الحياة في منزل من الحجر؟» لم ينطق الرجل بكلمة طول فترة حديثنا مع النساء، وكان يستمع مبتسماً إلى الحوار، وطرحت عليه سؤالاً آخر: «ألم ترغب قط أن يكون لك حقل ملكاً لك؟».

هزّ الرجل العجوز رأسه ببطء وقال: «كلا. . . إذا توقفت المياه بلا حركة في بركة، فإنها تفسد وتتعكر وتتعفن؛ أما حين تكون متحركة ومتدفقة فإنها تظل نظيفة ونقية. . .».

* * *

بمرور الزمن انسحبت ذكريات كردستان إلى الماضي. على مدى

ثمانية عشر شهراً تجولت في إيران، طولاً وعرضاً. وتعرفت خلال تلك المدة على أمة جمعت داخلها حكمة ثلاثين قرناً من الزمن. وفوران وغضب أمة يماثل غضب الأطفال لا يمكن التنبؤ بموعد وقوعه؛ أمة قد تنظر بتكاسل وبرود إلى ما يحدث لها وما يقع حولها ـ وفي لحظة أخرى تجدها تنتفض في هبة عنيفة غاضبة. استمتعت بالجو الحضاري في المدن الكبرى؛ وخضت بين الرياح العاصفة في السهوب الواسعة؛ قضيت ليالي في قلاع حكام المقاطعات وتحت أمري أعداد كبيرة من الخدم، كما قضيت ليالي في خانات واستراحات مهدمة خربة تظل متيقظاً بها طوال الليل لقتل العقارب قبل أن تلدغك. ساهمت وشاركت في كل أشكال الحياة في إيران، من موائد عليها خراف مشوية حين كنت ضيفاً على قبائل بختياري وكاشجاي، وموائد أخرى عليها ديوك تركية محشوة بالمشمش لكبار التجار؛ حضرت احتفالات محرم والمسيرات الدموية، واستمعت إلى القصائد الرقيقة للشاعر الإيراني العظيم حافظ المغناة على العود.

تمشيت بين أشجار الحور في أصفهان، وأعجبتني مداخل القصور العظيمة، وواجباتها الرائعة، كما أعجبني روعة صقل قباب مسجدها الكبير. أصبحت اللغة الفارسية سلسة على لساني كاللغة العربية. خضت حوارات كثيرة مع المتعلمين في المدن، ومع الجنود ورجال القبائل، ومع التجار في الأسواق، ومع أعضاء في الوزارة وكبار رجال الدين، مع الدراويش الجائلين وكبار الحشاشين في الاستراحات المنتشرة على الطرق. عشت بالمدن والقرى وعبرت الصحاري وخضت المستنقعات المالحة، ونسيت نفسي كلياً وفقدت الإحساس بالزمن في تلك البلاد العجيبة صاحبة الحضارة القديمة والتي تخلفت عن مواكبة الحضارات

الحديثة. تعرفت إلى الشعب الإيراني وأنماط حياته وأفكاره كما لو كنت قد ولدت بينهم: كانت تلك البلاد وتلك الحياة مليئة بالتعقيدات، مثل جوهرة ثمينة قديمة خبا توهجها، ولم تنل مكانة قريبة من القلب تماثل شفافية الزجاج الذي أحسسته نحو العرب.

على مدى ما يزيد على ستة أشهر رحت أجوب جبال أفغانستان وسهوبها الواسعة، ستة أشهر في عالم لا يحمل فيه الرجال بنادقهم لمجرد الزينة، وحيث يجب أن تحرص على كل كلمة وكل خطوة وإلا وجدت طلقة رصاص تأتي مفردة تجاهك. أحياناً كنا نضطر أنا وإبراهيم التتاري ومن يرافقنا للدفاع عن أنفسنا عند هجوم عصابات قُطَّاع الطُرُق، التي كانت أفغانستان تغص بهم في ذلك الوقت، ولكن إن حدث وكان اليوم يوم جمعة، توقفت العصابات عن أي نشاط لها، فالسرقة والقتل حرام في اليوم المخصص لصلاة الجمعة.

ذات مرة، بالقرب من مدينة «قندهار»، نجوت من الموت بأعجوبة لأنني نظرت مباشرة إلى وجه امرأة ريفية جميلة تعمل بأحد الحقول؛ ووجدت بين المغول في قرى مرتفعات «هندكوش» أناساً ينحدرون من سلالة القائد المحارب جنكيزخان، كما لم يكن من العيب أن أنام على الأرض في كوخ إلى جوار الزوجة الشابة لمضيفي وشقيقته. على مدى أسابيع كنت ضيفاً على «أمان الله خان»، ملك أفغانستان في «كابول»؛ وتناقشت على مدى ليال طويلة مع علمائه حول تعاليم القرآن؛ وفي ليال أخرى تناقشت مع «الباتان خان» في خيامهم السوداء وقلت لهم: إن الأفضل لهم أن يطوفوا في المناطق القبلية المتحاربة ليحثوهم على الإقلاع عن تلك الحروب.

في كل يوم من أيام العامين اللذين قضيتهما في إيران وأفغانستان كان اليقين ينمو داخلي بأنني أقترب من إجابات نهائية عن تساؤلاتي.

* * *

قلت: «هكذا كنت أقترب من الإسلام يا منصور، بفهمي لحياة المسلمين كنت أقترب يوماً من فهم أفضل للإسلام. كان الإسلام دائماً الأعلى في ذهني...».

قال زيد وهو يدقق النظر إلى ظلمة السماء: «حان وقت صلاة العشاء».

انتظمنا لأداء الصلاة الأخيرة لذلك اليوم، اتجهنا ثلاثتنا نحو مكة: وقف زيد ومنصور جنباً إلى جنب وتقدمت أمامهم لأؤمهم (فقد ذكر الرسول أن صلاة اثنين وأكثر هي صلاة جماعة).

رفعت كفيّ وبدأت: الله أكبر، ثم تلوت سورة الفاتحة من القرآن ثم تبعتها بسورة الإخلاص حتى أتممنا الصلاة.

هناك بعض الأشياء تجعل الرجال يتقاربون من بعضهم مثل صلاة الجماعة. ويصدق ذلك على كل الديانات، إلا أنه أكثر صحة فيما يخص الإسلام، فالإسلام يرتكز على إيمان حقيقي أنه لا وساطة بين المخلوق وخالقه، وغياب كل أشكال الكهانة والإكليروس المؤسسي الديني، يجعل كل مسلم يوقن أنه يشارك بإيجابية في عمل جماعي من أجل العبادة، وأنه لا يحضر فقط لمشاهدة وسطاء يقومون بالنيابة عنه بأداء طقوس العبادة، لذلك يؤدي كل المسلمين صلاة الجماعة، ولأنه لا توجد أسرار ولا طقوس مقدسة في الإسلام، فإن كل مسلم بالغ ورشيد بإمكانه القيام بأي وظيفة دينية، كأن يؤم المصلين في صلاة

الجماعة ويقوم بإجراءات عقود الزواج أو بالصلاة على الميت قبل دفنه لا توجد حاجة في الإسلام إلى ترسيم وظائف وتخصصات دينية لعبادة الله: أما المعلمون الدينيون ومرشدو المسلمين، فهم أناس بسطاء يتمتعون بالسمعة الطيبة التي تدل على أنهم على دراية واسعة بأمور الدين وأحكام التشريع (أحياناً يستحقون السمعة الطيبة، وبعضهم لا يستحقها).

[٣]

استيقظت عند الفجر: كانت جفوني مثقلة بالنعاس، هب على وجهي نسيم ناعم رقيق، له همهمة رقيقة تفصل ما بين خفوت الليل والنهار الوليد.

نهضت لأغسل آثار النعاس المتبقي في جفوني. كانت المياه الباردة كلمسة من براري بعيدة متنائية ـ جبال تكسوها أشجار داكنة الخضرة، وتيارات مائية تتحرك وتتدفق وتظل نقية... جلست وأملت رأسي للخلف حتى يظل وجهي مبللاً بالماء لأطول وقت، هبت نسمات على بلل وجهي، حنت عليه بذكريات طيبة لأيام باردة، لأيام الشتاء الطويلة الماضية... جبال ومياه مندفعة... والتزلج على الجليد وبياضه الناصع. والبياض الناصع لذلك اليوم من أعوام مضت حين ركبت جوادي وقدته على جليد الجبال الإيرانية الناصع البياض دون أن أميز طريقاً أسير على هُداه، أتقدم ببطء للأمام، كل خطوة من خطوات الجواد تغوص في باطن الجليد والخطوة التالية أشد جهداً من سابقتها في تسلق الجليد الزلج...

في ظهر ذلك اليوم كما أتذكره، استرحنا في قرية تقطنها مجموعة

غريبة تشبه الغجر، كانت القرية عبارة عن عشر أو اثنتي عشرة حفرة في الأرض تغطي كل منها قبة منخفضة من الأعشاب والطين، مما أضفى على تلك المستوطنة الفريدة المنعزلة ـ كانت في جنوب إيران، في مقاطعة كيرمان ـ مظهر مدينة الظلام المقامة تحت الأرض. بدوا مثل مخلوقات سفلية كما في القصص الخيالية، أناس يزحفون صاعدين من تحت الأرض من فتحات مظلمة ليتأملوا غرباء يندر وجودهم في تلك المنطقة. على قمة واحدة من تلك القباب جلست امرأة شابة تمشط شعرها الأسود المجعد الأشعث؛ استدار وجهها البني الزيتوني وعيناها شبه مغمضتين باتجاه شمس منتصف النهار الشاحبة، وانطلقت من حنجرتها أغنية بصوت خافت بإحدى اللغات المحلية، أحاطت معصميها بأساور معدنية راحت توسوس مع حركات يديها، وهي تمشط شعرها، كان معصماها دقيقين وقويين مثل أقدام الحيوانات البرية في الغابات البدائية.

لأبعث الدفء في أطرافي المخدرة من البرد، شربت شاياً وعرقاً ـ كثير من العرق ـ أنا والحارس الذي يصحبنا، وحين اعتليت صهوة جوادي، كنت مخموراً تماماً، انطلقت به في عدو سريع، بدا العالم كله مبسوطاً أمامي في رحابة لا نهائية وبدا شفافاً في عيني كما لم يبد من قبل؛ رأيت نمطه الداخلي الخافي وأحسست بنبضه الدفين في تلك الأصقاع البيضاء الخالية واندهشت من خفاء كل ذلك عني من دقيقة مضت؛ وأيقنت أن كل الأجوبة على ما يبدو بلا إجابة ماثلة أمامنا في انتظار أن ندركها، بينما نحن ـ الحمقى المساكين ـ نطرح الأسئلة وننتظر أن تفتح الأسرار الإلهية نفسها لنا: بينما تنتظر تلك الأسرار أن نفتح نحن أنفسنا لها. . .

فتحت الأرض المستوية نفسها أمامنا، همزت جوادي وطرت مثل شبح في ضوء بالموري ناصع الشفافية، والجليد والبرد يتناثران من حوافر الجواد ويتدفقان حولي كسيل من الشرارات المتطايرة، وأرعدت حوافر جوادي بصوت مدوٍّ فوق جليد الأنهار المتجمدة. . .

أعتقد أنه كان ذلك الوقت الذي أدركت فيه، بالرغم من أنني لم أكن أعي ذلك تماماً، انفتاح باب النعمة الإلهية أمامي ـ تلك النعمة التي حدثني عنها الأب «فيلكس» من زمن طويل مضى حين كنت منطلقاً إلى رحلة كان مقدراً لها أن تغير كل حياتي: انكشاف النعمة الإلهية التي تحدد لك بوضوح أنك الشخص المنتظر. . .

مرّ أكثر من عام ما بين انطلاقي المجنون على جوادي فوق الجليد والبرد قبل أن أعتنق الإسلام، ولكن حتى في ذلك الوقت قبل إسلامي، كنت أنطلق دون أن أعي ذلك، في خط مستقيم كمسار السهم المنطلق، باتجاه مكة.

جف وجهي المبتل، وتراجعت في مخيلتي ذكرى ذلك اليوم من أيام شتاء إيران الذي انقضى منذ ما يربو على سبعة أعوام. تراجع ذلك اليوم وتقهقر إلا أنه لم يختف: فذلك الماضي قطعة من هذا الحاضر.

تيار هواء بارد، تنفس صباح يولد يجعل الأعشاب الشوكية ترتجف، والنجوم تبدأ في الخفوت والذبول. انهض يا زيد، انهض يا منصور، انهضا. . فلنزود النار بالحطب ونعد قهوتنا ثم نضع السروج على الجمال ونركب إلى يوم آخر، عبر الصحراء التي تستقبلنا بأذرع مفتوحة.

الفصل الثامن

جــن

كانت الشمس توشك على المغيب حين ظهرت أمامنا فجأة أفعى سوداء تتلوى معترضة طريقنا: كانت سميكة مثل ذراع طفل وطولها نحو ياردة. توقفت وأدارت رأسها نحونا. في رد فعل آلي انزلقت من على سرج ناقتي وحللت قربينتي من علاقتها. ركعت على ركبتي وصوبت ـ في اللحظة نفسها ـ سمعت صوت منصور من خلفي يصيح: «لا تطلق النار ـ لا تطلق. .» ـ إلا أنني كنت قد ضغطت على الزناد وانطلق المقذوف؛ تلوت الحية لثوان، والتف بدنها، وماتت.

[١]

ظهر إلى جواري وأنا ما زلت على ركبتي وجه منصور يحمل علامات الضيق والاعتراض على ما فعلت. قال: «لم يكن عليك أن تقتلها. . . على كل حال ليس أثناء غروب الشمس: هذا هو الوقت الذي يخرج فيه الجن من تحت الأرض، وغالباً ما يتخذ شكل حية. . .».

ضحكت وقلت له: «لا أظن يا منصور أنك تصدق حكايات العجائز عن الجن الذي يتخذ شكل الحيات والأفاعي».

رد منصور: «طبعاً أؤمن بوجود الجن. أليسوا مذكورين في كتاب الله؟ أما الشكل الذي يتخذونه فأنا لا أدري... سمعت أنهم يتخذون أشكالاً غريبة لا يتوقعها أحد...».

فكرت: ربما تكون محقاً يا منصور، ألا يمكن أن نفترض أنه باستثناء الوجود الذي تدركه الحواس، توجد مخلوقات لا تدركها حواسنا؟ ألا يعد إنكار ذلك نوعاً من التكبر الفكري يدفع الإنسان المعاصر إلى رفض احتمال وجود أشكال أخرى للحياة باستثناء ما ندركه وما يمكن قياسه؟ إن وجود الجن، مهما تكن طبيعتهم، لا يمكن إثباته بوسائل وأدوات علمية. كذلك لا يمكن للعلم أن يثبت عدم وجود حيوانات أخرى تختلف قوانينها البيولوجية اختلافاً كلياً عن قوانيننا. وأنها حيوات فوق قدرة حواسنا على إدراك وجودها إلا في ظروف استثنائية وخاصة.

ألا يمكن أن تكون هذه الاستثناءات حالات تتقاطع فيها الحيوات تحت ظروف استثنائية وخاصة مع حياتنا، ويطلق على ذلك ظواهر غير طبيعية، وأطلق عليها القدماء أسماءً مثل أشباح، أو عفاريت، أو غيرها من ظواهر «ما فوق الطبيعة» الخارجة والخارقة لما نعرفه من قوانين طبيعية؟

ركبت ناقتي من جديد ورأسي مشغول بتلك التساؤلات، وابتسامة تشكك تعلو وجهي من امرئ مثلي جعله نمط تنشئته أكثر جموداً من أناس عاشوا على الدوام ملتصقين بالطبيعة، استدار زيد على سرجه ووجه حديثه إليّ برزانته التي أعهدها:

«منصور على حق يا عمي. كان عليك ألا تقتل الأفعى. ذات مرة،

من سنين طويلة مضت ـ حين هجرت حائل بعد أن استولى عليها ابن سعود ـ أطلقت النار على أفعى مثل تلك الأفعى وأنا في طريقي إلى العراق، وكان ذلك أيضاً في وقت الغروب، بعد ذلك حين توقفنا لصلاة المغرب، شعرت فجأة بثقل في ساقي وكأنهما مربوطتان إلى أثقال من رصاص وإحساس حارق في رأسي، ثم دوى في رأسي هدير مثل هدير شلالات المياه المنحدرة، واشتعل إحساس حارق في أطرافي كأنما أمسكت بها ألسنة لهب، لم أستطع أن أتماسك لأظل واقفاً، فسقطت على الأرض مثلما يسقط الجوال الفارغ، وأصبحت في ظلام دامس لا أرى شيئاً من حولي. لا أدري كم لبثت في ذلك الظلام، ولكني أتذكر أنني استطعت في النهاية أن أقف على قدمي فوجدت رجلاً غريباً يقف إلى يميني وآخر إلى يساري، قاداني إلى قاعة واسعة شحيحة الضوء مليئة بهيئة رجال يروحون جيئة وذهاباً في حماسة ويتحدثون إلى بعضهم. بعد فترة تبينت أنهما فريقان، كما لو كانوا أمام هيئة محكمة، وجلس عجوز ضئيل الحجم إلى منصة عالية في أقصى القاعة؛ بدا كأنه قاض أو رئيس، أو ما شابه ذلك. وفي الحال تبينت أنني المتهم.

قال صوت: لقد قتله قبل مغيب الشمس تماماً ببندقيته. فهو مذنب. وقال صوت آخر من الفريق المضاد: «ولكنه لم يكن يعلم مَنْ يقتل، ونطق اسم الله حين جذب زناد بندقيته، ولكن فريق الاتهام صاح: لم ينطق باسم الله، ورد الفريق المدافع في صوت واحد كأنهم جوقة إنشاء: سمى، سمى، سمى باسم الله ـ واستمر ذلك لفترة، اتهام ودفاع، حتى كسب فريق الدفاع في النهاية، واتخذ القاضي في صدر القاعة قراره ونطق بحكمه: «لم يكن يعلم هوية القتيل. كما أنه نطق باسم الله فعلاً. أعيدوه إلى هناك».

«وسحبني الرجلان اللذان أحضراني إلى تلك القاعة وهما مسلحان، وأعاداني إلى الظلام الدامس الذي كنت فيه، وأرقداني على الأرض كما كنت. فتحت عيني فوجدت نفسي ممدداً بين جوالين من أجولة الحبوب التي كانت مكومة على الجانبين ومفرود عليهما قماش خيمة ليحميني من حرارة الشمس. بدا من درجة الضوء أننا اقتربنا من منتصف النهار، وأن رفاقي قد حطوا رحالهم، ورأيت نوقنا على مبعدة ترعى على منحدر تل. أردت أن أرفع يدي، إلا أن أطرافي وكل بدني كانت في غاية الوهن. حين مال أحد رفاقي بوجهه نحوي مستطلعاً حالي، قلت بصوت واهن: «قهوة» فقد كنت أسمع بالقرب مني صوت هاون طحن حبوب القهوة. قفز رفيقي الذي كان يستطلع حالي صائحاً: «لقد نطق، لقد نطق، استعاد وعيه» - وأحضروا لي قهوة طازجة ساخنة. سألتهم: «هل فقدت الوعي طوال الليل؟»ردوا متعجبين: «طوال الليل؟ أربعة أيام بلياليها وأنت لا تتحرك، كنا نحملك كما يحمل جوال الحبوب على أحد الجمال، وننزلك من جديد عند حلول الظلام؛ وكنا نفكر في دفنك هنا في هذا الموضع. ولكن الحمد والشكر لله الذي يهب الحياة ويأخذها، الحي الذي لا يموت...».

«وهكذا كما ترى يا عمي، لا تقتل أفعى عند غروب الشمس».

على الرغم من أن نصف وعيي ظل مبتسماً من قصة زيد، ظل نصف وعيي الآخر يشعر بأطياف القوى غير المرئية في عتمة المساء المقترب، وإحساس بأصوات تتزاحم، إلا أنها كانت من الرقة حتى إنه يصعب على الأذن التقاطها، وإحساس بالعداوة في الفراغ: جعل إحساساً واهياً بالندم يغلب عليّ لقتلي الأفعى عند غروب الشمس.

[٢]

بعد ظهر اليوم الثالث لمغادرتنا مدينة «حائل» توقفنا لسقي جمالنا من آبار «آرجا» في وادٍ دائري محصور بين تلال واطئة. كان البئران كبيرين ومليئين بالماء العذب في منتصف الوادي؛ كل بئر منهما ملك مشاع للقبيلة ـ الغربي ملك لقبيلة حرب، والشرقي ملك لقبيلة مطير، وكانت الأرض من حولهما جرداء خالية من أي نبات مثل راحة الكف، فكل يوم وعند منتصف النهار ترد إلى البئرين مئات الجمال قادمة من مراع بعيدة لترتوي، وتدهس كل نبتة تهم بالبزوغ وتنزعها أقدام الجمال التي تعد بالمئات.

حين وصلنا كان الوادي مليئاً بالحيوانات، وقطعان جديدة تظهر من بين التلال التي تصهرها الشمس، حول البئرين كان هناك تزاحم وتدافع، فليس من السهل سقاية كل تلك الحيوانات. كان الرعاة يسحبون الماء من البئرين في دلاء من الجلد مربوطة إلى حبال طويلة، ويصاحبون عملهم بالغناء الرتيب لضبط إيقاع العمل من رفع الدلاء وإفراغها وإدلائها من جديد إلى قاع البئرين: كانت الدلاء كبيرة جداً، وحين تمتلئ بالماء تصبح ثقيلة حتى إنها تتطلب أيدي كثيرة لرفعها من أعماق البئر.

من البئر الأقرب لنا ـ بئر مطير ـ سمعت الرجال ينشدون للإبل:

ارتووا لا تتركوا ماء

البئر مليئة بالنعم ولا قاع لها

كان نصف الرجال ينشدون المقطع الأول، بينما يرد عليهم النصف الثاني بالمقطع الأخير، ويكررون كل مقطع عدة مرات في إيقاع سريع

حتى يظهر الدلو على حافة البئر؛ ثم تتولى النساء إفراغ الدلاء في أحواض السقي. أعداد من الجمال تتزاحم مندفعة للأمام، تهدر وتعلو أصواتها، تجتر في نشوة، وتتزاحم حول أحواض الماء، بينما كان الرجال يهدئون من إثارتها صائحين، «هوو... وى... هوو...» كلها تدفع أعناقها الطويلة المرنة فوق أعناق رفاقها لتروي عطشها، تدافع وتزاحم لجمال بنية فاتحة اللون وداكنته، وجمال صفراء وأخرى في لون العسل وأسود أقرب للبني، وتملأ المكان الرائحة النفاذة لعرقها وبولها.

في الوقت الذي تملأ فيه الدلاء من جديد، يسحبها الرجال إلى أعلى، منشدين نشيداً آخر:

لا شيء يروي عطش الجمال

إلا نعمة الله وكد الرجال

ويتكرر مشهد اندفاع الماء في الأحواض، واحتساء الجمال للماء ونداء الرعاة والإنشاد المتكرر.

رفع أحد الرجال المسنين كان يقف بجوار حافة البئر يده ملوحاً باتجاهنا وصاح: «حياكم الله يا مسافرين، تفضلوا»، بينما نزع بعض الرجال أنفسهم من زحام البئر واندفعوا باتجاهنا. أخذ أحدهم زمام ناقتي وأناخها حتى أترجل في راحة، وبسرعة أفسحوا طريقاً لنوقنا إلى حوض الماء، وسكبت النساء الماء في الحوض، ولأننا مسافرون، فقد كان ذلك يعطينا الأولوية في السقاية.

قال زيد: «أليس عجيباً أن نشهد الآن سلاماً بين حرب ومطير بعدما كانا متحاربين؟» (كانت قد مرت ثلاثة أعوام فقط على إخماد تمرد قبائل

مطير ضد الملك، في حين كانت قبائل حرب من أشد مؤيدي الملك ومؤازريه). أكمل زيد قائلاً: «هل تذكر يا عمي آخر مرة كنا فيها هنا؟ وكيف تجنبنا المرور بآبار (آرجا) وسرنا في دائرة واسعة حولها ليلاً لأننا لم نكن ندري هل نجد عندها عدواً أم صديقاً؟».

كان زيد يشير إلى تمرد البدو الكبير في عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩، وكانت أزمة هزت أركان مملكة ابن سعود حتى جذورها، ولفترة من الزمن كنت مشاركاً في تلك الأحداث.

ففي بداية عام ١٩٢٧، كان السلام يسود كل أرجاء المملكة العربية السعودية. كان نضال ابن سعود للسيطرة على زمام المملكة قد حقق أهدافه. وكان حكمه لمنطقة نجد مستتباً. خضعت «حائل»، ومنطقة قبائل شمار، ثم خضعت له منطقة الحجاز بعد أن طرد منها أسرة الشريف حسين عام ١٩٢٥؛ ومن بين قادة الملك العسكريين البارزين كان هناك فيصل الداويش المشكوك في مراميه والذي كان يسبب قلقاً للملك في الأعوام المبكرة لتكوين المملكة. كان الداويش متميزاً وظاهراً في خدمة الملك وفي إظهار ولائه مرة بعد أخرى، في عام ١٩٢١ قام بغزو حائل بأمر من الملك؛ في عام ١٩٢٤ قام بغارة جريئة على العراق لقطع الإمداد البريطاني لأسرة الشريف حسين بالحجاز، في عام ١٩٢٥ استولى على المدينة ولعب دوراً حاسماً في غزوة جدة. وفي صيف ١٩٢٧، كان يتيه بأكاليل الغار بين أتباعه من الإخوان في الأرطاوية، التي لا تبعد كثيراً عن حدود العراق.

شهدت تلك المنطقة على مدى أعوام طويلة هجمات بدوية كثيرة بسبب هجرات البدو المستمرة بحثاً عن الكلأ والماء؛ ولكن طبقاً

لاتفاقات متعاقبة بين ابن سعود وبريطانيا ـ التي كانت مسؤولة عن العراق ـ نصت تلك الاتفاقيات على ألا توضع أي عوائق أمام هجرة القبائل التي لا مفر منها، وعلى عدم إقامة أية تحصينات من أي نوع على جانبي الحدود بين نجد والعراق. في صيف عام ١٩٢٧ شيدت العراق حصناً دفاعياً عند الآبار الحدودية في منطقة «بيسايا»، وأعلنت رسمياً عزمها على بناء حصون أخرى على طول الحدود. وسَبَّب ذلك حالة من القلق والتوتر بين قبائل شمال نجد؛ إذ كان ذلك يشكل تهديداً لوجودهم، لأنه يحرمهم من آبار الماء التي لا غنى عنها والتي يعتمدون عليها اعتماداً كلياً. واحتج الملك ابن سعود على ذلك الخرق الصريح للاتفاقات المبرمة، ولم يتلق ـ بعد شهور ـ إلا إجابة مراوغة من المندوب البريطاني على العراق.

قال فيصل الداويش لنفسه ـ وهو رجل كان طبعه عملياً: «ربما يجد الملك أنه من غير الملائم محاربة البريطانيين ـ ولكن لدي أنا الشجاعة للقيام بذلك»، وفي آخر أكتوبر ١٩٢٧، انطلق على رأس قواته المسماة بالإخوان، وهاجم حصن بيسايا ودمره، ولم يترك فيه عراقياً واحداً.

وظهرت الطائرات البريطانية فوق الموقع، وقامت بالاستطلاع فقط وعادت دون أن تسقط قنبلة واحدة. كان من السهل عليهم أن يقضوا على قوات الداويش (وهو ما كانت تتيحه لهم نصوص الاتفاقات الموقعة مع ابن سعود)، ثم يسووا المشاكل بعد ذلك بالطرق الدبلوماسية. ولكن، هل كانت الحكومة البريطانية بالعراق تريد فعلاً التوصل إلى حلول سريعة سلمية للنزاع؟

توافد المرسلون من قبائل شمال نجد على ابن سعود ليدفعوه إلى

القيام بحملة عسكرية ضد العراق. ورفض ابن سعود بحزم كل تلك المطالب، وأعلن أن الداويش مارق، وأصدر أوامره لأمير «حائل» أن يشدد المراقبة على منطقة الحدود، وقطع المخصصات المالية التي كان يعطيها لقوات الإخوان كما قطعها عن القبائل التي كانت تحت سيطرة الداويش؛ أما الداويش فقد اختفى بالأرطاوية بانتظار حكم الملك عليه. وتم إبلاغ الحكومة العراقية رسمياً بالإجراءات التي اتخذها ابن سعود وأبلغوهم أن الداويش سيلقى جزاءه، وفي الوقت نفسه طلب ابن سعود من العراق أن تلتزم تماماً بنصوص الاتفاقات الموقعة.

كان من الممكن أن ينتهي ذلك النزاع الجديد بسهولة، ولكن حين وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، أرسل المندوب السامي البريطاني على العراق رسالة إلى ابن سعود يعلمه فيها أنه سيرسل سرباً جوياً لمهاجمة قوات الإخوان التابعة للداويش (الذي كان قد عاد إلى موطن قبيلته) حتى يجبرها على طاعة ملكها؛ ولأنه لم يكن يوجد برق بالرياض، أرسل ابن سعود رسولاً عاجلاً إلى البحرين، وأرسل برقية من البحرين إلى بغداد، يحتج فيها على تلك الإجراءات العسكرية التي تنويها قوات بريطانيا، ويذكرهم بالاتفاقات التي تمنع كل طرف من اختراق الحدود لمعاقبة الخارجين على القانون لدى الطرف الآخر. وأكد أنه لا يحتاج «المساعدة» البريطانية لتقوية سلطته ونفوذه ضد قوات الداويش، وفي آخر البرقية حذر البريطانيين من أن أي غارات جوية على نجد سيترتب عليها آثار خطيرة من استثارة غضب الإخوان، الذين كانوا غاضبين أصلاً نتيجة إقامة تحصينات على الحدود من جانب العراق..

لم يلق إنذار الملك آذاناً صاغية. فقرب نهاية شهر يناير ١٩٢٨ -

بعد ثلاثة أشهر من حادثة «بيسايا» ـ قام سرب طيران إنجليزي بقصف منطقة نجد، وأثار حالة من الفزع بين بدو قبائل مطير ولقي رجال ونساء وأطفال وحيوانات مصرعهم دون تمييز. وقامت كل جماعات الإخوان في الشمال بإعداد حملة للانتقام من العراق؛ وكان لابن سعود فضل كبير في إثنائهم عن القيام بأي أعمال انتقامية فلم تقع إلا مناوشات بسيطة على الحدود.

* * *

استدعي فيصل الداويش للقدوم إلى الرياض، إلا أنه رفض الحضور، وبرر ما فعله بأنه كان لمصلحة الملك. وضاعفت أسباب شخصية أخرى من إحساسه بالاستياء، فقد رأى أنه خدم الملك بتفانٍ وإخلاص، ورغم ذلك لم يعين إلا أميراً على الأرطاوية ـ التي كانت رغم عدد سكانها الكبير، لا تعدو كونها قرية كبيرة ـ وأن قيادته للقوات لعبت دوراً حاسماً في الاستيلاء على مدينة «حائل» ـ وعين الملك الأمير ابن سعود وهو ابن عم الملك أميراً عليها. وفي حملة الحجاز قام بفرض حصار على المدينة لشهور طويلة حتى استسلم من بها، ولم يعينه الملك أميراً عليها، كان تطلعه إلى السلطة لا يدعه يهدأ ولا يستقر، قال لنفسه:

«ابن سعود ينتمي إلى قبيلة عنزة وأنتمي أنا إلى قبيلة مطير. ونحن متساويان في نبل المحتد. فلماذا أعترف أنا بعلو ابن سعود وزعامته؟» مثل ذلك التفكير كان لعنة في تاريخ العرب: فلم يكن أي منهم يعترف أن غيره من الممكن أن يكون أفضل منه.

نسي زعماء الإخوان واحداً بعد آخر فضل ابن سعود عليهم، من

بين أولئك الزعماء سلطان بن بوجاد شيخ قبيلة عتيبة القوية، وأمير «غطغط» التي كانت من أقوى مراكز الإخوان في نجد: كان سلطان قد انتصر على قوات الشريف حسين في موقعة «طربة» عام ١٩١٨، وغزا الطائف ومكة عام ١٩٢٤، فلماذا يرضى أن يكون أميراً فقط على «غطغط»؟ لماذا لم يعينه الملك أميراً على مكة؟ أو لماذا لم يعينه على الأقل، أميراً على الطائف؟

كان مثل فيصل الداويش، يرى أنه خُدع في حق من حقوقه، وكان صهراً للداويش، فتبنيا موقفاً موحداً ضد ابن سعود.

في خريف عام ١٩٢٨ دعا ابن سعود لعقد اجتماع لزعماء القبائل وعلماء الدين في الرياض لفض تلك النزاعات. حضره كل زعماء القبائل تقريباً باستثناء ابن بوجاد والداويش. وإمعاناً في تمردهما أعلنا أن ابن سعود كافر ومرتد، لأنه عقد اتفاقات مع الكفار ـ الإنجليز ـ وأدخل إلى أرض العرب آلات شيطانية مثل السيارات والهاتف، وأجهزة البرق والطائرات؟ بينما أعلن العلماء المجتمعون بالرياض بالإجماع أن مثل تلك المخترعات لا يسمح الدين بها فقط، بل يحث في طلبها لأنها تزيد قوة ومعارف المسلمين، وأن النبي(ص) في صدر الإسلام كان لديه صلاحية عقد المعاهدات مع غير المسلمين؛ إذ كانت تلك الاتفاقات والمعاهدات توفر الأمن والسلام والحرية للمسلمين.

إلا أن المتمردين استمروا في ادعاءاتهم ووجدوا آذاناً صاغية لدى بعض البسطاء من الإخوان، كانوا محدودي الوعي والإدراك بدرجة لا تمكنهم من الحكم على سياسات ابن سعود؛ لذلك كان من السهل إقناعهم أنها تتم بتأثير من الشيطان. كان تقاعس ابن سعود عن تعليم

الإخوان وتحويل حماسهم الديني المجرد إلى قوة مستنيرة قد بدأ يُسفر عن وجهه السيئ.

أصبحت براري نجد مثل خلية نحل، مبعوثون غامضون ينتقلون على جمال سريعة من مكان لآخر ومن قبيلة لأخرى، واجتماعات سرية لزعماء قبائل تعقد عند آبار بعيدة غير مأهولة. وأخيراً، انفجر تمرد قبائل مطير وعتيبة وبعض القبائل الأخرى التي انضمت إليهم.

كان الملك صبوراً، وحاول أن يكون متفهماً. أرسل الرسل لزعماء قبائل المتمردين ودعاهم للتفاهم الودي العاقل؛ ولكن بلا طائل، وأصبح شمال ووسط الجزيرة العربية مسرحاً لأعمال السلب والنهب، وانعدم الأمن الذي كان يسود نجد وحلت محله فوضى، واجتاحت عصابات الإخوان جميع أنحاء نجد من كل الاتجاهات، يهاجمون القرى والقوافل والقبائل التي ظلت على ولائها للملك.

وبعد صدامات محلية كثيرة بين المتمردين والقبائل الموالية للملك، قامت قوات الملك بخوض معركة حاسمة في سهول سبيلا، في قلب نجد، في ربيع ١٩٢٩، في جانب كان الملك على رأس قوة كبيرة؛ على الجانب الآخر، كانت قبائل مطير وعتيبة وبعض القبائل المتحالفة معها. وانتصر الملك في تلك المعركة واستسلم ابن بوجاد بلا شروط وعادوا به إلى الرياض مكبلاً بالأغلال. أما الداويش فقد أصيب بجروح خطيرة، وقيل: إنه على شفا الموت. وأرسل ابن سعود، الأرق قلباً من بين كل الزعماء العرب، طبيبه الخاص ليشرف على علاج الداويش - وشَخَّص ذلك الطبيب، وهو طبيب سوري شاب، أن إصابة الداويش إصابة خطيرة بالكبد، لن تمهل الداويش أكثر من أسبوع؛ وعلى ذلك

قرر الملك «سندعه يموت في هدوء، لقد نال جزاءه من الله»، وأمر أن يرسل عدوه المصاب إلى أهله بالأرطاوية.

إلا أن الداويش كان أبعد ما يكون عن الموت، لم تكن إصابته بتلك الخطورة التي ظنها الطبيب الشاب، وشفي تماماً خلال أسابيع وهرب من الأرطاوية، وهو مصمم أكثر من أي وقت مضى على الانتقام.

* * *

كان هروب الداويش سبباً في إحياء دوافع المتمردين. وأشيع أن الداويش موجود بنفسه بمكان قريب من حدود الكويت لجمع قبائل جديدة من حوله، بالإضافة إلى قوة قبائل مطير التي لم تتأثر بشدة بعد الهزيمة السابقة.

وكان أول من انضم إليه قبيلة عجمان، وهي قبيلة صغيرة إلا أنها اشتهرت ببأس رجالها في الحروب وتعيش في منطقة الحسا على الخليج الفارسي، كان شيخهم ابن حدحلاين خالاً لفيصل الداويش، وعدا ذلك، لم يكن الود موصولاً بين ابن سعود وشيخ عجمان. فمن أعوام سابقة قاموا بذبح شقيق الملك الصغير، سعد، وخوفاً من انتقام الملك، هاجروا إلى الكويت. ثم عفا عنهم ابن سعود بعد ذلك وسمح لهم بالعودة إلى أرض آبائهم، إلا أن البغضاء ظلت حية بالقلوب، ثم اشتعلت على هيئة عداوة بعد أن اغتيل زعيم عجمان وبعض أتباعه في معسكر أحد أقارب ابن سعود، وهو الابن الأكبر لأمير الحسا، أثناء التفاوض للتوصل إلى تسوية.

وكان تحالف قبائل مطير وقبيلة عجمان بمثابة الشرارة التي اندلعت

بين قبائل عتيبة في قلب نجد فأحيت تمردها من جديد، وتجمعوا من جديد تحت زعامة زعيم آخر بعد القبض على بوجاد في المعركة السابقة، وأعلنوا تمردهم وعصيانهم من جديد، وأجبروا الملك على تحويل كل قواته من شمال نجد إلى وسطها. كان القتال مريراً، ولكن مع الوقت كانت كفة ابن سعود ترجح، فقد راح يحقق الانتصارات على قبائل عتيبة، قبيلة بعد أخرى، حتى عرضوا الاستسلام. وفي قرية تقع بين الرياض ومكة، أعلن زعيمهم الاستسلام وأعلن ولاءه للملك ـ ومرة أخرى عفا عنهم الملك، آملاً في التفرغ للداويش وباقي المتمردين في الشمال. وبمجرد عودة الملك إلى الرياض تراجعت قبائل عتيبة عن ولائها للمرة الثانية وجددوا أعمالهم العدوانية، وأصبح الملك يخوض حرباً ضد عتيبة للمرة الثالثة لإنهاء تمردهم إلى الأبد. وللمرة الثالثة هزمت عتيبة وتشتت شملهم، ودُمرت منشآت وقواعد الإخوان في غطغط تدميراً كاملاً، وكانت غطغط أكبر من الرياض، واستقرت سلطة الملك من جديد على وسط نجد.

استمرت الحروب في الشمال. كان فيصل الداويش وحلفاؤه قد عززوا مواقعهم بالقرب من الحدود، وقام ابن مسعد أمير حائل بمهاجمتهم مرة بعد أخرى بالنيابة عن الملك. ولمرتين يعلن على الملأ أن الداويش قد قتل، وكان يثبت بعدها أنها شائعة كاذبة. هكذا عاش عنيداً لا يتصالح. سقط ابنه الأكبر وسبعمائة من مقاتليه صرعى الحرب، إلا أنه لم يتخل عن القتال، وطرح السؤال نفسه: من أين يتلقى الداويش الدعم المالي الذي لا غنى عنه للاستمرار في الحرب كل ذلك الوقت؟ ومن أين يحصل على أسلحته وذخيرته؟

كانت هناك تقارير غامضة وغير محددة، أن المتمردين الذين انتقدوا ابن سعود «بمرارة» لعقده معاهدة مع «الكفار»، يتعاملون مع البريطانيين ويتحالفون معهم ضد ابن سعود. كانت هناك شائعات أن الداويش يذهب كثيراً إلى الكويت: فهل يقوم بذلك فعلاً؟ ودون معرفة السلطات البريطانية؟ ألا يمكن أن تكون الاضطرابات المثارة في مملكة ابن سعود تخدم مصالحهم وأغراضهم أجلّ خدمة؟

* * *

مساء صيف عام ١٩٢٩، كنت بالرياض، أويت إلى فراشي مبكراً، وقبل أن أستغرق في النوم، رحت أتصفح كتاباً قديماً عن القبائل العمانية وأصولها، ووجدت زيداً يحضر إلى غرفتي فجأة قائلاً:

«هناك رسول من لدى لشيوخ، ويريدك أن تذهب إلى القلعة».

ارتديت ملابسي على عجل وتوجهت إلى القلعة. كان ابن سعود ينتظرني في جناحه الخاص، متربعاً على ديوان وأكوام من الصحف العربية من حوله وإحدى صحف القاهرة بين يديه. رد على تحيتي بإيجاز دون أن يقطع قراءته وأشار إليّ أن أجلس جواره. بعد فترة رفع بصره. ونظر إلى الخادم الذي كان يقف بباب الغرفة وأشار بيده ليتركنا بمفردنا. وبمجرد أن أغلق الخادم الباب، وضع الملك الصحيفة جانباً وراح ينظر إلي برهة من خلف زجاج نظارته اللامع، كما لو كان لم يرني من فترة طويلة (مع أنني قضيت معه بضع ساعات في الصباح). سألني: «مشغول بالكتابة؟». قلت: «كلا يا طويل العمر، لم أكتب حرفاً من بضعة أسابيع».

قال: «كانت مقالات مثيرة تلك التي كتبتها عن مشاكلنا الحدودية

مع العراق». كان يشير إلى بعض المقالات التي أرسلتها إلى جريدتي في أوروبا من شهرين، ونشرت مقالات منها في صحيفة بالقاهرة، وأعانت تلك المقالات في توضيح حقائق مهمة. ولأنني على دراية كبيرة بالملك، كنت أدرك أنه لا يتحدث عشوائياً وأن لديه شيئاً محدداً يهدف إليه، ولذلك ظللت صامتاً، منتظراً أن يكمل حديثه. وبالفعل أكمل حديثه:

«ربما تود أن تكتب المزيد عما يحدث في نجد ـ عن ذلك التمرد وما وراءه». كان هناك بعض الانفعال الطفيف في صوته وهو يكمل: عائلة الشريف حسين تكرهني. وأبناء الحسين الذين يحكمون بغداد وعبر الأردن سيظلون على كراهيتهم لي، فهم لن ينسوا أبداً أنني انتزعت الحجاز منهم. يودون أن تنهار مملكتي حتى يتمكنوا من العودة إلى الحجاز. . أما أصدقاؤهم، الذين يتظاهرون أنهم أصدقائي أيضاً، فقد لا يحبون أيضاً أن تبقى مملكتي مستقرة. . إنهم لم يبنوا تلك الحصون بلا سبب بريدون إشعال حرب ويدفعونني بعيداً عن الحدود الشمالية. . .».

من خلف كلمات ابن سعود كنت أتخيل صوراً شبحية ـ مد خطوط سكك حديد، على الرغم من أنها ما زالت مخططات، إلا أنها قد تصبح واقعاً بالغد: وهو مشروع بريطانيا لمد خط سكة حديد بين حيفا والبصرة. كانت الشائعات عن تلك الخطة معروفة من سنين. كان البريطانيون يخططون لتأمين «الطريق البري إلى الهند»: وكان ذلك سبباً في فرض وصايتهم على فلسطين وعبر الأردن والعراق. لم يكن مد خط سكة حديد من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي مجرد إضافة

جديدة لخطوط الإمبراطورية، بل كان يوفر حماية كبيرة لخط أنابيب النفط الذي سيمتد من العراق عبر الصحراء السورية حتى مدينة حيفا. من جهة أخرى، كان خط سكة حديد حيفا ـ البصرة لا بد أن يمر بولايات ابن سعود الشمالية، ولم يكن الملك يقبل أبداً ذلك الاقتراح البريطاني. ألا يمكن أن يكون بناء تلك الحصون على خط الحدود الفاصل بين العراق ونجد والذي يخرق كل الاتفاقيات المبرمة، المرحلة الأولى من مخطط دقيق لإحداث اضطرابات في تلك المنطقة المهمة «لتبرير» إقامة منطقة عازلة شبه مستقلة، وتكون أكثر ميلاً للبريطانيين؟ من الممكن أن يحقق لهم فيصل الداويش مثل ذلك الهدف مثله مثل عائلة الشريف، هذا إن لم يكن أفضل منهم في تحقيق مآرب بريطانيا. لقد كان من أهل نجد المراد فصل شمالها، وله أتباع أقوياء بين الإخوان، وكان ادعاؤه الديني مجرد ستار يدركه بسهولة من يعرفون ماضيه؛ كل ما يريده الداويش السلطة وحدها. لم يكن هناك شك، أنه لو حارب دون معاونة من جهات مجهولة، لم يكن ليصمد أمام ابن سعود. ولكن هل كان بمفرده فعلاً؟

بعد برهة صمت، أكمل الملك حديثه: «لقد كنت أفكر، كما يفكر الجميع، في موضوع إمدادات السلاح والذخيرة المتوفرة باستمرار للداويش لديه الكثير منها، ولديه أموال طائلة أيضاً، جاءتني تقارير بذلك. وقد كنت أتساءل، إن كنت تود أن تكتب عن هذه الأمور ـ أقصد تلك المصادر الغامضة التي تمد الداويش بالسلاح والمال. لدي شكوكي الشخصية حول تلك المصادر، وربما ما هو أكثر من شكوك ـ إلا أنني أفضل أن تكتشف بنفسك ما تود اكتشافه، فقد أكون على خطأ».

هذا هو الأمر إذن. مع أن الملك كان يتكلم بطريقة عرضية، وبنغمة الحوار المعتاد، إلا أنه من الواضح أنه كان يزن كل كلمة قبل أن يقولها. نظرت إليه بتركيز. بشا وجهه مبتسماً بعدما كان في منتهى الجدية من لحظة مضت. وضع كفه على ركبتي وهزها قائلاً: «أريدك يا بني أن تعرف لنفسك ـ من أين حصل الداويش على السلاح والذخيرة والمال الذي يبذره ويبذله في سخاء وبلا حساب. لا يوجد لدي شك عن الجهة التي تموله، ولكني أحب أن يخبر واحد مثلك غير متورط في النزاع، كل العالم بالحقيقة الخافية وراء تمرد الداويش.. أظن أنك تقدر على التوصل إلى تلك الحقيقة».

كان ابن سعود يعي تمام الوعي ما يفعله. لقد كان يعلم على الدوام أنني أحبه. وعلى الرغم من أنني لم أتفق مع سياساته، كما لم أخف أبداً عدم موافقتي تلك، إلا أنه لم يحجب أبداً ثقته بي وغالباً ما كان يسألني الرأي، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى يقينه من أنني لا أنتظر أي مكسب شخصي، وأنني لن أقبل وظيفة بحكومته إذا ما عرضها عليَّ، فقد كنت أفضل أن أبقى حراً. وهكذا، في تلك الليلة التاريخية من صيف عام ١٩٢٩، اقترح علي بهدوء أن أنطلق لاكتشاف سر الخديعة السياسية الكامنة خلف تمرد الإخوان ـ وهي مهمة تنطوي على مخاطرة شخصية وتتطلب بذل جهود كبيرة.

كان «الشيوخ» يعلم أنني لن أخذله. فباستثناء حبي لشخصه ولبلده، فإن المهمة التي أوكلها إليّ تبدو واعدة وحافلة بكثير من المغامرات المثيرة. فضلاً عما يمكن أن أحققه من «سبق صحفي».

قلت له: «على عيني ورأسي أمرك يا طويل العمر، سأفعل بالتأكيد كل ما يمكنني عمله».

قال: «لا يوجد لدي شك في ذلك يا محمد، وأتوقع أن تحتفظ بأمر هذه المهمة سراً. قد تنطوي على مخاطر ـ وماذا عن زوجتك؟».

كانت الزوجة فتاة من الرياض تزوجتها في العام السابق. ولكني طمأنت الملك فيما يخصها قائلاً: «إنها لن تبكي يا إمام، اليوم فقط كنت أفكر في طلاقها، يبدو أننا لا نناسب بعضاً».

ابتسم ابن سعود ابتسامة العارف؛ فطلاق زوجة لم يكن شيئاً غريباً عليه.

سألني: «وماذا عن باقي ناسك ـ أقربائك وأهلك؟».

قلت: «لا يوجد مَنْ سيعلن الحداد على ما أظن إن حدث لي مكروه، باستثناء زيد بالطبع، ولكنه سيصحبني على أي حال، وما يقع لي سيقع له بكل تأكيد».

قال: «خير إن شاء الله، قبل أن أنسى: ستحتاج إلى بعض المال لتلك المهمة» ـ ودفع يده تحت حشية خلفه، وأخرج كيساً وضعه في كفي، من وزن الكيس خمنت على الفور أنها عملات ذهبية، فكرت بيني وبين نفسي: «كم كان على يقين، حتى قبل أن يحدثني، أنني سأوافق»...

* * *

حين عدت إلى بيتي، ناديت زيداً الذي كان مستيقظاً بانتظار عودتي، سألته: «لو طلبت منك يا زيد أن تصحبني في مهمة تنطوي على مخاطر هل تفعل؟».

أجاب زيد: «هل تظن يا عمي أنني أدعك تذهب وحدك، مهما كانت المخاطر؟ إلى أين سنذهب؟».

قلت له: «سنذهب لاكتشاف من أين يحصل الداويش على أسلحته، وأمواله والملك يصر أن لا يعلم أحد أي شيء عن هذه المهمة حتى نتمها، لذلك يجب أن تحترز».

لم يهتم زيد بتأكيد احتفاظه بالسر، ودخل مباشرة إلى الجوانب العملية وسألني: «لا يمكن بالطبع أن نسأل الداويش أو رجاله؛ فكيف سنعرف ذلك؟».

في طريق عودتي من القلعة، كان ذهني يقلب الأمر، بدا لي أن أفضل بداية لا بد أن تكون من إحدى مدن وسط نجد، حيث يوجد كثير من التجار الذين لهم علاقات تجارية بكل من العراق والكويت. وأخيراً، استقر رأيي على مدينة «شقرا»، عاصمة ولاية وشم، وهي على مسيرة ثلاثة أيام من الرياض، وهناك أيضاً يمكن أن يساعدني صديقي عبد الرحمن السباعي.

شهد اليوم التالي إعدادنا لبدء تلك المهمة. ولتجنب لفت الأنظار، حذرت زيداً من أخذ أي شيء من مخازن الملك كما كنا نفعل قبل أي ارتحال، وأن يشتري كل ما نحتاجه من السوق. عند حلول المساء، كان زيد قد اشترى كل ما نحتاج من مواد غذائية: عشرين رطلاً من الأرز، وعشرين رطلاً من الدقيق، وقربة سمن، وتمر، وبن، وملح. كما اشترى أيضاً قربتين جديدتين للماء، ودلواً من الجلد، وحبلاً طويلاً مجدولاً من شعر الماعز يكفي لإدلائه في أعمق الآبار. وأعددنا أنفسنا بالأسلحة الملائمة وذخيرة كافية. ووضعنا في الخروج غيارين من

الملابس لكل منا، وارتدى كل منا عباءة ثقيلة لنستعين بها مع الأغطية لاتقاء برد الليل في الصحراء. كانت نوقنا في أحسن حال بعد أن قضت أسابيع في الرعي والراحة؛ وكانت الناقة التي وهبتها لزيد من أجود نوق السباق العماني، بينما كانت ناقتي «شمالية» النسب كانت ملكاً لأمير راشدي على مدينة حائل، وأهداها لي ابن سعود.

بعد حلول الليل، خرجنا من الرياض، عند الفجر كنا وصلنا وادي حنيفة، وهو مجرى مائي قديم وجاف يقع بين سفوح التلال ـ وكان موقعاً لمعركة حاسمة جرت أحداثها من ثلاثة عشر قرناً بين قوات المسلمين في عهد أبي بكر رضي الله عنه، خليفة الرسول، وأول خليفة إسلامي، وقوات مسيلمة الكذاب الذي عادى المسلمين لسنوات طويلة. كانت تلك المعركة هي الانتصار النهائي للمسلمين في قلب الجزيرة العربية، وسقط فيها كثير من صحابة الرسول(ص) شهداء، وما زالت قبورهم واضحة إلى اليوم في المنحدرات الصخرية للوادي.

قبل منتصف النهار مررنا على أطلال مدينة «عيابنا» وكانت ذات يوم مدينة تزدهر بعدد كبير من سكانها، وتمتد بطول وادي حنيفة. بين صفوف أشجار الطفراء كانت هناك بقايا ذلك الماضي: جدران منازل متداعية، وأعمدة مسجد ذات صدوع، بقايا منازل كانت تشي بالفخامة هنا وهناك، كلها تنم عن مستوى رفيع من الفن المعماري مقارنة بالمنازل الطينية البسيطة التي نراها اليوم في نجد. ويقال: إنه حتى مائتي عام مضت، كان كل وادي حنيفة من «درية» (وهي العاصمة الأصلية لعائلة ابن سعود) حتى عيابنا ـ وهي مسافة تربو على خمسة عشر ميلاً ـ كانت كلها مدينة واحدة؛ حتى إنه حين ولد ابن الأمير «درية»، نقلت

النساء نبأ ولادته عبر أسطح المنازل، في دقائق قليلة حتى نهاية «عيانينا». أما قصة هجر سكان مدينة «عيانينا» لها، فهي قصة غامضة مليئة بالأساطير التي يصعب تمييز الصحيح منها. المحتمل أنها هجرت أثناء حكم أول أمير سعودي حين رفض أن ينضم تحت لواء المصلح محمد بن عبد الوهاب؛ أما القصة التي يحكيها الوهابيون فتذهب إلى أن ما حدث للمدينة كان غضباً من الله، أنضب كل آبار عيانينا في ليلة واحدة، مما أجبر سكانها على هجرها.

في ظهر اليوم الثالث طالعتنا من بعيد حوائط وأبراج حصن مدينة «شقوا» التي كنا نقصدها، وظهرت قمم النخيل عالية فوق المنازل. مضينا بين بساتين النخيل في شوارع خالية، تذكرنا أن اليوم جمعة وأن أهل المدينة الآن بالمسجد الجامع لصلاة الجمعة. من آن لآخر كنا نرى إحدى النساء بعباءة سوداء تغطيها من رأسها حتى قدميها، تندهش لوهلة لوجود غرباء، ثم تسحب نقابها فوق وجهها في سرعة وخجل وارتباك.

أطفال يلعبون ويلهون في أماكن متفرقة في ظلال المنازل؛ وحرارة شديدة تجثم بوطأتها حتى هامات النخيل.

توجهنا مباشرة إلى منزل صديقي عبد الرحمن السباعي، وكان في ذلك الوقت مسؤول بيت المال للولاية. ترحلنا أمام الباب المفتوح لمنزله، ونادى زيد من الفناء: «باوبد» ـ حين ظهر الخادم من داخل البيت مسرعاً، قال زيد: «لديكم ضيوف».

بينما كان زيد مشغولاً بحط الأحمال عن الجمال بمساعدة الخادم في فناء البيت، تصرفت كأنني في بيتي، وأشعل خادم آخر النيران تحت إبريق القهوة. وبمجرد أن ارتشفت أول رشفة ارتفعت أصوات من الفناء

ـ أصوات أسئلة وإجابات: لقد عاد صاحب المنزل. من على درج السلم وقبل أن أراه كان صوته يرتفع مرحباً، ثم ظهر بفراغ الباب وذراعاه مفتوحان في ترحيب: «كان رجلاً رقيقاً قصير القامة واللحية، وعينين عميقتين ودودتين في وجه بشوش. بالرغم من حرارة الجو كان يرتدي معطفاً طويلاً من الفرو تحت العباءة. كان ذلك المعطف أحد أهم مقتنياته، لا يكل أبداً من إعلام من لم يعلم بتاريخ ذلك المعطف الذي كان ذات يوم من ممتلكات ملك الحجاز السابق، الشريف حسين، وقد كان من نصيب عبد الرحمن حين شارك في غزو مكة عام ١٩٢٤، لا أذكر أنني رأيته بدون ذلك المعطف قط.

احتضنني في حرارة، وشب على أطراف أصابعه ليتمكن من تقبيلي على الخدين، وترحيبه بنا لا ينقطع: «أهلاً وسهلاً ومرحباً، أهلاً بك في بيتي المتواضع يا أخي. مباركة الساعة التي ساقتك إلى هنا».

ثم تلى الترحيب الأسئلة التقليدية: من أين، وإلى أين، وحال الملك، والأمطار، وإن كنت سمعت أي أخبار عن سقوط أمطار ـ كان من المعتاد تبادل كل الأخبار العربية شفاهة. قلت له: إن «عنيزة» في قلب نجد هي مقصدي ـ لم يكن ذلك دقيقاً تماماً، إلا أنه لا يبعد كثيراً عن الحقيقة.

في أعوام سابقة، كان عبد الرحمن يعمل بالتجارة فيما بين نجد والعراق، وكان معروفاً لتجار البصرة والكويت. ولم يكن من الصعب دفعه إلى الحديث عن تلك الأماكن وعن الذين قدموا مؤخراً منها (خمنت أن وجود فيصل الداويش بالقرب من الكويت، يعني أن الكويت أو البصرة مصدر إمداداته) عرفت من عبد الرحمن أن أحد أبناء

عائلة البسام المشهورة في عنيزة ـ وهو أحد معارفي القدامى ـ قد مر بالكويت وهو عائد من البصرة، وأنه تجنب المرور بالمناطق التي يوجد بها المتمردون تجنباً للمخاطر، لذلك عاد عن طريق البحرين إلى نجد، وهو في «شقرا» في الوقت الحالي، وأنه سيرسل في طلبه لو أردت لقاءه: وطبقاً لعادة عربية متأصلة كان الواصل حديثاً إلى مكان، يزار ولا يزور، بعد فترة قصيرة، كان عبد الله البسام قد انضم إلينا في مجلس القهوة في بيت عبد الرحمن.

كان عبد الله على الرغم من انتمائه إلى أكبر عائلة تعمل بالتجارة في نجد، غير ميسور الحال. كانت حياته مليئة بأيام رخاء وأيام عسر ـ والعسر أغلب ـ لم تقتصر خبرته في الحياة على منطقة نجد، بل شملت القاهرة، وبغداد، والبصرة، والكويت، والبحرين، وبومباي. يعرف كل من يستحق أن يعرف في تلك البلاد ولديه معلومات عن كل ما يجري في البلاد العربية، أخبرته أن شركة ألمانية كلفتني بالبحث عن وكيل مناسب لتصدر إليه معدات زراعية في البصرة أو الكويت، لأن الشركة تعرض عليّ عمولة كبيرة، فأنا مهتم بالتوصل إلى أنسب التجار في المدينتين لتنفيذ ذلك العرض.

ذكر البسام أسماء عديدة، ثم أضاف:

«أنا متأكد أن تجار الكويت سيهتمون بالمشروع، إنهم دائماً يستوردون سلعاً من الخارج، والظاهر أن التجارة منتعشة جداً هذه الأيام ـ حتى إن رسائل كثيرة من الريالات الفضية الجديدة تصل كل يوم مباشرة من دار سك العملة في «تريست».

أصابني ذكره للريالات الفضية الجديدة بهزة داخلية. فهذا النوع من

الريالات الجديدة، مع ريالات «ماريا تريزا» الذهبية، يشكلان معاً، بالإضافة إلى العملات العربية الأخرى، العملات الرئيسية في كل الجزيرة العربية. لقد سكت تلك الريالات في مدينة «تريست» وبيعت بقيمة ما تحتويه من فضة، عدا عمولة بسيطة، تسك لمختلف الحكومات وللتجار الكبار الذين لهم تجارة كبيرة مع البلاد ولا يقبلون إلا عملات فضية وذهبية، فلم يكن البدو يقبلون التعامل بالعملات الورقية، كانت العملة المفضلة ريالات «ماريا تريزا» الذهبية، والواضح أن استيراد كميات كبيرة من تلك العملات من قبل تجار كويتيين، يدل على أن تعاملات كبيرة تتم الآن بينهم وبين البدو.

سألت البسام: «لماذا يستورد التجار الكويتيون ريالات جديدة الآن بالذات؟» رد وفي لهجته شيء من الحيرة: «لا أدري، إنهم يتحدثون عن شراء لحوم الإبل من البدو بالقرب من الكويت لبيعها في العراق وأسعارها مرتفعة هذه الأيام على الرغم من أنني لا أدري كيف يتوقعون أن يجدوا جمالاً الآن في الصحراء قرب الكويت مع تلك الاضطرابات الواقعة.. هذا ما يحيرني»، ثم أضاف ضاحكاً: «أعتقد أنه أربح لهم شراء جمال للركوب من العراق ويبيعونها للداويش ورجاله، ولكن الداويش بالطبع ليس لديه المال لدفع ثمنها».

هل لا يملك مالاً حقاً؟

في تلك الليلة قبل أن آوي إلى فراشي في الغرفة التي خصصها مضيفنا لنا، سحبت زيداً إلى جانب من الغرفة، وقلت له: «سنذهب إلى الكويت».

قال: «لن يكون الأمر سهلاً يا عمي»، إلا أن بريق عينيه كان أكثر

صراحة من قوله، فقد وشت عيناه لا بحبه فقط للمواقف الصعبة، بل بإقباله على شديد الخطورة منها. كان من العبث أن نسافر إلى الكويت عبر الأراضي التي يسيطر عليها رجال الملك، لأنه سيتبقى بعدها مائة ميل تفصلنا عن حدود الكويت وتسيطر عليها قبائل مطير وقبيلة عجمان. كان يمن السفر إلى الكويت بالبحر عن طريق البحرين، إلا أن ذلك كان يتطلب تصريحاً من السلطات البريطانية وبذلك نعرض كل تحركاتنا للرصد والمتابعة. وكان من الصعب سفرنا عن طريق الجوف، ثم عبر الصحراء السورية، ثم العراقية حتى الكويت لأننا سنمر على مئات من نقاط التفتيش والتحري بسوريا والعراق. لم يتبق إلا الطريق البري المباشر إلى الكويت والمار بالمناطق المعادية. فكيف نخترق تلك المائة ميل وندخل إلى الكويت دون أن يكتشف أمرنا؟ كان من الصعب التوصل إلى إجابة، ولذلك تركت إجابة السؤال للمستقبل، واضعاً ثقتي في حظي الحسن والفرص الملائمة التي لا أعرفها الآن.

أراد عبد الرحمن السباعي أن يستبقيني في ضيافته بضعة أيام، ادعيت له أن أمامي أعمالاً تجارية مهمة، تركنا نغادر في الصباح، بعد أن أضاف إلى مخزوننا من المؤن كمية من لحم الجمال المجفف ـ وكانت إضافة شهية إلى طعامنا المحصور في أصناف بسيطة. وأصر أن أزوره في طريق العودة، ولم أجد ما أجيب به إلا: «إن شاء الله».

* * *

من «شقرا» ارتحلنا على مدى أربعة أيام باتجاه الشمال الشرقي دون أن يقابلنا أحد. مرة واحدة استوقفتنا قوات موالية للملك من بدو العوازم التي تكون جانباً من قوات الأمير ابن مسعد؛ ولكن الخطاب

المفتوح من الملك جعلهم يعاملونا أفضل معاملة، وبعد إجراءات الضيافة المعتادة، واصلنا طريقنا.

قبل فجر اليوم الخامس وصلنا إلى منطقة لا تمتد إليها سلطات ابن سعود. من الآن أصبح من المحال الارتحال نهاراً، وأماننا أصبح في السير ليلاً وخلسة.

حططنا رحالنا في ممر مناسب لا يبعد كثيراً عن طريق وادي الرمة، وهو مجرى مائي جاف قديم كان يجري من شمال الجزيرة حتى الخليج الفارسي ومليء بأشجار الطرفاء والأعشاب مما كان يوفر لنا غطاء ملائماً للاختفاء بينها أثناء النهار. عقلنا نوقنا جيداً، وأطعمناها مجروش الشعير ونوى التمر - حتى لا نطلقها للرعي - واسترخينا في انتظار حلول الظلام. لم نجرؤ على إشعال نار حتى لا يكشف دخانها عن موضعنا، واكتفينا بوجبة من التمر والماء. تبين لنا أن حرصنا كان ذا فائدة عظيمة في ذلك اليوم، حين وصل إلى سمعنا صوت إنشاد بدو. أمسكنا بأفواه الجمال حتى لا تزوم أو تقرقر، وضغطنا أنفسنا إلى جدار الممر الصخري وبنادقنا جاهزة في أيدينا. علا صوت الغناء مقترباً؛ ميزنا منه كلمات: (لا إله إلا الله، لا إله إلا الله)، وهو الإنشاد الذي أحله الإخوان محل أناشيد وأغاني الارتحال. لم يكن هناك أدنى شك أنهم من قوات الإخوان، وفي هذه المنطقة لا يمكن إلا أن يكونوا من الإخوان العدوانيين. بعد فترة ظهروا على حافة رابية، تعلو بالكاد حافة الممر - كانوا جماعة مكونة من ثمانية أو عشرة راكبين يتقدمون ببطء في صف واحد، أشكالهم محددة بوضوح على خلفية من صفحة السماء. كان كل منهم يضع غطاء رأس أبيض فوق كوفية مخططة باللونين

الأبيض والأحمر، على صدورهم حزامان عريضان يتقاطعان فوق الصدر ومع كل منهم بندقية معلقة إلى سرج الجمل من خلفهم موكب كئيب يتأرجح للأمام والخلف، ثم للأمام والخلف، على إيقاع خطو الجمال وعلى وقع إنشاد اسم الجلالة العظيم الذي يساء استعماله: (لا إله إلا الله)... كان مشهداً يوحي بالقوة إلا أنه كان في الوقت نفسه محبطاً ومحزناً. كانوا رجالاً يعني الإيمان لديهم أشياء أكبر من الحياة، اعتقدوا أنهم يحاربون من أجل الدين الخالص لإعلاء كلمة الله، لا يعلمون أن حماستهم وتحرقهم قد وظفا وأسيء استخدامهما لتحقيق تطلعات قائد لهم لا ضمير له ولا أخلاق يسعى إلى تحقيق السلطة والنفوذ...

كانوا من الناحية الملائمة من الممر التي لا تكشفنا، لو كانوا بالجهة الأخرى لرأونا بمنتهى الوضوح كما نراهم نحن الآن من بين الأعشاب. وحين اختفوا عن أنظارنا والإنشاد الديني ما زال على شفاههم، تنفسنا الصعداء في ارتياح. همس زيد: «إنهم مثل الجن». أجبته: «نعم، هم مثل الجن الذي لا يعرف المرح بالحياة، ولا خوت الموت... شجعان وأقوياء الالتزام، لا ينكر أحد ذلك ـ ولكن كل ما تدور حوله أحلامهم لا يتجاوز الدم والموت والجنة...».

كرد فعل للنقاء الديني الإخواني المتجهم، بدأ زيد يغني أغنية حب سورية: «أيتها العذراء ذات البشرة الخمرية...» وبمجرد أن ساد الظلام، بدأنا السير خفية باتجاه الكويت البعيدة النائمة.

* * *

فجأة تعجب زيد مندهشاً: «انظر هناك يا عمي، هناك نار» كانت ناراً صغيرة لبدوي حط رحاله؛ قد يكون راعياً بمفرده؟ ولكن أي راع

هذا الذي يجرؤ على إشعال النار هنا إلا إذا كان من المتمردين؟ من الأفضل اكتشاف الأمر، لو كان رجلاً بمفرده لأمكن التغلب عليه بسهولة، ونستقي منه معلومات قيمة عن تحركات الإخوان وأماكن تواجدهم بتلك المنطقة.

كانت منطقة رملية، ولم يصدر عن خطوات الجمال أي صوت حين كنا نقترب في حذر من النار. على ضوء النار ميزنا شكل بدوي بمفرده يجلس القرفصاء. كان يبدو وكأنه يحملق في اتجاهنا في الظلام، ثم حين تأكد له أن هناك قادمين، نهض بلا تعجل، مربعاً ذراعاه على صدره ليظهر لنا أنه غير مسلح، وانتظر بهدوء دون أي حركة تشي بخوف.

صاح زيد بحدة: «من أنت؟»، وصوب بندقيته باتجاه البدوي ذي الملابس البالية.

ابتسم البدوي ببطء ورد بصوت عميق رنان: «أنا صلوبي...».

اتضح الآن سبب هدوئه، فهو ينتمي إلى قبيلة غريبة تشبه الغجر (على الأصح مجموعة قبائل) لم تكن أبداً طرفاً في أي حرب من الحروب التي لا تنقطع بين بدو الجزيرة العربية؛ لم يعادوا أحداً، فلم يهاجمهم أحد أبداً.

كان بدو الصلوبة (المفرد صلوبي) لغزاً أمام كل الباحثين. لا يعرف أحد أصلهم على وجه اليقين. من الثابت أنهم ليسوا عرباً: فعيونهم زرقاء وشعرهم بني فاتح بغض النظر عن بشرتهم الداكنة من حرارة الشمس، مما يفضح انتماءهم للمناطق الشمالية في أوروبا. ويذكر المؤرخون العرب القدامى أنهم من نسل الصليبيين الذين أسرهم صلاح

الدين وأرسلهم إلى الجزيرة العربية، وأسلموا بعد ذلك؛ وبالفعل تجد أن اسم صلوبة له نفس جذر اللغة: صليب وصليبي ـ لا يعلم أحد مدى صحة هذا التفسير. على أي حال يعتبر البدو أن الصلوبة ليسوا عرباً ويعاملونهم بازدراء وتعال. وهم يفسرون سر ذلك الازدراد، الذي يتناقض بحدة مع إحساسهم العالي بالمساواة بين البشر، فهم يؤكدون أن أولئك الصلوبة ليسوا مسلمين حقيقيين ولا يحيون كالمسلمين ويؤكدون أنهم لا يتزوجون، بل يتناسلون كما تتناسل الكلاب بلا زواج، ودون أن يراعوا حتى علاقات المحارم، ويدعون أنهم يأكلون الميتة المحرَّم أكلها. وقد يكون كل ذلك من قبيل المبالغات. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن وعي الصلوبيين بانتمائهم إلى جنس مغاير هو ما جعل البدو ـ الذين يهتمون بالأنساب والسلالات ـ إلى وضعهم في دائرة خاصة لا يتجاوزونها حتى لا تختلط الأنساب، وهو دفاع غريزي عن نقاء السلالات، إذا كان الصلوبيين يشكلون إغراءً جمالياً، فذلك لأنهم جميعاً يتمتعون بجمال فائق، ورجالهم أطول من رجال العرب، وملامحهم وأجسامهم متناسبة ومتناسقة؛ أما نسائهم ففائقات الجمال، عدا أجسامهن الجميلة وحركتهن الرشيقة.

والصلوبة يلقون تقديراً من بدو الصحراء كبيطريين مهرة في مداواة الحيوانات المريضة، وفي صناعة السروج، وأعمال الحدادة والمعادن، وبالرغم من أن البدو يحتقرون الصناعات اليدوية حتى أنهم لا يمارسونها، فإنهم لا يستغنون عنها، ولذلك يملأ الصلوبة ذلك الفراغ، وهم عدا ذلك رعاة ممتازون، وفوق كل شيء، صيادون مهرة لا يضارعون. وقدرتهم على اقتفاء الأثر قدرة أسطورية، ولا يضاهيهم في ذلك إلا بدو «المرة» على حافة الربع الخالي الشمالية.

أحسست بالارتياح حين وجدت الرجل صلوبياً، قلت له صراحة: إننا من رجال ابن سعود ـ لم يشكل ذلك خطراً على ضوء معرفتي أن الصلوبة يكنون احتراماً شديداً للسلطة ـ وأمرته أن يطفئ ناره، ففعل، ثم جلسنا على الأرض في حوار طويل.

لم يخبرنا بالكثير عن أماكن تواجد قوات الداويش، لأنهم كما قال: «في حركة دائبة، مثل الجن، ولا يمكثون بمكان واحد لفترة طويلة»، طمأنني على الأقل بأنه لا توجد في الوقت الحالي تجمعات كبيرة للإخوان على مقربة منا، وبالرغم من وجود جماعات صغيرة تعبر الصحراء باستمرار عبر كل الاتجاهات. فجأة، واتتني فكرة ألا يمكننا الاستفادة من خبرات الصلوبي ليقودنا إلى الكويت؟

سألته: «هل ذهبت قبل ذلك إلى الكويت؟».

ضحك الصلوبي قائلاً: «مرات كثيرة، لقد بعت هناك جلود غزلان، وسمناً، وصوف جمال. عدا ذلك، عدت منها من عشرة أيام فقط».

قلت: «إذن يمكنك أن تقودنا إلى الكويت؟ أقصد أن تسير بنا في طرق لا يسلكها الإخوان؟».

للحظات راح الصلوبي يفكر، ثم أجاب بعد فترة بتردد: «ذلك ممكن، ولكنه خطر كبير عليّ، إذا قبضوا عليّ بصحبتكم، لكن... قد يكلفك ذلك كثيراً».

قال: «حسناً...»، تبينت ارتجافة الطمع في صوته ـ «حسناً يا سيدي، إذا أعطيتني مائة ريال قد أستطيع أن أقودك آمناً إلى الكويت بطريقة لا يراك بها أحد إلا طيور السماء».

كانت المائة ريال تساوي عشر جنيهات ذهبية[1]، وهو مبلغ بسيط في مهمة كمهمتنا، وربما لم يمسك الصلوبي في حياته مبلغاً بمثل تلك القيمة.

قلت له: «موافق، سأعطيك مائة ريال ـ عشرين الآن والباقي بعد وصولنا إلى الكويت».

لم يتوقع دليلنا المنتظر أن يُجاب طلبه على الفور، وربما أحس بالندم، لأنه لم يطلب ثمناً أعلى، لأنه بعد أن فكر قليلاً، أضاف: «ولكن، ماذا عن الناقة؟ إذا قدتكم إلى الكويت ثم عدت، ستكون ناقتي المسكينة قد هلكت تماماً، وليس لدي غيرها.

لم أرغب في إطالة المفاوضات، أجبته على الفور: «سأشتري ناقتك، وستركبها أنت حتى الكويت، وهناك سأهبها لك كهدية ـ ولكنك ستقودنا في العودة أيضاً».

كان ذلك أكثر مما يتمنى ويشتهي ـ نهض في خفة وابتهاج، واختفى في الظلام، ثم ظهر بعد دقائق، يسحب ناقة عجوز إلا أنها بدت قوية بعد بعض المحاجاة والمساومات استقر السعر عند مائة وخمسين ريالاً للناقة، يتقاضى منها خمسين الآن تواً، ويتقاضى باقي ثمنها مع باقي المكافأة في الكويت.

أخرج زيد كيس النقود من أحد خروج ناقته وبدأ في عد قطع العملات في حجر الصلوبي. من طيات ملابسه أخرج قطعة قماش كان يصر فيها نقوده، وبينما كان يضيف ريالاتي إلى ما معه، لفت نظري بريق قطع العملة الجديدة التي كانت معه.

---

(١) كانت المائة ريال تساوي أيضاً خمسين جنيهاً استرلينياً بأسعار ذلك الوقت.

أمرت قائلاً وأنا أضع كفي على يده: «توقف، دعني أرى تلك العملات الجديدة التي معك».

في حركة مترددة، كما لو كان يخشى أن نسرق ماله، وضع الصلوبي قطع العملة في كفي، كانت حوافها حادة مثل العملات المسكوكة حديثاً ولم تنعم حوافها بعد من كثرة التداول، أشعلت عود ثقاب وفحصتها بعناية، كانت بالفعل ريالات «ماريا تيريزا» جديدة كما لو كانت قد خرجت الآن من دار سك العملة، ووجدت خمس أو ست قطع أخرى بنفس الجدة.

سألته: «من أين حصلت على هذه الريالات؟».

أجاب في حماسة: «لقد كسبتها بشرف، أقسم لك يا سيدي.. لم أسرق هذه النقود. أعطاهم لي مطيري من أسابيع بالقرب من الكويت، لقد اشترى مني سرج جمل لأن سرجه كان بالياً...».

سألته: «مطيري؟ هل أنت متأكد؟».

أجاب: «متأكد يا سيدي، ليقتلني الله إن كنت كاذباً. كان من رجال الداويش، واحد من المتمردين الذين كانوا يقاتلون مؤخراً أمير حائل، هل ارتكبت جرماً إذا أخذت منه مالاً مقابل السرج؟ لم أكن أقدر أن أرفض البيع، وأنا متأكد أن «الشيوخ»، أطال الله عمره، سيتفهم ذلك...»، طمأنته أن الملك لن يغضب منه، فتطامن قلقه. واستجوبته من جديد، وعلمت أن أفراداً آخرين من الصلوبة تلقوا ريالات جديدة من أتباع الداويش مقابل سلع وخدمات....

أثبت الصلوبي أنه دليل لا يضارع. على مدى ثلاث ليال قادنا في مسارات التفافية حول المناطق التي يسيطر عليها المتمردون، قادنا عبر

مناطق مقفرة حتى إن زيداً الذي يعرف تلك المنطقة جيداً، لم يرها في حياته من قبل. قضينا أوقات النهار متخفين بلا حركة. ذات مرة قادنا إلى حفرة بها ماء، لا يعرفها حتى بدو المنطقة كما أخبرنا؛ روت مياهها البنية الراكدة ظمأ نوقنا كما أعدنا ملء قربنا. رأينا مرتين فقط بعض جماعات الإخوان عن بُعد، إلا أنهم لم يرونا.

فيما بعد ظهر الصباح الرابع من مقابلتنا للصلوبي، بدت في الأفق مدينة الكويت. لم نحاول دخولها من اتجاه الجنوب الغربي الذي قدمنا منه كما يفعل القادمون من نجد، ودخلناها من الغرب على طريق القادم من البصرة، حتى يعتقد من يرانا أننا تجار قادمون من العراق.

بمجرد دخولنا مدينة الكويت ذهبنا إلى مجمع سكني ملك لتجار من معارف زيد منذ أن كان في قوات «العجايل» العراقية، واسترحنا من عناء السفر كما لو كنا في بيوتنا.

كانت الحرارة المشبعة بالرطوبة تجثم على شوارع الكويت الرملية وعلى البيوت المشيدة من قوالب الطين الجاف؛ ولاعتيادي على السهوب المفتوحة في نجد وجدت نفسي غارقاً في العرق، إلا أنه لم يكن هناك وقت نضيعه في الراحة. تركنا الصلوبي يحرس الجمال مع تعليمات مشددة ألا يخبر أي أحد بالجهة التي أتينا منها - وتوجهت أنا وزيد إلى السوق لنقوم بتحرياتنا الأولية.

لم أكن على دراية بالكويت ولم أرد أن أشغل زيداً بوجودي معه، جلست على مقهى لمدة ساعة، أحتسي القهوة وأدخن الأرجيلة، حتى عاد زيد، كان من الواضح من علامات الانتصار البادية على وجهه أنه توصل إلى معلومات مهمة. بادرني قائلاً: «هيا نتحدث في الخارج يا

عمي، من السهل أن نتحدث في السوق حتى لا يسمعنا أحد، لقد عدت إليك بشيء مهم - ولي أيضاً» ومن تحت عباءته أخرج عقالين وكوفيتين عراقيتين من الصوف البني السميك. أردف زيد: «هذه تجعلنا عراقيين»، تأكد زيد باستفساراته الخفية أن أحد زملائه القدامى - وهو أحد رفاقه وقت أن كان يعمل بالتهريب عبر الخليج الفارسي - يعيش الآن بالكويت، وما زال يعمل بالتهريب. قال: «لو بحثنا عمّنْ يخبرنا بأدق أسرار تجار السلاح في الكويت فلن نجد أفضل من بندر. إنه شمّاري مثلي - واحد من أولئك الحمقى العنيدين الذي لا يمكن أن يرضى بالرضوخ لحكم ابن سعود. ويجب ألا نخبره أننا نعمل مع الشيوخ - ومن الأفضل أن نخبره من أين أتينا؛ لأن بندر ليس غبياً - إنه في غاية الذكاء، لقد خدعني كثيراً فيما مضى ولا يجب أن أثق به الآن».

سألنا عنه حتى وصلنا إلى منزله في حارة ضيقة مجاورة للسوق. كان طويلاً نحيلاً في نحو الأربعين من عمره، عيناه نصف مغلقتين، تعلو وجهه ملامح من يعاني عسر هضم؛ إلا أن ملامحه اكتست بسعادة حقيقية حين رأى زيداً. وبسبب لون بشرتي الأبيض قدمني زيد إليه بصفتي تاجراً تركياً مستقراً في بغداد وأعمل في تصدير الخيول من البصرة إلى بومباي.

أضاف زيد: «لم تعد تجارة الخيول مربحة هذه الأيام، خاصة بعد أن حصر تجار عنيزة وبريدة هذه التجارة بينهم».

أجاب بندر: «هذا صحيح، لم يكتف أولئك الجنوبيون الأقذار التابعون لابن سعود بالاستيلاء على بلدنا؛ ويسعون الآن للاستيلاء على أرزاقنا أيضاً. . .».

سأله زيد: «وماذا عن تجارة البنادق يا بندر، لا بد أنها تجارة رابحة هنا، مع وجود كل أولئك المطيريين والعجمانيين الراغبين في لي رقبة ابن سعود ـ هه؟».

أجاب بندر: «كان هناك عمل كثير» وهز كتفيه مردفاً: حتى بضعة شهور مضت كنت أكسب الكثير من المال بشراء البنادق من عبر الأردن ثم أبيعها لرجال الداويش. ولكن، كل ذلك انتهى الآن، انتهى تماماً. لا تستطيع أن تبيع بندقية واحدة الآن».

سأله زيد: «كيف ذلك؟ الداويش يحتاج بنادق الآن أكثر من أي وقت مضى».

أجاب بندر: «هذا صحيح، بالفعل يحتاج، إلا أنه يحصل عليها بثمن لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نوفرها بسعر مثله.. إنه يحصل عليها في صناديق قادمة من عبر البحار ـ بنادق إنجليزية ـ جديدة تقريباً ـ مقابل عشر ريالات للبندقية مع مائتي طلقة رصاص».

تساءل زيد في اندهاش حقيقي: «تبارك الله، عشرة ريالات للبندقية ومعها مائتي طلقة، ولكن هذا مستحيل...!».

بدا الأمر مستحيلاً بالفعل، فقد كانت البندقية في ذلك الوقت من طراز «لي ـ أنفيد» بثلاثين إلى خمسة وثلاثين ريالاً، دون طلقات؛ ولو وضعنا في الاعتبار أن الثمن بالكويت قد يكون أقل قليلاً من نجد، فإن فارق السعر الكبير يستعصي على الفهم.

ابتسم بندر في استياء وقال: «يبدو أن الداويش لديه أصدقاء أقوياء.. أقوياء جداً... بعض الناس يقولون: إنه سيصبح ذات يوم أميراً مستقلاً بشمال نجد».

قلت: «ما تذكره يا بندر جيد وجميل، والداويش سيستقل فعلاً عن ابن سعود، إلا أنه لا يملك مالاً، وبدون المال لم يكن الإسكندر ذاته يستطيع أن يبني مملكة».

انفجر بندر في ضحكة عالية: «المال؟ الداويش لديه الكثير من المال ـ ريالات جديدة، تأتيه في صناديق، مثلما تأتي البنادق في صناديق من عبر البحار».

سألت: «صناديق ريالات؟ هذا غريب جداً. من أين يحصل بدوي على صناديق ريالات جديدة؟».

أجاب بندر: «لا أعلم من أين، إلا أنني متأكد أن بعض رجاله يتسلمون يومياً كميات من الريالات الجديدة تصلهم من مختلف تجار المدينة. لماذا؟ بالأمس فقط رأيت فرحان بن مشهور في الميناء يشرف على إنزال تلك الصناديق من أحد المراكب».

كانت هذه الأنباء ـ وأنا أعرف فرحان جيداً، كان الابن الأكبر لأخي ذلك الأمير السوري البدوي نوري الشعلان، الذي حارب ذات مرة إلى جوار لورانس ضد القوات التركية. قابلت فرحان أول مرة في دمشق عام ١٩٢٤، وكان سيئ السمعة لتواجده الدائم في أماكن الترفيه المشبوهة. بعد فترة طرد هو وعمه من دمشق مع بعض أبناء قبيلته، وهي قبيلة «الروالا»، وذهبوا إلى نجد حيث تحول فرحان فجأة إلى «تقي» و«ورع»، وانضم إلى حركة الإخوان. قابلته بعد ذلك للمرة الثانية في مدينة حائل، وكان في ذلك الوقت يضع على رأسه عمامة بيضاء كبيرة دلالة على إيمانه وتقواه وهي العمامة التي يضعها الإخوان، وكان ينعم بكرم الملك قبل تمرد الإخوان، وحين ذكرته ونحن في حائل بلقائنا

السابق في دمشق، غير الموضوع بسرعة، وتجاهل سؤالي، كان أحمق ومتطلعاً كما كان من قبل، ورأى في تمرد الداويش فرصة مواتية لكي يستقل بإمارة الجوف، وهي واحات تقع إلى شمال صحراء النفود الكبرى ـ في الجزيرة العربية كما في أي مكان آخر، كان المتمردون يتبعون نفس العادة السيئة في تقسيم جلد الأسد قبل اصطياده.

سألت بندر: «أي أن فرحان هنا بالكويت الآن؟».

أجاب: «نعم، إنه يحضر إلى الكويت كثيراً، مثله مثل الداويش، ويدخل ويخرج كما يشاء من قصر شيخ الكويت، يقولون: إن هناك وداً كبيراً بينه وبين الشيخ».

سألته: «ولكن ألا يعترض البريطانيون على دخول الداويش وفرحان إلى الكويت؟ لقد أعلنوا من بضعة شهور أنهم لن يسمحوا للداويش وأعوانه بدخول الكويت».

ضحك بندر من جديد: «فعلاً قالوا ذلك، ولكني أخبرتك: للداويش أصدقاء أقوياء.. لا أعرف إن كان هنا بالكويت الآن أم لا، ولكن فرحان موجود هنا الآن، إنه يذهب كل مساء إلى الجامع الكبير لصلاة المغرب ـ تستطيع أن تراه بعينيك إن كنت لا تصدقني».

وبالفعل رأيناه.

عملنا بما أشار به بندر، توجهنا أنا وزيد في باكورة المساء إلى قرب الجامع الكبير، انحشرنا وسط جماعة من البدو، كان من الواضح أنهم من بدو نجد متوجهين إلى الجامع، كان قد مقدمتهم رجل في الثلاثينيات من عمره، وكان أقصر قليلاً من البدو المحيطين به ومن يتبعونه، كان بهي الطلعة وتزين وجهه لحية قصيرة. تعرفت إليه في

الحال. ولا أدري إلى اليوم إن كان قد تعرف إليّ أم لا؛ فقد التقت عينانا للحظة، ومسحتني نظرته في سرعة وأثر المفاجأة باد على وجهه، كما لو كان يحاول أن يستدعي من ذاكرته صورة باهتة لأحداث قديمة، ثم استدار مبتعداً؛ وبعد لحظة اختفى هو وأتباعه بين الجموع المتجهة إلى المسجد «الجامع».

قررنا ألا تطول إقامتنا السرية في الكويت بلا سبب غير انتظار أن نرى الداويش أيضاً.

وأكد صحة المعلومات التي حصلنا عليها من بندر، معلومات أخرى جمعها زيد، من معارفه بمدينة الكويت. . اتضح أن الإمدادات الغامضة للداويش من بنادق «لي - انفليد» والتي يموه أمرها على أنها «مشتراة» - تشير بوضوح إلى الوسطاء من تجار الكويت المشهورين بتجارة السلاح، وكذلك الأموال الكثيرة من ريالات «ماريا تيريزا» والتي يتم تداولها مؤخراً في أسواق الكويت من الممكن أن نقتفي أثرها وصولاً إلى فيصل الداويش ورجاله؛ ولأنه لن يتاح لنا التوصل إلى أرصدته المالية ولا التوصل إلى أي مستندات، إلا أنه أصبح لدينا براهين على صحة شكوك الملك التي أخبرني بها.

أتممت مهمتي، وفي الليلة التالية اتخذنا طريقنا خلسة إلى خارج الكويت كما أتينا. وأثناء تحرياتنا بالسوق، علم الصلوبي أنه لا توجد الآن قوات للمتمردين في ذلك الوقت جنوب الكويت، واتجهنا جنوباً إلى إمارة الحسا، التي كانت تحت سيطرة الملك الكاملة. بعد ليلتين من السير السريع، قابلنا بالقرب من الساحل فصيلة من بدو بني حجر الذين أرسلهم أمير الحسا لاستطلاع آخر مواقع للمتمردين، ودخلنا

بصحبتهم إلى نطاق الأراضي الخاضعة لسلطة الملك. وبمجرد أن أصبحنا آمنين في مملكة ابن سعود، افترقنا عن دليلنا الصلوبي، الذي تلقى مكافأته برضا وسعادة، واتجه بعيداً باتجاه الغرب على ناقة «أهديتها» إليه، بينما واصلنا طريقنا إلى الرياض.

* * *

أثبتت سلسلة المقالات التي كتبتها أن المتمردين مدعومون من قوة أوروبية عظمى. وأشرت في تلك المقالات أن الهدف الأساسي لتلك المؤامرة هو دفع حدود مملكة ابن سعود إلى الجنوب لفصل المنطقة الشمالية وتحويلها إلى إمارة «مستقلة» تفصل بين السعودية والعراق، مما يُمكّن البريطانيين من مد خط سكك حديد عبر تلك الولاية المستقلة يصل ما بين البصرة وحيفا. وعدا ذلك، كان تمرد الداويش يوفر أسباب وجود اضطرابات مستمرة تنهك مملكة ابن سعود وتجعله في وضع لا يسمح له برفض الطلبات البريطانية كما فعل قبل ذلك، حين رفض منح البريطانيين ميزات خاصة، أولها: استئجار ميناء ربيغ الواقع شمال جدة لإقامة قاعدة بحرية، والثاني: السيطرة على خط سكة حديد دمشق ـ المدينة؛ الذي يمتد على الأراضي السعودية. وكانت هزيمة ابن سعود تحقق للبريطانيين الهدفين معاً.

أثارت المقالات ردود أفعال واسعة في أوروبا وفي العالم العربي (خاصة من خلال الصحف المصرية)، وربما كان الكشف المبكر لأبعاد ذلك المخطط سبباً في إجهاضه، على أي حال طوى النسيان خط سكة حديد حيفا ـ البصرة على الرغم من المبالغ الطائلة التي صرفت على الدراسات الأولية، ولم يسمع شيء عن ذلك المخطط بعد ذلك أبداً.

ما حدث بعد ذلك أصبح وقائع تاريخية: في صيف عام ١٩٢٩ احتج ابن سعود على سماح البريطانيين للداويش بحرية شراء الأسلحة والذخيرة من الكويت، ولأنه لم يكن يملك دليلاً موثقاً على أن قوة أجنبية هي التي تبيع السلاح للداويش فقد كان احتجاجه منصباً على السماح له بشراء أسلحة. وردت السلطات البريطانية بأن تجار الكويت هم من يبيعون السلاح للمتمردين وأنها ليست لها سلطة على التجار ولا تستطيع أن توقف ذلك بعد أن وقَّعوا اتفاقية جدة عام ١٩٢٧، والتي تقضي برفع الحظر عن مبيعات السلاح إلى الجزيرة العربية. وإذا أراد ابن سعود ـ كما جاء بردهم ـ أن يشتري سلاحاً من تجار الكويت فليفعل. . . وحين اعترض ابن سعود محتجاً بأن الاتفاقية ذاتها تقضي أن يمنع الطرفان أي أنشطة في أرض كل منهما تهدد سلامة وأمن الطرف الآخر، تلقى رداً بأن الكويت لا تعد «أرضاً بريطانية» ولا تحت الحماية البريطانية، حيث إن الكويت «مشيخة» مستقلة ولا تربط بريطانيا بها إلا علاقات تعاهدية. . وهكذا استمر التمرد. في آخر خريف ١٩٢٩، تولى ابن سعود بنفسه قيادة المعارك، وصمم هذه المرة على مطاردة الداويش حتى الكويت لو اضطر إلى ذلك، وإذا ظلت تلك الحدود مفتوحة للداويش ـ كما كانت مفتوحة له على الدوام ـ كقاعدة ينطلق منها، ومفتوحة للمتمردين كمهاجرين. وأمام ذلك الموقف الصلب من ابن سعود الذي أصر في الوقت نفسه على استمرار الاتصال بالسلطات البريطانية، تأكدت السلطات البريطانية أن من الخطر الاستمرار في تلك المؤامرة أكثر من ذلك، وأرسلت السلطات البريطانية طائرات وعربات مصفحة لمنع الداويش من التقهقر إلى الكويت. ووجد الداويش أنه خسر قضيته؛ لأنه لن يتمكن من الصمود أمام الملك في

معركة مفتوحة؛ فبدأ في التفاوض. كانت شروط الملك محدودة وواضحة: أن تستسلم القبائل المتمردة؛ وأن يسلموا سلاحهم وخيلهم وجمالهم؛ وأنه سيبقى على حياة الداويش، على أن يقيم في الرياض ولا يغادرها.

كان الداويش يتسم بالنشاط والحيوية والحركة الدائبة، ووجد أنه لا يستطيع ولن يحتمل أن يظل حبيس الرياض وتقيد حريته: فرفض الشروط وقاتل حتى آخر خندق ضد قوات الملك الأقوى كثيراً من قوته، وتم سحق كل المتمردين، وهرب الداويش وبعض قادة المتمردين إلى العراق، وكان منهم فرحان بن مشهور، ونايف أبو كلاب، زعيم عجمان.

وطلب ابن سعود من السلطات العراقية طرد الداويش من بلادهم. ولبعض الوقت بدا أن الملك فيصل، ملك العراق، سيرفض طلب ابن سعود محتجاً بالتقاليد العربية العريقة التي تقضي بإيواء اللاجئ واستضافته؛ إلا أنه رضخ. في آخر عام ١٩٣٠ تم تسليم الداويش الذي كان في غاية المرض إلى قوات الملك وأرسل إلى الرياض. . وبعد بضعة أسابيع اتضح أنه مريض فعلاً في هذه المرة مرض الموت، فأمر ابن سعود بكرمه المعهود بإعادته إلى أهله بالأرطاوية، وفي الأرطاوية، وصلت حياته العاصفة إلى نهايتها.

ومن جديد، ساد السلام أرجاء مملكة ابن سعود.

* * *

من جديد عاد السلام ليحل حول آبار أرجا، صاح البدوي المطيري العجوز، بينما كان رجاله يعاونوننا في سقي جمالنا: «أطال الله

أعماركم، شاركونا النعمة». كان من الواضح أن الأحقاد والضغائن والعداوات التي كانت سائدة بالماضي القريب قد نسيت ومحيت تماماً، كما لو كانت لم تقع أبداً.

والبدو لهم طبائع غريبة: فهم سريعو الاشتعال والغضب في نوبات لا سيطرة عليها حتى ولو بالتخيل، كما أنهم سريعو الهدوء ويعودون بسهولة إلى إيقاع الحياة الهادئ العادي فيغلب عليهم التواضع والطيبة: دائماً الجنة والجحيم متلازمان.

سحبوا الماء لنوقنا بالدلاء الكبيرة، وأنشد الرعاة المطيريون معاً:

ارتووا لا تتركوا ماءً

البئر مليئة بالنعم ولا قاع لها

[٣]

في الليلة الخامسة من مغادرتنا حائل أنا وزيد ومنصور، وصلنا إلى سهل المدينة، ورأينا هيئة جبل أحد المعتمة. كانت الجمال تتحرك بخطى متهالكة منهكة؛ فقد قطعنا مسافة كبيرة من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من تلك الليلة. كان زيد ومنصور صامتين، وكنت أنا أيضاً صامتاً. على ضوء القمر ظهرت مشارف المدينة، بحوائط ذات الشرفات، ومئذنة مسجد الرسول.

وصلنا إلى البوابة الشمالية، التي يطلق عليها البدو اسم البوابة السورية. أجفلت الجمال لما رأت هيئة الأبراج الدفاعية فوق البوابة، واستعملنا عصينا لإجبارها على المرور من البوابة.

أصبحنا الآن من جديد في مدينة الرسول وعدت إلى بيتي بعد

تجوال طويل في الصحاري: المدينة أصبحت بيتي من أعوام طويلة، يسود شوارعها هدوء عميق شهير بها ويخيم على شوارعها الهادئة الخالية. من آن لآخر ينهض كلب في تكاسل حتى لا تطأه أقدام الجمال. رجل يسير بمحاذاتنا يغني؛ تأرجح صوته في نغمة رقيقة حتى تلاشى في حارة جانبية دخلها. فوق رؤوسنا تتعلق شرفات ونوافذ سوداء ناتئة وصامتة.

والجو الذي يغمره ضوء القمر دافئ مثل الحليب الطازج.

وصلت بيتي.

تركنا منصور قاصداً بعض أصدقائه بالمدينة، أنخنا أنا وزيد راحلتينا أمام باب البيت، عقلهما زيد وهو صامت وبدأ في إنزال الخروج من على ظهريهما. دققت الباب. بعد لحظات سمعت وقع أقدام وأصواتاً من الداخل. سطع ضوء المصباح من شراعة الباب، سحبت مزاليج من مواضعها، وصاحت خادمتي السودانية العجوز مندهشة في سعادة حين وقع بصرها عليّ:

«عاد سيدي»...

الفصل التاسع

رسالة فارسية

كان الوقت عصراً، كنت جالساً مع صديق في بستان نخيله الذي يقع بالكاد خارج البوابة الجنوبية للمدينة، نسجت أعراش النخيل نسيجاً من مساحات رمادية وخضراء في خلفية البستان، مما جعله يبدو بلا نهاية. كانت أشجار النخيل ما زالت صغيرة وواطئة، وأشعة الشمس تتراقص على جذوعها وعلى الأقواس المدببة لعروشها. كان يشوب لونها الأخضر أتربة تهب في هذا الوقت من كل عام، بينما كان البساط السميك من حشائش الغصة ذا لون أخضر لا تشوبه شائبة.

[١]

على القرب أمامي تنهض أسوار المدينة، قديمة، رمادية، مشيدة من الأحجار والطوب اللبن، أبراجه تبرز إلى الخارج في مواضع متباينة منه. من خلف برج السور المواجه له بدت أشجار نخيل بستان آخر ولكنه يقع داخل سور المدينة. نوافذ المنازل بنية اللون وشرفات تبرز هنا وهناك، بعضها شيد مرتكزاً على السور وأصبح جزءاً منه. على مبعدة، تبدو المآذن الخمس لمسجد الرسول، عالية ورشيقة مثل ألحان

الناي، وتبدو من بينها القبة العظيمة الخضراء التي تخفي وتغطي منزل الرسول الصغير ـ الذي كان بيته في حياته ومدفنه في مماته ـ إلى أبعد من ذلك، خلف المدينة تبدو الصخور الملساء لجبل أحد: يبدو كستارة خلفية لمآذن مسجد الرسول البيضاء، وتيجان أعراش النخيل وكثير من منازل المدينة.

بدت شمس العصر مبهرة الضياء ـ مثل زجاج نقي خلف سحب بيضاء متلألئة. المدينة بأجمعها تسبح في ضوء يتراوح بين الأزرق والذهبي يتقاطع مع خضرة أعراش النخيل. رياح عالية تلهو بالسحب العالية. سحب، عادة ما تكون خادعة لا يمكنك أن تحدد في المدينة بيقين: «السماء مليئة بالسحب، لا بد أن تمطر»، فحتى مع تكاثف السحب وثقلها كما لو كانت حبلى بعاصفة قادمة، غالباً ما تأتي ريح مزمجرة معاكسة وتفرق السحب وتشتت جمعها، وتتحول أوجه من كانوا يتوقعون الفيء في أسف صامت، يتمتمون: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ـ بينما تتألق السماء مجدداً بزرقة صافية لا ترحم.

سلمت على صاحبي وتركته، سرت باتجاه بوابة المدينة. مرّ رجل بجواري يقود حمارين محملين بحشائش خضراء بينما امتطى ثالث. رفع يده محيياً وقال: «السلام عليكم»، رددت سلامه بالكلمات ذاتها. امرأة بدوية شابة قادمة في مواجهتي، رداؤها فضفاض طويل يمسد الأرض من خلفها ونصف وجهها الأسفل مغطى بنقاب، عيناها متألقتان شديدتا السواد حتى إن إنساني عينيها وحدقتيها اندمجتا في لون واحد، مترددة لخطوة، بادية التوتر كحيوان البراري في عنفوان حيويته.

دخلت المدينة وعبرت ميدان المناخة الواسع الكبير إلى شوارع

المدينة، تحت القوس الضخم لباب مصر، جلس صرافو العملات يرنون بقطع العملات الفضية والذهبية، دخلت السوق الذي لا يزيد عرضه عن اثني عشر قدماً، إلا أنه يزدحم بمحلات تموج بالحيوية وتنبض بالحياة.

الباعة ينادون معلنين عن بضائعهم بأغاني جميلة الوقع، أغطية رؤوس، شيلان من الحرير وأردية من صوف كشمير تجذب عيون المارة، علاقات مدلاة عليها أشغال فضية تتزين بها نساء البدو ـ أساور، خلاخيل، عقود، حلقان أذن.

بائعو العطور يضعون صناديق مليئة بمسحوق الحنة، وأكياس صغيرة حمراء لتلوين الجفون، قناني مختلفة ألوانها من زيوت وعطور، أكوام من توابل، تجار من نجد يبيعون ملابس بدوية وسروج جمال، سروج ملونة بالأحمر والأزرق من شرق الجزيرة. بائع حائل يدور ذهاباً وجيئة، ينادي بأعلى صوته معلناً عن أبسطة إيرانية وعباءات من وبر الجمل يحملها على كتفه، بيده وعاء شاي نحاسي. فيضان من بشر في الاتجاهين، أناس من المدينة ومن أنحاء الجزيرة العربية ومن جميع البلاد ـ كان موسم الحج قد انتهى من زمن قصير ـ أناس من صحاري السنغال ومن قرجيز، من جزر الهند الشرقية والمحيط الأطلنطي، من استراخان ومن زنزبار، بالرغم من كثرة الناس وضيق الطريق، لا يوجد تسرع أهوج، لا تدافع ولا تزاحم، في المدينة لا يركب الزمن أجنحة التعجل.

برغم التباين في أجناس البشر وألوانهم وأزيائهم، إلا أنه لا يثير العجب في شوارع المدينة، لا يظهر التباين إلا للعين التي تحاول تحليل

ما تراه. كل من يسكن المدينة، دائماً كان أم مؤقتاً، يتكيف بسرعة في مجتمع المزاج الواحد والسلوك الواحد، بل يتعدى ذلك إلى وحدة التعبير على الوجوه، كلهم واقعون في حب الرسول، المدينة مدينته وهم ضيوف عليها.

حضوره الروحي بعد ثلاثة عشر قرناً ما زال حياً كما كان هو حياً بها. له وحده يعود فضل تحويل قرى متناثرة كانت تسمى يثرب إلى مدينة يحبها كل المسلمين حتى اليوم كما لم يحب أحداً مدينة مثلها في جميع أنحاء العالم.

ليس لها اسم خاص بها، على مدى يزيد عن ألف وثلاثمائة عام يطلق عليها المسلمون مدينة النبي. وعلى مدى يزيد عن ألف وثلاثمائة عام يتجمع الحب هنا حتى إن كل ألوان البشر وكل تعبيرات وجوههم وحركتهم تكتسب نوعاً من التماثل الأسري الواحد، كل اختلاف في الشكل والمظهر يدخل في تحول فرعي حتى يصبح تجانساً واحداً.

هذه هي السعادة التي يشعر بها المرء دوماً هنا ـ هذا التوجد المتجانس. وبالرغم من أن حياة المدينة اليوم بعيدة عما كان يهدف إليه الرسول، وبالرغم من ضعف الوعي الروحي في أيامنا عن أيام الرسول؛ هنا وفي جميع أرجاء العالم الإسلامي، فإن رباطاً معنوياً لا يمكن وصفه يتصل بذلك الماضي الروحي العظيم ما زال حياً حتى الآن. لم تنل مدينة من الحب من أجل إنسان عاش بها، ولم يحدث أن مات إنسان من ألف وثلاثمائة عام، ونال مثل هذا الحب لذاته وشخصه، مثلما نال الرسول الذي يرقد تحت القبة الخضراء الكبرى. لم يدع أبداً أنه أي شيء آخر عدا كونه من البشر الفانين، ولم ينسب له المسلمون أبداً أي

قداسة غير بشرية أو ألوهية مثلما فعل أتباع أنبياء آخرون من قبله بعد موت أولئك الأنبياء. وأكد القرآن ذلك وشدد عليه، وأكد بشرية محمد: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾.

قد أكد القرآن في أكثر من موضع على بشرية محمد وأنه من خلق الله مثل كل البشر: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾.

أكد القرآن، وأكد الرسول أنه بشر مثلهم، وعاش كأي رجل، ينعم بالمسرات، ويعاني المرض الذي يعاني منه البشر؛ لذلك أحاطه من كانوا حوله ومن عاشوا معه بحبهم.

وتجاوز ذلك الحب حياته وامتد في قلوب أتباعه من المسلمين.

لقد عاش في المدينة، وينطق بحبه كل حجر من أحجارها العتيقة. تستطيع أن تلمس ذلك الحب بيديك، إلا أنك لا تستطيع أن تُعبر عنه بأي كلمات، مهما كانت بلاغتها.

[٢]

قلت له: «كنت بحائل والنفود».

سألني: «هل تبقى هذه المرة لبعض الوقت؟».

أجبته: «كلا يا أخي، سأسافر إلى مكة إن شاء الله بعد غد».

نادى الزغبي على صبي المقهى المقابل، في الحال كانت أقداح القهوة تصدر رنينها المألوف وهو يضعها أمامنا.

سألني الزغبي: «ولكن لماذا تذهب يا محمد إلى مكة الآن؟ لقد انتهى موسم الحج...».

قلت: «ليست رغبة في الحج، لقد حججت خمس مرات، لدي شعور أنني لن أبقى طويلاً في الجزيرة العربية، وأرغب في رؤية أنحاء المدينة التي بدأت حياتي بها في هذه البلاد...»، ثم أضفت ضاحكاً: «حسناً يا أخي.. سأخبرك بالحقيقة، أنا لا أدري بدقة لماذا تسيطر عليّ فكرة الذهاب إلى مكة؛ وأشعر أنه لا بد لي أن أذهب..».

هز الزغبي رأسه علامة عدم الرضا: «تترك هذه البلاد وتغادر أخوتك؟ كيف واتتك القدرة على هذا القول؟».

مرت هيئة شخص مألوف لي وهو يمضي مسرعاً في خطوات حثيثة: كان زيداً، وكان من الواضح أنه يبحث عن شخص ما. ناديته: «إلى أين يا زيد؟».

التفت وعاد بوجه جاد قائلاً: «أنت من أبحث عنه يا عمي، وجدت كوماً من الرسائل المرسلة إليك في مكتب البريد وكانوا على وشك إرجاعها إلى مرسليها. ها هي قد أحضرتها إليك، السلام عليك يا شيخ الزغبي».

جلست متربعاً أمام متجر الزغبي، تصفحت مغلفات الرسائل: رسائل عديدة من أصدقاء في مكة، ورسالة من رئيس تحرير جريدة «نيو زيورخ ذيتونج» السويسرية، التي أعمل مراسلاً لها، وخطاب من الهند، يطلبون مني الحضور للتعرف على أكبر مجتمع إسلامي في العالم، وبضع رسائل من دول مختلفة بالشرق الأوسط، ورسالة عليها خاتم بريد طهران.. كانت من صديقي علي آغا الإيراني، وكان لم يراسلني

من عام، فتحت رسالته وتطلعت إلى صفحاتها المليئة بأسطره بطريقة «الشيكاستا»[1]، كتب علي آغا:

«إلى أحب أصدقائي، أخي، وضوء قلوبنا، المحترم جداً أسد آغا، أطال الله عمره وحمى خطاه، آمين.

عليكم سلام الله ورحمته وبركاته دائماً وأبداً، نحن نصلي لله أن يفيء عليكم بموفور الصحة والسعادة، ونعلم أنه يسعدكم أن تعرفوا أننا أيضاً في كامل الصحة والحمد لله.

لم نكتب إليكم منذ فترة طويلة بسبب عثرات الحياة التي صادفتنا في الأشهر الماضية، توفى الله والدي ـ رحمة الله عليه ـ من عام مضى، وأنا أكبر الأبناء، وانشغلت بعض الوقت بشؤون الأسرة بعد وفاة الوالد. وقضت مشيئة الله لعباده الذي لا يستحق فضله أن ينعم عليه بنعم لم يكن يتوقعها، فأنعمت عليّ الحكومة بفضل الله برتبة مقدم، كما نأمل أن يجمعني الزواج بفتاة جميلة وفاضلة، هي ابنة عمي الثانية شيرين ـ وبذلك تصل أيام عدم الاستقرار إلى نهايتها.

كما هو معلوم لقلبكم الصديق. لم نخل من ارتكاب معاصٍ وذنوب وأخطاء في ماضينا ـ ولكن ألم يقل الشاعر حافظ:

يا الله، يا مَنْ أوجدت ألواح الخشب في قلب لجة البحر.

ألم يكن بمشيئتك أن تجعل البحر يابساً.

هكذا سيستقر علي آغا في نهاية الأمر ويصير زوجاً محترَماً. لم

---

(١) المعنى الحرفي «لغة ركيكة»، وهي الشكل الفارسي للخط العربي، وتستعمل في الكتابة السريعة.

يكن محترماً حين التقيته أول مرة، كان ذلك من أكثر من سبعة أعوام مضت في مدينة «بام» التي كان قد «أقصي» إليها.

على الرغم من أنه كان في السادسة والعشرين من عمره في ذلك الوقت، إلا أن ماضيه كان حافلاً بالإثارة والنشاط، وشارك في الأحداث السياسية التي سبقت وصول رضا خان إلى السلطة، كان بإمكانه أن يقوم بدور مهم في طهران لو لم ينغمس في حياة اللهو والعبث، وكان وجوده في ذلك الوقت بمدينة «بام» النائية في جنوب إيران بوازع من أبيه واسع النفوذ، على أمل أن ينصلح حال ابنه إذا ابتعد عن متع طهران ومسراتها وملذاتها، إلا أن علي آغا وجد في «بام» ما يعوضه عما افتقده في طهران، وجد النساء، والعرق، وخدر الأفيون الذي كان يتعاطاه بكثرة.

في ذلك الوقت، عام ١٩٢٥، كان علي آغا قائد الحامية المحلية في مدينة «بام» برتبة ملازم. كنت حينها أستعد لعبور صحراء «داشيلوت»، وتوجهت إليه بخطاب توصية من حاكم ولاية «كيرمان» - وكان بدوره قد تلقى خطاب توصية من رضا خان، رئيس الوزراء الديكتاتور.

كان في ذلك الوقت في بستان من أشجار البرتقال، والدفلى، والنخيل وتسقط من بين أغصانها العالية بقع من أشعة الشمس. كان يرتدي قميصاً خفيفاً، ويجلس على بساط مفروض على الحشائش، وعلى البساط بقايا طعام، ونصف قنينة من العراق، اعتذر علي آغا من العرق قائلاً: «من الصعب أن تجد نبيذاً في هذه الحفرة الملعونة»، وأجبرني على مشاركته ذلك العرق المحلى - وهو مشروب مرعب

يذهب إلى الرأس فوراً مثل لطمة قوية ـ بأعين لماحة طاف بصره بسرعة على صفحة الخطاب الموجه إليه من كيرمان، ثم وضعه جانباً وقال: «حتى لو لم تأت بتوصية. كنت سأصحبك بنفسي لعبور تلك الصحراء، أنت ضيفي، لن أتركك تسافر وحدك عبر صحراء (البالوشي) كانت صحراء داشتيلوت في منطقة البالوش.

نهض شبح كان حتى تلك اللحظة جالساً في بقعة مختفية في ظل شجرة، كانت امرأة شابة ترتدي رداءً حريرياً أزرق فاتح اللون يصل إلى ركبتيها. ومن تحته سروال أبيض بلوشي واسع. كانت ذات وجه مليح شهواني يبدو كأن نيراناً تندلع داخل ملامحه، وشفتين ممتلئتين حمراوتين، وعينين جميلتين غامضتي النظرة بشكل محير؛ وجفونها مخضبة بالحناء.

همس علي آغا بالفرنسية: «إنها كفيفة البصر، ومغنية رائعة».

أعجبني عطفه الشديد وحنوه البالغ والاحترام الفائق الذي يعامل به الفتاة، بالرغم من أنها مغنية تنتمي إلى تصنيف يضعها في مصاف الغانيات؛ إلا أنه كان يعاملها بذات المعاملة التي كان يعامل بها سيدات مجتمع طهران الراقي.

جلسنا ثلاثتنا على البساط، وبينما انشغل علي آغا بمجمرة النار وغليونه المحشو بالأفيون، تحدثت إلى الفتاة البلوشية. على الرغم من فقدها البصر إلا أنها كانت تضحك من أعماقها ضحك من تسكن قلبه السعادة؛ كانت لها تعليقات جسورة ومضحكة ومخجلة من تلك التي لا تخجل منها المتحررات.

حين انتهى علي آغا من تدخين غليونه، تناول يدها برقة وقال:

«هذا الغريب النمسوي الذي معنا الآن، يجب بالتأكيد أن يستمع إلى واحدة من أغانيك؛ لم يسمع في حياته أغنية بلوشية».

بدا على الوجه الذي يتطلع إلى لا مكان سعادة حالمة، تناولت العود الذي مده علي آغا إليها وراحت تجرب الأوتار وتضبط نغماتها. غنت بصوت عميق أبح أغنية رعاة بلوشية، بدت الأغنية كأنها صدى للحياة ذاتها من شفتيها الدافئتين. . .

عدت من أفكاري إلى متابعة قراءة فقرات رسالة علي آغا:

«أتساءل إن كنت ما زلت تتذكر تلك الأيام يا أخي وصديقي المحترم، وكيف سافرنا معاً عبر صحراء داشيلوت، وكيف كان علينا أن نقاتل دفاعاً عن أنفسنا ضد العصابات البلوشية. . ؟

هل أتذكر؟ ضحكت في سريرتي من تساؤل علي آغا الساذج، رأيت في أعماق ذاكرتي صحراء داشيلوت الخالية، أو «الصحراء المقفرة» التي تنشر خواءها اللانهائي من بلوخستان حتى قلب إيران. كنت أنوي عبور تلك الصحراء للوصول إلى «سيستان»، أقصى حدود شرق إيران، ومنها أواصل رحيلي إلى أفغانستان؛ وحيث كنت قادماً من «كيرمان»، لم يكن يوجد مسار آخر.

توقفت أنا وعلي والحراس البلوشيون، عند واحة خضراء على حافة الصحراء لنكتري جمالاً ونشتري مؤناً لطريق طويل أمامنا. كنا ننزل في محطة البرق «الهند أوروبية».

كان مدير المحطة رجلاً طويلاً حاد النظرات، لم يرفع بصره عني وكأني صيد ثمين.

همس إليّ علي آغا: «خذ حذرك من هذا الرجل، إنه من رجال

العصابات أنا أعرفه جيداً وهو يعلم ذلك. كان لصاً كبيراً حتى بضعة أعوام مضت، أما الآن فإنه يملك مالاً كثيراً وأصبح محترماً في ظاهره - ما زال يكسب أموالاً كثيرة من بيع الأسلحة لزملائه القدامى من رجال العصابات، وأنتظر اللحظة الملائمة لأقبض عليه متلبساً. إلا أنه ذكي ومن الصعب إثبات أي شيء ضده. منذ أن عرف أنك نمسوي سال لعابه، فأثناء الحرب العالمية كان النمسويون والألمان يحاولون إثارة القبائل ضد الإنجليز؛ وكان معهم حقائب مليئة بالعملات الذهبية، وصاحبنا هذا يعتقد أنك تحمل واحدة من تلك الحقائب».

وأفادنا ذكاء مدير المحطة إفادة جمة، تمكن من العثور لنا على جملين من أفضل جمال الركوب، وقضينا ما تبقى من اليوم في شراء قرب الماء، وحبال من شعر الجمال، وأرز، وسمن، وأغراض أخرى لازمة لرحلة عبور الصحراء.

في عصر اليوم التالي تحركنا، سبقنا علي آغا بصحبة أربعة من الحرس لتهيئة مكان نحط فيه رحالنا أثناء الليل. وسرعان ما تلاشت جمالهم واختفت في الأفق البعيد. أما أنا وإبراهيم والحارس الخامس فقد تبعناهم على مهل.

تأرجحنا على الجمال (كانت أول مرة أركب فيها جملاً) الرشيقة الأطراف، سرنا في البداية عبر كثبان رملية صفراء لا تنمو فيها إلا أعشاب قليلة، ثم دخلنا إلى صحراء مكشوفة، وادٍ صامت أجرد لا تبدو له نهاية، مسطح تماماً وخالٍ من أي نتوء أو بروز، بدا وكأنه هو الذي ينطبق على الأفق، لا حجر، لا صخرة، لا نبتة عشب، لا صوت لحيوان، ولا صوت لطير أو حتى خنسفاء يكسر ذلك الموت القاحل.

حتى الريح ضاع زخمها. كانت تسعى واطئة دون صوت، كما يهبط حجر من حافة هاوية.. لم يكن ذلك ما يطلق عليه صمت الموت، بل كان ما لم يولد بعد، ذلك الذي لم تدب فيه حياة، الصمت الذي سبق في الوجود الكلمة الأولى.

ثم انبعث صوت وحطم الصمت، تصاعد صوت بشري مفاجئ، مرح، مبتهج، صعد في الهواء الساكن وظل معلقاً في الفراغ حيث صعد: يبدو كأنك لا تسمعه فقط، بل تراه، صوت وحيد، لا يشوبه ولا يتداخل معه أي صوت في ذلك السكون البدائي الأول، ثم تدفق عبر سهوب الصحراء. كان صوت الحارس البلوشي. كان يغني أغنية من أغاني ارتحالاتهم القبلية القديمة، جزء من ملحمة شبه مغناة، تتابع سريع لكلمات ساخنة وناعمة لم أفهم منها كلمة. جرى صوته على نغمات متباينة، في مستوى صوتي واحد، باستمرارية متدفقة ظلت تنمو حتى وصلت إلى قمة عالية كما لو كانت تحتضن في ثناياها لحناً مضيئاً في ترددية صوتية ثنائية متماوجة من أعماق الحلق، كشف تكرار وتغاير المنغمة المتماوجة عن ثروة صوتية غير متوقعة من ذلك الحارس بنغماته الصوتية الطويلة ـ ممتدة وغير محدودة مثل الأرض التي ولد عليها...

كان ذلك الموضع من الصحراء الذي كنا نمضي فيه في ذلك الوقت يطلق عليه «صحراء أجراس أحمد»، فمنذ سنين طويلة، ضلت قافلة كان يقودها رجل اسمه أحمد طريقها في ذلك الموضع، ومات كل من كانوا بالقافلة، الحيوانات والبشر؛ وحتى اليوم، يقال: إن أصوات الأجراس التي كانت معلقة برقاب حيوانات القافلة تدوي أحياناً في تلك المنطقة، وتسمع أصواته القوافل المارة بالمكان ـ أصوات شبحية حزينة تغوي الغافلين فيضلوا الطريق ويلقوا حتفهم في الصحراء القاحلة.

بعد غروب الشمس مباشرة وصلنا إلى الموضع الذي اختاره علي آغا والحراس لإقامة خيمتنا وسط منطقة تنمو فيها أعشاب الكاهور ـ وهي آخر أعشاب نراها على مدى الأيام التي سنقطع فيها الصحراء. أشعلنا ناراً من أعشاب جافة، وصنعوا الشاي الذي لا مفر منه ـ بينما كان علي يدخن أفيونه في غليونه. أطعمنا الجمال شعيراً مجروشاً وأنخناها في دائرة من حولنا. وعيّن علي آغا ثلاثة من الحراس على قمم التلال من حولنا للحراسة. كانت المنطقة التي كنا نخيم بها مسرحاً لعمليات شياطين الصحراء الجسورين، وهم عصابات الإغارة من البلوش الجنوبيين.

كان علي آغا قد انتهى بالكاد من تدخين غليونه واحتساء شايه، وبدأ يشرب العرق بمفرده ـ فلم أشعر برغبة في مشاركته الشراب ـ حين دوت فجأة طلقة رصاص حطمت جدار صمت الليل. دوت طلقة ثانية إلا أنها كانت من إحدى نقاط حراستنا رداً على الأولى أعقبتها صرخة آتية من الظلام. ألقى إبراهيم ـ الذي كان حاضر البديهة ـ الرمال على النار بسرعة ليطفئها. ثم توالى إطلاق الرصاص من كل الاتجاهات.

كان حراسنا غير ظاهرين. إلا أن أصوات ندائهم لبعضهم كان مسموعاً. لم نعرف عدد المهاجمين، فقد كانوا صامتين. ولم يظهر من جهتهم إلا وميض الطلقات من آن لآخر؛ مرة أو مرتين ميزت على البعد شبحاً بزي أبيض سرعان ما كان يختفي. أزت طلقات واطئة فوق رؤوسنا، إلا أنها لم تصب أي منا. بالتدريج قل إطلاق النار وتباعد، ثم طلقات أخيرة ابتلع الظلام صوتها؛ واختفى المهاجمون ـ الذين لم يتوقعوا يقظتنا ـ بنفس السرعة التي أتوا بها.

نادى عليّ على الحراس المحيطين بنا في نقاط الحراسة وعقدنا اجتماعاً قصيراً وقررنا مغادرة المكان فوراً لاحتمال عودة المهاجمين بأعداد كبيرة.

كانت الليلة مظلمة بلون القار، فقد كانت السحب كثيفة وواطئة وتحجب نور القمر والنجوم. وكقاعدة، فإن من الأفضل السفر ليلاً في الصحراء في موسم الصيف؛ ولكن في ظروف عادية لم نكن لنخاطر بالمسير في تلك العتمة خشية أن نضل الطريق. في الماضي، اعتاد ملوك إيران السابقون على وضع أعمدة إرشادية ترشد القوافل. ولكن مثل أشياء كثيرة، اختفت تلك الأعمدة، وعلى أي حال لم تعد لها الأهمية نفسها: فأعمدة أسلاك البرق التي مدها البريطانيون في بداية القرن من الهند عبر صحراء داشيلوت حتى كيرمان، كانت تؤدي الغرض نفسه، بل كانت أفضل كوسيلة إرشاد، ولكن في ليلة مثل تلك الليلة. لم تكن أعمدة البرق ظاهرة في ذلك الظلام الدامس.

اكتشفنا أننا فقدنا أثر أعمدة أسلاك البرق فأصابنا الفزع، فبعد نصف ساعة، قال الحارس الذي كان يسير بناقته إلى علي آغا:

«حضرت، لم أعد أرى الأسلاك...».

صمتنا من الفزع لحظات.. فآبار الماء موجودة فقط على مسار أعمدة البرق، وعلى مسافات كبيرة من بعضها، فإن ضللنا الطريق فمن المحتم أننا سنموت عطشاً مثل قافلة أحمد الأسطورية.

تحدث علي آغا بطريقة مغايرة تماماً لما أعرفه عنه، من المؤكد أن الأفيون والعرق كانا وراء ذلك. فقد أخرج مسدسه من جرابه وصرخ في الحارس:

«أين الأسلاك، لماذا لم تنتبه يا ابن الكلب؟ آه.. أنا أعرف.. أنت متواطئ مع العصابات وتضللنا حتى نتوه ونموت عطشاً وبذلك نكون ضحية سهلة».

كان ذلك التوبيخ والتأنيب غير عادل بكل تأكيد، فالبللوشي لا يمكن أن يخون من أكل معه خبزاً وملحاً. كان من الواضح أن الحراس يؤلمهم ذلك الاتهام لزميلهم، وأكدوا لنا براءتهم، إلا أن عليّ آغا انفجر من جديد:

«اخرسوا.. عليكم بالعثور على الأسلاك فوراً وإلا سأقتلكم واحداً بعد آخر، أحرق الله آباءكم».

لم أتبين وجوههم في الظلام ولكني كنت أعرف كيف يشعر البلوشي تجاه الإهانة: لم يهتموا حتى بالإجابة ولا بالرد. ثم فجأة فصل أحدهم نفسه عن تجمعنا ـ وكان هو الحارس الذي فقد أثر أسلاك البرق ـ وضرب جمله بسوطه واختفى في الظلام.

صاح عليّ آغا: «إلى أين تذهب؟» ولم يتلق إلا كلمات غير واضحة. لثوان، على وقع أقدام جمله مسموعة على حصى الأرض، ثم غاص الصوت في ظلام الليل ولم يعد له وجود.

بالرغم من اقتناعي التام من دقيقة مضت ببراءة البلوشي مما نسبه عليّ آغا إليه، إلا أن الشكوك راودتني: لقد ذهب الآن إلى رجال العصابات، كان عليّ آغا على حق بعد فترة.. سمعت عليّ آغا يسحب ذراع أمان مسدسه وفعلت مثله. أما إبراهيم فقد كان ما زال يخلع قربينته المعلقة. جلسنا بلا حركة على ظهور الجمال. زمجر أحد الجمال بنعومة لما اصطدم مقبض بندقية الحارس بسرجه. مرت دقائق طويلة،

كنت أسمع فيها صوت تنفس الرجال. ثم فجأة، جاءت صيحة من مسافة بعيدة، بالنسبة لي لم تبد إلا «أوو وو وا»، إلا أن البلوشيين كانوا يفهمون مغزى تلك الصيحة، إذ كور أحدهم كفيه حول فمه، وصاح بحماس في اتجاه الصوت بكلمات باللغة البراهوية. من جديد جاء ذلك الصوت البعيد. استدار أحد الحراس إلى عليّ آغا وقال بالفارسية: «الأسلاك يا حضرت، لقد وجد الأسلاك». انداح التوتر. تبعنا مصدر الصوت ونحن نشعر بارتياح، وراح يوجهنا بصوته من آن لآخر وحين وصلنا إليه، شبَّ على سرجه وأشار في الظلام: «هذا هو سلك البرق».

وبالفعل، بعد عدة لحظات كدنا نصطدم بعامود أسلاك البرق. ما فعله عليّ آغا في تلك اللحظة كان من السلوكيات المميزة له. فقد أمسك بالحارس من حزامه، وجذبه باتجاهه ومال على سرجه، وقبله على وجنتيه وهو يقول: «إنه أنا لا أنت، أنا ابن الكلب، سامحني يا أخي».

عرفت بعد ذلك أن الحارس ابن البراري سار في منحنيات متعرجة حتى سمع من مسافة نصف ميل صوت طنين الريح وهي تصطدم بالسلك فعرف مكانه وهو طنين لم أتمكن من سماعه وأنا تحت السلك مباشرة، كان من الأصوات التي لا تسمعها أذناي الأوروبيتان. تقدمنا ببطء وحذر، في الليلة الظلماء، من عامود برق لا نراه إلى عامود برق آخر يطويه الظلام، أحد الحراس يسبقنا وينادي علينا في كل مرة يصل فيها إلى عامود تال. لقد وجدنا طريقنا وصممنا على ألا نفقده مرة أخرى.

* * *

أفقت من ذكرياتي وعدت إلى رسالة عليّ آغا أكمل قراءتها:

«بترقيتي إلى رتبة مقدم، أصبح شخصي المتواضع في هيئة الجنرالات؛ وذلك يلائمني يا صديقي الحبيب وأخي، أكثر من حياة الحاميات في مدينة إقليمية».

وأنا متأكد أنها كذلك يا علي، كان عليّ آغا شغوفاً بحياة العاصمة، ومكائدها ـ خاصة ـ مكائدها ودسائسها السياسية، وبالفعل راح يصف لي في رسالته الأحوال السياسية في طهران، والمنافسات والمشاحنات التي لا تنتهي تحت السطح الطاهر. ومناورات معقدة تقوم بها قوى أجنبية تهدف منها إلى بقاء إيران في حالة من عدم الاستقرار تجعل من المستحيل على تلك الأمة الموهوبة أن تقف على أقدامها من جديد:

«نتعرض الآن لضغوط شركة نفط بريطانية من أجل تمديد امتياز النفط وبذلك تطيل من أمد عبوديتنا. السوق يموج بالإشاعات، والله وحده يعلم إلام يؤدي كل ذلك».

كان البازار ـ السوق ـ يلعب دائماً دوراً كبيراً في الحياة السياسية للدول الشرقية؛ ويصدق ذلك على وجه الخصوص على بازار طهران. فالبازار هو قلب إيران الخفي الذي ينبض بإصرار رافض كل الفساد والانحدار الذي تتعرض له البلاد من بين سطور عليّ آغا بدا لي ذلك البازار وكأنه مدينة بذاته، بدا لي وكأنه قائم أمام عيني ينبض بالحياة وكأنني كنت أراه بالأمس:

البازار في طهران شبكة ضخمة من القاعات والصالات والممرات مغطاة ومسقوفة بأقواس مدببة. على الطريق الرئيسي، وبعد بضعة متاجر صغيرة معتمة مليئة بسلع رخيصة، توجد باحات مسقوفة مليئة بأغلى

أنواع الحرير الأوروبي والآسيوي؛ ثم محلات حياكة الملابس، ثم واجهات العرض الزجاجية المليئة بالحلى الفضية الدقيقة الصنع، ثم تتناوب محلات الأقمشة الملونة من بخارى والهند مع محلات البسط الفارسية ـ بسط عليها رسومات حملات الصيد وأشكال الفرسان على صهوات جيادهم، وأسود وفهود، وببغاوات، وظباء ووعول برية؛ عقود من الزجاج واللؤلؤ وقداحات وآلات حياكة؛ جانب معتم للمظلات يليه جانب آخر لملابس من جلود الأغنام المدبوغة والمزخرفة من خراسان: كلها معروضة في تلك القاعات الهائلة الطول والتي تعتمد على عرض كميات هائلة أكثر من اعتمادها على حسن التنسيق والعرض.

في الحواري المتشعبة اللانهائية والمليئة بالبضائع والسلع المتباينة من مصنوعات يدوية وسلع تجارية، تجد أن المحلات مرتبة طبقاً لنوع التجارة والحرفة.

في مكان، تجد صفاً طويلاً من السروجية وصانعي الأشغال الجلدية، واللون الأحمر هو اللون الغالب في دباغة الجلود التي تفوح رائحتها النفاذة في المكان بأجمعه. يليهم الحائكون: ومن كل كوة ـ أغلب المحلات عبارة عن كوى مرتفعة لا تزيد مساحة كل منها عن ثلاث أو أربع ياردات ويسودها ضجيج آلات الحياكة وهي تعمل، وخارجها أردية طويلة معلقة ومعروضة للبيع، كل المحلات تعرض الأردية ذاتها، حتى تعتقد أنك لم تقطع أي مسافة وتشعر أنك تراوح مكانك لتكرر أشكال الأردية المعلقة، وينتابك الانطباع نفسه في أماكن متباينة من البازار؛ إلا أن غزارة التماثل في كل موضع لا يمت بصلة للتجانس؛ فتسكر الغريب وتملأه بإعجاب قلق. حتى لو زرت البازار

للمرة المائة، تجد دائماً أن الحال ثابت كما هو لا يتبدل ولا يتغير ـ إلا أن ذلك الثبات الذي يماثل أمواج المحيط التي تغير أشكالها ولكن مادتها التي تتكون منها ثابتة لا تتغير.

بازار أشغال النحاس: معزوفة من أصوات أجراس برونزية يأتي من أصوات طرق النحاس؛ أشكال متباينة من مشغولات البرونز والنحاس، يحولون الألواح المعدنية التي لا شكل لها ولا جمال فيها إلى آنية وأحواض وصواني وكؤوس، أصوات الطرق يقين صوتي متغير النغمات عبر كل بازار المعادن ـ كل صانع يستجيب لإيقاع الصناع من حوله ـ حتى إنه لا يبدو أن هناك نغماً نشازاً على الأذن: مئات العاملين يطرقون مصنوعات متباينة في مختلف المحلات ـ إلا أن اللحن واحد.. في عمق يربو عن كونه موسيقى، تبدو الرغبة الاجتماعية في التجانس والتي تظهر القيمة الخافية للروح الإيرانية.

بازار العطور: ردهات وممرات صامتة من أقماع السكر، وأجولة الأرز، وأكوام من اللوز والفستق، وعين الجمل، وجوزة الطيب، براميل مليئة بثمار المشمش المجفف والزنجبيل، صواني نحاسية مليئة بالقرفة، والكاري، والفلفل الأسود، والزعفران، وبذور الخشخاش، وآنية مليئة بالكراوية والفانيليا، والكمون، والقرنفل وأعشاب غريبة لا حصر لها، وجذور نباتية تعبق المكان بروائح قوية. ومن فوق حافة الموازين النحاسية اللامعة، يتربع صاحب المتجر، مثل بوذا، بساقية المتربعتين، ينادي بين الفينة والفينة على المارة عارضاً بضاعته.

كل الأحاديث تدور في همس في هذا المكان: لا يمكن لامرئ أن يصدر صوتاً في مكان يتدفق فيه السكر برقة من جوال إلى ميزان، كما

لا يمكن لامرئ أن يكون صاخباً في مكان يوزن فيه الزعتر والبنسون. . . إنه سلوك يتوافق مع رقة المادة، وهو السلوك ذاته الذي يُمكّن الإيرانيين من نسج الأبسطة الفنية النبيلة من ألوان لانهائية لخيوط الصوف ـ خيطاً بخيط، جزء من بوصة بجوار جزء من بوصة ـ حتى تتم اللوحة وتكتمل في جمال زاه، ولذلك ليس مصادفة أن تكون الأبسط الإيرانية فريدة وثمينة في جميع أرجاء العالم: أين يمكن للمرء أن يجد ذلك الاستغراق الصامت والتفكير المبدع والتكريس الكامل لحواس المرء ووجوده فيما يفعله؟ في أي مكان آخر تجد مثل تلك العيون الداكنة التي لا يعني لها مرور الوقت شيئاً أمام صبرها ومثابرتها على ما تفعل.

في كوى أخرى كهفية، أكبر قليلاً من الكوى السابقة يجلس ناسخو الأشكال المنمنمة الدقيقة، يقلدون منمنمات قديمة في مخطوطات يدوية موغلة في القدم، وتحولت إلى مزق بفعل الزمن، يقلدون في رسومات بديعة وخطوط وألوان تأسر الألباب الجوانب الجميلة من الحياة: جماعات صيد، حب وسعادة وأسى، يعملون بفرش دقيقة ورقيقة؛ الألوان لا تخلط في أوعية ميتة، بل تخلط في كف الرسام الحية، وتوزع في نقاط على أصابع الكف اليسرى.

على صفحات جديدة بيضاء يمارس الرسامون إعادة الخلق والحياة، نقطة بعد أخرى، وخط بعد آخر، وظل بعد ظل، تجري الألوان جنباً إلى جنب على خلفية ذهبية فتبرز المنسوجات جديدة ومتألقة، أشجار البرتقال الباهتة في الحديقة الملكية في الرسوم القديمة تنتعش من جديد وتينع وتزدهر في النسج الجديدة في ربيع جديد؛ والنساء الناعمات

الرقيقات في أردية الحرير والفراء يظهرن من جديد إيماءات الغرام وإشارات الحب وأماراته على النسخ الجديدة، وتشرق الشمس من جديد على لعبة البولو التي يمارسها الفرسان بألوان زاهية جديدة. . خطاً بعد خط، بقعة لونية بعد أخرى ـ وظل بعد ظل، يتبع الناسخون الصامتون خطى المغامرات الإبداعية الخلاقة لفنانين ماتوا من زمان بعيد، كانوا يمتلئون حباً لما يفعلون ويغمرهم سحره، يجعلك الحب والتفاني البادي عليهم تنسى عدم كمال النسخ المقلدة. . .

يمر الوقت، والناسخون منحنون منكبون على أعمالهم، لا يعبأون بالزمن. يمر الوقت؛ وفي طرقات البازار القريبة تخترق السلع الغربية الحديثة بصبر ودأب محلات البازار، مصباح كيروسين من شيكاغو، ملابس قطنية مطبوعة من مانشستر، غلاية شاي من تشيكوسلوفاكيا، كلها تتقدم منتصرة، إلا أن الناسخين يجلسون متربعي الساقين على وسائد قماش مهترئة، ينقبون بأعين رقيقة وأنامل دقيقة في إبداعات قديمة، ويضفون على رحلات الصيد الملكي ومحبوباتهم بعثاً جديداً يوماً بعد آخر. . . الناس في البازار لا حصر لهم: رجال يرتدون الملابس الأوروبية، وآخرون يرتدون العباءة العربية الطويلة فوق الملابس الأوروبية، ورجال محافظون يرتدون القفطان وعمائم حريرية، مزارعون وفنانون في سترات زرقاء.

دراويش ـ وهم متسولو إيران الأرستقراطيون يرتدون جلابيب بيضاء واسعة، وأحياناً يضعون على ظهورهم جلود فهود، أقوياء البدن وشعورهم طويلة، نساء الطبقة المتوسطة يرتدين حسب إمكاناتهم ملابس حريرية أو قطنية، غير أن اللون في كل الأحوال أسود، مع

النقاب الطهراني التقليدي القصير المرخي بعيداً عن الوجه؛ أما الفقيرات فيرتدين أزياء من القطن ذات ألوان صارخة. أما الملالي الكبار (رجال الدين) فيركبون جحوشاً فارهة أو بغالاً ويستديرون بنظراتهم العدائية الصامتة كأنها تتساءل: «ما الذي تفعله هنا؟ هل أنت من الذين يعملون على دمار بلادنا؟».

أدت المؤامرات والدسائس الغربية بشعب إيران إلى أن يتشكك في كل ما هو غربي، ولا يوجد إيراني واحد يتوقع أن يأتي أي خير لبلاده من أولئك الفرنجة، إلا أن علي آغا لم يكن متشائماً بلا سبب: «أكملت قراءة الرسالة»:

«إيران بلد عتيقة ـ إلا أنها ليست على استعداد للموت. كنا على الدوام مقهورين. اجتاحت بلادنا أمم أخرى عديدة، كلهم مضوا إلى حال سبيلهم، وظلت إيران حية. في فقر وقهر. في جهل وظلام: إلا أننا ما زلنا أحياء. ويعود ذلك إلى أننا نمضي في سبيلنا الخاص بنا. حاول العالم الخارجي أن يرغمنا مراراً على انتهاج وسائل أخرى للحياة ـ إلا أنهم دائماً كانوا يفشلون. نحن لا نجابه القوى الخارجية بالعنف، ولذلك نبدو للآخرين كأننا استسلمنا، إلا أننا من قبيلة الموريون ـ وهي تلك النملة الدقيقة الصغيرة التي تحيا أسفل الجدران. ربما تكون قد رأيت يا نور قلبي كيف تتهاوى المنازل ذات الجدران القوية فجأة بلا سبب واضح يبرر انهيارها المفاجئ. ما السبب؟ لا شيء إلا ذلك النمل الدقيق والذي يظل على مدى أعوام ينخر بصبر ممرات وحفر في قواعد البناء، يتقدم في كل مرة مقدار سُمك شعرة، ببطء، وصبر، ودأب، في كل الاتجاهات. حتى تفقد الجدران توازنها في النهاية وتنهار. نحن

الإيرانيين مثل ذلك النمل. لا نواجه القوى الأجنبية والغربية بعنف وضجيج لا طائل من ورائه، بل نتركهم يظهرون أسوأ ما لديهم، ونحفر نحن في صبر ممراتنا وكهوفنا، حتى يأتي اليوم الذي ينهار فيه ما شيدوه. . .

هل رأيت ما يحدث حين تقذف حجراً في الماء؟ يغطس الحجر، وتظهر حلقات متتابعة على سطح الماء، وتنتشر تدريجياً ثم تتلاشى ويسكن سطح الماء كما كان. نحن الإيرانيين مثل ذلك الماء، الشاه، أطال الله عمره يحمل أعباءً ثقيلة ينوء بحملها، فالإنجليز في جانب والروس في جانب آخر. ولكن لا يوجد لدينا شك أنه بفضل الله، سيجد طريقة لإنقاذ إيران.

لم تكن ثقة علي آغا الضمنية في رضا شاه في غير محلها. كان رضا شاه من أهم الشخصيات الحيوية التي قابلتها في دولة إسلامية، وكذلك من بين كل من قابلت من ملوك، ولا يمكن مقارنته إلا بابن سعود.

وقصة صعود رضا شاه حتى وصوله إلى حكم البلاد تشبه القصص الخيالية، ولا يمكن أن تتحقق إلا في دول الشرق فقط، حيث تلعب الشجاعة الشخصية والإرادة القوية دوراً رئيسياً حتى إنها يمكن أن ترفع امرئ من غياهب المجهول إلى سدة السلطة والقوة والسيادة. حين عرفته في أول إقامة لي بطهران في صيف عام ١٩٢٤، كان رئيساً للوزراء ودكتاتور إيران بلا منازع.

لم يكن الشعب الإيراني قد تغلب على صدمته في ظهور رضا شاه المفاجئ وصعوده السريع إلى السلطة حتى وصل إلى السيطرة على دفة

إدارة البلاد. ما زلت أذكر تعجب موظف إيراني يعمل بالسفارة الألمانية في طهران وهو يقول لي: «هل تعلم أنه من عشر سنوات فقط كان رئيس وزرائنا يقف حارساً كجندي نظامي أمام باب هذه السفارة؟ وإنني كنت أعطيه أحياناً رسائل من السفارة لتسليمها إلى وزارة الخارجية وأزجره قائلاً: «أسرع يا ابن الكلب، لا تتلكأ في البازار وأنت في الطريق...».

بالفعل، لم تكن قد مضت سنوات طويلة منذ أن كان الجندي رضا يقف حارساً أمام مباني السفارات والمباني العامة في طهران. أتخيله واقفاً في زيه الرسمي الذي يمثل فرقة القوزاق يميل على بندقيته وهو يحملق في الأنشطة التي تدور من حوله في الشوارع. يراقب الإيرانيين وهم يمضون جيئة وذهاباً مثل أشباح في حلم، وأراه جالساً في برودة الليالي بجوار مجاري الأنهار، كما كان يفعل زملاؤه الجنود. كان يسمع صوت الآلات الكاتبة التي تأتيه من خلفه من داخل البنك الإنجليزي الذي يتولى حراسة بابه، واندفاع الناس المسرعين، وذلك الحفيف المتسارع للحياة الذي جلبه الأوروبيون في ذلك المبنى في طهران بواجهته الزرقاء الخزفية، ربما مرت في ذهنه لأول مرة في حياته تساؤلات متعجبة:

«هل يجب أن تكون الأمور في طهران هكذا...؟ هل تعمل الشعوب الأخرى وتجاهد، بينما تجري حياتنا إلى الخلف مثل حلم؟» لم ينل رضا أي قدر من التعليم، ولم يذهب إلى أي مدرسة. ربما كانت تلك اللحظات هي التي انتابته فيها رغبة التغيير، راودته في تلك الأثناء أهداف عظيمة، وإحساس بالاكتشاف ورغبة في الثورة تضيء في ذهنه وتسعى صامتة للتعبير عما يعتمل في نفسه.

ربما وقف في أوقات أخرى حارساً خارج باب حديقة سفارة أوروبية لدولة عظمى، تتحرك أشجارها المعتني بها مع الرياح، ويخشخش حصى الممرات تحت وقع أقدام الخدم الإيرانيين العاملين بالسفارة بزيهم الأبيض الموحد. في ذلك المبنى المقام وسط الحديقة تسكن قوة غامضة؛ تبعث الرهبة في كل إيراني يتخطى أعتابها وتجعله يصلح من هيئته ويعتني بحسن مظهره قبل ولوجها. أحياناً تصل العربات التي تجرها الخيول وينزل منها كبار المسؤولين الإيرانيين من الساسة. كان الجندي رضا يعرفهم شكلاً، فهذا الرجل كان وزير الخارجية، وذاك وزير المالية. كان يبدو الخوف دائماً على وجوههم مخلوطاً بالتوتر والتوقع، ملامحهم مشدودة عند دخولهم من تلك البوابة، وكان يتشوق إلى رؤية التعبير الذي يبدو على وجوههم وهم يغادرون مبنى السفارة، أحياناً يرى البشاشة والسرور كما لو كانوا قد أنعم عليهم بخير وفضل عميم؛ وأحياناً يخرجون شاحبين مهمومين، كما لو كان حكماً بالإعدام قد صدر عليهم، وأن أولئك الناس الغامضين داخل السفارة هم من أصدروا الحكم. ويتعجب الجندي رضا متسائلاً: «هل يجب أن تكون الأمور كذلك...؟».

ويحدث أحياناً أن يخرج موظف إيراني مهرولاً من مبنى السفارة التي يحرسها رضا، ويدفع برسالة إلى يده قائلاً: «خذ هذه الرسالة واذهب بها إلى فلان أو غيره من الجهات. لا بد أن توصلها بسرعة يا ابن الكلب، وإلا غضب السفير»، اعتاد رضا أن يوجه إليه الخطاب بتلك الطريقة، فرؤساؤه من الضباط لم يبدوا أي قدر من الحساسية تجاه المسميات فيما يوجه إليهم من حديث. من المحتمل ـ كلا، بل من المؤكد ـ أن تكون الصفات مثل ابن الكلب تصيبه بطعنة في كرامته، كان

يدرك ويوقن أنه ليس ابن كلب، بل ابن أمة عظيمة أنجبت عظماء مثل رستم، وداريوس، وأنو شروان، وكاي خسرو، وشاه عباس، ونادرشاه. ولكن ما الذي يعرفه أولئك «الذين بداخل السفارة» عن ذلك؟ ما الذي يدركونه عن القوى التي تتحرك مثل تيار صامت مظلم داخل صدر جندي يبلغ من العمر أربعين عاماً وتوشك أحياناً على تفجير ضلوعه وتجعله يعض أنامله في يأس من لا يملك قوة لتغيير كل ذلك: «آه لو كان بيدي...»، وكثيراً ما كانت رغبة تأكيد الذات التي تشغل صدور الإيرانيين تلهبهم فيهبون في ثورة عنيفة غير متوقعة، كما كانت تحدث لرضا الجندي وتجعل إدراكه أصفى ورؤيته أوضح للتناقضات التي تمر بها بلاده...

كانت الحرب العالمية قد انتهت. وبعد الثورة البلشفية في روسيا، انسحبت القوات الروسية التي كانت تحتل شمال إيران؛ وبعدها بفترة وجيزة فجر الشيوعيون الإيرانيون اضطرابات في ولاية جيلان الإيرانية الواقعة على بحر قزوين، وقاد ذلك التمرد الشيوعي «كوشوك خان» وهو من أصحاب النفوذ ودعمته قوات نظامية روسية في البر والبحر. وأرسلت الحكومة الإيرانية قوات من الجيش لتقضي على ذلك التمرد، إلا أن القوات الإيرانية السيئة تنظيماً وتسليحاً كانت تنال هزيمة بعد أخرى؛ ولم تثبت الفرقة التي كان يخدم بها رضا ـ وكان قد بلغ الخمسين من عمره في ذلك الوقت ـ أنها أفضل من غيرها من قوات الجيش الإيراني.

بمجرد أن أدارت فرقته ظهرها وبدأت في الفرار بعد صدام سيئ الحظ مع الأعداء، لم يستطع رضا أن يمنع نفسه من التعبير عن مشاعره

الدفينة ولا أن يكبتها أكثر من ذلك، فقد خطا خارج صفوف القوات المنهارة الهاربة، وصاح بأعلى صوته حتى يسمعه الجميع: «لماذا تفرون أيها الإيرانيون ـ أنتم إيرانيون». لا بد أنه شعر في ذلك الوقت بما أحسه «تشارلز» الثاني عشر ملك السويد حين سقط مصاباً في معركة «بولتافا»، ورأى قواته تهرب في فزع، ونادى عليهم بصوت يائس: «لماذا تفرون أيها السويديون ـ أنتم سويديون». ولكن الفارق أن الملك «تشارلز» كان ينزف من جروح كثيرة، ولم يكن هناك ما يملكه إلا صوته، بينما كان الجندي رضا غير مصاب وبيده مسدسه «الموزر» محشواً بالطلقات ـ كان صوته قوياً ومهدداً وهو يحذر رفاقه: «من يهرب سأطلق عليه النار، سأرديه برصاصي حتى لو كان شقيقي».

كان ذلك الانفجار جديداً على الجنود الإيرانيين، وحل محل الفوضى التي تسودهم، دهشة. وأصبحوا يتوقون إلى معرفة: ماذا بذهن ذلك الرجل..؟ بعض الضباط احتجوا وبينوا عدم وجود أي أمل أمامهم، حتى إن واحداً منهم سخر قائلاً: هل تقودنا أنت إلى النصر؟

ربما كان رضا قد أفرغ الشحنات الانفعالية المتراكمة في نفسه منذ أعوام طويلة، وأضاءت فجأة كل آماله الصامتة الخرساء. لقد رأى طرف حبل سحري يتدلى أمامه فجأة؛ فأمسك بطرف الحبل، ولم يفلته بعد ذلك أبداً.

رد على الضابط قائلاً: قبلت أن أقودكم للنصر، ثم استدار إلى الجنود وسألهم: «هل تقبلوني قائداً لكم؟».

لا توجد أمة يتأصل فيها نموذج البطل بعمق كما هو بين الإيرانيين، بدا لهم ذلك الرجل بطلاً. نسي الجنود فزعهم وفرارهم، وهتفوا

هادرين «أنت قائدنا»، ورد رضا: وهو كذلك، سأقودكم وسأقتل كل من يحاول الهرب. غير أن أحداً بعد ذلك لم يفكر في الفرار. تخلصوا من كل ما يعوقهم، وثبتوا سناكيهم في بنادقهم، وتحت قيادة رضا التفت الفرقة وأسرت سرية روسية في مفاجأة عسكرية، وجذب ذلك قوات إيرانية أخرى لتنضم تحت زعامة رضا، وقهروا العدو وطاردوه - بعد ساعات كانت المعركة قد حسمت لصالح الإيرانيين.

بعد عدة أيام، وصلت برقية من طهران بترقية رضا إلى رتبة نقيب، وبذلك أصبح بإمكانه أن يلحق باسمه لقب «خان».

كان قد أمسك بطرف الحبل السحري الذي ظهر أمامه وبدأ في تسلقه. أصبح اسمه فجأة من الأسماء المعروفة والمشهورة. في ترقيات سريعة متتالية أصبح مقَدّماً ثم عقيداً ثم قائد لواء. في عام ١٩٢١، قام بتدبير انقلاب عسكري هو وصحافي شاب اسمه ضياء الدين وثلاثة ضباط آخرين، وقبضوا على مجلس الوزراء الفاسد، وبوصفه قائد لواء، أجبر الشاه أحمد، ضعيف الشخصية، على تعيين مجلس وزراء جديد، أصبح فيه ضياء الدين رئيساً للوزراء، ورضا خان وزيراً للحربية. لم يكن يقرأ ولا يكتب، إلا أنه كان مثل الجن والشياطين في سعيه إلى السلطة، وأصبح «النموذج» للجيش والشعب، الذين رأوا فيه بطلاً إيرانياً لم يروا مثله من دهور.

على المسرح السياسي الإيراني تتغير المشاهد بسرعة. فقد اختفى فجأة ضياء الدين من على المسرح، ليظهر كمنفيٍّ في أوروبا. وأصبح رضا خان رئيساً للوزراء. بعد ذلك انطلقت شائعات في طهران أن رضا خان، وضياء الدين، والشقيق الأصغر للشاه وكان ولياً للعهد، تآمروا

للإطاحة بالشاه عن العرش؛ ودار الهمس ـ ولا يعلم أحد حتى اليوم مدى صحة ذلك ـ أن رضا خان قد خان أصدقاءه في آخر لحظة وخاف أن يغامر بمركزه في تلك المؤامرة المشكوك في نتاجها وأخبر الشاه بتفاصيل المؤامرة. وبغض النظر إن كان ذلك صحيحاً أم لا، نصح رضا خان الذي أصبح رئيساً للوزراء، الملك شاه أحمد أن يقوم برحلة ترفيهية إلى أوروبا، وصحبه في موكب عظيم بالسيارات حتى حدود العراق، ويقال: إنه قال للشاه على الحدود: «لو عدتم جلالتكم في أي لحظة إلى إيران، يمكنك حينها أن تقول: إن رضا خان لم يفهم شيئاً في هذا العالم».

لم يعد يقبل أن يشاركه أحد السلطة؛ كان في الحقيقة المتصرف الفعلي في كل شؤون إيران. كان مثل ذئب جائع، وألقى بنفسه مكرساً كل إمكاناته الشخصية في خضم العمل. كان لا بد أن يصلح كل أحوال إيران من القمة إلى القاع. أصبحت الإدارة التي كانت مفككة إدارة مركزية، أما النظام الزراعي القديم الذي كان يسند زراعة كل الولايات إلى من يدفع أعلى ثمن، فقد ألغاه، وألغى أن يكون المحافظون من المرزبانات، وأصبح يعينهم من قبله. أما الجيش، وهو ابن الدكتاتور المدلل فقد أعاد تنظيمه على النمط الغربي. ثم بدأ في شن حملات على زعماء القبائل العنيدين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملوكاً صغاراً وكانوا غالباً ما يرفضون الأوامر التي تصدر من طهران؛ وتعامل بكل قسوة مع تنظيمات العصابات التي كانت تبث الرعب في الأقاليم. وتم تنظيم الإدارة المالية بمعاونة مستشار أمريكي؛ وبدأت الضرائب والجمارك تدر عوائد منتظمة، واستعاد النظام بعد الفوضى العارمة.

وكما لو كان يقتفي أثر خطى كمال أتاتورك في تركيا الذي قاد الحركة الكمالية، بزغت فكرة الجمهورية في إيران، كانت كشائعة في البداية، ثم مطلباً من مطالب الطليعة المثقفة من الشعب ـ وأخيراً كهدف مباشر بعد ذلك. ولكن يبدو أن رضا خان قد أخطأ في ذلك التوجه ولم يحالفه التوفيق. لقد أساء تقدير ذلك الأمر: خرجت مظاهرات قوية غاضبة من الجماهير الإيرانية.

لم تكن تلك المعارضة الشعبية للجمهوري ترجع إلى أي حب للبيت الحاكم، فلم يكن هناك إيراني واحد يكن أي عاطفة حب لعائلة «كاجار» والتي تعود إلى أصول تركية وكان الشعب يعدها أسرة «أجنبية» وهي أسرة الشاه أحمد. كانت المعارضة لسبب مختلف تماماً، وهو خوف الشعب الإيراني أن يفقدوا دينهم مثل الأتراك الذين فقدوا دينهم بعد أن أعلن كمال أتاتورك نظام الدولة العلماني. في جهلهم، لم يفهم الإيرانيون أن الشكل الجمهوري يتفق تماماً مع تعاليم الإسلام أكثر من حكم العاهل العائلي؛ وتحت تأثير القادة الدينيين ـ وربما لخوفهم من إعجاب رضا خان الواضح بأتاتورك ـ أحس الإيرانيون أن الإسلام مهدد، وكان الإسلام القوة المهيمنة على الشعب الإيراني بأجمعه.

وقعت أحداث شغب كثيرة واضطرابات بين أبناء الحضر، خاصة في مدينة طهران. خرجت الحشود الغاضبة، مسلحين بالعصي والحجارة، وتجمعت أمام قصر الإدارة الذي يقع به مكتب رضا خان، وهتفوا لاعنين رضا خان ومهددين الدكتاتور الذي تحول إلى نصف إله. ونصحه معاونوه ألا يغادر المبنى قبل انفضاض الحشود الغاضبة، إلا أنه دفعهم جانباً، وخرج وبصحبته فرد عادي غير مسلحين، وغادر المبنى

في عربة مغلقة تجرها الخيول. وبمجرد أن خرجت العربة من البوابة الخارجية، قبضت الحشود الثائرة على أعنة الجياد وأوقفوا العربة، وحطم بعض الثائرين بابها ـ وصاحت الحشود: «جروه إلى الخارج، أخرجوه إلى الطريق»، إلا أنه كان قد بدأ الخروج بنفسه، ووجهه يستعر بالغضب وبدأ بضرب الأقرب إليه على أكتافهم ورؤوسهم بعصا قيادة الخيل وهو يصيح في غضب: «أبعدوا يا أبناء الكلاب، كيف تجاسرتم على ذلك، أنا رضا خان، ارجعوا إلى نسائكم وفراشكم»، وصمتت الحشود التي كانت تهدد بالويل والثبور وبقتل الطاغية من دقائق قليلة، وتحت وطأة جسارته وشجاعته ونظراته النارية؛ تقهقروا قليلاً، ثم ذابوا واحداً بعد آخر، واختفوا في الشوارع الجانبية.

مرة أخرى تحدث قائد عظيم إلى شعبه؛ حدثهم غاضباً، وارتاع الشعب وفزع. ربما كانت مشاعر رضا خان باحتقاره للشعب قد بدأت في تلك اللحظات، وغطى شعوره ذاك على حبه لشعبه إلى الأبد.

بالرغم من نجاح رضا خان في إبراز هيمنته وقوة شكيمته، إلا أن النظام الجمهوري لم يتحقق. كانت الزوابع التي أثيرت حول تلك الخطة تثبت أن القوة وحدها لا يمكن أن تقود «حركة إصلاحية» في مواجهة مقاومة شعبية. لا يعود ذلك إلى أن الإيرانيين يعارضون الإصلاح، بل إن الشعب شعر غريزياً أن تطبيق نظام دستوري غربي مستورد من خارج البلاد، يعني القضاء على آمالهم في التوصل إلى نظام سليم، نابع من ثقافتهم وعقيدتهم الإسلامية.

لم يفهم رضا خان ذلك، لا في ذلك الوقت، ولا بعد ذلك أبداً، فانعزل عن شعبه، تلاشى حب الشعب له وحل محله بالتدريج كراهية

وخوف. بدأ الشعب يتساءل: ما الذي فعله ذلك البطل لبلده؟ راحوا يعددون إنجازات رضا خان: إعادة تنظيم الجيش؟ ولكن كان ثمن ذلك باهظاً، فقد أضاف أعباءً ساحقة من فرض ضرائب باهظة على شعب فقير يعاني من الفاقة وشظف العيش؛ قضى على تمرد القبائل؟ إلا أنه قضى أيضاً على أبطال الشعب؛ أقام المباني الشاهقة الجديدة في طهران؟ إلا أن البؤس والفاقة قد ازداد بين المزارعين والفلاحين في الأقاليم. بدأ الناس يتذكرون أن رضا خان كان حتى سنين قليلة مضت جندياً معدماً ـ وأصبح الآن أغنى رجل في إيران، ومالكاً لمساحات من الأرض لا حصر لها ـ فما هي «الإصلاحات» التي يتحدث عنها؟

هل تعد المباني الشاهقة الفخمة الجديدة وما تحويه من مكاتب في مدينة طهران والفنادق الفخمة التي ارتفعت هنا وهناك بتوجيه من الدكتاتور تمثل أي قيمة في تحسين أحوال جموع الشعب الفقيرة؟

* * *

عرفت رضا خان في المرحلة التي كان فيها رئيساً للوزراء، ومهما كانت صحة الشائعات التي كانت تتردد عن طموحاته وتطلعاته وأنانيته، إلا أنني تبينت عظمة ذلك الرجل من اللحظة الأولى التي استقبلني فيها في مكتبه في وزارة الحربية. ربما كان ذلك المكتب أبسط مكتب دخلته في أي مكان، وفي أي عصر، يشغله رئيس وزراء: كان هناك مكتب، وأريكة مغطاة بقماش أسود، ومقعدان، ورف للكتب، وبساط جميل إلا أنه غير ثمين؛ نهض الرجل عند دخولي، وجدته طويلاً، في منتصف الخمسينيات من عمره، يرتدي ملابس عسكرية كاكية اللون دون أي رتب أو نياشين أو شارات.

قدمني إليه سفير ألمانيا، الكونت «فون ديرشولنبرج» (بصفتي ممثلاً لصحيفة ألمانية) ومع أنه كان أول حوار سياسي رسمي بيننا، إلا أنني ميزت الحيوية العنيدة التي يتصف بها رضا خان، تطلع إليّ بعينين بنيتين حادتي النظرات من تحت حاجبين كثيفين شاب شعرهما، عيون فارسية تحتجب خلف جفون ثقيلة، فتبدو النظرة كأنها خليط من السوداوية والحزن والقسوة والتشدد. كانت هناك خطوط تشي بالمرارة حول أنفه وفمه، إلا أن الملامح المشدودة على عظام الوجه الثقيلة أفشت قوة إرادة غير عادية جعلت شفتيه مزمومتين فبدا توتر الفكين. وحين تستمع إلى صوته الخافت ـ صوت رجل تعود على قول ما له أهمية وقيمة ويزن كل كلمة قبل أن ينطق بها ـ يستولي عليك انطباع بأنك تستمع إلى رجل أمضى ثلاثين عاماً بالجيش مع اعتزاز شديد بالذات يكمن خلف صوته: وتجد من الصعب أن تصدق أنه من ستة أعوام فقط كان رضا خان ما زال رقيباً بالجيش، ومن ثلاثة أعوام فقط تعلم القراءة والكتابة.

لا بد أنه شعر باهتمامي الشديد بشخصه ـ وربما شعر باهتمامي الشديد بشؤون الشعب الإيراني ـ فقد أصر أن تلك المقابلة يجب ألا تكون الأولى والأخيرة، ودعاني أنا و«شولينبرج» لتناول الشاي في الأسبوع التالي في مقره الصيفي في منطقة «شيمران»، وهو منتجع يموج بالأشجار الخضراء على بعد بضعة أميال خارج طهران.

اتفقت مع «شولينبرج» أن أمر به أولاً (كان مثل باقي السفراء يقضي الصيف في منطقة شيمران)، ثم نتوجه معاً إلى منزل رئيس الوزراء هناك. وحدث أنني لم أستطع المرور به في الوقت المحدد. كنت قد اشتريت عربة صيد خفيفة ذات أربع عجلات يجرها جوادان فرهان

نشيطان. أما مدى نشاطهما فقد اتضح لي تماماً خارج طهران ببضعة أميال، فقد طافت بهما رغبة شريرة جعلتهما يرفضان في عناد البغال أن يمضيا للأمام خطوة واحدة، وأصرا على الاستدارة والعودة إلى طهران. بذلت كل جهدي على مدى عشرين دقيقة لدفعهما إلى السير إلى «شميران»، ولكن بلا طائل، في النهاية جعلت إبراهيم يعود بهما إلى طهران وانطلقت على أقدامي باحثاً عن وسيلة انتقال أخرى. سرت حوالي ميلين ووصلت إلى قرية وجدت بها عربة خفيفة واكتريتها، وحين وصلت إلى منزل السفير الألماني كنت قد تأخرت ساعة ونصفاً عن الموعد المتفق عليه. وجدت «شولينبرج» يروح جيئة وذهاباً في مكتبه مثل نمر غاضب متحفز، واختفت تماماً كل رقته ودماثته، فبحسه الدبلوماسي المجبول على الطبيعة البروسية صارمة النظام، كان ذلك الخرق للالتزام يصل بالنسبة إليه إلى مرتبة الكفر والإلحاد. أول ما وقع بصره عليّ انفجر في ثورة غضب عاتية:

«لا يمكن لك أن تفعل ذلك، لا يمكن أن تفعله مع رئيس الوزراء... هل نسيت أن رضا خان دكتاتور، وأنه مثل أي دكتاتور، شديد الحساسية والاعتزاز بكرامته؟».

كانت إجابتي الوحيدة: «يبدو أن خيولي نست تلك المنطقة المهمة يا كونت «شولينبرج»، حتى لو كان إمبراطور الصين، كان من المستحيل أن أصل في الموعد». وحكيت له ما حدث.

عند ذلك، بدأ الكونت يستعيد حس الدعابة وانفجر في ضحكة عالية:

«بحق الله لم يصادفني مثل ذلك الموقف أبداً، هيا بنا ـ وآمل ألا يصفق الخادم الباب في وجوهنا...».

إلا أن الخادم لم يصفق الباب في وجوهنا. حين وصلنا قصر رضا خان كانت حفلة الشاي قد انتهت من زمن وانفض كل المدعوين، إلا أنه لم يبد على الدكتاتور أنه قد تضايق بأي حال من خرقي لقواعد البروتوكول.

وحين سمع مني سبب تأخري، تساءل: «حسناً، أحب أن أرى خيولك، إنها تنتمي على ما أعتقد إلى الحزب المعارض، لا أدري إن كان من الملائم أن نضعها رهن الاعتقال أم لا».

ويبدو أن تخلفي عن الموعد المحدد كان في صالحي فقد كان سبباً في تأسيس علاقة شخصية غير رسمية بين رئيس وزراء إيران القوي وصحافي صغير السن مثلي، وأتاحت لي تلك العلاقة بعد ذلك أن أتجول بحرية في جميع أنحاء إيران، وهي حرية غير متيسرة لأي أجنبي.

لم تشر رسالة علي آغا إلى رضا خان الأيام المبكرة، ذلك الرجل الذي كان يحيا في بساطة لا يصدقها أحد ويغلب عليه حب إيران: كانت رسالته تشير إلى رضا شاه بهلوي؛ الذي صعد إلى عرش الطاووس عام ١٩٢٥؛ وتشير إلى ملك نحى جانباً كل مظاهر التواضع ويسعى الآن إلى اقتفاء أثر كمال أتاتورك في بناء دولة ذات وجه حضاري غربي في بلاده الشرقية العتيقة. . .

وصلت إلى نهاية الرسالة:

«بالرغم من أنك الآن يا صديقي المحبوب في المدينة المباركة للرسول الكريم ص، فإنني آمل ألا تكون قد نسيت صديقك الذي لا يساوي شيئاً، وألا تنسى بلده أيضاً».

لك الله يا علي آغا، يا صديق أيامي في إيران ـ أو «نور قلبي» كما تقولها أنت ـ جعلتني رسالتك أغرق بين ثنايا الذكريات: أنا الذي أصبحت مخموراً بحب بلاد فارس بعد أن عرفتها عن قرب، تلك البلاد العريقة، الجوهرة التي ضاع بريقها بين ذهب عتيق ورخام مشروخ وركام تراب وظلال باهتة لحضارات أصيلة، ظلال كل الأيام والليالي لبلدك العابسة المكفهرة، وعيون أبناء شعبك الحالمة بحياة أفضل. . .

ما زلت أذكر مدينة «كير منشاه»، أول مدينة إيرانية أراها بعد أن عبرت جبال كردستان، مدينة يغلفها جو غريب، شاحب، معتم، مكتومة الصوت وخانعة ـ ولن أقول رثة وبالية. لا شك أن فقر كل مدينة شرقية يكمن قريباً من سطحها، مرئي بوضوح أكثر من أي مدينة أوروبية. . إلا أنني كنت قد اعتدت ذلك ـ إنه ليس فقراً بالمعنى الاقتصادي بالرغم من أنه باد بكل مظاهره، مع أن «كيرمنشاه» كانت تعد من المدن ذات الرخاء في إيران. ما أقصده الفقر النفسي والمعنوي، ذلك النوع من الاكتئاب والإحباط الذي يرين على الناس، شيء ما على صلة مباشرة ووثيقة بهم ولا علاقة له بالأحوال الاقتصادية.

الشعب كله يتميز بعيون واسعة سوداء تحت حواجب كثة. تتلامس عند جذر الأنف، وجفون ثقيلة كالحجاب. أغلب الرجال نحفاء (لم أر رجلاً ممتلئاً أو سميناً في إيران)، لا يضحكون بصوت مرتفع أبداً، في تبسمهم الصامت يكمن شبح سخرية وتجاهل وتبدو كأنها تخفي وتبطن أكثر مما تظهر. لا حيوية في حركة ملامح الوجه، لا إيماءات بالرأس تدل على المشاركة والتفهم، لا تجد إلا حركات محددة ومقننة: كانوا كمن يضعون أقنعة على وجوههم.

وكما في كل بلاد الشرق، تتركز الحياة في الأسواق، وتظهر الأسواق في عين الغريب خليطاً من الألوان البنية، والبني المذهب، والأحمر، وأواني نحاسية لامعة هنا وهناك، بعض فن خزف أزرق فوق واجهات بعض المحلات مرسوم عليها أشكال وهيئات لفرسان بعيون سوداء وتنانين مجنحة. لو دققت البصر وأمعنت النظر تجد بالسوق جميع الألوان التي عرفها البشر، إلا أن أياً من تلك الألوان المتباينة لا يمكن أن يستقل لون بذاته في تلك الظلال الموحدة تحت أسقف تغطي شوارع الأسواق وتجعلها غارقة في عتمة نعسانة. كانت قمم أسقف شوارع السوق مفتوحة على مسافات متساوية بفتحات صغيرة تسمح بدخول ضوء النهار، ومن خلالها تسقط أشعة الشمس الساقطة من الفتحات على شكل أعمدة رفيعة، لا يبدو أن المارة يخترقونها، بل تبدو وكأنها تخترق المارة.

الناس في البازار هادئون مهذبون صامتون كالأشباح. لو نوه أحد التجار عن بضاعته فإنه يفعل ذلك بصوت خفيض؛ لا ينادون بأصوات عالية أو كلمات منغمة كما يفعل العرب في الأسواق العربية.

نسيج الحياة هنا من نفوس هادئة، الناس لا يتزاحمون ولا يدفع بعضهم بعضاً: كانوا مهذبين ـ ذلك النوع من التهذيب الذي يبدو كأنه ينحني أمامك من فرط تأدب، إلا أنه في الواقع يوقفك على بعد ذراع.

يغلب عليهم العبوس ولا يبادرون بفتح حوار مع غريب، وإذا تحدثوا فإن شفاههم هي التي تتكلم، أما أرواحهم فإنها هناك في خلفية بعيدة، تنتظر، وتزن الأمور وتوازنها، منفصلة عن الواقع المعيش...

على مقهى جلس عمال على حشايا من القش، كانوا خليطاً من

فناني النسخ وعمال، وسائقي شاحنات، مجتمعين حول قصعة معدنية مليئة بالجمرات الملتهبة وإرجيلتين طويلتين من الخزف، كانت رائحة الحشيش النفاذة تعبق المكان، يدخنون في صمت، كل في دوره يجذب أنفاساً عميقة، ثم يمرر القصبة إلى من يليه. ثم أدركت ما لم أدركه من قبل: كثيرون، كثيرون جداً، من يدخنون الحشيش، بعضهم في العلن، وآخرون خفية. ـحاب المتاجر داخل خاناتهم الصغيرة، والمتسكعون تحت أقواس بوابات الخانات الكبيرة؛ طارقو النحاس ومشكلوه داخل محلاتهم في أوقات راحتهم: كلهم يدخنون الحشيش وكلهم تعلو وجوههم ملامح الوجوه المنسحبة من الواقع، ومنهكة، ونظراتهم تحملق في فراغ لا تعرف مداه...

كانت أزهار الخشخاش ببراعمها الممتلئة تباع في جميع أنحاء البازار، وهناك طريقة أخرى تناسب الأطفال، فقد كان الأطفال يأكلون بذوره في مداخل البيوت وفي الأركان الخالية. يقسم طفلان أو ثلاثة ما معهم من بذور بأناة وتؤدة الكبار، دون ذاتية طفولية ـ ولكن أيضاً بلا مرح الأطفال وحيويتهم.

ولكن كيف يمكن أن يكونوا غير ذلك؟ لقد أعطوهم من مهدهم شراب بذور الأفيون حين كانوا يبكون، فيعطونهم ذلك الشراب حتى يناموا ولا يزعجونهم. وحين كبروا وبدأوا يجوبون الطرقات والشوارع، كانت صفات الهدوء والطيبة والوداعة قد بهتت وتلاشت.

أدرك ـ بعد ذلك السر فيما شدني وهزَّ أعماقي حين شاهدت أول مرة العيون الحزينة التعيسة للإيرانيين: كانت العيون الحزينة تعبر عن القدر المأسوي لذلك الشعب. أدركت أن الأفيون ينتمي إليهم كما

تنتمي الابتسامة التعيسة لتعاستهم الداخلية ـ والأفيون ينتمي إلى فقرهم الشديد وإملاقهم، ولا يبدو عيباً ولا نقيصة ـ بل ربما كان ذا فائدة لهم، وعوناً لهم ـ عون ضد ماذا؟ إنها أرض العجائب التي لا تكف عن طرح تساؤلات كثيرة. . .

توقف فكري طويلاً عند انطباعاتي عن مدينة «كيرمنشاه»، أول مدينة إيرانية أتوقف فيها، وظلت انطباعاتي متغايرة الشكل إلا أن مادتها لم تتغير على مدى عام ونصف قضيتها بإيران. كان السائد والدائم في كل مكان في أنحاء إيران تلك التعاسة والاكتئاب والانقباض الذي تراه على كل الوجوه. تلاحظه في القرى كما تلاحظه في المدن، في حياة الناس اليومية كما في المناسبات والأعياد والاحتفالات الدينية. وبالفعل، كانت مشاعرهم الدينية تختلف عن المشاعر الدينية للعرب، فهي تحمل صبغة قوية من الحزن والحداد ـ لأنهم ما زالوا يبكون أحداثاً مأسوية وقعت من ثلاثة عشر قرناً مضت ـ يبكون استشهاد الإمام علي رضي الله عنه، ابن عم الرسول وزوج ابنته رضي الله عنها، ويبكون استشهاد ابني عليّ، الحسن والحسين رضي الله عنهما ـ ويبدو ذلك عندهم أهم مما يدعو إليه الإسلام وعما يدفع البشر إليه، ويحثهم على انتهاجه في الحياة الدنيا. . .

في الأمسيات، في مدن وقرى إيران، ترى مجموعة من الرجال والنساء مجتمعين في حلقة كبيرة حول درويش متجول، داعية ديني يلبس ملابس بيضاء. وجلد فهد معلق على ظهره، يمسك بيد عصا طويلة وبالأخرى وعاء من ثمرة جوز الهند مفرغة يجمع بها الصدقات. يلقي إنشاداً نصف مغنى، نصف مرتل، عن صراع الخلافة بعد موت

الرسول في القرن السابع الميلادي، قصة حزينة مأسوية دامية، مكونة من إيمان ودم وموت ـ تجري بشكل ما في حكايتها كما يلي:

استمعوا إليّ أيها الناس، استمعوا لما حدث لمن اختارهم الله، وكيف سال دم نسل الرسول على الأرض.

كان هناك نبي أحبه الله وحباه بالهداية إلى مدينة المعرفة؛ وكان باب تلك المدينة أنقى وأخلص وأشجع وأحكم أتباعه، وزوج ابنته، أسد الله وخليفته الشرعي، إلا أن أشقياء البشر وأشرارهم اغتصبوا حق أسد الله وجعلوه آخر خليفة للرسول؛ وبعد موت أول مغتصب، تلاه واحد مثله من محبي الشر؛ وتلاه ثالث بعده.

وتحققت إرادة الله فقط بعد موت المغتصب الثالث، وتبوأ أسد الله مقعده الشرعي كقائد للمؤمنين.

إلا أن أعداء عليّ وأعداء الله كانوا كثيرين؛ وفي يوم كان ساجداً بين يدي ربه، اغتالوه بالسيف. اهتزت أركان الأرض من بشاعة الفعل الكافر، وناحت الجبال وذرفت حجارة الأرض الدموع.

فلتحل لعنة الله عل الأشرار، ويحل عليهم عذاب الله الأبدي.

استولى مغتصب جديد على الخلافة وأنكر حق أبناء أسد الله، الحسن والحسين، ابني فاطمة المباركة. قتلوا الحسن بقسوة بدس السم له؛ ولما هبَّ الحسين للدفاع عن الحق، أزهقوا روحه الطاهرة في كربلاء حين كان منحنياً على بركة ماء ليروي ظمأه بعد المعركة.

فلتحل لعنة الله على الأشرار، ولتروي دموع الملائكة ثرى كربلاء المباركة. اجتثت رأس الحسين رضي الله عنه ـ التي كان يُقبلها الرسول ـ بقسوة، وعاد بدنه بدون رأس إلى الخيمة التي كان أولاده يبكونه فيها وينتظرون عودته.

منذ ذلك اليوم يدعو المؤمنون الله أن ينزل لعنته على المعتدين. منذ ذلك اليوم يبكون موت عليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم؛ وأنتم أيضاً يا مؤمنين، ارفعوا أصواتكم بالعويل والنواح على مصرعهم ـ الله يغفر ذنوب مَنْ يبكون نسل الرسول...

وتدفع المرثية النساء إلى نهنهة البكاء، بينما تنسال دموع صامتة على لحى الرجال.

مثل تلك «المناحات» تمثل فعلاً صرخة عميقة مستمدة من صورة تاريخية حقيقية لتلك الأحداث المبكرة الدامية التي أحدثت شرخاً لم يمكن جبره وانقساماً لم يمكن تخطيه في عالم المسلمين: انقسم المسلمون إلى سُنَّة، وهم الأغلبية ويؤمنون أن مبدأ اختيار الخليفة كان صحيحاً، والشيعة الذين يصرون على أن الرسول اختار عليّاً، زوج ابنته، كوريث شرعي وخليفة له. وفي الحقيقة، مات الرسول دون أن يسمي أي خليفة له قبل وفاته، فاختار المسلمون أقدم رفيق مخلص له كخليفة، وهو أبو بكر، وتلا أبو بكر عمر، ثم تلاه عثمان، ولم يبايع المسلمون علياً للخلافة إلا بعد وفاة عثمان رضي الله عنهم.

لم تكن هناك شائبة في أي من الخلفاء الذين سبقوا عليّ، وكنت أعرف ذلك أثناء وجودي في إيران وقبل إسلامي. كانوا بالفعل الأنبل والأعظم في التاريخ الإسلامي بعد الرسول، وكانوا في حياته أخلص وأقرب الصحابة؛ لم يكونوا بالتأكيد «مغتصبين» للخلافة، واختارهم المسلمون بإرادة حرة خلقها بهم الإسلام. لم يسعوا إلى السلطة، وأدى رفض عليّ وأتباعه القبول باختيار عموم المسلمين للخلفاء إلى نشوب الصراع على السلطة بعد ذلك، وإلى مصرع عليّ، كما أدى إلى تحول

الخلافة في عصر الخليفة الخامس، معاوية، من شكل الانتخاب الديموقراطي للخليفة، إلى ملك يتوارثه الأبناء، ثم أدى بعد ذلك إلى مصرع الحسين في كربلاء.

بلى، كنت أعرف كل ذلك قبل وصولي إلى إيران؛ إلا أنني صُدمت بعد وصولي إلى إيران من كم المشاعر التي تثيرها تلك الأحداث التي وقعت من ثلاثة عشر قرناً، بين أبناء الشعب الإيراني كلما ذكر اسم عليّ، أو الحسن، أو الحسين.

بدأت أتساءل: هل هي السوداوية الدفينة في الإيرانيين ومشاعرهم المأسوية التي دفعتهم إلى تبني المذهب الشيعي؟ أم أن حجم المأساة التي وقعت للشيعة هي التي أدت إلى صياغة الإيرانيين تلك الصياغة المأسوية؟

بدأت الإجابة المذهلة تتكون في ذهني على مراحل وعلى مدى شهور. ففي منتصف القرن السابع الميلادي، قهرت جيوش عمر الإمبراطورية الساسانية في بلاد فارس، ودخل الإسلام إلى تلك البلاد، كانت العقيدة الزرادشتية الفارسية قد تقلصت وانكمشت إلى مجرد مبادئ إصلاحية متصلبة، ولم تصمد أمام الفكر الديني الجديد المليء بالحيوية والقادم من الجزيرة العربية. في الوقت الذي دخل فيه الغزو العربي بلاد فارس، كانت إيران تمر بمرحلة اختمار جماعي وفكري كانت تشي بإرهاصات ميلاد قومي جديد. وأضاع الغزو العربي الأمل في إعادة الخلق القومي الفارسي؛ توقف الامتداد القومي التاريخي لفارس، بعد أن تبنوا ثقافة وفكر وأخلاق الإسلام الذي جاء مع الفاتحين.

مثّل دخول الإسلام لإيران، كما مثّل لبلاد كثيرة أخرى، طفرة اجتماعية تقدمية كبيرة، فقد دمر الإسلام النظام الطبقي وخلق مجتمعاً جديداً مبنياً على الحرية والمساواة، وفتح قنوات جديدة لانطلاق الفكر والطاقات الخلاقة التي ظلت جامدة ومكبوتة لعصور طويلة: إلا أن أهل بلاد فارس لم ينسوا أنهم أبناء داريوس، وإكسيركسس ولم ينسوا مشاعرهم القومية، ولم ينسوا الرابط العضوي بين ماضيهم وحاضرهم، الذي تفجر فجأة في مواجهة فكر جديد. كان شعب فارس يجد نفسه في الثنائية المعقدة بين الزرادشتية وبين عقيدة وحدة الوجود الممثلة في العناصر الأربعة ـ الهواء، والماء، والنار، والتراب ـ ووجدت تلك الثنائية الدينية نفسها في مواجهة ديانة توحيدية لا تهادن ولا تصالح وتتطلع إلى المطلق. كان الانتقال حاداً ومؤلماً لم يسمح للإيرانيين بوضع وعيهم القومي والدفين في مرتبة تابعة للمفهوم الإسلامي الذي يتجاوز القوميات ويعلو فوقها. وبالرغم من تسارعهم إلى اعتناق الإسلام وقبولهم الإرادي للديانة الجديدة، إلا أنهم قرنوا في لاوعيهم بين انتصار الإسلام والهزيمة القومية الفارسية؛ وكان إحساسهم بأنهم هزموا، إحساساً مؤلماً بكل ما يحتويه من غموض وأدى إلى تقويض إحساسهم القومي بالثقة بالنفس على مدى قرون تالية. وبعكس أمم كثيرة دخلها الإسلام وأدى اعتناقهم له إلى خلق نبضات إيجابية دافعة للتطور، كان أول رد فعل إيراني ـ وهو ما دام بعد ذلك طويلاً ـ إحساساً شديداً بالهوان، وكبحاً للاستياء في أعماقهم.

كان عليهم كبح استيائهم وتخفيف وطأته في ثنايا وأعماق اللاوعي؛ لأن الإسلام أصبح العقيدة السائدة في إيران. وفي مواجهتهم النفسية لكراهيتهم للعرب لغزوهم بلادهم، لجأ الإيرانيون بلا وعي منهم إلى ما

يطلق عليه علماء التحليل النفسي «المغالاة» أو «المبالغة المضادة»، بدأوا يعتبرون الدين الذي دخل بلادهم على أيدي الغزاة العرب ديناً خاصاً بهم هم، وهم أصحابه. قاموا بذلك بلا وعي من خلال تحويل وعي العرب المسلمين العقلي بوحدانية الله الذي لا غموض فيه إلى نقيضه: غموض خيالي وعواطف انقباضية غانمة.

تحول الإيمان الذي يمثل للعرب واقعية وإحساساً بالحاضر الزمني ومصدراً للحرية وراحة النفس، إلى تحرق للغيبيات والغموض والرمز.

كما تحول الفكر الإسلامي الذي يؤكد على وجود الله الذي لا تدركه الأبصار إلى مبادئ غامضة (كان لها سوابق في فارس قبل الإسلام) ـ عن التجلي المادي لله، خاصة فيمن ماتوا ممن اختارهم الله، والذين نقلوا الاختيار الإلهي بالوراثة إلى أبنائهم وذريتهم من بعدهم. بمثل ذلك الميل، مثل اعتناق الإيرانيين لأفكار الشيعة قناة واسعة رحبة ناسبت ذلك التكوين النفسي، فلا يوجد شك في أن تبجيل الشيعة بما يقرب من التأليه لعليّ ونسله يخفى في ثناياه تجسيد الإله واستمرار تجسيده في نسله ـ وهي فكرة دخيلة تماماً على الإسلام وغريبة على محتواه، إلا أنها قريبة جداً من القلب الإيراني.

لم يكن مصادفة أن يموت الرسول دون أن يسمي خليفة له، وقد رفض بالفعل تسمية خليفة له حين سئل في ذلك من قبل فترة قصيرة من وفاته. لقد أراد أن يؤسس بذلك الموقف: أولاً، أن الجانب الروحي من الدين والنبوة لا يمكن «توريثه». وثانياً: أن قيادة الأمة لا بد أن تنتج عن انتقاء حر يقوم به المسلمون بأنفسهم، لا أن تكون «بأمر» من الرسول أو «بترسيمٍ» منه (وقد كانت تسميته لخليفة تتضمن كل ذلك ـ

إلا أنه لم يفعل) لقد ألغى عامداً فكرة أن تكون قيادة الأمة قيادة رسولية وراثية، إلا أن ذلك ما هدفت إليه شريعة الشيعة. لم يصر فقط على التشريع على مبدأ الخلافة الرسولية (في تناقض واضح مع روح الإسلام). بل احتفظ بذلك الحق الخلافي الرسولي «لنسل الرسول» فقط، أي قصره على ابن عم الرسول وزوج ابنته، عليّ ونسله رضي الله عنهم من بعده.

لقد جاء ذلك متلائماً تماماً مع الميول النفسية الغامضة للإيرانيين. لقد انضموا إرادياً إلى معسكر أولئك الذين ادعوا أن جوهر روح محمد انتقلت إلى عليّ ونسله، لم يكتف الإيرانيون بإشباع روح الغموض والألغاز فيهم، كان هناك دافع لاإرادي آخر لاختيارهم تلك المبادئ واعتناقها، فإن كان علياً هو الوريث والخليفة الشرعي للرسول، فإن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا عليّ، لا بد أن يصنفوا كمغتصبين للخلافة، وكان منهم عمر، وهو عمر ذاته الذي غزا إيران. ووفر ذلك سبباً لتحويل الكره القومي لمن غزا الإمبراطورية الساسانية إلى كره عقائدي وديني ـ تلك العقيدة التي أصبحت خاصة بإيران: أصبح عمر هو من نزع حق عليّ وأبنائه الحسن والحسين وحرمهم من حقهم الإلهي في خلافة الرسول، وأن عمر بفعله ذاك لم ينصع لإرادة الله، بل عاداه؛ وأنهم لدعم إرادة الله ومشيئته، لا بد من دعم حزب عليّ. . . ومن داخل عداء قومي، ولدت شريعة دينية مغايرة.

كان تعظيم وتمجيد الإيرانيين للعقيدة الشيعية تعبيراً عن احتجاج صامت على غزو العرب لإيران. أدركت الآن لماذا يلعن الإيرانيون عمر بكراهية تفوق في مرارتها تلك اللعنات التي توجه إلى «المغتصبين»

الآخرين لخلافة عليّ. . . أبو بكر، وعثمان ـ فمن المفروض من وجهة نظر الشريعة الشيعية أن يكون أبو بكر، الخليفة الأول، المعتدى الرئيسي والمغتصب الأول، إلا أن عمر هو من غزا إيران.

كان ذلك هو السبب الكامن وراء التشدد المبالغ فيه في تبجيل عليّ في إيران. أصبح ذلك التبجيل الذي يصل إلى حد القداسة رمزاً للانتقام الإيراني من العرب المسلمين (مع أن الإسلام ينهى بشدة عن تقديس البشر بمن فيهم محمد). ومع أن الشريعة الشيعية والتشيع بوجه عام لم يبدأ ولم ينبت في بدايته في إيران، وهناك شيعة آخرون في بلاد إسلامية أخرى، فإن مشاعر الشيعة الآخرين خارج إيران ليست حادة مثلما هي في إيران، حيث تسيطر كلياً على مشاعرهم وخيالهم، وحين يخرج الإيرانيون مشاعرهم الدفينة ويعبرون عنها بالحداد والنواح على مصرع عليّ، والحسن والحسين، فإنهم لا ينوحون فقط على مصرع عليّ وأبنائه، بل يبكون أنفسهم وضياع عظمتهم القومية التي زالت للأبد. . .

الإيرانيون شعب سوداوي ومكتئب بالفعل. وانعكست كآبتهم على براريهم وأرضهم ـ تلك الأصقاع الممتدة التي تبدو بلا نهاية، وعلى ممراتهم الجبلية وطرقهم الممتدة بين المدن، وعلى قراهم المنتشرة في مساحات واسعة المبنية من الطين، وعلى مشهد قطعان الأغنام التي تساق في المساء في موجات بنية رمادية إلى الآبار. وعلى حياة المدن التي تنسل كتساقط القطرات الشحيحة البطيئة على الدوام، دون تقدم صناعي أو معرفي بالمرح؛ كل شيء يبدو مغلفاً في أحلام محجبة، وكل وجه تعلوه إمارات انتظار كسول متراخ. لا تسمع أبداً أي موسيقى في الشوارع. إذا علا صوت أحد التتاريين بالغناء في حظيرة استراحة

على طريق نائي، فإنه غناء يخرق الأذن بغرابة. لا يغني علناً إلا المنشدون من الدراويش، وهم بدورهم لا ينشدون إلا تلك الأناشيد العتيقة القديمة عن علي والحسن والحسين، أناشيد مغلفة بالموت والدموع، وتمضي كالخمر المركز المعتق في رؤوس المستمعين، رعب مخلوط بحزن، أو رعب الحزن، إلا أنه حزن محبب ومرغوب فيه، يغلف كل الشعب.

في أمسيات الصيف في طهران، ترى الرجال والنساء جالسين بلا حركة حول مجاري المياه التي تجري في الشوارع تحت ظلال أشجار الدردار الضخمة. يجلسون محملقين في المياه الجارية، لا يوجه أحدهم الحديث إلى الآخر. يستمعون فقط إلى صوت خرير الماء في صمت لا يقطعه إلا صوت حفيف أوراق الأشجار عند هبوب النسيم. كلما رأيتهم تذكرت مزمار داود:

«على ضفاف نهر بابل، جلسنا وبكينا...

يجلسون على ضفاف الماء مثل طيور ضخمة داكنة خرساء، شاردي الذهن في الصمت المصاحب لخرير الماء، أفكارهم منسحبة إلى بعد مقصور عليهم. عليهم وحدهم، وخاص بهم وحدهم... ماذا ينتظرون...؟ ولأي هدف؟ وأنشد داود:

«علقنا قيثاراتنا على أشجار الصفصاف».

[٣]

«انهض يا زيد، هيا بنا» ـ وضعت رسالة علي آغا في جيبي، ونهضت مودعاً الزغبي الذي هز رأسه قائلاً: «لا يا أخي، اترك زيداً

معي، ما دمت تبخل علي بحكاية ما صادفك في الشهور الماضية، دعه يحك لي ما صادفكم. أم تظن أن أصدقاءك لم يعودوا يهتمون بما يحدث لك؟».

الفصل العاشر

دجـــال

سرت عبر حواري ضيقة متعرجة في أقدم حي من أحياء المدينة: بيوته من الحجر، بنوافذ كستنائية اللون، وشرفات معلقة فوق الحواري؛ مما حولها إلى ما يشبه الدهاليز الضيقة، يزداد ضيقها في بعض المواضع حتى لا تسمح بمرور شخصين متقابلين إلا بالكاد، وجدت نفسي أمام واجهة مكتبة حجرية بناها من مائة عام باحث تركي. كان الصمت العميق يسود الفناء الخارجي الذي يلي البوابة.

[١]

عبرت الفناء ذي الأرض الممهدة بأحجار مستوية متساوية الحجم وتتوسطه شجرة ساكنة فروعها بلا حركة، دخلت القاعة المسقوفة تحيط جوانبها من الداخل خزائن كتب بواجهات زجاجية، يصطف خلفها آلاف من المخطوطات اليدوية، تضم أندر أنواع المخطوطات في العالم الإسلامي. كتب ومخطوطات قديمة خلقت عظمة الحضارة الإسلامية: عظمة انقضت وابتعدت مثل رياح الأمس.

حين كنت أنظر إلى الكتب والمخطوطات ذات الأغلفة الجلدية،

كان اختلاف الحال بين مسلمي الأمس واليوم يوجعني كلكمة مؤلمة. . .

سمعت صوتاً أخرجني من شرودي: «ماذا يشغلك يا بني؟ ولماذا نظرة المرارة تلك المرسومة على وجهك؟».

استدرت باتجاه الصوت ـ رأيت المتحدث جالساً على بساط بين نافذتين، على ركبتيه مجلد ضخم، كان صديقي القديم، الشيخ عبد الله بن بليحيد. كانت عيناه النافذتان تحيياني بنظرة دافئة وأنا أقبل جبهته وأجلس إلى جواره. كان ابن بليحيد من أعظم علماء نجد، وبالرغم من تشدد الوهابيين وتزمتهم، إلا أنه كان واحداً من أعظم العقول التي عرفتها في البلاد الإسلامية. كانت صداقتنا عوناً كبيراً لي في حياتي بالجزيرة العربية وأضفت كثيراً من البهجة والسعادة على حياتي، وكانت كلمته مسموعة في مملكة ابن سعود أكثر من أي إنسان آخر، باستثناء الملك بالطبع. أغلق المجلد الذي كان يقرأه وأدناني منه، وهو يتطلع إليّ متسائلاً في صمت.

قلت له: «كنت أفكر يا شيخ في المدى الذي ابتعدنا فيه عن هذا حتى وصلنا إلى حاضرنا البائس وهوان المنزلة التي نحن عليها»، قلت ذلك وأنا أشير إلى الكتب. أجاب الشيخ: «نحن لا نحصد يا بني إلا ما زرعناه. كنا عظماء ذات يوم: الإسلام هو ما جعلنا عظماء. كنا حملة رسالة، وبقدر ما أخلصنا في حمل تلك الرسالة، كانت قلوبنا ملهمة وعقولنا مستنيرة؛ ولكن بمجرد أن نسينا الغرض الذي كلفنا الله به من حمل الرسالة، سقطنا. . . لقد ابتعدنا كثيراً عن هذا» وأشار بدوره إلى الكتاب، «لأننا ابتعدنا كثيراً عما علمنا إياه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ثلاثة عشر قرناً مضت».

بعد فترة صمت وتأمل سألني: «كيف يمضي عملك؟»، كان يعلم أنني كنت مشغولاً بدراسات مرتبطة بالتاريخ الإسلامي المبكر.

قلت له: «أعترف لك يا شيخ أنها لا تمضي على الوجه الذي أبغيه، لا أجد راحة في أعماقي ولا أدري سبباً لذلك. عدت من جديد إلى التجوال في الصحراء».

نظر إلي ابن بليحيد بعيون باسمة ـ تلك العيون الحكيمة التي تنفذ إلى أعماق الأمور ـ ثم مسد لحيته المصبوغة بالحناء بأصابعه، وقال:

«لعقلك عليك حق، كما أن لبدنك عليك حقاً... تزوج».

كنت أدرك بالطبع أن الزواج يعد في نجد حلاً لأي نوع من أنواع الحيرة، لذلك لم أستطع أن أمنع ضحكة عالية خرجت مني: «ولكنك يا شيخ تعرف أني تزوجت منذ عامين، وولد لي ابن هذا العام».

هزّ الرجل العجوز كتفيه وقال: «إذا كان قلب الرجل مستريحاً مع زوجه، فإنه يقضي في بيته أغلب وقته، وأنت لا تمكث في البيت... وعدا ذلك لن يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية» (كان هو ذاته له ثلاث زوجات، وقيل لي: إن أصغرهن، التي تزوجها من شهرين تبلغ بالكاد السادسة عشرة، مع أنه تجاوز السبعين).

استأنفت الحديث متسائلاً: «كما تقول ربما لا يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية، ولكن ماذا عن الأولى؟ ألن يضرها ذلك؟».

رد قائلاً: «يا بني، لو كانت المرأة تستحوذ على قلب زوجها كله، لن يفكر ولن يحتاج للزواج من أخرى، أما إن لم يكن جماع قلبه معها ـ هل يفيدها أن تحتفظ بنصف قلبه ونصف مشاعره؟».

لم أجد بالطبع إجابة أرد بها على ذلك. فالإسلام يوصي بالتأكيد بالزواج من واحدة، إلا أنه يسمح بالزواج من أربع زوجات في أحوال استثنائية، وقد يسأل امرئ لماذا لم يمنح الإسلام الحق نفسه للمرأة أيضاً، إلا أن الإجابة بسيطة: فبغض النظر عن حقيقة الحب والعواطف التي دخلت حياة البشر على مدى تطور الجنس البشري، فإن السبب «البيولوجي» الكامن وراء الرغبة الجنسية في كلا الجنسين هو التناسل، وبينما يكون بقدرة الأنثى أن تحمل طفلاً في المرة الواحدة من رجل واحد فقط، وتحمل الطفل في أحشائها لمدة تسعة أشهر قبل أن يصبح لديها القدرة على حمل طفل آخر، نجد أن طبيعة خلق الرجل مختلفة حتى إنه من الممكن أن يهب طفلاً في كل مرة يضاجع فيها امرأة. وهكذا نجد أن طبيعة الخلق لن تضيف شيئاً إذا وهبت المرأة غريزة وحق تعداد الأزواج، نجد أن غريزة التعدد لدى الرجل من وجهة نظر التناسل مبررة ومشروعة. ومن الواضح أن العنصر البيولوجي المرتبط بالمتعة البدنية واحد ـ ولا يوجد اختلاف على أنه أهم عنصر في شؤون الحب: أي عنصر أساسي وهو المحدد في شؤون مؤسسة الزواج الاجتماعية. ومع الحكمة التي تأخذ في اعتبارها الكامل الطبيعة البشرية، فقد أخذ التشريع الإسلامي في حسبانه الوظيفة الاجتماعية ـ البيولوجية للزواج (والذي يشمل بالطبع العناية بالنسل)، لذلك سمح للرجل بالزواج من أكثر من امرأة، بينما لم يسمح للمرأة بالزواج من أكثر من رجل، وحيث إن الجوانب العاطفية لا يمكن قياسها فإنها خارج نطاق التشريع؛ ولذا تركت لتقييم أطراف العلاقة الزوجية؛ أي أنه إذا كان هناك حب عميق ومتبادل، فإن مسألة الزواج بأخرى لا ترد بذهنه؛ وحين لا يجد الرجل أنه يحب زوجه من كل قلبه ومشاعره ولا يريد أن

يفقدها لأسباب العناية بالنسل، فبإمكانه الزواج من أخرى، مع موافقة الزوجة الأولى بمشاركة امرأة أخرى لها في زوجها، وإن لم توافق على ذلك، فمن حقها الحصول على الطلاق ويكون لها حرية الزواج مرة أخرى من رجل آخر. على كل الأحوال ـ حيث إن الزواج في الإسلام ليس مقدساً، بل تعاقد مدني ـ فإن حق الطلاق متاح دائماً لطرفي العلاقة. ومشاعر العار التي تصاحب الطلاق بدرجة أو أخرى في المجتمعات غير الإسلامية غير موجودة في الإسلام (مع استثناء المسلمين الهنود، الذين تأثروا في هذا الشأن بتواجدهم على مدى قرون في مجتمع هندوسي يحرم الطلاق تحريماً مطلقاً).

وفي الوقت الذي تتيح فيه الشريعة الإسلامية لكل من الرجال والنساء حرية الزواج والطلاق، فإنه يعد الزنا من أشنع وأبشع الكبائر، فمع تلك الحقوق، لا يوجد تبرير عاطفي ولا حسي لمقترف كبيرة الزنا، وقد كان لتخلف المسلمين على مدى قرون طويلة أثره على التخلف الاجتماعي الذي جعل من الصعب على المرأة أن تطالب بحقها في الطلاق بالحرية التي قصدها التشريع: لذلك، لا يلام الإسلام في عزلة المرأة على مدى قرون في مجتمعات إسلامية كثيرة، بقدر ما تلام العادات الاجتماعية المختلفة، ولا نجد في القرآن ولا في حياة الرسول أي محاذير على ممارسة المرأة لحقها في طلب الطلاق، إلا أن تلك الشوائب الاجتماعية تسربت إلى حياة المسلمين من المجتمع البيزنطي.

قطع الشيخ ابن بليحيد استغراقي في التفكير بفهم العراف للنفس البشرية قائلاً: «لا حاجة بك إلى اتخاذ قرار متسرع. ستتخذ ذلك القرار يا بني. حين يتوجب عليك اتخاذه وتشعر بالحاجة إليه».

[٢]

ساد الصمت أرجاء المكتبة؛ كنت والشيخ ابن بليحيد بمفردنا في الغرفة المسقوفة. سمعنا صوت المؤذن يؤذن لصلاة المغرب من مسجد صغير قريب من المكتبة، وبعد لحظة ارتفع الأذان من المآذن الخمس لمسجد الرسول التي لا نراها من موضعنا وترتفع في فخار حول القبة الخضراء للمسجد.

بدأ مؤذن إحدى المآذن الخمس في ترديد: الله أكبر في صوت عميق خفيض. . . وقبل أن ينهي تكبيراته الأولى بدأ المؤذن في المئذنة القريبة منا في الأذان بنغمة صوتية أعلى قليلاً من الأول: كان الأول قد انتهى من التكبير، وبدأ ـ والآن تصاحبه التكبيرات الأولى من المئذنة الرابعة والخامسة ـ النداء الثاني: أشهد أن لا إله إلا الله ـ بينما كانت أصوات المؤذنين من المئذنة الثانية ثم الثالثة تنزلق على أجنحة صوتية ناعمة. . أشهد أن محمداً رسول الله. بالطريقة نفسها كان كل نداء يتكرر مرتين من كل من المؤذنين الخمسة، واستمر الأذان يتتابع وتتداخل أصواته، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، بدا كل صوت وكأنه يوقظ النداء الذي يليه ثم يجتمعون معاً بعد ذلك، ليتلاشى، ويرتفع من جديد عند موضع آخر لمؤذن آخر، وهكذا حتى نهاية الأذان: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

ذلك التمازج الصوتي الفريد بين مؤذني المآذن وتوافقهم وتوحدهم من المآذن المختلفة يشكل أصواتاً إنسانية فريدة. عند الأذان يخفق قلبي ويقفز إلى حلقي في حب مثير لهذه المدينة وأصوات مؤذنيها، بدأت

أدرك كل تجوالي لم يكن له إلا هدف واحد: وهو أن أصل وأحقق المعنى من ذلك الأذان. . .

قال الشيخ ابن بليحيد: «هيا بنا إلى المسجد لنصلي المغرب».

* * *

كان مسجد الرسول قد أصبح على وضعه الحالي في منتصف القرن التاسع عشر، إلا أن بعضاً منه يعود إلى عصور أقدم ـ بعضه يعود إلى عصور المماليك المصرية، وأجزاء أخرى أقدم من ذلك.

كانت ساحة المسجد، التي تحتوي على قبر الرسول، تشغل المساحة نفسها التي شيدها عليها خليفة المسلمين الثالث، عثمان رضي الله عنه، في القرن السابع الميلادي. وفوق تلك المساحة تنهض القبة الكبيرة الخضراء، مزخرفة من الداخل وعليها آيات قرآنية، وتحمل السقف صفوف عديدة من أعمدة الرخام وتقسم الساحة الداخلية تقسيماً متناغماً ومتناسقاً. وتغطي الأرض الرخامية أبسطة نفيسة، وفوق المحاريب الثلاثة مصابيح زيتية من البرونز، وكل محراب عبارة عن تجويف حائطي باتجاه مكة: واحد منهم للإمام الذي يؤم المصلين في صلاة الجماعة، ومئات المصابيح معلقة في سلاسل نحاسية طويلة، وهي مصابيح من البللور الزجاجي، في داخل كل منها مصباح زيتي يضاء بزيت الزيتون وتنشر كلها في الليل ضوءاً رقيقاً على صفوف المصلين. أثناء النهار يمتلئ المسجد بنور أقرب إلى الأخضر وتجعله يشبه قاع البحيرة؛ ويبدو المصلون بأقدامهم العارية كأنهم يصلون في ماء، في حين يأتي صوت الإمام من أول ساحة المسجد خافتاً بلا سدى.

أما قبر الرسول فهو غير مرئي، وتخفيه ستائر سميكة محاطة بأسوار برونزية أقامها في القرن الخامس عشر الميلادي السلطان المملوكي المصري قايتباي. وفي الحقيقة، لا توجد مقبرة بالمعنى المفهوم للكلمة. فالنبي قد دفن في حفرة في باطن في الغرفة نفسها في المنزل البسيط الذي عاش به ومات به. في أزمنة لاحقة تم بناء سور بلا باب حول المنزل، وبذلك تم عزل المنزل عن العالم الخارجي. كان المنزل في حياة الرسول ملاصقاً للمسجد؛ وعلى مر العصور، تم توسيع المسجد حتى شمل المنزل والمدفن معاً.

صفوف الأبسطة تغطي الباحة الداخلية للمسجد؛ وصفوف من البشر جالسون يقرأون القرآن، أو يتحاورون، وبعضهم صامت في انتظار إقامة صلاة المغرب. كان ابن بليحيد مستغرقاً تماماً في صلاة صامتة.

من على بعد، بالقرب من المحراب، ارتفع صوت قارئ يتلو آيات القرآن كما يحدث دائماً قبل صلاة المغرب. كان يتلو في ذلك اليوم «سورة العلق»، وهي أول ما نزل على محمد من قرآن ـ والتي تبدأ بآيات: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ بتلك الكلمات نزل وحي الله لأول مرة على محمد في غار حراء بالقرب من مكة.

كان محمد يتعبد وحيداً، كما اعتاد أن يفعل، يصلي للحقيقة بقلبه، حين يظهر له فجأة ملاك. أمره قائلاً: «اقرأ». كان محمد شأنه شأن أهل عصره وموطنه لم يتعلم أبداً القراءة، وفضلاً عن ذلك، لم يعرف ما الذي يريده الملاك أن يقرأ، أجابه في روع: «ما أنا بقارئ». حينئذ، ضمه الملاك ضمة قوية شعر محمد معها أنه فقد قواه؛ ثم أطلقه الملاك وأعاد عليه الأمر: «اقرأ»، ومرة ثانية يجيبه محمد: «ما أنا بقارئ»،

فضمه الملاك ضمة أخرى حتى خارت قواه وظن أنه ملاق حتفه: ثم أطلقه، ومرة ثالثة يأتيه الأمر كالرعد: «اقرأ»، وحين أجابه محمد للمرة الثالثة في روع: «ما أنا بقارئ»، قال الملاك:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وهكذا، بإشارة ضمنية من القرآن إلى وعي البشر وفكرهم ومعرفتهم، بدأ نزول القرآن على محمد، واستمر نزوله على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، حتى توفي الرسول في المدينة في سن الثالثة والستين.

إن قصة تجربته الأولى مع تجلي الملاك له، تذكر المرء بشكل ما، بمصارعة يعقوب لملاك الرب كما جاء في سفر التكوين من التوراة. ولكن بينما قاوم يعقوب الملاك واشتبك معه في صراع، أسلم محمد نفسه لضم الملاك له في خشية ورهبة وفزع حتى «خارت قواه» ولم تبق فيه قدرة إلا على سماع صوت لا يستطيع معه أن يحدد إن كان الصوت يأتي من خارجه أم من داخله. لم يكن يعلم أن عليه منذ تلك اللحظات أن يكون ممتلئاً وخالياً في الآن نفسه: ممتلئ كبشر، فالبشر تملأهم الاحتياجات والرغبات البشرية والوعي بحياتهم وذاتهم، وفي الآن نفسه أداة خالية متلقية لتعاليم الرسالة من الوحي. لقد تجلت أمامه الحقائق غير المرئية للحقيقة الأزلية ـ الحقيقة التي تضفي وحدها قيمة ومعنى على كل المدرك وكل الحادث في الوجود؛ طلب منه الملاك أن «يقرأ» ما يدركه منها على كل البشر، فقد يعلم منها الإنسان «ما لم يعلم»، وما لا يمكن أن يعرفوه بذاتهم.

ارتاع محمد من المضامين العظيمة التي تضمنتها تلك الرؤية في

أول آيات نزلت عليه، كان مثله مثل موسى أمام العليقة المشتعلة في البريَّة، يشعر أنه دون ما يطلب منه وأنه لا يستحق روضة النبوة السامي ويرتعد أمام فكرة أن الله اختاره هو دون غيره من البشر. وقيل: إنه عاد مرتجفاً إلى مكة، ودخل بيته وهو ينادي زوجه خديجة قائلاً وهو يرتعد: «زمليني، زمليني»، كان يرتعد مثل غصن شجرة في مهب الريح. فدثرته بدثار، حتى سكن روعه. ثم أخبرها بما وقع له، وقال: «أنا خائف»، إلا أن خديجة رضي الله عنها بوضوح رؤيتها الذي لا ينتج إلا عن حب، أدركت على الفور أنه خائف من عظم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه؛ وقالت له مطمئنة لخوفه: «أَبْشِرْ، فوالله لا يُخزيك الله أبداً، ووالله إنَّك لتصل الرَّحِم، وتصدق الحديث، وتؤدِّي الأمانة، وتحمل الكلَّ، وتقري الضَّيف، وتُعين على نوائب الحق»، ثم انطلقت به إلى ورقة وهو ابن عم لخديجة كان يدين بالمسيحية؛ وكان يقرأ الكتاب المقدس بالعبرية؛ كان ورقة بن نوفل في ذلك الوقت رجلاً مسناً. وكان بصره قد كفَّ، قالت خديجة لورقة: «اسمع من ابن أخيك»، وحين أعاد عليه محمد ما وقع له، رفع ورقة ذراعيه في ورع وخشية وقال له: «هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع! ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك!»، سأله محمد في دهشة: «أمخرجي هم؟» قال ورقة: «نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عودي».

وبالفعل، عاداه قومه على مدى ثلاثة عشر عاماً، حتى هجر مكة إلى المدينة كان أهل مكة غلاظ الأكباد قساة القلوب.

* * *

وعلى أي حال، هل من العسير أن نتخيل قسوة القلب التي أظهرها أهل مكة حين أنبأهم محمد بدعوته أول مرة؟ كانوا مجردين من أي دوافع روحية ولا يعرفون إلا النوازع المادية والحسية: لم يؤمنوا إلا بأن الحياة الأفضل لا تتحقق إلا بكسب المال والمزيد من المال. مثل أولئك الناس تبدو فكرة تسليم أنفسهم بلا مساومة إلى دعوة أخلاقية ودينية ـ فكلمة إسلام تعني حرفياً الاستسلام والتسليم لإرادة الله ـ دعوة مستحيلة لا يمكن قبولها. عدا ذلك، كانت دعوة محمد تهديداً مباشراً للنظام القائم ولتقاليد القبائل وترتيب السلطة، وكان كل ذلك عزيزاً على أهل مكة. وحين بدأ بالدعوة إلى التوحيد وأعلن أن عبادة الأصنام إثم عظيم، فإنهم لم يروا في ذلك تهجماً فقط على معتقداتهم الموروثة عن أجدادهم وأسلافهم، بل رأوا فيها محاولة لتدمير نظامهم الاجتماعي. على وجه الخصوص، لم يعجبهم ولم يرضهم تدخل الإسلام في شؤونهم «الدنيوية» التي اعتبروا أنها خارج نطاق الدين والعبادات ـ مثل الشؤون الاقتصادية، والمساواة بين البشر، والسلوك الاجتماعي العام ـ وكان تدخل الدين الجديد في تلك الجوانب لا يتفق مع مصالحهم المادية، ونسق حياتهم كما يعيشونه، ومصالح قبائلهم. بالنسبة لهم، كانت العقيدة جانباً شخصياً ـ مسألة موقف فردي أكثر من كونها سلوكاً اجتماعياً.

كان ما يرونه على النقيض تماماً لما دعي إليه النبي العربي من إيمان. كانت دعوته تشمل الممارسات الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية والسلوكيات الاجتماعية، وكانت تصيبه الدهشة حين يقولون له إن الدين ليس إلا وعياً شخصياً فقط ولا دخل له بالسلوك الاجتماعي. كان ذلك الجانب من دعوته مكروهاً لهم أكثر من أي

جانب عداه. ولو لم تتدخل العقيدة التي يدعو إليها محمد في الجوانب الاجتماعية، ربما كانت عداوتهم ورفضهم للدعوة أقل حدة.

بلا شك تضايقوا من الدعوة إلى الإسلام لأن مضامينه الدينية كانت تتناقض ومعتقداتهم الوثنية؛ إلا أنه كان من الممكن لهم أن يؤمنوا بها بعد بعض المقاومة وبعض التذمر ـ تماماً كما استسلموا وتواءموا مع الدعوات الفردية لاعتناق المسيحية قبل ذلك ـ إذا كان الرسول قد اتبع نمط التبشير المسيحي وكرس نفسه فقط لدعوة الناس إلى عبادة الله، وإلى الصلاة له من أجل خلاص نفوسهم، وأن يسلكوا سلوكاً حسناً في أمورهم الشخصية. إلا أنه لم يتبع النمط المسيحي، ولم تقتصر دعوته على الإيمان بالله، ولا القيم والمعنويات الفردية. كيف يجرؤ؟

إن ربه يأمره أن يقول في صلاته: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة»، لقد سبقت «آتنا في الدنيا حسنة»، ثم تبعتها «وفي الآخرة حسنة»، وذلك لأن الحاضر يسبق المستقبل، وثانياً، لأن الإنسان مكون من مركبات تتطلب الإشباع البدني الدنيوي قبل أن يكون لديه قدرة على التطلع إلى نداء الروحانيات وخير الآخرة. لم تكن دعوة محمد تدعو إلى جوانب روحية منفصلة ومستقلة عن حياة البشر المادية الدنيوية: كانت الدعوة ترتكز كلياً على مفهوم: أن الروح والبدن ليسا إلا وجهين للوجود البشري. لم تقتصر دعوة محمد على الاهتمام بالجانب الروحي وحده لدى أفراد منفصلين، وكانت دعوته تهدف إلى منهج اجتماعي يضمن لك فرد من أفراد المجتمع الإسلامي أكبر قدر من الإشباع البدني والمادي، وبذلك يوفر له أسباب النمو والتطور الروحي.

بدأ يدعو الناس إلى أن أعمالهم جزء من الإيمان: فالله لا يأمر

البشر بالإيمان فقط ولكن يأمرهم أيضاً بالعمل الطيب. ودعا بقوة إلى مساندة الضعيف إذا تعرض لظلم ممن هم أقوى منه. ودعا إلى ما لم يسمع به أهل مكة من قبل من أن المرأة والرجل متساويان أمام الله، وأنهما مكلفان بالتساوي؛ ومضى إلى ما هو أبعد من ذلك حين أعلن ـ وهو ما أرعب كل كفار مكة ـ أن للمرأة حقوقاً، لا بانتسابها للرجل كأم أو أخت أو زوجة أو ابنة، بل ككيان إنساني مستقل بذمته المالية، أي أن تكون لها ملكيتها الخاصة، وأن تقوم بالأعمال المالية والتجارية بنفسها ولنفسها، وأن تكون مسؤولة عن نفسها في أمور زواجها، وأدان الميسر والخمور وحرمهما، لأنهما كما ذكر القرآن: «رجس من عمل الشيطان».

ونهى الإسلام عن استعباد بشر لبشر؛ ونهى عن الربا، والاحتكار والمتاجرة باحتياجات الناس الأساسية ـ وهو ما يسمى في عالمنا المعاصر «المضاربة»؛ كما نهى عن الحكم بصحة السلوكيات أو خطئها متأثرين بمنزلة الفرد من قبيلة أو أمة. ودعا إلى أن الشرعية الوحيدة ـ المقبولة أخلاقياً ـ تهدف إلى مصلحة الجماعة التي تسبق مصلحة الفرد، وأنها لا تتحقق إلا بحرية البشر وقبولهم المشترك والواعي للهدف من الحياة المعتمد على مقاييس أخلاقية.

لذلك أصر النبي على إعادة النظر في كل المفاهيم الاجتماعية والتي كانت حتى ذلك الوقت منيعة وفوق أي مراجعة، وهكذا، كما نقول في عصرنا «أدخل الدين في السياسة»، وقد كان ذلك توجهاً ثورياً في ذلك الوقت.

كان مشركو مكة، شأنهم شأن البشر في كل مكان وزمان، على

اقتناع تام بأن ما نشأوا عليه من نظم اجتماعية وعادات فكرية وسلوكيات، هي الأفضل. لذلك كان طبيعياً أن يرفضوا تدخل الدين الجديد في نمط العلاقات القائمة، أي رفضوا أن يكون الوعي والإيمان بوحدانية الله مرتبطاً بتغيير اجتماعي جذري، فاتهموا دعوته بأنها غير أخلاقية، وتحريضية، و«تناقض كل أعراف الملكية السائدة». وحين تأكد لهم أنه ليس مجرد حالم، بل يعرف كيف يلهم الناس، لجأوا إلى مواجهته بالعنف وراحوا يؤذونه هو وأتباعه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً....

بطريقة أو بأخرى، تحدى كل الأنبياء «القيم الراسخة» التي كانت سائدة في عصورهم، لذلك تجد أنهم قد سخر منهم جميعاً واضطهدوا من أقوامهم ـ وآخرهم وخاتمهم محمد، ما زال يسخر منه في الغرب حتى اليوم.

[٣]

بمجرد الانتهاء من صلاة المغرب، أحاط البدو بالشيخ ابن بليحيد، كانوا من بدو نجد وأبناء المدن الراغبين في الاستفادة من علمه وحكمته؛ بينما كان يحب أن يستمع إلى تجارب الناس وما يواجهونه من مشاكل وما يرونه في أسفارهم البعيدة. لم يكن السفر إلى مناطق بعيدة بمستغرب على أهل نجد؛ بل كان عادة من عاداتهم حتى إنهم يطلقون على أنفسهم «أهل الشداد» أي أهل سروج الجمال ـ وسرج الجمل لكثيرين منهم آلف من الفراش ـ ولا بد أن سرج الجمل كان أكثر ألفة لذلك الشاب من قبيلة حرب الذي كان قد انتهى بالكاد من حكاية ما صادفه بالعراق، حيث رأى لأول مرة «الفرنجة» من الأوروبيين

(ويدينون بذلك الاسم إلى الفرانك الذين عرفهم العرب أثناء الحروب الصليبية).

سأله الشاب: «قل لي يا شيخ. لماذا يضع الفرنجة قبعات على رؤوسهم تظلل أعينهم؟ كيف يمكن أن يروا السماء؟».

أجاب الشيخ وهو يغمز لي بعينه: «لأنها آخر ما يودون رؤيته، ربما يخشون أن تذكرهم السماء بالله، وهم لا يريدون أن يتذكروه خلال أيام الأسبوع، ويتذكرونه في آخره فقط».

ضحكنا جميعاً، إلا أن البدوي الشاب كان مصراً في بحثه عن المعرفة فسأل من جديد: «ولماذا يكون الله كريماً معهم كل هذا الكرم ويهبهم كل هذه الثروات ويضن بها على المؤمنين؟».

رد الشيخ بليحيد: «آه، الأمر سهل يا بني، إنهم يعبدون الذهب. ولذلك فإلههم جيبهم - ولكن صديقي هنا» - ووضع يده على ركبتي «يعلم عنهم أكثر مما أعلم فقد أتى من بينهم، وأخرجه الله - جلت قدرته - من ذلك الظلام إلى نور الإسلام».

التفت إليّ البدوي الشغوف بالمعرفة وسألني: «هل ذلك صحيح يا أخي، هل كنت من الفرنجة؟» وحين هززت رأسي بالإيجاب، وجدته يهمس قائلاً: «تبارك الله، تبارك الله الذي يهدي من يشاء.. قل لي يا أخي، لماذا لا يهتم الفرنجة بذكر الله؟».

أجبته: «تلك قصة طويلة، لا يمكن شرحها بكلمات قليلة. كل ما أستطيع أن أقوله لك بإيجاز أن عالم «الفرنجة» أصبح عالم «الدجال»، المخادع، المبهر، هل سمعت حديث النبي عن أنه في آخر الزمان سيتبع أكثر الناس الدجال، معتقدين أنه الله».

وبينما كان يتطلع إليّ والتساؤل على وجهه، رويت له، بعد أن رأيت علامات الاستحسان على وجه الشيخ ابن بليحيد، نبوءة النبي عن ظهور ذلك المخلوق الغامض، «الدجال»، والذي سيأتي بعين واحدة، ولكنه وُهبَ قُوَى خاصة اختصه الله بها، حتى إنه سيرى بعينه الواحدة كل ما يحدث وما يجري مهما بَعُد موضعه، ويسمع بأذنيه أي حديث مهما بعد في أركان الأرض القصية؛ ويكون بإمكانه الطيران والتحليق حول الأرض، وسيكشف عن كنوز من الذهب والفضة من تحت أعماق الأرض، وسيُسقط الفيء ويجعل النبات ينمو سريعاً بأمر منه، سيُميت ويحيي حتى إن كل ضعيفي الإيمان سيعتقدون أنه الله وسيسجدون أمامه ويعبدونه. لن يعرفه إلا المؤمنون أقوياء الإيمان ويتمكنون من قراءة ما كتب على جبهته بحروف من نار: «كافر بالله»، سيعرف أولئك فقط أنه مخادع، وقد جاء ليختبر قوة إيمانهم بالله».

بينما كان البدوي الشاب ينظر إليّ مشدوهاً وهو يتمتم: «أعوذ بالله»، استدرت إلى الشيخ ابن بليحيد وقلت: «أليس ذلك رمزاً يا شيخ، ووصف ينطبق على الحضارة الغربية التقنية المعاصرة؟ إنها «ذات عين واحدة»، أي لا تنظر إلا إلى جانب واحد من الحياة ـ وهو التقدم المادي ـ ولا تعي جانبها الروحي. وبمعاونة مخترعاتها العلمية العجيبة تمكن الإنسان من أن يسمع ويرى ما في آخر الأرض بما يفوق قدرته المباشرة على الرؤية والسمع، ويغطي مساحات شاسعة من الأرض في زمن بسيط وسرعة كبيرة. وبمعارف الحضارة الغربية المعاصرة «تسقط الأمطار وتنمو النباتات أسرع من معدلاتها العادية»، كما تكشف عن الثروات الخبيئة بباطن الأرض، وعقاقيرها الطبية تشفي من أشرف على الهلاك، بينما تدمر الحروب والجوانب العلمية المرعبة الحياة على

الأرض، وبلغ تقدمها المادي قوة تشكل إغراءً وبريقاً حتى إن ضعيف الإيمان يعتقد أنها القوة الحقيقية في الوجود أو أنها الله، إلا أن من ظلوا على إيمانهم بخالقهم يعرفون بوضوح أنهم إن عبدوا «الدجال» فإنهم في الوقت ذاته يُنكرون وجود الله الخالق الواحد...».

صاح الشيخ ابن بليحيد: «أصبت يا محمد، أصبت» قال ذلك وهو يدق براحة يده على ركبتي في حماس: «لم ترد إلى ذهني مثل تلك الرؤية للدجال؛ إلا أنك مُحق، فبدلاً من أن يوقن البشر أن تقدمهم وتقدم العلوم هبة من الله، راحوا يعتقدون بشكل متزايد في حماقة، أن ذلك التقدم غاية في ذاته، وأنه يستحق العبادة.

* * *

فعلاً - فكرت بيني وبين نفسي - سخر الإنسان الغربي نفسه لعبادة «الدجال». لقد فقد من زمن طويل كل براءة وفطرة وكل تكامل داخلي مع الطبيعة. أصبحت الحياة لغزاً أمامه. أصبح متشككاً، وبذلك عزل نفسه عن مجتمعه من البشر وأصبح يعيش في عزلة داخلية. وحتى لا يفنى في تلك الوحدة، فإنه يسعى إلى قهر الحياة والتغلب عليها بوسائل خارجة عن فطرته. لم تعد حقيقة أنه حي تهبه أماناً داخلياً: لا بد أن يصارع على الدوام من أجل مزيد من الحياة بمعاناة وكد، من لحظة إلى لحظة من أجل مزيد من الحياة كأنها غاية في ذاتها. ولأنه فقد كل تكيف روحي لما فوق المادة، قرر أن يحيا بلا بُعد روحي، ودفعه ذلك إلى اختراع وسائل آلية ميكانيكية تكون حليفة له ونما عنده الميل المحموم اليائس إلى التقنية والتمكن من قوانينها ووسائلها. راح يخترع كل يوم آلات جديدة، ويضفي على كل منها بعضاً من روحه ويدعها

تقاتل بدلاً منه ليستمر وجوده زمناً أطول. إنهم يفعلون ذلك؛ إلا أن ذلك يخلق لهم على الدوام الاحتياجات الجديدة، ومخاطر جديدة، ومخاوف أكثر تدفعه إلى اختراع حلفاء جدد مصنوعة، في عطش لا يرتوي أبداً. لقد فقد جانبه الروحي في العجلات الدائرة للآلات المنتجة، وفقدت الآلات الهدف الرئيسي منها ـ أن تكون حامية ومخصبة للحياة الإنسانية ـ وتحولت إلى آلهة بذاتها، آلهة مفترسة من الصلب. ويبدو أن مبشري ودعاة ذلك الإله لا يرتوي لا يعون أن سرعة تطور التقنية الحديثة ليست فقط نتيجة للنمو العقلي، بل نتيجة لليأس الروحي، وأن تلك المنجزات العظمى التي يعتقد أنه يقهر بها الطبيعة ليست في حقيقتها إلا ميلاً دفاعياً: فخلف واجهاتها البراقة يكمن الخوف من المجهول.

فشلت الحضارة الغربية في تحقيق توازن متآلف بين حاجات الإنسان الدنيوية وتطلعاته الروحية. ألغى الغرب القيم الروحية الأخلاقية السابقة دون أن يكون قادراً على تقديم أي نسق أخلاقي وروحي آخر. أخضع كل شيء للسببية العقلية. وبالرغم من كل التقدم في مجال التعليم، لم تقدر الحضارة الغربية على كبح ميل الإنسان الأحمق في السقوط فريسة للشعارات والنظريات الاقتصادية، مهما كانت عبثيتها التي يعتقد الديماغوجيون الفوضويون أنها ملائمة. وتبنت الحضارة الغربية مفهوم تقنية وتنظيم الفنون الرفيعة ـ إلا أن أمم الغرب تظهر على الدوام عجزها عن السيطرة على القوى التي أطلق علماؤهم عقالها، ووصلوا إلى مرحلة أصبحت فيها القوة العلمية المطلقة، ماضية يداً بيد مع الفوضى العالمية المتزايدة. ومع غياب أي قيم دينية وروحية، أصبح

المواطن الغربي غير مستفيد أخلاقياً وروحياً من نور المعرفة الهائل الذي يطرحه العلم، ولذلك ينطبق عليهم ما ذكره القرآن:

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ (صدق الله العظيم).

إلا أنهم في عجرفة عمائهم، يعتقدون عن اقتناع أن حضارتهم هي التي ستنير العالم وتحقق له السعادة. . . في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فكروا في ترويج الدين المسيحي في جميع أنحاء العالم؛ إلا أن حماسهم الديني قد فتر حتى إنهم أصبحوا بعد ذلك يعتبرون الدين موسيقى خلفية ملطفة في حياة البشر. يسمح له بملازمة الحياة لا التأثير فيها في سعيه للحياة «الحقة» ـ وبدأوا يروجون بدلاً من الدين، التعاليم المادية لنمط «الحياة الغربية»: وهو الإيمان بأن كل المشاكل البشرية يمكن حلها في المصانع والمعامل وعلى مكاتب المحللين الاقتصاديين والإحصائيين، وبذلك كله تتحقق نبوءة «الدجال». . .

[٤]

ساد الصمت لفترة طويلة. ثم تحدث الشيخ من جديد: «هل كان تحققك من معرفة الدجال هو ما دفعك إلى اعتناق الإسلام يا بني؟».

قلت: «بشكل ما كان كذلك على ما أظن؛ إلا أن ذلك كان الخطوة الأخيرة»، قال: «نعم، الخطوة الأخيرة، لقد أخبرتني ذات مرة بقصة إيمانك بالإسلام، ولكن متى وكيف أشرق في ذهنك لأول مرة أن الإسلام هو هدفك ومبتغاك؟».

قلت: متى؟ دعني أتذكر. . . أظن أن ذلك كان في يوم شتوي في أفغانستان حين فقد جوادي حدوة، وبحثت عن حداد في قرية تبعد عن الطريق الذي كنا نسير عليه؛ في تلك القرية قال لي رجل: «ولكنك مسلم، أنت فقط لا تعرف ذلك». . كان ذلك قبل إسلامي بثمانية أشهر. . كنت في ذلك الوقت في طريقي من مدينة «حيرات» إلى مدينة «كابول». . .

* * *

كنت في طريقي من مدينة «حيرات» إلى مدينة «كابول»، كنا على جيادنا، أنا، وإبراهيم التتاري، وأحد الجنود الأفغان، كنا نقطع وقتها سهول وممرات منطقة هندو ـ كوش المغطاة بالجليد في وسط أفغانستان. كان الجو شديد البرودة والجليد الأبيض يغطي كل الجهات وتنهض في كل الجهات جبال شاهقة الارتفاع، جبال سوداء وأخرى بيضاء من تراكم الجليد عليها.

كنت في ذلك اليوم أشعر بالأسى والسعادة في آن، شعرت بالأسى لانفصال الناس الذي عشت بينهم، بأستار حجب سميكة داكنة عن نور العقل والقوة والنماء الذي يمكن أن يوفره لهم إيمانهم بالإسلام، وكنت سعيداً لاقترابي من نور ذلك الإيمان، الذي رأيته قريباً مني ومن فكري وأراه كما أرى تلك الجبال السوداء والبيضاء ـ كان قريباً مني حتى أكاد أمسكه بيدي.

بدأ الجواد يعرج وظهر صوت رنين عند حافره: كانت حدوة أحد حوافره توشك على السقوط ولم تعد مثبتة إلا بمسمارين فقط.

سألت مرافقنا الأفغاني: «هل توجد قرية قريبة يمكن أن نجد بها

حداداً؟» أجاب: «قرية دح - زانجي على مسافة فرسخ من هنا، بها حداد، وحكيم (حاكم) حزاراجات له حصن بها».

وهكذا، توجهنا إلى دح - زانجي فوق جليد ناصع البياض، سرنا ببطء حتى لا أؤذي الجواد.

كان الحكيم، أو حاكم الإقليم، رجلاً شاباً قصير القامة بوجه مرح، كان ودوداً وأسعده أن يكون لديه ضيف أجنبي، فقد كان يشعر بالوحدة في حصنه المتواضع. وبالرغم من أنه كانت تربطه علاقة قرابة وثيقة بالملك أمان الله، ملك أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أنه كان من أكثر من قابلت تواضعاً في كل أفغانستان. وأصر على استضافتي يومين.

في مساء اليوم الثاني جلسنا حول غذاء فخم وفير كالمعتاد. بعد الغذاء، قام رجل من القرية بالترفيه عنا بأغانٍ محلية غناها بمصاحبة عزف على عود بثلاثة أوتار. غنى بلغة الباشتو - وهي لغة لم أفهم منها شيئاً - إلا أن بعض الكلمات الفارسية كانت تنتشر بين كلمات الأغاني بحيوية، وكانت الغرفة دافئة أرضها مغطاة بالأبسطة وتيار برد ثلجي يأتي من النافذة. غنى على ما أذكر عن معركة داوود وجوليات - عن الإيمان حين يواجه قوج غاشمة - وبالرغم من عدم تمكني من متابعة كلمات الأغنية، إلا أن مفهومها كان واضحاً في ذهني، بدأت الأغنية هادئة متواضعة، ثم ازداد وقعها في صعود انفعالي عنيف حتى وصلت إلى صيحة النهاية العالية المنتصرة.

حين انتهت الأنشودة علق الحاكم قائلاً: «كان داوود صغيراً، إلا أن إيمانه كان كبيراً»، فلم أتمالك نفسي وقلت باندفاع: «وأنتم كثيرون وإيمانكم قليل». نظر إلى مضيفي مندهشاً، خجلت مما قلت دون أن

أتمالك نفسي، وبدأت بسرعة في توضيح ما قلت. واتخذ تفسيري شكل أسئلة متتابعة كسيل جارف. قلت: «كيف حدث أنكم معشر المسلمين فقدتم الثقة بأنفسكم، تلك الثقة التي مكنتكم من نشر عقيدتكم في أقل من مائة عام، من الجزيرة العربية باتجاه الغرب حتى المحيط الأطلنطي، وإلى الشرق حتى أعماق الصين، والآن مستسلمين بكل سهولة وكل ضعف إلى أفكار وعادات الغرب؟ أضاء أجدادكم العالم بالعلوم والمعارف والفنون فيما كانت أوروبا تائهة في بربرية وجهل، لماذا لا تقدرون على استجماع قواكم وشجاعتكم وتستعيدون إيمانكم الفعال؟ وكيف يصبح أتاتورك، ذلك المتنكر التافه الذي ينكر كل قيمة للإسلام، رمزاً لكم في الإحياء والنهوض والإصلاح؟».

ظل مضيفي صامتاً دون أن يفوه بكلمة. كان الجليد قد بدأ في التساقط من الخارج. وشعرت مرة أخرى بموجة مختلطة من الأسى مع تلك السعادة الداخلية مثل تلك التي شعرت بها ونحن نقترب من دح ـ زانجي. أحسست بالعظمة التي كانت عليها تلك الأمة، وبالخزي الذي يغلف ورثتها المعاصرين.

أردفت مكملاً سيل أسئلتي: «قل لي، كيف دفن علماؤكم الدينيون الإيمان الذي أتى به نبيكم بكل صفائه ونقائه، تحت ركام من المناقشات العقيمة لتوافه الأمور؟ وكيف حدث أن نبلاءكم وكبار ملاك أراضيكم يغرقون في الثروة والغنى والنعيم، بينما يغرق أغلبية المسلمين في الفقر والقذارة والصمت ـ مع أن نبيكم علمكم أن: «لا يؤمن أحدكم إن شبع وجاره جائع؟ هل يمكن أن تفسر لي كيف دفعتم النساء إلى هامش الحياة ـ مع أن النساء في عصر الرسول والصحابة ساهمن في كل شؤون

حياة أزواجهن؟ وكيف أصبحت أغلبيتكم جاهلة وأمية، وأقليتكم من يعرفون القراءة والكتابة؟ بالرغم من أن نبيكم أعلن: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

كان ضيفي ما زال يحملق فيّ دون كلمة، وبدأت أعتقد أن انفجاري ربما سبب له ضيقاً. كان الرجل صاحب العود والذي لا يعرف الفارسية ينظر مشدوهاً لذلك الأجنبي الذي يتحدث بتلك الحدة وذلك الحماس إلى الحاكم. في النهاية جذب الحاكم ثوبه الأصفر الواسع وأحكمه حول جسمه، كما لو كان يشعر بالبرد؛ ثم همس: «ولكن... أنت مسلم».

ضحكت وأجبته: كلا، لست مسلماً، ولكني رأيت الجوانب العظيمة في رسالة الإسلام مما يجعلني أشعر بالغضب وأنا أراكم تضيعونه... سامحني إن كنت تحدثت بحدة، أنا لست عدواً على أي حال».

إلا أن مضيفي هزّ رأسه: «كلا، أنت كما قلت لك: أنت مسلم، إلا أنك لا تعلم ذلك... لماذا لا تعلن الآن وهنا «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ـ وتصبح مسلماً بالفعل بدلاً من أن تكون مسلماً في قلبك فقط؟ قلها يا أخي، قلها الآن، وسأذهب معك غداً إلى كابول وأصحبك إلى الأمير، سيستقبلك بأذرع وأحضان مفتوحة كواحد منا. وسيهبك بيوتاً وبساتين وماشية، سنحبك جميعاً، قلها يا أخي...».

قلت له: «لو قلتها في أي وقت، فسأقولها حين يستقر فكري عليها ويستريح لها، لا من أجل منازل الأمير وبساتينه».

استمر إصرار الحاكم: «ولكنك تعرف عن الإسلام أكثر مما يعرف أي منا، فما الذي لم تعرفه أو تفهمه بعد؟».

قلت له: «الأمر ليس مسألة فهم، بل أن أكون مقتنعاً، أن أقتنع أن القرآن هو كلمة الله، وأنه ليس ابتداع ذكي لعقلية بشرية عظيمة».

ولم تمح كلمات صديقي الأفغاني من ذهني على مدى شهور طويلة بعدها. من كابول تجولت في أفغانستان على مدى أسابيع، عبر مدينة «غازني» القديمة، والتي انطلق منها من ألف عام مضت الغازي العظيم محمود في غزواته للهند، ثم عبر «قندهار» التي تميز أهلها بأنهم أصلب وأشد المقاتلين؛ ثم عبر صحراء أفغانستان الجنوبية الغربية، ثم عدت إلى مدينة «حيرات»، نقطة بداية جولتي الأفغانية.

كان ذلك عام ١٩٢٦، وقرب نهاية الشتاء غادرت «حيرات» في طريقي عبر رحلة طويلة للعودة إلى موطني في أوروبا، ركبت القطار من حدود أفغانستان إلى مدينة «مارف» في تركستان السوفييتية إلى سمرقند وبخارى وطشقند، ثم عبرت أصقاع تركمان إلى جبال الأورال ثم إلى موسكو.

بدأ انطباعي الأول (والذي استمر بعد ذلك) عن روسيا السوفييتية في محطة قطار «مارف» في تركستان السوفييتية، كان بالمحطة ملصق كبير ضخم يصور أحد أفراد «البروليتاريا»[١] الشباب يرتدي زي العمال الأزرق ويركل رجلاً مسناً بلحية بيضاء يرتدي ثوباً فضفاضاً ويخرجه من بين سحب السماء، ومكتوب تحت الملصق:

---

(١) الطبقة العاملة (المترجم).

«هكذا أطاح عمال الاتحاد السوفييتي بالله في سماواته» والتوقيع «اتحاد بوزبوزينكي» (وتعني اتحاد الملاحدة) في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية».

كانت الدعاية الرسمية الملحدة تفرض نفسها في كل مكان: في المباني العامة وفي الشوارع، وكانت الأماكن المثالية المفضلة لتلك الملصقات بجوار دور العبادة، وفي تركستان كانت المساجد الإسلامية هي المستهدفة. ففي حين لم تكن صلاة الجماعة ممنوعة بقرار رسمي، إلا أن السلطات كانت تقوم بكل ما من شأنه إعاقة الناس عن الصلاة. وقيل لي في أكثر من مناسبة، خاصة في بخاري وطشقند: إن جواسيس السلطة يسجلون أسماء كل من يتوجه إلى أي مسجد لأداء الصلاة، وجمعت السلطات نسخ القرآن وأخفوها وألقوها في الزرائب ومزقوها. وكانت الوسيلة المفضلة لشباب الملاحدة إلقاء رؤوس خنازير في ساحات المساجد.

عبرت حدود بولندا حتى آخر حدود الاتحاد السوفياتي بمشاعر عميقة من الارتياح بعد أسابيع قضيتها في عبور المناطق الآسيوية والأوروبية لروسيا السوفييتية. توجهت رأساً إلى فرانكفورت وذهبت في الحال إلى مقر الصحيفة الذي أصبح أكثر ألفة لي. عرفت أن اسمي أصبح من الأسماء المعروفة في فترة سفري الأخير، وأنني أصبحت واحداً من أشهر مراسلي صحف وسط أوروبا.

بعض مقالاتي خاصة تلك المقالات التي تناولت التركيبة النفسية شديدة التعقيد للإيرانيين جذبت اهتمام كثير من المستشرقين البارزين ولقيت ما يفوق الاعتراف بأهميتها. وتلقيت دعوة لإلقاء سلسلة

محاضرات في أكاديمية الجغرافيا السياسية في برلين - وقيل لي: إنه لم يحدث من قبل أن رجلاً في مثل عمري (لم أكن قد جاوزت بعد السادسة والعشرين) قد حقق ذلك التميز. وأعيد نشر مقالاتي الأخرى في صحف كثيرة بالاتفاق مع «فرانكفورتر ذيتونج»، حتى إن واحدة من تلك المقالات نشرت في ثلاثين مطبوعة مختلفة. وبوجه عام، كانت جولتي الإيرانية مثمرة جداً...

* * *

خلال وجودي تلك المرة في أوروبا تزوجت إلزا. لم تضعف حبنا الفترة التي ابتعدتها عن أوروبا على مدى عامين، وجدت أن حبنا قد ازداد أكثر واستطعت أن أنزع من فكرها مشكلة فارق السن بيننا.

احتجت في البداية قائلة: «كيف يمكن أن نتزوج؟ أنك لم تكمل السادسة والعشرين، وأنا تخطيت الأربعين. فكر في هذا: حين تكون في الثلاثين، سأكون أنا في الخامسة والأربعين، وحين تكون في الأربعين، سأكون أنا عجوز شمطاء...».

ضحكت وقلت لها: «لا يهم، لا أتخيل أي مستقبل بدونك».

واستسلمت في النهاية.

لم أكن مبالغاً حين قلت لها إنني لا أتخيل أي مستقبل بدونها. كان جمالها وعطفها ونقاؤها الغريزي يجعلها تبدو لي شديدة الجاذبية حتى إنني لم أكن أرى أي امرأة غيرها؛ وكان حسن فهمها لما أريد من الحياة يضيء آمالي وتطلعاتي ويجعلها أشد صلابة، وأقرب إلى التحقيق.

في واحدة من المناسبات، وكانت بعد أسبوع تقريباً من زواجنا، قالت: «ما أغربك دون كل الناس، تستنكر الغموض وترفضه في كل

دين.. مع أنك أنت نفسك غامض، تصل وتتواصل مع الحياة من حولك بأطراف أناملك وترى في الأمور اليومية العادية أنماطاً من الغموض والتعقيد فيما يبدو للناس الآخرين أموراً عادية... ولكن في اللحظة التي تتحدث فيها عن الدين، تتحول إلى عقلاني تماماً. الأمر عكس ذلك عند كل الناس...».

غير أن إلزا لم تكن مندهشة بالفعل، فقد كانت تعلم ما أبحث عنه حين كنت أحدثها عن الإسلام، ومع أنها لم تشعر بنفس إلحاح البحث كما كنت أشعره، إلا أن حبها لي جعلها تشاركني كل اهتماماتي.

كثيراً ما كنا نقرأ القرآن معاً ونتناقش حول ما ورد به من أفكار؛ وأصبحت إلزا تتأثر مثلي يوماً بعد آخر بالتكامل الداخلي بين تعاليمه الروحية وإرشاداته الدنيوية. لم يطلب الله من البشر كما جاء بالقرآن طاعته بغباء طاعة عمياء بلا عقل أو فهم أو إدراك، بل كان القرآن يوجه الخطاب دائماً إلى العقل والفهم والإدراك. لم يتناء الله بذاته عن مصير البشر، بل يقول لهم: إنه أقرب إليهم من حبل الوريد، كما لم يفصل بين الإيمان به وسلوك البشر الاجتماعي، وفوق كل ذلك، لم يقر مبدأ أن الحياة صراع بين المادة والروح أي الجسد والروح، كما لم يقر منهج أن الطريق إلى النور يستلزم تحرير الروح من أعباء مطالب البدن (الخلاص في المفهوم المسيحي). وأدان النبي كل شكل من أشكال رفض الحياة أو رفض رغبات البدن أو إماتتها أو كبتها حين قال: «لا رهبنة في الإسلام».

لم يعترف برغبات البدن كغريزة إيجابية فقط، بل تعامل مع البدن كفضيلة أخلاقية مُسلّم بها، كنعمة من نعم الله التي أنعم بها على البشر.

ولم يُعلِّم المسلمين فقط أن يتمتعوا بحياتهم وفق ما أحل الله لهم، بل إنهم مأمورون بذلك.

كانت صور نهائية متكاملة للإسلام تتبلور في ذهني، وبيقين، كان يدهشني في أوقات كثيرة وهو يتكون داخلي بما يشبه الارتشاح العقلي والفكري، أي أنها كانت تتم دون وعي وإرادة مني، كانت الأفكار تتجمع ويضمها ذهني إلى بعضها في عملية «تنظيم ومنهجة» لكل الشذرات مع المعلومات التي عرفتها عن الإسلام خلال الأعوام الأربعة الأخيرة. رأيت في ذهني عملاً معمارياً متكاملاً تتضح معالمه رويداً رويداً، بكل ما يحتويه من عناصر الاكتمال وتناغم الأجزاء والمكونات مع الكل المتكامل في توازن لا يخل جزء منه بآخر، توازن مقتصد بلا خلل ويشعر المرء أن منظور الإسلام ومسلماته كلها، في موضعها الملائم والصحيح من الوجود».

لقد وقف رجل من ثلاثة عشر قرناً وقال: «لست إلا بشر فان؛ كلفني خالق الوجود أن أحمل رسالته إليكم حتى تحيوا في صلاح يتفق مع منهج خلقه، أمرني أن أذكركم بوجوده، وهو القادر، العليم، وأن أقدم لكم منهجاً للدنيا والآخرة. إن قبلتم تذكيري لكم ورسالتي إليكم فاتبعوني».

كان ذلك هو جوهر رسالة محمد.

كان المنهج الاجتماعي الذي قدمه على قدر من البساطة يتناسب مع عظمته. بدأ ذلك المنهج من المقدمة الموضوعية بأن البشر مخلوقات اجتماعية وذات احتياجات بيولوجية عضوية وأن الله خلقهم هكذا حتى يعيشوا في جماعات وشعوب وقبائل حتى يشبعوا احتياجاتهم البدنية والمعنوية والفكرية: فهم باختصار يعتمدون على بعضهم البعض، وأن

رقي الفرد الروحي (الهدف من كل الأديان) يتوقف على مدى ما يتلقاه من عون وتشجيع وحماية من حوله من أفراد المجتمع ـ الذين يتوقعون منه بالطبع أن يقوم بالدور نفسه تجاههم ـ هذا التساند الاجتماعي البشري المتبادل بين أفراد المجتمع كان السبب الأساسي في عدم انفصال الإسلام عن الجوانب الاقتصادية والسياسية. كان المفهوم الإسلامي يعتمد بشكل أساسي على تكافل وتساند أفراد المجتمع، ولذلك كان تنظيم علاقات أفراد المجتمع لا بد أن يرتكز على عدم وجود أي عراقيل في حياة الفرد مع وجود كثير من المساندة لتطوير شخصيته، كان هذا هو المفهوم الأساسي للإسلام لوظيفة المجتمع. لذلك كانت رسالة محمد التي ثابر على نشرها على مدى ثلاثة وعشرين عاماً لا تنحصر فقط في الجانب الديني الروحي الخاص بالعبادة وحدها، بل في تأسيس مجتمع تسوده العدالة. تضمن المنهج الإطار السياسي العام لما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي ـ الإطار العام فقط؛ لأن تفاصيل الاحتياجات السياسية مرتبطة بالظروف التاريخية، ولذلك فتفاصيلها متروكة لظروف المجتمع، كما تضمن حقوق الفرد على المجتمع وواجبات المجتمع على ضوء التطور التاريخي لنمو المجتمعات. تضمن التشريع الإسلامي كل نواحي الحياة، الروحية والبدنية حقوق الفرد وحق الجماعة على الفرد؛ مشاكل البدن ومشاكل الروح والفكر، المشاكل الجنسية والاقتصادية، مضت كلها جنباً إلى جنب مع مشاكل الإيمان والعبادة، احتلت كل الجوانب مواضعها في تعليمات النبي لم يعد أي جانب من جوانب حياة البشر غير مهم أو تافه ولم تشمله مبادئ التشريع ـ لم يستثن التشريع أي أمر «دنيوي» مثل التجارة، والوراثة، وحقوق الملكية أو امتلاك الأراضي.

كل مواد التشريع الإسلامي وضعت لفائدة كل أعضاء المجتمع الإسلامي، دون تمييز بالولادة، أو الجنس، أو الانتماء القبلي أو مرتبة اجتماعية. لم يخص النبي نفسه بأي امتيازات لنفسه أو لذريته. لم تعد هناك امتيازات خاصة لمرتبة اجتماعية عليا أو مثالب تقع على مرتبة دنيا؛ واختفى من الإسلام تماماً مفهوم الطبقة الاجتماعية. كل الحقوق والواجبات والفرص المتاحة تنطبق بالتساوي على كل أفراد المجتمع من المسلمين. لا احتياج لكاهن كوسيط بين الإنسان وخالقه، لأن الله: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾، لم يعترف الإسلام بغير طاعة الله ورسوله، ثم الولاء للمجتمع الإسلامي الملتزم بشرعة تأسيس مجتمع إسلامي طبقاً لما أمر الله به، وحرم ذلك الولاء والطاعة لأمة سيان بالحق أم بغيره. ولترسيخ مبدأ أن الطاعة لله أعلن النبي أكثر من مرة: ليس منا من تشيع لقبيلته، وليس منا من حارب في سبيل انتماء لقبيلة، وليس منا من مات في سبيل قبيلته.

كانت كل المؤسسات السياسية والتوجهات السياسية المبنية على معتقد ديني محصورة في الفهم الضيق للقبيلة أو الدولة. وحتى الملوك الآلهة في مصر القديمة لم يتجاوز فكرهم وادي النيل وسكانه، وفي الدولة الدينية المبكرة لليهود العبرانيين، حيث كان من المفترض أن الحاكمية لله، فإن الرب هناك كان رب أبناء إسرائيل فقط. أما في الفكر القرآني الإسلامي فإن الأمر عكس ذلك تماماً، لا وجود للانتماء إلى قبيلة ولا اعتبار خاص لسلالة خاصة. المبدأ الأساسي في الإسلام إقامة مجتمع إسلامي لا يعرف الولاء التقليدي لقبيلة ولا لجنس بذاته. وبهذا الخصوص، يُعَد الإسلام والمسيحية ذوا توجه واحد، فكلاهما له توجه واحد من إقامة مجتمع من البشر تربطهم عقيدة واحدة بغض النظر عن

انتماءاتهم القبلية أو القومية. إلا أن المسيحية قد قيدت نفسها بتوجه ديني فقط، وحثت من آمنوا بها على أن «يعطوا ما لقيصر لقيصر»، وبذلك قصرت دعوتها على الجانب الديني الروحي فقط. أما الإسلام فقد قدم بوضوح بناء سياسي يعد فيه الإيمان بالله المنبع الذي تستمد منه سلوكيات المؤمنين، كما يعد الإيمان بالله الأساس الوحيد لكل المؤسسات الاجتماعية. وهكذا محققاً للبشر ما لم تحققه لهم المسيحية ـ خط الإسلام فصلاً خامياً في التطور الإنساني، لقد خلق مجتمعاً إنسانياً مفتوحاً أمام كل البشر المؤمنين بالإسلام مقارنة بما سبقه من ديانات، قصرت الدين على جنس بعينه، أو ديانات قصرت الدين على منطقة بعينها.

لقد أوجدت رسالة الإسلام حضارة لا مكان فيها لجنس على آخر، لا مكان فيه «لامتيازات خاصة»، ولا تقسيم طبقي، لا كهنوت وتسلط هيئات دينية، ولا كهانة، ولا حقوق متوارثة لنبالة محتد؛ وفي الحقيقة لم ينطو على أي امتيازات بالوراثة على الإطلاق كان الهدف خلق مجتمع يدين لله بالإسلام ويحكم نفسه بديموقراطية واختيار للحاكم. كانت أهم صفة بارزة لحضارة الإسلام ـ وهي الصفة التي انفرد بها دوناً عن كل الحضارات البشرية السابقة عليه أو اللاحقة له ـ إنها منبثقة من إرادة حرة لشعوبها. لم تكن مثل حضارات أخرى سابقة وليدة قهر وضغط وإكراه أو تصارع إرادات أو الصراع على مصالح، ولكنها كانت جزءاً وكلاً من رغبة حقيقية أصيلة لدى كل المسلمين. مستمدة من إيمانهم بالله وما حثهم عليه من إعمال فكر وعمل. وبكلمات أخرى كان تعاقداً اجتماعياً أصيلاً: لا مجرد كلام أجوف يدافع به جيل عن امتيازات خاصة بهم وتعود بالنفع عليهم، ولكن كمصدر حقيقي وتاريخ

للحضارة الإسلامية. يقول القرآن: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (صدق الله العظيم).

لقد أدركت أن ذلك «الفوز العظيم» ـ العقد الاجتماعي الوحيد المسجل تاريخياً ـ تحقق فقط على مدى زمني قصير جداً، أو على الأصح أن على مدى زمني قصير تحقق العقد على نطاق واسع. فبعد أقل من مائة عام من موت الرسول بدأ الشكل النقي الأصيل للإسلام يدب فيه الفساد، وفي القرون التالية بدأ المنهج القويم يزاح إلى الخليفة. وبدأت الصراعات القبلية والعرقية من أجل الهيمنة والسلطة تحل محل العقد الاجتماعي الإسلامي المبني على رجال أحرار ونساء أحرار، وبدأت الوراثة الملكية تحل محل الانتقاء الحر للقيادة وهو ما كان متعارضاً مع المفهوم السياسي للإسلام كتعارض الشرك مع التوحيد، وترتب على ذلك صراع الانتماء العائلي والقبلي، والتفضيل القبلي والاضطهاد، وتقهقر الدين حتى أصبح وسيلة للسلطة والقوة: باختصار تحول إلى «صراع المصالح» المعروف على مدى التاريخ. وعلى مدى زمني حاول المفكرون الإسلاميون أن يحفظوا نقاء العقيدة، إلا أن من أتوا بعدهم كانوا أقل قدرة من سابقيهم وتقاعسوا عن الاجتهاد ولاكوا واجتروا أفكار من سبقوهم، وتوقفوا عن التفكير المبدع والاجتهاد الخلاق واكتفوا بترديد أفكار من سبقوهم من أجيال حاولت الاجتهاد ـ وتناسوا أن كل الاجتهادات رهينة بزمنها ولا تصلح لغيرها من أزمان وأنها غير معصومة، وبالتالي تحتاج إلى تجديد مستمر. كانت القوة الدافعة الأولى للإسلام، كافية لوضعه في قمة سامية من الرقي

الحضاري والفكري ـ في العلوم والآداب والفنون مما دفع المؤرخين إلى وصفها بالعصر الذهبي للإسلام؛ إلا أن تلك القوة الدافعة قد ماتت لنقص الغذاء الروحي الدافع لها، وركدت الحضارة الإسلامية عصراً بعد عصر لافتقاد القوة الخلاقة المبدعة.

* * *

لم يكن لدي أي أوهام عن الحالة المعاصرة للعالم الإسلامي بينت الأربعة أعوام التي قضيتها في مجتمعات إسلامية أن الإسلام ما زال حياً، وأن الأمة الإسلامية متمسكة به بقبول صامت لمنهجه ومبادئه وتعاليمه، إلا أن المسلمين كانوا كالمشلولين، غير قادرين على تحويل إيمانهم إلى أفعال مثمرة لا مجرد أقوال. إلا أن ما شغلني أكثر من فشل المسلمين المعاصرين في تحقيق منهج الإسلام، الإمكانيات المتضمنة في المنهج ذاته. كان يكفيني أن أعرف أنه خلال مدى زمني قصير، اقتصر على بداية التاريخ الإسلامي، كانت هناك محاولة ناجحة لتطبيق هذا المنهج؛ وما أمكن تحقيقه في وقت ما، يمكن تحقيقه في وقت غيره. ما كان يهمني، كما فكرت في داخلي، أن المسلمين شردوا عن التعليمات الأصيلة للدين وركنوا إلى التراخي والكسل والجهل؟ ما الذي حدث وجعلهم يبتعدون عن المثاليات التي علمهم إياها الرسول العربي من ثلاثة عشر قرناً مضت ـ ما دامت تلك المثاليات ما زالت متاحة لهم إن أرادوا الاستماع إلى ما تحمله من رسالة سامية؟

بدا لي كما فكرت، أننا نحن في عصرنا الحالي نحتاج إلى تعاليم تلك الرسالة أكثر كثيراً من البشر الذين عاشوا في عصر محمد. لقد عاشوا في بيئات وظروف أبسط كثيراً مما نعيش فيه الآن، ولذلك كانت

مشاكلهم وصعابهم أقل بكثير من مشاكلنا ومصاعبنا. العالم الذي كنت أحيا فيه ـ كله ـ كان يتخبط لغياب أي رؤية عامة لما هو خير وما هو شر فيما يخص الإيمان والجانب الروحي للبشر وبالمثل غياب رؤية عامة للجانب الاجتماعي والاقتصادي. لم أؤمن أن ما يحتاجه الفرد هو «خلاص الروح» بالمفهوم المسيحي، بقدر ما آمنت أن المجتمع المعاصر هو الذي يحتاج للخلاص. لقد أحسست بيقين تام أكثر من أي وقت مضى أن مجتمعنا المعاصر يحتاج إلى أسس فكرية عقائدية توفر شكلاً من أشكال التعاقد الاجتماعي بين أفراده، وأنه يحتاج إلى إيمان يجعله يدرك خواء التقدم المادي من أجل التقدم لذاته ـ وفي الوقت نفسه يعطي للحياة نصيبها؛ وأن ذلك سيدلنا ويرشدنا إلى كيفية تحقيق التوازن بين احتياجاتنا الروحية واحتياجاتنا البدنية، وأن ذلك سينقذنا من كارثة محققة نتجه إليها بأقصى سرعة.

* * *

لن أبالغ إن قلت: أثناء تلك الفترة من حياتي شغلت فكري مشكلة الإسلام كما لم يشغل ذهني شيء آخر من قبل. كنت في ذلك الوقت قد تجاوزت مرحلة الاستغراق الفكري، وتجاوز فكري مرحلة الاهتمام العقلي والذهني بدين غريب وثقافة غريبة، لقد تحول إلى بحث محموم عن الحقيقة، ولاستغراقي في البحث عن الحقيقة، تحولت المغامرات الممتعة التي مررت بها في آخر عامين إلى أفكار وذكريات باهتة بلا معنى. حتى إنه أصبح من الصعب علي أن أركز فكري لكتابة الكتاب الجديد الذي كلفني رئيس تحرير صحيفة «فرانكفورتر ذيتونج» بكتابته.

في البداية، لاحظ دكتور سيمون بتسامح نفوري من المضي في

كتابة مادة الكتاب. ورأى أنني عائد من رحلة طويلة أستحق معها بعض الراحة؛ ثم وجد أن زواجي أيضاً يستدعي التوقف لفترة عن الكتابة. ولكن حين امتدت راحة السفر، وامتدت إجازة الزواج أكثر مما اعتقد دكتور سيمون أنه كافٍ لي، ذكر لي أنه قد آن الأوان أن أعود إلى أرض الواقع.

وفي حقيقة الأمر، كان الرجل في غاية التفهم والتقدير لكل ظرفي؛ إلا أنه لم يبد لي كذلك في حينه. كان سؤاله المتكرر والملح عن مدى التقدم في إنجاز الكتاب يأتي بآثار عكسية لما يريده هو. وأحسست أنه يضغط عليّ من دون مبرر؛ وفقدت كل رغبة في إنجاز ذلك الكتاب. كنت أكثر اهتماماً بما أسعى للكشف عنه أكثر ما كنت مهتماً بوصف ما رأيت.

في النهاية علق دكتور سيمون على ذلك في سخط قائلاً: «لا أظن أنك ستكتب هذا الكتاب أبداً. إن ما تعاني منه هو رعب الحرية» وبشيء من الاستفزاز أجبته:

«ربما كان مرضي أكثر خطورة مما تعتقد. ربما أعاني من خوف الكتابة».

رد بحدة: «حسناً، إذا كان هذا ما تعاني منه، هل تعتقد أن «فرانكفورتر ذيتونج» هي المكان الملائم لك؟».

وأدت كلمة إلى رد، وأدى رد إلى استفزاز، حتى تحول الأمر إلى تشاجر. في اليوم نفسه استقلت من العمل في صحيفة، «فرانكفورتر ذيتونج» وبعدها بأسبوع رحلت أنا وإلزا إلى برلين.

لم أكن أنوي بالطبع هجر الصحافة، لأنها بغض النظر عن الحياة

الجيدة التي توفرها لي، والمتعة التي أشعر بها في الكتابة، كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن أعود من خلالها إلى المجتمع الإسلامي، وقد أردت العودة إلى ذلك العالم الإسلامي بأي ثمن. وبالسمعة الجيدة التي حققتها في الأعوام الأربعة الأخيرة، لم يكن من الصعب الاتفاق مع صحف أخرى. وتوصلت إلى اتفاق سريع مع صحف ثلاث أخرى هي: صحيفة «نيو زيوريخ ذيتونج» التي تصدر من زيوريخ، وصحيفة «تليجرام» التي تصدر من أمستردام، وصحيفة «كولون ذيتونج» التي تصدر من كولونيا. أصبحت مقالاتي عن الشرق الأوسط تنشر في ثلاث صحف ـ لا تصل إلى مستوى فرانكفورتر ذيتونج ـ غير أنها من أهم الصحف الأوروبية.

استقر بنا المقام مؤقتاً أنا وإلزا في برلين، ونويت أن أكمل سلسلة محاضراتي التي كنت ألقيها في أكاديمية الجغرافيا السياسية، كما نويت أن أواصل دراستي للإسلام.

وسعد أصدقاء الثقافة والفكر بعودتي من جديد إلى برلين، إلا أنني وجدت أنه من الصعب استعادة علاقتنا القديمة كما كانت عليه في الوقت الذي سافرت فيه إلى الشرق الأوسط. شعرت ببعض الغربة عنهم؛ لم نعد نتحدث من نفس المنطلقات الفكرية. على وجه الخصوص، لم أجد أحداً من أولئك الأصدقاء يمكنني أن أحدثه عن انشغالي بالإسلام وأتوقع منه أن يأخذ الأمر بجدية وبتفهم ما يهمني. لقد هزوا رؤوسهم جميعاً في دهشة وتعجب حين حاولت أن أشرح لهم أن الإسلام كمفهوم فكري واجتماعي يمكن أن يقارن بكل النظريات والمعتقدات الأخرى. وبالرغم من تفهمهم أحياناً لمعقولية بعض ما

يذهب إليه الإسلام إلا أن أغلبهم كان يرى أن الأديان القديمة أصبحت شيئاً ينتمي إلى الماضي، وأن عصرنا وزماننا يحتاج إلى منهج «إنساني» آخر جديد.

ولكن، حتى من كانوا لا يرفضون الأديان رفضاً كلياً، كانوا يميلون بلا سبب إلى تبني المفهوم الغربي الشائع الذي يرى أن الإسلام يهتم أساساً بالشؤون الدنيوية، وأنه ينقصه الروحانيات التي يتوقع أي امرئ أن يجدها في أي دين.

ما أدهشني بالفعل، أن أكتشف أن ذلك الجانب من الإسلام هو ما جذبني إليه من أول لحظة ـ وهو عدم فصل الإسلام بين الوجود المادي والوجود الروحي للبشر والتأكيد على السببية العقلية كسبيل للإيمان، وهو الجانب ذاته الذي يعترض عليه مفكرو أوروبا الذين يتبنون السببية العقلية كمنهج للحياة، ولا يتخلون عن ذلك المنهج العقلاني إلا حين يرد ذكر الإسلام.

لم أجد أي فارق بين الأقلية المهتمة بالأديان والأغلبية التي ترى أن الدين أصبح من المفاهيم البالية التي عفا عليها الزمن.

مع الوقت، أدركت مكمن الخطأ في منهج كل منهما. أدركت أن مفاهيم من تربوا في أحضان الأفكار المسيحية في أوروبا بما تتضمنه من تأكيد على قوى ما فوق الطبيعة التي يجب أن توجد بشكل أصيل في أي دين ـ تبنوا مفهوماً عقلياً يسود بينهم جميعاً وينتقص من الجوانب الروحية. كان ذلك مقصوراً على المؤمنين بالمسيحية. فمع طول تعود أوروبا على نسق الفكر المسيحي، تعلم حتى «اللاأدريون» أن ينظروا إلى أي دين آخر من خلال عدسات مسيحية، فيعدون أي فكر ديني

«صالح» لأن يكون ديناً، إذا غلفته مسحة غامضة خارقة للطبيعة تبدو خافية وفوق قدرة العقل البشري على استيعابها. ومن منظورهم، لم يف الإسلام بتلك المتطلبات: فقد أكد الإسلام على تكامل الجسد والروح في الحياة البشرية في تكامل فريد. إن نظرة الإسلام إلى الوجود تختلف عن الرؤية المسيحية التي ترتكز عليها كل المفاهيم الغربية، وإن قبلت ما لا مفر من قبوله فسيؤدي بك إلى مناقشة صلاحية ما يليه.

عن نفسي، كنت أوقن أنني في طريقي إلى الإسلام، وجعلني تردد اللحظة الأخيرة أؤجل الخطوة النهائية التي لا مفر منها. كانت فكرة اعتناق الإسلام تمثل لي عبور قنطرة فوق هاوية تفصل ما بين عالمين مختلفين تماماً: قنطرة طويلة حتى إن المرء عليه أن يصل إلى نقطة اللاعودة أولاً قبل أن يتمكن من تبن الطرف الآخر للقنطرة وبداية الجانب الآخر. كنت أعي تماماً أنني لو اعتنقت الإسلام سأضطر لخلع نفسي نهائياً من العالم الذي ولدت ونشأت فيه. لم تكن هناك حلول أخرى. فلم يكن من الممكن لامرئ مثلي أن يتبع دعوة محمد ويظل بعدها محتفظاً بروابطه الداخلية مع مجتمع يتصف بثنائية للمفاهيم المتعارضة والمتناقضة. كان تساؤلي الأخير الذي كنت متردداً أمامه هو: هل الإسلام رسالة من عند الله، أم أنه حصيلة حكمة رجل عظيم، إلا أنه غير مفهوم. . . ؟

* * *

ذات يوم ـ كان ذلك في سبتمبر ١٩٢٦ ـ كنت أنا وإلزا ننتقل بقطار الأنفاق في برلين عائدين إلى بيتنا. كنا بعربة الدرجة الأولى التي يستقلها الأغنياء وميسورو الحال. وقع نظري بطريقة عفوية على الرجل الذي

كان يجلس مواجهاً لي، كان يرتدي ملابس أنيقة غالية الثمن، كان من الواضح أنه من رجال الأعمال الناجحين وكان يضع حقيبة أوراق ومستندات غالية الثمن على ركبتيه، كما كان يضع في أحد أصابعه خاتماً ماسياً ثميناً. طاف بذهني صورة آلية أن ذلك الرجل بما هو عليه من مظاهر ثراء يتماشى ويتناسب مظهره مع حالة الرخاء والانتعاش التي كانت سائدة في وسط أوروبا في ذلك الوقت. كان رخاءً واضحاً للعيان بعد أعوام من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع معدلات الكساد والتضخم، ثم انقلب الحال رأساً على عقب وحلت فترة الرخاء التي كان حسن المظهر أحد دلائلها، وأصبحت الغالبية ترتدي أفخم الثياب وتتناول أغلى المأكولات. لم يكن الرجل الذي كان يجلس مواجهاً لي استثناءً للحال. حين طاف بصري بوجهه، لم أجد أي أثر لسعادة، كان يبدو عليه القلق، لم يكن قلقاً فقط، بل تبدو عليه التعاسة، ونظرته تحملق إلى لا شيء وزاويتا فمه متقلصتان كما لو كان يعاني ألماً ـ إلا أنه ألم غير عضوي ـ وحتى لا أبدو صفيقاً حولت بصري عن وجهه ونظرت إلى من كان بجواره، كانت سيدة أنيقة، تحمل أيضاً على وجهها علامات التعاسة، كما لو كانت تتمثل في عقلها تجربة ما غير سارة، أو تمر بتجارب سيئة وحياة تعسة تسبب لها آلاماً داخلية؛ إلا أنها كانت ترسم على شفتيها ابتسامة مرسومة جامدة ربما اعتادت عليها.

بدأت أتطلع حولي إلى كل الوجوه في العربة التي كنا بها ـ كانت كلها وجوه تنتمي إلى طبقة تنعم بملبس جيد ومأكل جيد، إلا أن كلاً منها كان يشي بتعاسة داخلية عميقة ومعاناة واضحة على الملامح، تعاسة عميقة حتى إن صاحبها لم يع أنها تبدو على صفحة وجهه.

كانت ظاهرة غريبة. لم أر من قبل كل هذا الكم من الوجوه البائسة التعيسة، أو ربما أني لم أكن أدقق كثيراً في وجوه الناس في أوروبا من حولي. كان انطباعي من القوة حتى إنني همست به إلى إلزا فراحت هي الأخرى تتفحص خفية الوجوه التي تحيط بنا بخبرة الفنانة الرسامة التي لها دراية بتفحص ملامح الوجوه قبل رسمها بالفرشاة. استدارت إليّ مندهشة، وقالت: «أنت على حق، يبدو عليهم كأنهم يعانون عذاب الجحيم... لا أدري إن كانوا يعون معاناتهم أم لا...؟».

كنت أوقن أنهم غير واعين، وإلا ما كانوا استمروا في إهدار حياتهم على هذا المنوال، دون أي تماسك داخلي، دون أي هدف أسمى من مجرد، تحسين مستوى معيشتهم»، ودون أمل يزيد عن الاستحواذ المادي، أكبر قدر منه، وقد يحقق لهم مزيداً من القوة والسطوة.

عدنا إلى البيت وما زلنا نفكر بما رأيناه، تطلعت بالصدفة إلى مكتبي، كانت عليه نسخة مفتوحة من القرآن كنت أقرأ فيه قبل خروجنا. وبصورة آلية، التقطت المصحف لأعيده إلى مكانه، حين هممت بإغلاقه، سقط بصري على الصفحة التي كانت مفتوحة أمامي، وقرأت:

﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ (صدق الله العظيم).

وقفت لحظات مشدوهاً وأنا أحبس أنفاسي، وأحسست أن يديّ ترتجفان، فناولته لإلزا وقلت لها: اقرئي هذا، ألا تجيب هذه السورة عما رأينا في قطار الأنفاق؟

لقد كان القرآن يتضمن الإجابة، إجابة حاسمة قضت على كل شكوكي وأطاحت بها بلا رجعة. أيقنت يقيناً تاماً أن القرآن الذي أمسكه بين يدي من عند الله: ومع أنه أمام الناس من ثلاثة عشر قرناً مضت، إلا أنه تنبأ بما سيأتي من عصر آلي معقد، تمتطيه الأشباح، كعصرنا.

لقد اتصف البشر بالطمع في كل العصور، إلا أنه لم يصل الدرجة التي أصبح عليها في عصرنا، حتى أنه تحول إلى هاجس يعمي الأبصار عن رؤية أي شيء آخر عداه. تطلع ورغبة لا تقاوم للاستحواذ على المزيد، الحصول على المزيد اليوم أكثر مما حصلنا عليه أمس، والحصول في الغد على أكثر مما حصلنا عليه اليوم، عفريت يركب أعناق البشر ويجلد قلوبهم ويدفعهم إلى الركض نحو أهداف تومض وتبرق على البعد، وبمجرد أن يحصلوا عليها يكتشفون أنها هباء وأن هناك أهدافاً أخرى أشد بريقاً، ما تزال نائية في الآفاق البعيدة إلا أنها أكثر إغراءً فيركضون من جديد ليكتشفوا أنها أيضاً لا قيمة لها بمجرد تحققها. جوع لا يشبع لتحقيق مكاسب لا تنتهي، وينخر في روح الإنسان: «كلا، لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم».

أيقنت أن تلك الآيات لم تكن نتاج حكمة رجل عاش من ثلاثة عشر قرناً في الجزيرة العربية النائية عن أوروبا. لم يكن بمقدوره مهما أوتي من حكمة أن يتنبأ بهذا العذاب النفسي والمعنوي والتعاسة والجحيم الذي سيصيب أبناء القرن العشرين.

كان الصوت الصادر من القرآن أعظم كثيراً من صوت محمد. . .

[٥]

حل الظلام على باحة مسجد الرسول (ص)، لم يبدده إلا ضوء المصابيح الزيتية المدلاة بسلاسل طويلة بين الأعمدة الرخامية الحاملة لعقود المسجد. كان الشيخ عبد الله بن بليحيد جالساً ورأسه مدلاة بين كتفيه على صدره وعيناه مغمضتان. يظن من لا يعرفه أنه غارق في النعاس؛ ولكنني أعرف أنه كان يستمع إلى حكايتي وتفاصيل قصة إسلامي باستغراق عميق، يوائمها بما يعرف عن تجارب البشر وخبرات حياتهم ومحتوى قلوبهم. بعد فترة طويلة رفع رأسه وفتح عينيه، سألني: «وبعد، ماذا فعلت بعد ذلك؟».

قلت: «فعلت ما يجب علي أن أفعله يا شيخ، كان لي صديق مسلم بحثت عنه حتى عثرت عليه، كان هندياً وكان رئيساً لرابطة المسلمين في برلين، قلت له: إنني استقر رأيي على اعتناق الإسلام. مد لي يده اليمنى، ووضعت كفي في كفه، وفي حضور اثنين من الشهود، أعلنت:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»[1].

وبعد ذلك بعدة أسابيع أسلمت زوجتي أيضاً.

سألني: «وماذا قال الناس عن ذلك؟».

قلت: «لم يعجبهم ذلك بطبيعة الحال. حين أرسلت إلى أبي رسالة

---

(١) يعد إعلان الإسلام هذا شرطاً ضرورياً لأن تصبح مسلماً. وفي الإسلام نجد أن صفتي «رسول» و«نبي» صفات متبادلة وتطلق على كبار الأنبياء الذين حملوا رسالة جديدة للبشر، مثل محمد وعيسى، وموسى، وإبراهيم.

وعرفته بإسلامي، لم يرد على رسالتي، بعد ذلك بعدة شهور أرسلت إلى شقيقتي رسالة قالت فيها: أن أبي يعتبرني قد مت... ثم أرسلت إليه برسالة ثانية قلت له فيها: إن إسلامي لم يغير موقفي منه ولم يقلل من حبي له، بل على العكس أمرني الإسلام أن أبر والدي أكثر من أي مخلوق آخر... ولم أتلق رداً على تلك الرسالة أيضاً.

قال ابن بليحيد: «لا بد أن أبيك متمسك جداً بدينه...».

قلت: «كلا يا شيخ، ليس متمسكاً بدينه كما تظن، وهذا هو الجانب الغريب، لقد اعتبرني مرتداً، لا عن دينه (لم أر منه أي تمسك بدين)، ولكن عن المجتمع الذي نشأنا بين ظهرانيه وثقافة وفكر ذلك المجتمع».

سألني: «ألم تره أبداً منذ ذلك الحين؟».

قلت له: «كلا، بعد فترة قصيرة من إسلامنا أنا وزوجتي رحلنا عن أوروبا، لم نحتمل أن نبقى بها أكثر من ذلك. ولم أعد إلى هناك من ذلك الحين»[1].

(١) استعدت علاقتي بأبي عام ١٩٣٥، بعد أن تفهم أبي في النهاية الأسباب التي حملتني على اعتناق الإسلام. وعلى الرغم من أننا لم نلتق أبداً، فإن المراسلات استمرت متبادلة بيننا حتى عام ١٩٤٢، حين تم ترحيله هو وشقيقتي من مدينة فيينا على أيدي النازيين ثم مات في أحد معسكرات الاعتقال.

الفصل الحادي عشر

جهـــاد

«وأنا أغادر مسجد الرسول، أطبقت يد على يدي: ولما استدرت مستطلعاً، رأيت العينين الطيبتين لسيدي محمد الزواوي السنوسي. قال بسعادة: «ما أسعدني وأنا أراك بعد كل هذه الشهور الطويلة، بارك الله تلك الخطوة في مدينة الرسول المباركة...»».

[١]

سرنا يداً بيد على الطريق المعبد بالحجارة المستوية والذي يفضي من مسجد الرسول إلى السوق. كان يرتدي البرنس الأبيض الذي يرتديه أهل شمال أفريقيا، وكان من الشخصيات المعروفة في المدينة، فقد عاش بها لأعوام طويلة، توقفنا أكثر من مرة، فقد كان من يقابلنا يصافحه بحرارة وإجلال، لم يكن ذلك يعود إلى كبر سنه البالغ سبعين عاماً، بل يعود إلى كونه أحد قادة أبطال ليبيا الذين يحاربون في سبيل استقلال بلادهم.

قال ونحن سائرون: «أود أن أعرفك يا بني أن سيد أحمد موجود هنا بالمدينة، صحته ليست على ما يرام، سيسعده أن يراك، إلى متى ستبقى بالمدينة هذه المرة؟».

أجبته: «حتى بعد غد، لن أغادر المدينة بالطبع قبل أن أزور سيد أحمد، والأفضل أن أزوره الآن».

لم أحب أحداً بالجزيرة مثلما أحببت سيد أحمد، لم يدانه أحد في تضحياته التي ضحاها بجهده وبكل ما يملك لتحقيق هدف غير شخصي وهو تحقيق استقلال وطنه».

كان عالماً ومقاتلاً، كرس كل حياته لإحياء مجتمع إسلامي مترابط، يناضل من أجل استقلاله السياسي، وكان على يقين من أنه لا يمكن تحقيق أي من الهدفين بمعزل عن الآخر.

ما زلت أذكر أول لقاء لنا من سنين طويلة في مكة...

فإلى شمال مكة يقع جبل «أبو قبيس» الذي دارت حوله أساطير كثيرة في الموروث الثقافي. فوق قمته كان يوجد مسجد أبيض بمئذنتين قصيرتين، ومن هذا المسجد يمكنك أن ترى منظر وادي مكة الرائع والكعبة في قاعة تحوطها منازل ملونة متدرجة في ارتفاعها على سفوح الجبال من كل الجوانب. وإلى أسفل قليلاً من قمة جبل أبو قبيس، كان هناك تجمع من مبانٍ حجرية معلقة على حافة صخرية مثل تجمع أعشاش الصقور: كان ذلك التجمع هو مركز الأخوة السنوسية.

كان في ذلك الوقت منفياً ولا سبيل إلى عودته إلى ليبيا بعد ثلاثين عاماً من القتال ضد الاستعمار الإيطالي لبلاده وسبعة أعوام في رحلات مكوكية من البحر الأسود حتى اليمن، وكان اسمه شهيراً في العالم الإسلامي، فقد كان سيد أحمد هو السنوسي الكبير. لم يضارعه أحد في تأريق مضاجع المستعمرين في شمال إفريقيا، لا عبد القادر الجزائري في القرن التاسع عشر ضد الاستعمار الفرنسي، ولا عبد

الكريم في المغرب ضد الاستعمار الفرنسي أيضاً. وعلى الرغم من أنها أسماء لا ينساها المسلمون إلا أن أهدافهما كانت سياسية في المقام الأول تسعى إلى تحقيق الاستقلال. بعكس منهج سيد أحمد الذي كان ينطوي على إحياء ديني إسلامي يتحقق من خلاله الاستقلال والنهضة الإسلامية الجديدة.

قدمني إليه في مكة في ذلك الوقت حاجي عجوز سالم زعيم مسلمي جاوة، والذي كان يقود هو الآخر حركة نضال مسلمي أندونيسيا من أجل الاستقلال، وكان قد حضر إلى مكة ليؤدي فريضة الحج، حين علم سيد أحمد أنني اعتنقت الإسلام حديثاً، مدّ إليّ يده مصافحاً وقال في ود:

«مرحباً بك بين إخوتك، يا أخي الأصغر...».

كانت ملامحه تحمل إمارات التعب والإجهاد، وتبدو المعاناة محفورة على جبهته فوق عينيه، كان بلحية قصيرة شيباء، وفم حسي تحوطه تجاعيد الآلام المرتسمة على ملامحه. كان تعباً، يرتخي جفناه في إجهاد على عينيه فبدتا ناعستين؛ كان صوتاً هيناً إلا أنه مليء بالأسى. غير أن وجهه كان يشتعل في أحيان أخرى بالحماس فتستعيد العينان بريقهما ويرتفع صوته قوياً مجلجلاً، ومن ثنايا العباءة البيضاء يرتفع ذراعه في حماس كجناح صقر يهم بالطيران.

كان صاحب فكرة ورسالة لو كتب لها التحقق، ربما كانت قد أحيت نهضة إسلامية جديدة: وفي متاعب شيخوخته ومرضه وانهيار نتاج كل عمره، لم يفقد بطل شمال إفريقيا بريقه.

لم يكن يملك حق اليأس: إذ كان على يقين أن التطلع إلى إحياء

العقيدة الإسلامية وتحقيق الاستقلال السياسي ـ والتي نشأت من أجلهما الحركة السنوسية ـ لا يمكن محوه من قلب المسلمين.

* * *

كان جد سيد أحمد، وهو العالم الإسلامي الجزائري محمد بن علي السنوسي (ويعود اللقب إلى قبيلة بني سنوس)، قد آمن بفكرة الأخوة الإسلامية في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأنها إن تحققت ستمهد الطريق لإحياء وحدة إسلامية جديدة. وبعد أعوام من التجوال والدراسة بين بلاد عربية عديدة أقام محمد بن علي أول زاوية سنوسية على جبل أبو قبيس في مكة سرعان ما التف حوله فيها كثيرون من بدو الحجاز. ولم يبق بمكة وعاد إلى شمال أفريقيا، واستقر في جغبوب، وهي واحات تقع بين ولاية فزان في ليبيا ومصر، ومن جغبوب انتشرت رسالته مثل انتشار النار في الهشيم في جميع أنحاء ليبيا وما جاورها. وحين مات محمد بن علي عام ١٨٥٩ كان السنوسي (وأصبح اسم كل كبير للحركة) قد مدّ رسالته على منطقة واسعة تمتد من سواحل البحر المتوسط حتى المنطقة الاستوائية في أفريقيا وحتى منطقة قبائل الطوارق في الصحراء الجزائرية.

ولا ينطبق مصطلح «دولة»، لا على المنطقة التي انتشرت فيها رسالته، ولا على محتوى ومضمون الرسالة التي آمن بها، فالسنوسي الأول الكبير لم يهدف أبداً إلى تأسيس حكم خاص له أو لنسله من بعده: كل ما هدف إليه، تهيئة أسس ملائمة لإعادة الإحياء والنهضة الإسلامية في كل جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ولتحقيق ذلك الهدف، لم يسع إلى ما يعكر أو يثير التنظيم القبلي القائم، كما لم

يتحدَّ الحاكم المعين على ليبيا من قبل الدولة العثمانية التي كانت ليبيا تابعة لها، بل كرس كل جهوده لتعليم البدو في خيامهم مبادئ الإسلام، ويزرع فيهم الوعي بأخوة المسلمين التي حض عليها القرآن والتي اختفت خلال القرون الماضية بسبب النزاعات والصراعات القبلية. ومن خلال الزوايا العديدة التي انتشرت في شمال أفريقيا، حمل السنوسيون رسالتهم إلى أبعد القبائل، وحققوا في خلال عقود قليلة تحولاً إعجازياً بين العرب والبربر على حد سواء.

قلت المشاكل المزمنة بين القبائل تدريجياً واختفت المشاحنات، وتحول من كانوا محاربين صحراويين جموحين إلى إخوة متعاونين بروح لم تعرف بينهم من قبل، كان أبناؤهم يتلقون التعليم في الزاوية ـ كان تعليماً يشمل تعاليم الإسلام، كما يشمل الفنون اليدوية والمشغولات التي كانت القبائل تزدري العمل بها ـ كما قاموا بحفر كثير من الآبار الأكبر والأجود في مناطق كانت غير مأهولة على مدى قرون، وبإرشادهم ظهرت للوجود مجتمعات إسلامية منتعشة وواعدة في مناطق عديدة من الصحراء، كما شجعوا أعمال التجارة وساعد السلام الذي أرسوا أسسه بين القبائل على تأمين طرق التجارة مما جعل الانتقال آمناً على الطرق التي كانت تخشى القوافل المرور بها لتجنب الاعتداء عليها وسلبها ونهبها. كان نفوذ الحركة السنوسية حافزاً على التغيير، بينما رفع التزامها الديني من المستوى الروحي والأخلاقي في المجتمعات الجديدة. على وجه التقريب ارتضت كل القبائل بالزعامة الروحية للسنوسي الكبير؛ بل إن السلطات التركية العثمانية التي كانت تحكم مدن الساحل الليبي وجدت أن سلطة الحركة على القبائل تسهل الأمور في تعاملهم مع القبائل التي كانت تثير المشاكل من قبل.

هكذا، في الوقت الذي ركزت فيه الحركة مجهودها على ترقية ونمو وتعليم شعوب الداخل، تحول نفوذها مع الزمن إلى شكل لا يختلف كثيراً من نفوذ الحكومات. ذلك النفوذ وتلك القوة اعتمدا على قدرة الحركة على تحويل البدو البسطاء وقبائل طوارق شمال إفريقيا في شكل ديني لا يعرف إلا القشور، إلى بدو أكثر وعياً بروح الإسلام الحقة، وتنمية الوعي بروح الاستقلال والسعي إلى الحرية والكرامة الإنسانية والأخوة الإسلامية.

ولم تظهر في العالم الإسلامي بعد العصر الذهبي للإسلام حركة إسلامية واسعة النطاق تمهد الطريق إلى وحدة إسلامية تماثل الحركة السنوسية.

إلا أن ذلك العهد المسالم من نشر الدعوة والوعي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وصل إلى نهايته، عندما راحت القوات الفرنسية تزحف جنوباً من الجزائر باتجاه إفريقيا الاستوائية، محتلين جزءاً بعد جزء أماكن كانت مستقلة، كانت تحت النفوذ الروحي للحركة السنوسية. ووجد ابن مؤسس الحركة، محمد المهدي، وخليفة أبيه من بعد موته، نفسه مجبراً على تجريد السيف الذي لم يغمد بعد ذلك أبداً. وكان ذلك النضال الطويل جهاداً إسلامياً حقيقياً ـ فقد كانت حرباً للدفاع عن النفس والعقيدة، ويقول القرآن في تعريف الجهاد:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ (صدق الله العظيم).

إلا أن الفرنسيين لم ينتهوا كما تذكر الآية، فقد حملوا رايتهم ثلاثية الألوان على سناكي بنادقهم إلى أعمق وأعمق في بلاد إسلامية.

ولما مات محمد المهدي عام ١٩٠٢، تولى ابن شقيقه، سيد أحمد، قيادة الحركة السنوسية، كان قبل توليه وبعد توليه يخوض غمار الحروب ضد القوات الفرنسية التي راحت تضغط عليهم بما يعرف الآن إفريقيا الاستوائية الفرنسية، وحين غزا الإيطاليون طرابلس وبرقة عام ١٩١١، أصبح لزاماً عليه أن يقاتل في جبهتين، إلا أن ذلك جعله يحول كل جهد الحركة إلى العدو الجديد الذي احتل شمال ليبيا. حاربهم في البداية بمعاونة الأتراك، ولما انسحب الأتراك من ليبيا في الحرب العالمية، وجد نفسه يحارب وحده. وشنّ سيد أحمد والمجاهدون السنوسيون غاراتهم على الغزاة بنجاح بالرغم من تفوق الإيطاليين الكاسح في العدد والسلاح، وتقلص نفوذهم حتى لم يتجاوز بعض المدن الساحلية.

كان البريطانيون قد ثبتوا أقدامهم في مصر ولم يكن في صالحهم تمدد وتوسع إيطاليا في شمال إفريقيا، كما لم يكونوا على عداء مع الحركة السنوسية؛ لذلك كان موقفهم المحايد في مصلحة الحركة، فقد كانت كل إمدادات المجاهدين السنوسيين تصل إليهم من مصر، وكان شعب مصر يتعاطف مع الحركة ويؤيدها. وكان يمكن للحركة أن تنجح في طرد الإيطاليين من برقة نهائياً مع توفر حياد بريطانيا.

ولكن في عام ١٩١٥، دخلت تركيا الحرب العالمية متحالفة مع ألمانيا، وطلب السلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين من الحركة السنوسية أن يقفوا إلى جانب الأتراك بمهاجمة القوات البريطانية في

مصر. وكان البريطانيون قد طلبوا من سيد أحمد أن يظل على الحياد مقابل اعترافهم السياسي بشرعية الحركة السنوسية في ليبيا، وأن يتخلوا له عن بعض الواحات المصرية في الصحراء الغربية.

لو كان سيد أحمد قد قبل ذلك العرض، لكان اتبع ما يمليه عليه التفكير المنطقي، فهو لا يدين بشيء للأتراك الذين انسحبوا أمام الإيطاليين من ليبيا وتركوه يقاتلهم وحده، في الوقت الذي لم يقدم فيه البريطانيون على أي عمل عدائي ضد الحركة السنوسية، بل على العكس، أغمضوا عيونهم عن الإمدادات التي تنقل إليهم من مصر - وكانت المصدر الوحيد للحركة - وفوق كل ذلك، كان الجهاد مع برلين التي تحالفت معها تركيا لا يحقق ما يذكره القرآن عن الجهاد: فتركيا المسلمة في ذلك الوقت لم تكن في حالة دفاع عن النفس وتحالفت مع قوة غير إسلامية في حرب عدوانية.

وهكذا، كانت الاعتبارات الدينية والسياسية تلزمه اتجاهاً واحداً لا بديل منه، وهو أن يظل بعيداً عن حرب ليست حربه. كان كثير من قادة الحركة السنوسية - ومنهم صديقي سيدي محمد الزواوي - ينصحون سيد أحمد أن يظل على الحياد في الحرب الدائرة بين تركيا وبريطانيا، إلا أن فروسيته «الدون كيشوتية» تجاه خليفة الإسلام غلبت مناطق العقل ودفعته إلى اتخاذ القرار الخطأ، وهاجم الإنجليز في صحراء مصر الغربية.

كان صراع الضمير أكثر مأسوية في حالة سيد أحمد، فلم يكن هناك مكسب أو خسارة شخصية، بل كانت الخسارة للحركة التي حملت قضية كبرى كرس سيد أحمد حياته من أجلها وحياة جيله وجيلين من قبله. وبمعرفتي الوثيقة به، لم يكن لدي شك أن دوافعه لهذا القرار

الخطأ لم يكن بها دوافع شخصية، بل كانت من وجهة نظره رغبة في الحفاظ على وحدة مسلمي العالم، إلا أنه من وجهة نظر سياسية، كان قراره أسوأ قرار اتخذه في حياته بأجمعها. فبدخوله الحرب ضد البريطانيين، ضحى، دون أن يعي ذلك في حينه، بكل مستقبل الحركة السنوسية.

من ذلك الحين، وجد نفسه مجبراً على القتال في ثلاث جبهات: في الشمال ضد الإيطاليين، وفي الجنوب الغربي ضد الفرنسيين، وفي الشرق ضد البريطانيين.

في البداية حقق بعض النجاح، كان البريطانيون يعانون من تقدم القوات التركية والألمانية باتجاه قناة السويس من فلسطين، فأخلوا الواحات في الصحراء الغربية لتركيز قواتهم في منطقة قناة السويس، فاحتلها على الفور سيد أحمد، وهرعت قواته الراكبة الجمال والتي كان يقودها محمد الزواوي (الذي عارض بحكمة وقوة ذلك القرار)، واخترقوا الصحراء الغربية حتى مشارف القاهرة.

ثم تغير مسار الحرب العالمية: توقف التقدم السريع للقوات الألمانية والتركية نحو قناة السويس من شبه جزيرة سيناء، وتحول هجومهم إلى تقهقر، ثم بدأت بريطانيا هجوماً مضاداً على السنوسيين في الصحراء الغربية، وأعادوا احتلالهم للواحات الحدودية وآبار المياه، وقطعت المصدر الوحيد لإمدادات المجاهدين من مصر. كانت المؤن الداخلية والسلاح والذخيرة لا تكفي ولا تفي بحاجات سكان مشتبكين في معارك حياة أو موت ضد إيطاليا؛ كما لم تقدم الغواصات الألمانية والنمسوية التي كانت تقوم بعمليات إنزال سرية إلا معونات رمزية.

في عام ١٩١٧ وأمام ذلك الوضع الحرج أقنعه مستشاروه أن يذهب إلى اسطنبول سراً في غواصة ومن هناك يرتب لدعم أكثر فاعلية. وعهد قبل أن يسافر بقيادة الحركة في منطقة طبرق إلى ابن عمه، سيد محمد الإدريسي[1]، الذي كان أكثر ميلاً للمهادنة والتصالح مع الإنجليز والإيطاليين، ووافق البريطانيون ـ الذين لم يحبوا من البداية أن يدخلوا في صراع مع السنوسيين لا فائدة لهم من ورائه ـ على الصلح؛ وضغطوا على إيطاليا لقبول التصالح.

وبعد فترة اعترف به الإيطاليون «أميراً على السنوسيين» واحتفظ باستقلال شكلي في ولاية برقة حتى عام ١٩٢٢، بعد أن رجع الإيطاليون عن اعترافهم حتى يسيطروا على كل ليبيا، وغادر سيد إدريس محتجاً إلى مصر في بداية عام ١٩٢٣، بعد أن عهد بقيادة السنوسيين إلى زميل من أهل الثقة هو عمر المختار، ووقع خرق الإيطاليين للاتفاق سريعاً، واشتعلت الحرب في فزان من جديد.

في الوقت نفسه، واجه سيد أحمد في تركيا خذلاناً بعد خذلان. كانت نيته أن يعود إلى فزان بمجرد أن يحقق الغرض الذي جاء من أجله؛ إلا أن ما جاء من أجله لم يتحقق أبداً.

فبمجرد أن وصل إلى استانبول، واجه مكائد كثيرة أرجأت عودته من أسبوع إلى أسبوع، ومن شهر إلى شهر، وكان من الواضح أن دوائر صنع القرار المحيطة بالسلطان العثماني لا تريد للحركة السنوسية

---

(١) أصبح ملكاً على ليبيا عام ١٩٥٢.

النجاح. كان الأتراك يخشون أن يأتي يوم يصحوا فيه العرب ويستعيدون زعامة العالم الإسلامي، وكان انتصار السنوسيين من عوامل التعجيل بتلك الصحوة، التي قد يحتل فيها السنوسي الكبير موضع الخليفة العثماني، ومع أنه لم يضمر ذلك الطموح، إلا أن ذلك لم يقض على شكوك الباب العالي. وعلى الرغم من أنه عومل باحترام شديد في تركيا كقائد للمجاهدين السنوسيين، إلا أنه أصبح بصورة غير رسمية محجوزاً في تركيا. وانهارت الدولة العثمانية عام ١٩١٨، وتلى انهيارها احتلال الحلفاء لاستانبول، وكان ذلك علامة على انهيار آماله التي عقدها على تركيا، وفي الوقت نفسه أغلقت أمامه كل احتمالات العودة إلى برقة.

كان إلحاح العمل من أجل قضية وحدة المسلمين لا يترك لسيد أحمد أي فرصة أن يعيش بلا نشاط. فبينما كانت قوات الحلفاء تنزل في استانبول، عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى لينضم إلى كمال أتاتورك ـ الذي كان يُعرف في ذلك الوقت باسم مصطفى كمال ـ وكان قد بدأ لتوه في تنظيم المقاومة التركية داخل الأناضول.

ولا بد أن نتذكر أن النضال البطولي لكمال أتاتورك في البداية كان تحت رايات الإسلام، وأن الحماس والحمية الإسلامية للدفاع عن الدين الإسلامي هما وحدهما اللذان وهبا الأمة التركية في ذلك الوقت المظلم القوة للقتال ضد القوة الطاغية لليونانيين المدعومين بكل موارد ومصادر الدعم من الحلفاء.

وضع سيد أحمد كل ثقله الروحي في خدمة القضية التركية، فكان ينتقل في أرجاء الأناضول مناشداً مسلمي تركيا دعم الغازي «المدافع عن

الإسلام» مصطفى كمال. كانت جهوده ووزن اسمه إضافة كبيرة أدت إلى نجاح الحركة الكمالية بين فلاحي الأناضول المسلمين البسطاء الذين لم تكن تعني لهم الشعارات القومية أي شيء بقدر ما كان يعني لهم الإسلام كل شيء حتى التضحية بأرواحهم في سبيله.

ومرة أخرى يرتكب «السنوسي الكبير» خطأ جديداً في حكمه على الأمور ـ وبالتالي خطأ قراراته ـ لا فيما يخص الشعب التركي المسلم الذي قاده حماسه الديني إلى تحقيق النصر، بل فيما يخص نوايا قائدهم الذي بمجرد أن تحقق له النصر، كشف عن هدف رئيسي يختلف عن الأهداف التي ترك شعبه يتوقعها. فبدلاً من أن يجعل الإسلام منطلقاً لرغبته في التغيير، تخلى أتاتورك عن الدين الإسلامي الذي أعلن أنه غير ضروري. كان بإمكانه أن يوظف حماس شعبه الديني لإنجاز التقدم دون أن يعزله عن كل ما يشكل ثقافته الروحية ـ الإسلامية وجعل منه أمة عظيمة.

بعدم رضا مرير عن إصلاحات أتاتورك المعادية للإسلام، انسحب سيد أحمد من كل الأنشطة السياسية نهائياً في تركيا. وغادرها أخيراً عام ١٩٢٣ إلى دمشق. ومن هناك، بالرغم من معارضته لسياسات أتاتورك الداخلية، حاول أن يخدم قضية وحدة المسلمين بإغراء سوريا بالاتحاد مع تركيا. وراقبت حكومة الانتداب الفرنسية على سوريا ما يفعله بعدم ارتياح، وبنهاية عام ١٩٢٤، عرف أصدقاؤه أن القبض عليه من السلطات الفرنسية أصبح وشيكاً، فهرب بسيارة من دمشق عبر صحراء سوريا حتى مشارف نجد؛ ومنها وصل إلى مكة، واستقبله بترحاب الملك ابن سعود.

[٢]

سألت الزواوي: «كيف حال المجاهدين يا سيدي محمد؟» سألته لأني لم أكن أعرف شيئاً عن أحوال برقة منذ عام.

أظلم وجه سيدي محمد الزواوي المستدير ذو اللحية البيضاء وقال: «الأنباء ليست جيدة يا بني. انتهى القتال من شهور. لقد انكسر المجاهدون؛ أطلقوا آخر رصاصة. لا توجد إلا رحمة الله تحمي شعبنا التعس من انتقام المحتلين...».

سألته: و«سيد إدريس؟».

أجابني وهو يتنهد: «سيد إدريس! سيد إدريس ما زال بمصر، ينتظر لا حول له ولا قوة ـ ينتظر ماذا؟ إنه رجل جيد. باركه الله، إلا أنه ليس مقاتلاً. إنه يحيا مع كتبه، السيف غير ثابت في يده ولا يناسبها...».

قلت: «ولكن عمر المختار ـ بالتأكيد لم يستسلم للأعداء؟ هل فرّ إلى مصر؟».

توقف سيدي محمد عن السير والتفت إليّ محملقاً في دهشة: «عمر! إنك حتى لم تعرف هذا؟».

سألته: «أعرف ماذا؟».

قال برقة: «يا بني، سيد عمر يرحمه الله، مات من عام».

مات عمر المختار...؟ أسد برقة، الذي لم تعقه سنواته السبعين عن القتال من أجل حرية بلده: مات... لقد كان على مدى عشرة أعوام كئيبة روحاً ورمزاً لشعبه للمقاومة ضد هدف ميئس ـ ضد القوات الإيطالية التي تفوقهم عدداً بعشر مرات ومسلحين بأحدث الأسلحة، من

سيارات مصفحة، إلى طائرات حربية ومدفعية ـ بينما لا يملك عمر والمجاهدون نصف الجائعين إلا بنادق وبعض خيل يستخدمونه في شن هجمات فدائية في بلدهم التي تحولت إلى معتقل كبير. . .

لم أصدق أن ذلك كان صوتي وأنا أقول له: «على مدى العام ونصف الأخيرين منذ أن عدت من برقة كنت أعرف أنه هو ورجاله ميتين. كم حاولت حينها بإقناعه بالانسحاب إلى مصر مع من تبقى معه من أحياء من المجاهدين ليحتفظ بحياته من أجل شعبه. . وكان بكل هدوء يرفض محاولات إقناعه، وهو يوقن أن الموت ولا شيء غير الموت ينتظره في طبرق: والآن، بعد مائة معركة، حل الموت الذي طال توقعه. . . ولكن قل لي. . . متى سقط؟».

هز محمد الزواوي رأسه في أسى، كنا حينها نخرج من شارع السوق الضيق إلى ميدان المناخة الواسع المظلم، وقال:

«لم يسقط في معركة. لقد جرح ووقع أسيراً، ثم قتله الإيطاليون. . . شنقوه مثلما يشنق أي لص عادي. . .».

تعجبت متسائلاً: «وكيف جرأوا على ذلك؟ لا يجرؤ جراتسياني ذاته أن يقوم بذلك العمل الهمجي».

أجاب بابتسامة مريرة: «ولكنه فعل، كان الجنرال جراتسياني ذاته هو من أمر بشنق عمر المختار. كان سيدي عمر ورجاله في عمق منطقة يسيطر عليها الإيطاليون، كان في تلك المنطقة قبر سيدي رافع من الصحابة، فذهبوا لزيارة قبره والترحم عليه، وعلم الإيطاليون بوجوده وحاصروا الوادي بقوات كبيرة. لم يكن هناك أي طريق للهرب، ودافع سيدي عمر هو والمجاهدون عن أنفسهم حتى لم يبق إلا هو واثنان من

المجاهدين. وفي النهاية أصابت جواده رصاصة وسقط من على صهوته سقطة شديدة قاسية، إلا أن الأسد العجوز استمر يطلق رصاص بندقيته حتى أصابته طلقة في يده؛ فاستمر في إطلاق النار بيده الأخرى حتى نفذت ذخيرته، فأسروه وكبلوه وساقوه إلى سولوق. وهناك مثل أمام الجنرال جراتسياني الذي سأله: «ما قولك لو أن الحكومة الإيطالية بعطف منها ورحمة دعتك تعيش، هل تعد أن تعيش ما تبقى لك من عمر في هدوء وسلام؟

إلا أن سيدي عمر أجابه: لن أتوقف عن حربكم حتى تغادروا بلدي، أو تغادر روحي بدني. وأقسم لك بالله الذي يعلم ما تخفي الصدور لو لم تكن يداي مقيدتين في هذه اللحظة لضربتك بيدي الخاليتين وأنا عجوز ومصاب كما أنا... وضحك الجنرال جراتسياني وأصدر أمره بشنقه في ساحة سوق بلدة سولوق؛ وشنقوه. ثم ساقوا آلافاً من المسلمين بالقوة رجالاً ونساءً من معسكرات التجميع التي كانوا بها وأجبروهم على مشاهدة قائدهم وهو معلق في حبل المشنقة»[١].

[٣]

كانت يدي ما زالت بيد سيدي محمد الزواوي ونحن نقترب من الزاوية السنوسية. كان الظلام مخيماً على الميدان الواسع، وابتعدنا عن ضوضاء السوق الذي أصبح خلفنا، لم نكن نسمع إلا صوت الرمال المنسحقة تحت صنادلنا. كانت إبل نقل البضائع باركة في مجموعات متفرقة ونرى أشباحها في الظلام، ومنازل بعيدة في الطرف البعيد من

(١) وقع هذا العمل «الفروسي» الإيطالي في ١٦ سبتمبر عام ١٩٣١.

الميدان تبدو بغير وضوح أمام خلفية من سماء ملبدة بالغيم. ذكرتني هيئة البيوت بحافة غابة بعيدة ـ كانت مثل غابات أشجار الصنوبر في هضبة طبرق حيث التقيت للمرة الأولى والأخيرة بسيدي عمر المختار، وراحت ذكرى تلك الرحلة التي لم تثمر شيئاً تتراكم داخلي برائحتها المأسوية من ظلام ومخاطر وموت، ورأيت بين سيل الذكريات وجه سيدي عمر المكفهر وهو ينحني على لهب نار صغيرة، وأتذكر صوته الأجش: «لا بد أن نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت. . . . لا يوجد خيار آخر. . .».

* * *

كانت مهمة غريبة تلك التي ساقتني إلى طبرق في آخر يناير عام ١٩٣١ قبل المهمة ببضعة شهور ـ في خريف عام ١٩٣٠ على وجه الدقة ـ وصل السنوسي الكبير إلى المدينة. قضيت ساعات معه بصحبة محمد الزواوي، نناقش الوضع الميؤوس منه للمجاهدين الذين كانوا يناضلون في برقة تحت قيادة عمر المختار. تبين أنهم إن لم يتلقوا مساعدة عاجلة وفعالة من خارج ليبيا، لن يتمكنوا من الصمود.

كان الموقف إجمالاً في برقة كما يلي: كانت كل المدن الساحلية، وبعض المراكز شمال الجبل الأخضر تحت سيطرة الإيطاليين، وكانوا يسيرون دوريات بين تلك المراكز مكونة من عربات مصفحة وأعداد كبيرة من الخيالة، وأغلبهم من الجنود الأريتريين، وتدعمهم أسراب طائرات مقاتلة تشن الغارات على مناطق المجاهدين. لم يكن البدو (وهم الكتلة الرئيسية من مجاهدي عمر المختار) يتحركون من أي مكان دون أن يتم رصد تحركهم فوراً وتهاجمهم الطائرات من الجو. حدث

كثيراً أن طائرات الاستطلاع كانت ترصد وجود تجمع للقبائل وتبلغ أقرب نقطة حصينة باللاسلكي عن أماكن تواجد البدو، في الوقت الذي تمنعهم الطائرات من التفرق بمدافعها الرشاشة حتى تصل المدرعات، وتسير مباشرة باتجاه الخيام بمن فيها من بدو، وتقتل بلا تمييز كل ما يمكن قتله من رجال ونساء وأطفال وإبل وماشية، ومن يبقى على قيد الحياة كان يساق إلى الشمال.إلى معسكرات تجميع هائلة محاطة بأسوار شائكة أقامها الإيطاليون على الساحل.

في ذلك الوقت، بالقرب من نهاية عام ١٩٣٠، كانوا قد ساقوا إلى تلك المعسكرات حوالي ثمانين ألف بدوي ومئات الآلاف من الإبل والماشية والأغنام، ولا يوجد بتلك المعسكرات ما يكفي لإطعام ربع هذا العدد؛ فراح الموت من المجاعة يحصد أرواحهم بشكل مخيف. عدا ذلك كان الإيطاليون يقيمون سوراً عازلاً من الأسلاك الشائكة يفصل ليبيا عن مصر يمتد من الساحل حتى واحة جغبوب لمنع المجاهدين من الحصول على إمدادات من مصر. كانت قبيلة المغاربة تقاتل في شراسة واستبسال تحت زعامة قائد «الأطاوش» ذراع عمر المختار الأيمن، في غرب منطقة الساحل من طبرق، في حين كان الإيطاليون قد اكتسحوا مناطق باقي القبائل بتفوقهم في العدد والتسليح. وفي عمق الجنوب كانت قبيلة زواوية تحت زعامة أبو كريم البالغ من العمر تسعين عاماً ما تزال تقاوم في يأس بعد أن أزاحهم الإيطاليون عن موطنهم في واحة جالو. أما في الوسط، فكان الجوع والأمراض يحصدان البدو حصداً.

لم تتجاوز القوات التي يوظفها عمر المختار في أي وقت الألف رجل، لم يكن ذلك لنقص في الرجال، بل لأن نمط حرب الإغارات

المفاجئة الذي كان عمر المختار يقوم به يتطلب سرعة الحركة لمجموعات صغيرة ضاربة تظهر فجأة من حيث لا يشعر بها أحد لتهاجم قافلة إيطالية متحركة أو نقطة ثابتة حصينة لتستولي منها على السلاح، وتختفي فجأة كما ظهرت فجأة في غابات أشجار الصنوبر أو في وديان خفية بين جبال منطقة طبرق. لم يكن من الممكن لتلك العصابات صغيرة العدد مهما كانت شجاعتها وإصرارها على الشهادة أن تحقق نصراً حاسماً على عدو يمتلك إمدادات ومصادر سلاح غير محدودة من رجال وعتاد. كان السؤال المطروح هو كيف ندعم المجاهدين لتمكينهم ليس فقط من إنزال خسائر بالغزاة، بل لاسترداد المواقع التي تمركز فيها العدو واحتلها، ثم التمسك بتلك المواقع عند أي هجوم مضاد لاستردادها.

كان دعم المجاهدين السنوسيين يعتمد على عدة عناصر: تدفق مستمر لإمدادات الغذاء من مصر، حيث يعاني المجاهدون من نقص الغذاء معاناة شديدة؛ وأسلحة قادرة على الصمود أمام الطائرات المغيرة والعربات المدرعة ـ كانوا يحتاجون بنادق مضادة للمدرعات، ومدافع رشاشة ثقيلة، وأفراد مدربين تدريباً جيداً وقادرين على استخدام تلك الأسلحة وتدريب المجاهدين على استعمالها؛ وأخيراً، إيجاد نظام اتصال لاسلكي بين مختلف مجموعات المجاهدين في هضبة طبرق وبين مسؤولي الإمداد والتموين من خلال الحدود المصرية.

رحنا نجتمع على مدى أسبوع تقريباً كل ليلة، أنا، والسنوسي الكبير سيدي محمد، لمناقشة ما يمكن عمله. كان رأي سيدي محمد أن الإمدادات غير المنتظمة للمجاهدين لن تجدي. كان يؤمن أن واحة

الكفرة، في جنوب صحراء ليبيا، والتي كانت مركز قيادة الحركة السنوسية في أيام سيدي أحمد لا بد أن تصبح من جديد النقطة المركزية لقيادة كل أعمال المقاومة الحربية القادمة؛ لأن الكفرة كانت ما تزال بعيدة عن أيدي الإيطاليين. وقد تكون أفضل لقوافل الإمداد (على الرغم من طول الطريق وصعوبته) في الانتقال ما بينها وبين واحتي الفرافرة والبحرية في مصر، وبذلك يكون هناك ضمان أفضل لوصول الإمدادات بطريقة منتظمة، كما أن الكفرة من الممكن أن تكون مكاناً صالحاً لإيواء آلاف البدو الذين يلجأون إلى مصر ويحيون في معسكرات بها، وبذلك يتوفر مصدر للمقاتلين لتدريبهم على أعمال الحرب تحت قيادة عمر المختار في الشمال. فإذا تم تحصين الكفرة فإنها من الممكن أن تصمد أمام هجوم الطائرات المغيرة ويصبح القصف بالقنابل من ارتفاعات عالية غير مؤثر في تجمعات حصينة منتشرة في منطقة واسعة.

وقال السنوسي الكبير: إنه إذا كان ممكناً إعادة تنظيم خطط النضال فإنه سيعود بنفسه إلى الكفرة لقيادة العمليات الجديدة من هناك. أما أنا فقد أصررت أنه لكي تنجح مثل تلك الخطة فإنه من المحتم على سيد أحمد أن يعيد تأسيس علاقات جيدة مع البريطانيين الذين هاجمهم بلا داع عام ١٩١٥ . وكان تحسين العلاقات لا يبدو مستحيلاً، فالبريطانيون لم يكونوا سعداء بنوايا إيطاليا التوسعية. خاصة بعد أن أعلن «موسوليني» للعالم أجمع نواياه في إعادة «إحياء الإمبراطورية الرومانية» على سواحل البحر المتوسط، وكانت عينه على مصر بوجه خاص.

كان اهتمامي بالحركة السنوسية لا يعود إلى إعجاب شخصي ببطولتهم الفائقة وشجاعتهم في قضيتهم العادلة؛ ما كان يهمني أكثر من

ذلك هو الأثر الذي سيتركه الانتصار السنوسي إن تحقق على العالم العربي كله. ومثلي مثل كل المسلمين، كان ابن سعود محط آمالنا كقائد حتمي لحركة إحياء الأمة الإسلامية، ثم ثبت لي أنها كانت آمالاً وهمية، ولم أجد في العالم الإسلامي كله حركة أصيلة تتبنى تحقيق المجتمع الإسلامي مثلما وجدت في الحركة السنوسية، وكانت الحركة السنوسية في ذلك الوقت تحارب معركة الخندق الأخير من أجل البقاء.

ولمعرفة سيد أحمد بمشاعري تجاه القضية السنوسية، استدار ونظر نظرة مباشرة إلى عيني وقال:

«هل تذهب إلى طبرق باسمنا وتتعرف بنفسك على ما يجب عمله لمساعدة المجاهدين؟ ربما كان بإمكانك أن ترى الأشياء أوضح مما تراه عيوننا».

نظرت إليه وهززت رأسي بالموافقة، دون كلمة، بالرغم من يقيني بثقته بي، إلا أن ما طلبه مني جعلني أحبس أنفاسي. كان الإقدام على مغامرة بهذه الجسامة يجعلني لا أجد الكلمات المناسبة؛ ما أثارني هو احتمال أن أقوم بشيء للحركة التي ضحى رجال كثيرون بأنفسهم في سبيلها.

مد سيد أحمد يده إلى رف فوق رأسه وتناول مصحفاً ملفوفاً في قماش حريري. وضع كتاب الله على ركبتيه، وتناول كفي الأيمن بين كفيه ووضعها على القرآن، وقال: «أقسم يا محمد، بالله الذي يعلم ما تخفي الصدور، أنك ستظل مخلصاً للمجاهدين. . .».

أقسمت؛ ولم أكن على يقين وإيمان بقسم أقسمته في حياتي مثلما كنت على يقين من التزامي المطلق بهذا القسم.

* * *

كانت المهمة التي أسندها إلي سيد أحمد تتطلب سرية مطلقة؛ ولأن علاقتي بالسنوسي الكبير كانت معروفة، وتحت بصر البعثات الأجنبية في جدة، لم يكن من المستحب أن أسافر إلى مصر بشكل واضح وظاهر وأتعرض لاحتمال مراقبتي وإجهاض مهمتي. كان كشفي لخفايا استمرار تمرد فيصل الداويش والجهات التي تمول تمرده لا يدعم موقفي مع البريطانيين، ولا بد أنهم سيراقبونني بكل صرامة لو علموا بوصولي إلى مصر. لذلك اتفقنا أن أذهب إلى مصر خفية دون إن يشعر بي أحد. قررنا أن أعبر البحر الأحمر في أحد المراكب الشراعية العربية وأنزل خفية على أحد السواحل المهجورة جنوب مصر دون أوراق أو جواز سفر أو تأشيرة دخول. وفي مصر أتنقل في هيئة رجل حجازي، وكان بمصر كثير من أهل مكة والمدينة الذين يذهبون إليها لأغراض التجارة أو البحث عمن ينوون أداء فريضة الحج، وقد كان ذلك من المشاهد المألوفة في ريف مصر ومدنها ـ ولأنني أتحدث اللهجة الحجازية بإتقان مطلق، كان بإمكاني أن أنتقل بحرية في مصر بصفتي أحد أبناء المدينتين المقدستين.

تطلب الإعداد للسفر بضعة أسابيع، وشمل تبادل الرسائل سراً مع سيدي عمر المختار في طبرق ومع المراكز السنوسية في مصر، وبدأت السفر في الأسبوع الأول من يناير عام ١٩٣١، بصحبة زيد من ميناء ينبع بالحجاز من مكان غير مطروق على الشاطئ. اخترنا ليلة بلا قمر، وكان سيرنا على ممشى غير ممهد بصنادلنا غير يسير ومضنٍ، فقد تعثرت وسقطت على الأرض وفي سقطتي ضرب مقبض المسدس الذي كنت أخفيه تحت قفطاني الحجازي ضلوعي، وأحيا بذلك في ذهني جوانب خطورة مهمتي التي كنت مقدماً عليها.

ها أنذا أمضي إلى موعد مع ربان مركب عليه أن يأخذني في مركبه عبر البحر الأحمر وينزلني خفية على شواطئ مصر، لم آخذ معي أي وثائق تفضح شخصيتي، فإذا قبض علي في مصر، لن يكون من السهل أن أثبت لهم من أنا. ورغم ذلك فإن خطر البقاء عدة أسابيع في السجون المصرية لا يقارن بالمخاطر الأخرى التي قد أتعرض لها. كان عليّ أن أشق طريقي عبر كل الصحراء الغربية لمصر، متجنباً عيون الجواسيس الذين يعملون لصالح إيطاليا لرصد المتسللين عبر الصحراء الغربية المتاخمة لليبيا، وقد تصادفنا دوريات من العربات المصفحة المجنزرة في أعماق بلد لا يتحدث فيها إلا السلاح.

لماذا أفعل ذلك؟

على الرغم من أن اقتحام المخاطر لم يكن جديداً عليّ، فإنني لم أسع إلى المخاطر لمجرد الإثارة. وحين كنت أقتحم المخاطر فإن ذلك كان دائماً استجابة لاحتياج ملح، يرتبط بوعي أو بلا وعي بنمط حياتي كما اخترته. فكيف ينطبق ذلك على المهمة التي أنا بسبيلي إليها؟ هل هناك أي احتمال أن ما أفعله قد يحول دفة الأمور لصالح المجاهدين؟ أردت أن أصدق ذلك، إلا أنني كنت أوقن في أعماقي أنني خرجت إلى مهمة لا طائل من ورائها. إذن لماذا بحق الله أغامر بحياتي كما لم أغامر بها من قبل ودون أمل من وراء تلك المغامرة؟

إلا أن الإجابة كانت حاضرة حتى قبل أن يكتمل السؤال في لا وعيي.

فحين اعتنقت الإسلام وقبلته كمنهج لحياتي، اعتقدت أن كل تساؤلاتي وسعيي للبحث قد رست على نهاية. ولكن تدريجياً، وببطء،

بدأت أعي أن مجرد إسلامي لم يكن النهاية، لقد وجدت أن قبولي لمنهج الحياة، كان يعني، لي على الأقل، الارتباط الكامل بمن لهم إيمانك نفسه - لا بالإحساس والمشاعر فقط، ولكن بالعمل على ما فيه صالح المجتمع الذي أنتمي إلى إيمانه. بالنسبة لي، كان الإسلام طريقاً؛ إلا أنه لم يكن نهاية - وكان مجاهدو عمر المختار يقاتلون بيأس ويبذلون دماءهم من أجل الحرية ليسيروا على الطريق نفسه الذي اخترته، طريق الإسلام، كما فعل صحابة الرسول من ثلاثة عشر قرناً، وأن أكون نافعاً لهم مهما يكن يقيني من عدم جدوى المهمة ونتائجها، كان يبدو لي فريضة كالصلاة...

ها نحن وصلنا إلى الشاطئ، كان هناك قارب بمجدافين تؤرجحه الأمواج راسياً على حصى الشاطئ بانتظارنا لينقلنا إلى المركب الشراعي الذي كان ينتظرنا في عمق المياه بعيداً في الظلام، وحين كان ينهض الرجل الممسك بالمجدافين ونحن نقترب، قلت لزيد:

«أخي زيد، هل تعرف أننا ذاهبون إلى مغامرة أخطر كثيراً من المهمة التي قمنا بها لكشف سر استمرار تمرد فيصل الداويش والإخوان؟ ألا تتطلع إلى الحياة الآمنة بالمدينة ولقاء الأصدقاء؟».

أجاب زيد: «طريقك طريقي يا عمي، ألم تقل لي بنفسك أن المياه الراكدة تتعطن؟ هيا بنا - حتى تجري المياه وتظل نقية...».

كان المركب واحداً من تلك المراكب الشراعية الكبيرة التي تسمى «دهو» ويمضي كثير منها بين السواحل والمواني العربية، مشيدة بأجمعها من الخشب، وتنبعث منها رائحة الأسماك وأعشاب البحر، بمؤخرة عالية مرتفعة عن سطح الماء، وصاريتين على الطراز اللاتيني، وبينهما

قمرة واسعة واطئة السقف. كان ربان المركب رجلاً عجوزاً من مسقط، له عينان ضيقتان مثل خرزتين تطلان من تحت عمامة هائلة ملونة، نظراته تشي بكثرة المخاطر التي واجهها في حياته والمغامرات الكثيرة التي صادفها؛ ولم يبد أن خنجره الكبير المعقوف ذي المقبض الفضي المثبت في حزامه قد وضع لمجرد الزينة.

قال ونحن نصعد إلى سطح المركب: «مرحباً، يا مرحباً يا أصدقائي، هذه ساعة سعد».

تساءلت في عقلي، كم مرة من قبل رحب بالحجاج الفقراء الذين ينقلهم من مصر دون تفكير في راحتهم وينزلهم على سواحل الحجاز حتى يتجنبوا الأعباء المالية الثقيلة التي تفرضها السلطات السعودية على من يؤدون فريضة الحج لله؟ وكم مرة وجه عبارات الترحيب ذاتها إلى تجار الرقيق الذين يخالفون الشريعة الإسلامية ويأسرون الأثيوبيين الفقراء التعساء لبيعهم في أسواق الرقيق في اليمن؟

عزيت نفسي عن ذلك بأن الخبرات التي اكتسبها ريس المركب، مهما كانت أسبابها ودوافعها قد تكون مفيدة لنا، فهو يعرف طريقه في البحر الأحمر بخبرة لا توجد إلا لدى قليل من البحارة، ويمكننا الاعتماد عليه في إنزالنا بمكان مأمون على سواحل مصر.

* * *

بعد أربع ليال قضيناها على ظهر الدهو، نزلنا من جديد إلى قارب المجاديف ونزلنا بموضع على الساحل المصري شمال ميناء القصير جنوب مصر. رفض الريس أن يقبل أجراً؛ لأنه كما قال مكشراً «قبض ثمن النقل من رؤسائه»، و«الله معكم».

كما توقعت، لم يكن من الصعب أن نتخفى في القصير، التي اعتاد أهلها رؤية أهل الحجاز بملابسهم المميزة. في الصباح التالي ركبنا سيارة عامة متهالكة متوجهة إلى أسيوط على نهر النيل، وانحشرت بين سيدة بدينة جداً كانت تحمل على حجرها قفصاً مليئاً بالدجاج ورجل فلاح عجوز، بمجرد أن رآنا راح على الفور يروي ذكريات حجه الذي أداه من عشرة أعوام، ومن القصير بدأنا أنا وزيد أول خطوات رحلتنا الإفريقية.

كنت أعتقد على الدوام أن المتخفي يشعر أنه محط الأنظار المتشككة من جانب كل من يرونه، وأن الناس سرعان ما تكشف حقيقته، إلا أنني لم أشعر بذلك، فخلال السنين التي قضيتها بالجزيرة العربية ذبت في حياة أهلها حتى صرت بالفعل واحداً منهم، وبرغم أنني لم أشارك أهل مكة ولا المدينة شؤون التجارة، إلا أنني لم أشعر بافتعال وأنا أقوم بدور متعهد الحجاج في مناقشات مطولة مع ركاب آخرين عن فضائل الحج، كما تقمص زيد الدور نفسه بانغماس كامل، وقضينا الساعات الأولى من رحلتنا في مناقشات ممتعة.

من أسيوط ركبنا القطار حتى مدينة صغيرة هي بني سويف، وذهبنا مباشرة إلى منزل حلقة اتصالنا بالسنوسيين، وهو إسماعيل الدهني، وهو رجل قصير بدين ذو ملامح مرحة، يتحدث لهجة أهل صعيد مصر. كان تاجر ملابس متوسط الحال، ولم يكن من المشهورين في المدينة، إلا أن ولاءه للحركة السنوسية كان شديداً وخاصة لسيد أحمد. وبالرغم من وصولنا إلى بيته في ساعة متأخرة، إلا أنه أيقظ الخادم ليعد لنا وجبة طعام، وحين كنا بانتظار الطعام، أعاد علينا سرد الترتيبات التي أعدها لرحلتنا.

بمجرد أن تلقى رسالة سيد أحمد، اتصل بشخصية معروفة في العائلة المالكة في مصر من المؤيدين للحركة السنوسية، وتحمس ذلك الأمير جداً للمهمة التي أقوم بها؛ وأمر بوضع كل الأموال اللازمة تحت تصرفي، وإعداد الإبل واثنين من الأدلاء الأكفاء لقيادتنا حتى طبرق. في تلك اللحظة، أخبرنا مضيفنا أنهم بانتظارنا بأحد بساتين النخيل خارج مدينة بني سويف.

وتخلصت أنا وزيد من الزي الحجازي، الذي قد يثير الشكوك في الصحراء الغربية ولبسنا سراويل قطنية وقمصاناً على نمط ما يلبسه أهل شمال إفريقيا وبرنساً صوفياً، وكذلك الذي يرتدونه غرب مصر وشمال ليبيا. وأحضر لنا من طابق تحت الأرض بمنزله مسدسين من صناعة إيطالية: «حتى يكون من السهل علينا الحصول على ذخيرة لهما من التي بحوزة المجاهدين». في الليلة التالية قادنا مضيفنا إلى خارج المدينة. كان دليلانا من قبائل بدو أولاد علي الذين يعيشون غرب مصر وشمال ليبيا. وكانت الحركة السنوسية تضم كثيراً منهم؛ كان أولهما واسمه عبد الله، شديد الحيوية وشارك في العام السابق في معارك منطقة طبرق بين المجاهدين والجيش الإيطالي، وزودنا بمعلومات كثيرة عما يمكن أن يواجهنا هناك. والآخر، الذي نسيت اسمه، كان نحيلاً معتل المزاج نادراً ما يتحدث إلا أنه كان من الثقاة. كان معهم أربعة جمال بدا أنها قوية وسريعة من فصائل جمال البشارية وتم اختيارها بعناية، وعليها سروج لا تختلف عن تلك التي ألفتها في الجزيرة العربية. ولما كان علينا أن نتحرك طول الوقت وبسرعة، لم يكن هناك وقت لإعداد

وجبات مطهية؛ لذلك كان تموييننا بسيطاً: جوال من التمر، وجوال أصغر من البسكويت المحلى المخبوز برقائق تمر، وقرب ماء على ثلاثة من الجمال.

قبل منتصف الليل بقليل، احتضننا إسماعيل الدهبي مودعاً وهو يدعو الله أن يشملنا برعايته، كان متأثراً بعمق. وبقيادة عبد الله غادرنا بستان النخيل، وسرعان ما كنا تحت ضوء قمر ساطع، نجري بالجمال في إيقاع سريع فوق سهل صحراوي حصوي باتجاه الشمال الغربي.

ابتعدنا عن طريق القوافل المعتادة حتى لا نلتقي بدوريات حرس الحدود المصرية، إلا أن السير إلى الشمال لم يكن يشكل خطراً.

قطعنا في الليلة الأولى حوالي ثلاثين ميلاً، وتوقفنا في النهاية بين تجمعات لأشجار الطرفاء والأعشاب، في الليالي التالية قطعنا الطريق بمعدلات أكبر، وفي فجر اليوم الرابع كنا قد وصلنا إلى حافة المنخفض الكبير الذي توجد به الواحات البحرية.

توارينا خلف صخور ضخمة على حافة المنخفض ـ كانت الواحات عبارة عن تجمعات سكنية متباعدة يُشكل كل تجمع إحدى القرى، كانت القرية الرئيسية هي قرية الباويطي ـ نزل عبد الله منحدراً من الحافة الصخرية إلى المنخفض الذي تنمو به أشجار النخيل بغزارة ليقابل حلقة الاتصال بالواحات المقيم بقرية الباويطي. كنا نعرف أنه لن يعود إلا بعد حلول الليل ولذلك تمددنا لننام في ظل الصخور العملاقة: راحة ممتعة بعد ليلة من الركوب الطويل في ليلة باردة، لم أتمكن من النوم نوماً عميقاً فقد شغلت ذهني أفكار كثيرة.

أعدت في ذهني مراحل خطتنا، بدا لي أنه لن يكون صعباً المحافظة

على طريق دائم ومنتظم بين بني سويف والواحات البحرية بقوافل يتم الإعداد لها بعناية، وعلى الرغم من أن مكتب مراقبة الحدود كان بقرية الباويطي (وكنا نرى مبانيه البيضاء ونحن على الحافة الصخرية التي تعلو المنخفض)، كما يمكن أن ننشئ محطة اتصال لاسلكية في إحدى تلك القرى المنعزلة جنوب الواحات البحرية. وأكد لي عبد الله ذلك بعد أن عاد هو والحلاق العجوز الذي كان حلقة اتصالنا بالباويطي. لم تكن الواحات البحرية تحت سيطرة محكمة ولا رقابة دقيقة، والأهم من ذلك أن كل أهل الواحات كانوا يؤيدون الحركة السنوسية.

بعد أربع ليال أخرى من السير المتواصل، عبر وديان حصوية، ثم عبر فوالق صخرية كثيرة، ثم كثبان رملية مسطحة؛ تجاوزنا واحات «سترا» غير المأهولة ببحيراتها المالحة التي يحيطها نبات البوص والنخيل الكثيف، ثم عبر قوس «آرف» بصخوره الجيرية المتعرجة الرائعة التكوينات والتي كان ضوء القمر يخلق منها أشباحاً مخيفة كأننا في العالم الآخر؛ وعند نهاية الليلة الخامسة، تبدت لنا أول ملامح واحة سيوة.

كان من أعز أمنياتي لزمن طويل أن أزور تلك الواحات النائية التي كان بها معبد آمون صاحب النبوءات الشهيرة في العالم القديم؛ ولم تتحقق رغبتي قبل ذلك. وها هي الآن تبدو أمامي على ضوء الفجر المتزايد: امتداد هائل لأشجار النخيل لا أرى نهايته يحيط تلاً مرتفعاً تقع عليه بيوت أهل الواحة. كانت البيوت تبدو كأنها مقامة في كهوف صخرية تنهض طابقاً فوق طابق على منحدرات التل وتصعد باتجاه مئذنة مخروطية تحتل أعلى التل. كان تجمعاً غريباً للمساكن مثل تلك التي

تراها في الأحلام... أمسكت بتلابيبي رغبة ملحة أن أطوف بنواحيها الغامضة وأن أتجول عبر شوارعها التي شهدت عصور الفراعنة وأن أشاهد حطام المعبد الذي استمع فيه «كروسوس» ملك ليديا إلى نبوة كهنة المعبد بموته، وعلم فيه الإسكندر الأكبر بأنه سيقهر العالم كله. ولكن بقي شغفي مرة أخرى دون تحقق، فبالرغم من قربها مني إلا أنها ستظل مغلقة دوني. مكان مثل هذا معزول عن العالم الخارجي يلاحظ فيه أي وجه غريب بمنتهى السهولة، وسيكون من الحماقة أن أفعل ذلك: كانت الواحة تكاد تقع على الحدود الليبية وبالتالي كانت تحت الرقابة الصارمة للإدارة الإيطالية عن طريق ناقلي الأخبار الذين تدفع لهم السلطات الإيطالية. أقنعت نفسي في أسى أنه ليس من نصيبي أن أزور سيوة هذه المرة، وصرفتها عن ذهني.

لففنا حول الواحة في نصف دائرة من جنوبها، ثم أنخنا الجمال في فج بين الصخور ينمو فيه نخيل بري. ودون أن يرتاح عبد الله، لأنه لم يكن لدينا النية للتوقف طويلاً في منطقة الحدود إلا للضرورة، ذهب للقاء حلقة الاتصال وطلب منه أن يتلقانا فور عبورنا الحدود. بعد بضع ساعات عاد ومعه دليلان آخران وأربعة جمال أخرى غير مستنفدة القوة. كان الدليلان من بدو برصه بالجبل الأخضر ومن رجال عمر المختار، وأرسلهم بنفسه ليقودانا عبر المفصل بين واحات جغبوب التي يحتلها الإيطاليون وواحات جالو، حتى هضبة طبرق، حيث كنت سألتقي بعمر المختار.

وذعنا عبد الله وصديقه اللذان استدارا عائدين إلى قريتهما بمصر؛ وبقيادة المجاهدين، خليل وعبد الرحمن، بدأنا رحلة الأسبوع في

صحراء بلا ماء تصعد بالتدريج حتى هضبة الجبل الأخضر. كانت أصعب رحلة صحراء عرفتها في حياتي. وبالرغم من عدم وجود مخاطر كبيرة من اكتشاف الدوريات الإيطالية لنا، إلا أننا لجأنا إلى الاختفاء والسكون نهاراً والسير ليلاً، وكانت ضرورة الابتعاد عن خط الآبار التي تفصلها مساحات شاسعة تجعل من الرحلة عذاباً مهلكاً ويحيلها إلى ما يشبه الكابوس. لم نتمكن إلا مرة واحدة من سقي جمالنا وإعادة ملء قِرَب مياهنا من بئر منعزلة نائية في وادي المرا؛ وأثبت ذلك قلة حيلتنا. وصلنا البئر متأخرين عما خططنا له، كان نور الفجر قد بدأ ينبلج حين كنا نسحب أول دلو لسقي الجمال، وعندما انتهينا كانت حافة الشمس قد بزغت فوق الأرض، وكان يفصلنا عن المنخفض الصخري الذي نوينا أن نختفي فيه نهاراً ساعتين من السير السريع بالجمال. ولكن بمجرد أن عاودنا السير سمعنا صوتاً مشؤوماً لمحرك طائرة يحطم صمت الصحراء، بعد دقائق كانت طائرة ذات محرك واحد تحوم فوقنا، راحت تنخفض في دوائر. لم يكن يوجد مكان للاختباء ولا للاحتماء فقفزنا من على ظهور الجمال وانتشرنا متفرقين، في تلك اللحظة فتح الطيار نيران رشاشاته، صحت: «انبطحوا، انبطحوا على الأرض، ولا تتحركوا، تظاهروا بالموت». إلا أن خليل الذي اعتاد على تلك المواجهات لم «يتظاهر بالموت»، فقد تمدد على ظهره ورأسه على حجر، وثبَّت البندقية على ركبته وبدأ في إطلاق النار على الطائرة الهابطة في اتجاهنا. . لم يكن يطلق النار عشوائياً، بل كان يصوب قبل كل طلقة، كما لو كان في تدريب على الرماية. كانت بطولة فائقة من خليل، اتجهت إليه الطائرة مباشرة في هبوط انقضاضي، وأثارت زوبعة من الرمال المنطلق منها، ولا بد أن إحدى طلقات خليل قد أصابت

الطائرة، فقد ارتجت فجأة ثم وجهت مقدمتها إلى السماء، وطارت على ارتفاع عال. كان من الواضح أن قائدها قد قرر أن أربعة رجال لا يمكن أن يكونوا هدفاً يستحق المخاطرة بالطائرة. حام مرة أو مرتين فوقنا، ثم اختفى في اتجاه الشرق، في اتجاه واحة جغبوب.

قال خليل بهدوء ونحن نعيد تجمعنا: «الإيطاليون أولاد كلب جبناء، يعشقون قتل البشر، ولكن لا يحبون أن تتعرض بشرتهم لخدش».

لم يصب أحد منا بأذى، إلا أن جمل عبد الرحمن مات برصاصة. نقلنا قِرَب الماء التي كانت معلقة بالجمل الميت إلى جمل زيد، وركب عبد الرحمن رديفاً لزيد.

بعد ذلك بثلاث ليال وصلنا إلى غابات أشجار الصنوبر بالجبل الأخضر وأبدلنا ونحن نشعر بامتنان جمالنا المجهدة بخيول كانت بانتظارنا في منطقة نائية في حراسة مجموعة من المجاهدين، من تلك اللحظة أصبحت الصحراء خلفنا؛ وسرنا عبر هضبة متدرجة في الارتفاع يقطعها عدد لا نهائي من مجاري المياه الجافة ومليئة بأشجار الصنوبر المتناثرة التي تتجمع في بعض المناطق بكثافة لا يمكن اختراقها. تلك المنطقة البرية التي لا مسالك فيها والواقعة في قلب المنطقة التي تحتلها إيطاليا هي أرض الصيد بالنسبة للمجاهدين.

* * *

حملتنا أربع ليال أخرى من السير إلى «وادي التعبان» ـ وكان اسماً على مسمى، حيث وصلناه ونحن في غاية التعب والإجهاد، كنا سنلتقي في ذلك الوادي بعمر المختار، كان مكاناً خفياً في منطقة أشجار كثيفة،

ربطنا خيولنا إلى نتوء صخري، وانتظرنا وصول أسد الجبل الأخضر. كانت ليلة باردة لم تظهر في سمائها نجوم ويسودها صمت عميق.

كانت أمامنا بضع ساعات قبل وصول سيدي عمر المختار؛ ولأن الليلة كانت مظلمة ظلاماً دامساً، رأى البدويان من قبائل برصة أن نتخلص من ماء القِرَب ونُعيد ملأها بماء جديد نقي من بئر «بوصفية» الواقع على بُعد عدة أميال إلى الشرق، وكانت توجد نقطة إيطالية حصينة تبعد نصف ميل فقط من بئر «بوصفية».

قال خليل: «لن يجازف أولئك الملاعين بترك تحصيناتهم في ليلة مظلمة». وهكذا، انطلق خليل بصحبة زيد على ظهور الخيل ومعهما قربتا ماء فارغتان بعد أن لفا ثياباً قديمة على حوافر الجياد حتى لا يصدر عنها صوت على الأرض الصخرية. اختفيا في الظلام، بينما تلاصقنا أنا وعبد الرحمن طلباً للدفء بجوار صخرة واطئة. كان من الخطر الشديد إشعال أي نار.

بعد ساعة أو نحو ذلك، طقطقت بعض أفرع أشجار الصنوبر، وصدر صوت خفيف لصندل على الصخور. تيقظ صديقي في الحال ووقف منتبهاً للحظة وبندقيته بين يديه وتقدم في الظلام، وصدر صوت مثل صوت ابن آوى من بين الأحراش الكثيفة، كور عبد الرحمن كفيه حول فمه بصوت مماثل فظهر أمامنا شبحان لرجلين كانا على أقدامهما ويحملان بندقيتين. حين اقتربا قال أحدهما: «طريق الله»، ورد عبد الرحمن: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وكان من الواضح أنها كلمة السر المتفق عليها.

كان عبد الرحمن يعرف أحد القادمين، لأنه أمسك بيديه الاثنتين

معاً وهزهما في شوق، كان الاثنان يرتديان الجردة الليبية إلا أن ملابسهما كانت رثة ـ قدمني إليهما عبد الرحمن، وشد المجاهدان على يدي بحرارة وأنا أصافحهما. قال أحدهما:

«الله معك، سيدي عمر قادم».

وقفنا نتنصت في الظلام، بعد عشر دقائق أخرى طقطقت أشجار الصنوبر وظهرت أشباح ثلاثة رجال آخرين، ظهر كل واحد منهم من جهة مختلفة وبنادقهم في وضع استعداد، وحين تيقنوا من صحة شخصياتنا، انتشروا من جديد بين أشجار الصنوبر في اتجاهات مختلفة، كانت إجراءات وقائية للحفاظ على سلامة زعيمهم، ثم رأيته قادماً راكباً جواده وحوافره ملفوفة أيضاً بأقمشة قديمة وعلى كل جانب، يسير رجلان وآخران من خلفه، وحين وصل إلى الصخور التي كنا ننتظر عندها، ساعده أحد الرجال على الترجل من على ظهر جواده، لاحظت أنه يسير بصعوبة (عرفت بعد ذلك أنه أصيب في اشتباك مع العدو قبل عشرة أيام)، على ضوء القمر الذي بدأ في الظهور بدأت أراه بوضوح؛ كان رجلاً متوسط القامة، قوي البنية، تحيط وجهه لحية بيضاء قصيرة، وخطوط عميقة في ثنايا وجهه، كانت عيناه عميقتي المحجرين، ومن التغضنات التي حولهما يمكنك أن تخمن أنهما في ظروف مغايرة من الممكن أن ينفرجا في ضحك من القلب. أما في تلك اللحظة، فلم يكن بهما إلا ظلمة ومعاناة وشجاعة فائقة.

خطوت للأمام للقائه وأحسست بقبضته القوية.

قال: «مرحباً يا بني»، كانت عيناه وهو يقول ذلك تمسحاني بدقة واستحسان، كانت عينا رجل أصبحت المخاطر خبزه اليومي.

فَرِدَ أحد الرجال بطانية على الأرض جلس عليها سيدي عمر بثقل من إصابته. انحنى عبد الرحمن وقَبَّل يده، وبعد أن استأذنه، انشغل بإشعال نار صغيرة تحت الجانب المخفي للصخرة. وعلى الضوء الشاحب للنار الصغيرة راح سيدي عمر يقرأ رسالة سيدي أحمد التي أرسلها معي. قرأها بعناية، ثم طواها، ووضعها على رأسه للحظات - وهي علامة احترام وإخلاص لم أر مثيلاً لها في الجزيرة العربية - ثم استدار إليَّ مبتسماً، وقال:

«سيدي أحمد، أطال الله عمره، يقول عنك كلاماً طيباً. يقول إنك مستعد لمعاونتنا، ولكني لا أعلم من أين تأتي المساعدة ما عدا معونة الله، القادر، الكريم، لقد وصلنا إلى نهاية وقتنا».

قلت: «ولكن الخطة التي يعرضها سيد أحمد، ألا يمكن أن تشكل بداية جديدة؟ إذا كان من الممكن ترتيب إمدادات منتظمة لواحة الكفرة وتصبح قاعدة عمليات للأيام القادمة، ألا يمكن بذلك السيطرة على الإيطاليين.

لم أر في حياتي ابتسامة مرة كتلك الابتسامة التي لا أمل فيها على وجه عمر المختار ولا كلماته التي رد بها عليّ قائلاً: «الكفرة؟... ضاعت الكفرة. احتلها الإيطاليون من أسبوعين...».

أذهلتني تلك الأنباء. لقد رحنا أنا وسيد أحمد نضع الخطط على مدى الشهور الماضية، وكانت كلها تعتمد على أن تكون الكفرة مركز المقاومة المنيع. بضياع الكفرة لم يتبق تحت أيدي السنوسيين إلا الهضبة المعذبة للجبل الأخضر - لا شيء متاحاً أمام تضييق الخناق المتواصل الذي يقوم به الإيطاليون، ويضيع موقع بعد موقع، خنق بطيء مستمر، إلا أنه لا يتوقف....

سألت: «كيف سقطت الكفرة؟».

بإشارة واهية من يده أشار عمر المختار لأحد الرجال بالتقدم، وقال: «هذا الرجل يحكي لك كيف سقطت... إنه واحد من قلائل استطاعوا النجاة من الكفرة، ووصل بالأمس فقط».

جلس الرجل متربعاً أمامي وجذب أطراف برنسه البالي حول بدنه. تحدث ببطء دون ارتجاف في صوته، إلا أن وجهه النحيل كان ينقل علامات كل الرعب الذي شهده، قال: «جاء الإيطاليون إلى الكفرة في ثلاثة أرتال من السيارات المدرعة والمدفعية الثقيلة من ثلاثة اتجاهات مختلفة. وجاءت الطائرات على ارتفاع منخفض وقصفت المنازل والمساجد وبساتين النخيل. لم يكن بالواحة إلا بضع مئات من الرجال القادرين على حمل السلاح؛ وكان باقي السكان من النساء والأطفال والعجائز. دافعنا من بيت إلى بيت، إلا أنهم كانوا يفوقوننا كثيراً، ولم تبق إلا قرية الحواري التي تركوها. كانت بنادقنا عديمة الجدوى في مواجهة عرباتهم المصفحة، أرعبونا، قليل منا من استطاع الهرب. وهربت أنا إلى بستان نخيل، واختبأت بمكان غير ظاهر، وانتظرت فرصة أعبر فيها من بين قواتهم؛ طول الليل كنت أسمع صرخات النساء والجنود يغتصبونهن. في اليوم التالي أتت امرأة عجوز إلى مخبأي وأحضرت لي خبزاً وماءً، وقالت: إن الجنرال الإيطالي أحضر كل الأحياء وجمعهم أمام مقبرة سيدي محمد المهدي؛ ومزّق أمام أعينهم القرآن إلى مزق، وألقاها على الأرض وداس عليها بحذائه، وصاح:

«دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن، إذا استطاع»، ثم أمر بقطع أشجار النخيل وتدمير الآبار وحرق كتب مكتبة سيد أحمد. وفي اليوم

التالي أمر بأخذ الرجال الكبار وعلماء الدين في طائرة.. ثم قذفوهم منها من على ارتفاع كبير.. طوال الليلة الثانية كنت أسمع بكاء النساء وصراخهن وضحكات الجنود الإيطاليين وطلقات رصاصهم.. استطعت في النهاية أن أزحف إلى الصحراء مستتراً بالظلام ووجدت جملاً شارداً قدته مبتعداً عن الكفرة...».

حين انتهى الرجل من حكايته المرعبة، أدناني سيدي عمر منه بلطف ومال علي قائلاً: «هكذا يا بني، لقد اقتربنا كما ترى من نهاية وقتنا».

وكإجابة عن تساؤل بدا في عيني دون أن أقوله، قال: «نحن نقاتل لأننا لا بد أن نقاتل في سبيل ديننا وفي سبيل حريتنا حتى نجلي الغاصب أو نموت دون ذلك، ليس أمامنا اختيار آخر. إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد أرسلنا النساء والأطفال إلى مصر، حتى لا ننشغل بهم وبأمنهم حتى يأذن الله بموتنا».

تزايد صوت كان مكتوماً في البداية ثم أصبح عالياً ومقترباً من السماء. بحركة تلقائية سريعة ألقى أحد الرجال برمال على النار فأطفأها، كانت طائرة لم تظهر إلا بشكل غامض على صفحة السماء، مرت من فوقنا متجهة إلى الشرق، ثم اختفى صوت محركها تدريجياً.

قلت له: «ولكن يا سيدي عمر، أليس من الأفضل لك أنت والمجاهدين الانسحاب إلى مصر والطريق ما زال مفتوحاً؟ من مصر يمكنك جمع اللاجئين من طبرق وتكوين جيش أفضل تنظيماً، لا بد أن يتوقف النضال من هنا لفترة حتى يستعيد المجاهدون قواهم.. البريطانيون في مصر لا يسعدهم وجود إيطالي قوي إلى جوارهم؛ وقد

يغمضون أعينهم عن إعداد قواتك في مصر خاصة إن أقنعتهم أنك لا تعاديهم. . .».

قال: «لا يا بني، لقد فات أوان ذلك، ما تتحدث عنه كان يمكن ترتيبه من خمسة أو عشرة أو ستة عشر عاماً مضت، قبل أن يقرر سيد أحمد أطال الله عمره أن يهاجم البريطانيين لمساعدة الأتراك الذين تخلوا عنا بعد ذلك، الآن فات الأوان. لن يحرك البريطانيون إصبعاً لجعل مهمتنا أسهل؛ وقرر الإيطاليون أن يحاربونا حتى النهاية لسحق أي احتمال للمقاومة في المستقبل، وإن ذهبت الآن أنا والمجاهدين إلى مصر، لن نتمكن أبداً من العودة، فكيف نخذل أبناء شعبنا ونتركهم بلا قيادة لقمة سائغة ليبيدهم أعداء الله؟».

سألته: «وماذا عن سيد إدريس؟ هل يشاركك الرأي يا سيدي عمر؟».

قال: «سيد إدريس رجل طيب وابن طيب لأب عظيم، إلا أن الله لم يمنحه القلب القادر على مواصلة الجهاد. . .».

كان في صوت عمر المختار هم ثقيل، ولكن بلا قنوط، وهو يشرح لي المسار الطويل الذي لا بد من سلوكه من أجل الحرية، كان يدرك أنه لم يبق أمامه إلا الموت. إلا أن ذلك لم يحمل له أي جَزع ولا خوف، لم يكن بالطبع يسعى إليه؛ إلا أنه أيضاً لم يحاول أن يتفاداه.

كنت على يقين أنه حتى لو عرف نوع الموت الذي ينتظره، لم يكن أيضاً قد حاول أن يتفاداه أو يتجنبه، كان يبدو واعياً بكل خلجات نفسه أن كل إنسان يحمل مصيره داخله، أينما حل، وكيفما فعل.

بدت بعض أصوات صادرة من جهة الأعشاب، كانت خافتة حتى إن المرء لا يعيها في الأحوال العادية، إلا أن الحال الذي كنا فيه لم يكن عادياً. ميزت أصوات واهية توقفت فجأة، وبدأت من جديد بعد لحظات. وتباعدت الأعشاب وظهر من بينها زيد وخليل بصحبة اثنين من الحراس، وكانت الخيول محملة بقرب الماء المنتفخة. وعندما رأى خليل، عمر المختار، اندفع لتقبيل يده، واستقرت عينا سيدي عمر برضا على وجه زيد؛ وضع يده على كتف زيد، وقال: «مرحباً بك يا أخي من موطن آبائي. من أي عرب أنت؟» ـ أخبره زيد أنه ينتمي إلى قبائل شمار، أومأ عمر مبتسماً: «إذن أنت من قبيلة حاتم الطائي، أكرم رجل عرفه العرب...»[1].

وضع أحد رجال عمر بعض التمر على قطعة قماش أمامنا؛ ودعانا إلى تناول تلك الوجبة البسيطة. أكلنا بعض التمر، ونهض المقاتل العجوز وقال: «حان وقت ذهابي يا إخواني. نحن قريبون من النقطة الإيطالية الحصينة في «بوصفية» وأوشك النهار على الطلوع ولا نريده أن يضيء ونحن هنا».

ركبنا وسرنا خلف سيدي عمر، بينما تبعنا الباقون سيراً على الأقدام وبمجرد أن خرجنا من الأخدود، وجدت أن مرافقي سيدي عمر كانوا أكثر كثيراً مما كنت أتوقع: واحداً بعد آخر راحوا يظهرون من خلف الصخور والأشجار وينضمون إلينا، بينما كانت هناك جماعات منفردة بعيداً إلى اليمين وإلى اليسار. عدا ثلاثين رجلاً من خلفنا يتحركون في سكون وفي خفة الهنود الحمر.

---

(١) مقاتل وشاعر من عهد ما قبل الإسلام، اشتهر بالكرم، وأصبح اسمه رمزاً لتلك الفضيلة التي يوليها العرب اهتماماً فائقاً. وكانت قبيلة شمار التي ينتمي إليها زيد أحد أفرع قبيلة الطائي.

قبل الفجر وصلنا إلى مركز القوة الرئيسية لعمر المختار، وكانت قواته في ذلك الوقت تربو على مائتي رجل. كان مركزهم في أُخدود عميق ضيق، ونيران صغيرة مشتعلة هنا وهناك تخفيها الصخور ولا تظهر من الخارج. كان بعض الرجال نائمين على الأرض؛ وآخرين يبدون كأشباح في ضوء الليل الشحيح مشغولين بمهام مختلفة ـ ينظفون السلاح، يجلبون ماء، يطهون طعاماً، أو يعتنون بالجياد التي كانت مربوطة إلى أشجار هنا وهناك. كانوا كلهم يرتدون أسمالاً بالية، لم أر منهم من يرتدي برنساً كاملاً. كان بعضهم يضع ضمادات في أماكن مختلفة من أجسامهم مما دل على اشتباك وقع حديثاً مع العدو.

لدهشتي وجدت امرأتين بالمعسكر، واحدة مسنة والأخرى شابة. كانتا جالستين بالقرب من نار صغيرة، تصلحان سرجاً مقطوعاً بمخرز كبير.

قال سيدي عمر وهو يرى دهشتي الصامتة: «الأختان تذهبان معنا حيثما ذهبنا، رفضتا الحياة في أمان في مصر مع النساء والأطفال الذين رحلوا. إنهما أم وابنتها، كل رجالهما ماتوا في النضال».

بحثنا على مدى يومين وليلة ـ انتقل أثناءها المعسكر إلى مكان آخر في غابات الجبل الأخضر ـ أنا وسيدي عمر كل احتمالات ترتيب إمدادات منتظمة للمجاهدين، فقد كانت المعونات التي تصل من مصر بسيطة وغير منتظمة.

فمنذ أن توصل سيد إدريس المقيم بمصر إلى تفاهم مع البريطانيين، أصبحوا يتسامحون مع النشاط السنوسي عبر الحدود طالما كان بسيطاً، ولم يهتموا بمجموعات المقاتلين الصغيرة التي تخترق

الحدود حتى مدينة السلوم الساحلية المصرية ليبيعوا غنائم الحرب ـ وأغلبها بغال إيطالية ـ ويستبدلونها بأغذية هم في مسيس الحاجة إليها.

كانت تلك المهام في غاية الخطورة بالنسبة للمجاهدين، ولم يكونوا قادرين على القيام بها كثيراً خاصة بعد أن أنجز الإيطاليون قسماً كبيراً من جدار الأسلاك الشائكة الذي يفصل ليبيا عن مصر. وافقني سيدي عمر على أن البديل الوحيد من الممكن أن يكون طريق إمدادات عبر الواحات البحرية والفرافرة وسيوة في مصر، إلا أنه تشكك في إمكانية أن يظل هذا المسار خافياً عن أعين الإيطاليين.

(ثبت بعد ذلك أن مخاوف عمر كانت في محلها. فبعد ذلك بشهور وصلت قافلة إمدادات إلى المجاهدين، إلا أن الإيطاليين رصدوها وهي تعبر من الفجوة الأمنية بين واحتي جغبوب وجالو. فأقاموا نقطة حصينة في المسافة بين الواحتين في بير طرفاوي، كما زادوا من دوريات الطائرات، مما جعل من تكرار تلك المهمة مستحيلاً).

كان عليّ أن أفكر بالعودة، لم أكن متحمساً للعودة من المسار الذي جئت منه، فقد كان طويلاً ومهلكاً، وسألت سيدي عمر إن كان هناك طريق أقصر، وأخبرني أن هناك طريقاً أقصر، إلا أنه شديد الخطورة: من خلال حائط السلك الشائك الذي أقامه الإيطاليون، ثم إلى السلوم، وكان هناك جماعة من المجاهدين سيذهبون في ذلك المسار لإحضار طحين من السلوم، وقال لي: إن شئت يمكنك الذهاب معهم. وقررت أن أذهب معهم وودعت أنا وزيد الشيخ عمر المختار الذي لن أراه بعد ذلك أبداً، لأنه أسر بعد ذلك بثمانية شهور وشنقه الإيطاليون.

* * *

بعد أسبوع من السير ـ ليلاً فقط ـ على أرض وعرة وعبر غابات الصنوبر على الحافة الشرقية للجبل الأخضر، وصلنا إلى الحدود بالقرب من النقطة التي قررنا أن نخترق حائط الأسلاك منها. لم نختر ذلك الموضع عشوائياً؛ فعلى الرغم من أن حائط الأسلاك كان قد امتد إلى أغلب مناطق الحدود، فلم يكن قد اكتمل تماماً في بعض مواضعه. في بعض المناطق، ومنها المنطقة التي اخترناها كانت هناك طبقة واحدة يبلغ عرضها أربعة أقدام وارتفاعها ثمانية أقدام، بينما في مناطق أخرى كان يوجد ثلاثة أسوار متتالية معلقة في أعمدة خرسانية ذات قواعد اسمنتية قوية. وكانت النقطة التي اخترناها تبعد نصف ميل فقط عن نقطة إيطالية حصينة مكونة من سيارات مصفحة؛ كان التفضيل لهذه النقطة عن غيرها أنه لا توجد حراسة قريبة منها إلا أنها مكونة من ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة القوية.

كانت الترتيبات قد أعدت لنلتقي بجماعة من مؤيدي الحركة السنوسية عبر الحدود ينتظروننا بحيوانات ركوب. لذلك لم يكن ضرورياً أن نعرض الخيل للخطر، فأعدناها بصحبة بعض المجاهدين العائدين، بينما اقتربت المجموعة من الأسلاك الشائكة على الأقدام قبل انتصاف الليل. كان الظلام هو الحماية الوحيدة لنا بعد أن قطع الإيطاليون أي أشجار وأعشاب طويلة الحدود.

نشرنا حراسة على بُعد بضع مئات من الياردات إلى الشمال والجنوب، وتقدم ستة رجال ومعهم قصافات أسلاك وقفازات جلدية سميكة حصلوا عليها من غارات سابقة على الإيطاليين العاملين بالسور. زحف المجاهدون على بطونهم؛ وغطينا تقدمهم ببنادقنا المستعدة

للعمل. كانت لحظة عصيبة أرهفت فيها سمعي لأوهى صوت، لم أسمع إلا صوت احتكاك الحصى تحت الزاحفين نحو الأسلاك وصيحة طائر مر من فوقنا، ثم بدأ صرير المناشير التي راحت تعمل في الأسلاك - وبدت في سمعي رغم وهنها كأنها أصوات انفجارات - ثم تبعها صوت قصافات الأسلاك، ونشر وقطع، إلى أعمق وأعمق في لفات السلك المتراكمة بعرض أربعة أقدام. انطلقت صيحة أخرى لطائر عبر الظلام؛ إلا أن الصوت هذه المرة كان من أحد رجال الحراسة كإشارة تنبيه معلنة عن خطر قادم، في اللحظة نفسها ميزنا صوت محرك يقترب. وظهر من بعيد نور كشاف مائل في الهواء. مثل رجل واحد انبطحنا أرضاً، ما عدا جماعة الأسلاك التي راحت تعمل بسرعة يائسة وتخلوا عن الحذر وراحوا يعملون بكل قوة وسرعة يدقون بمقابض البنادق ويقصون بالمقصات والقصافات كأن مسهم جن. بعد بضع ثوانٍ انطلقت رصاصة من حارسنا الشمالي. كان طاقم السيارة المدرعة قد رأوه حين سقط نورهم الكاشف عليه، ثم سمعنا الصوت الكئيب للمدرعة يتقدم نحونا، وسقط النور الكاشف علينا وتلته طلقات من المدفع الرشاش، ومرت الطلقات فوق رؤوسنا وهي تئز وتدوي. وأطلقنا نيران بنادقنا عليهم ونحن منبطحون على الأرض.

صاح أحد المجاهدين: «النور الكاشف، النور الكاشف، صوبوا على النور» - ثم انطفأ النور الكاشف بعد أن حطمته إصابة محكمة فتوقفت السيارة المدرعة عن تقدمها، إلا أن مدفعها استمر في الانطلاق بعشوائية. في تلك اللحظة سمعنا صوتاً من رجال الأسلاك تعلن أنهم أنجزوا المهمة، حشرنا أنفسنا واحداً بعد آخر في الفتحة الضيقة وملابسنا وأجسامنا تحتك بشوك الأسلاك، وسمعنا أصوات ركض أفراد

حراستنا وهم يلحقون بنا. كان الإيطاليون لا يغادرون المدرعات ولا يشتبكون في معركة مفتوحة، فظلوا في مكانهم. بعد لحظات كنا على أرض مصرية واستمررنا في العدو تلاحقنا الطلقات من الجانب الآخر من الحدود. أضاء نور الفجر ونحن على أرض مصرية بعيداً عن الخطر. من بين عشرين رجلاً ـ وهم عدد جماعتنا ـ كان هناك خمسة مفقودين، من المؤكد أنهم ماتوا، كما أصيب أربعة إلا أن إصابتهم كانت غير خطرة.

قال أحد المجاهدين المصابين: «كان الله رحيماً بنا، أحياناً نفقد نصف الرجال عند عبور الأسلاك، ولكن لن يموت من لم يشأ له الله الموت... ألا يقول الله في كتابه العزيز: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

في الأسبوعين التاليين، رحلنا مروراً بمرسى مطروح إلى الإسكندرية، ثم إلى صعيد مصر، ومن الصعيد على ساحل البحر الأحمر بالدهو إلى ميناء ينبع، ثم وجدنا أنفسنا أنا وزيد من جديد بالمدينة.

استغرقت المهمة بأكملها شهرين، ولم يلحظ أحد غيابنا عن الحجاز.

* * *

حين كنت أقترب بصحبة محمد الزواوي من الزاوية السنوسية المتواضعة بالمدينة كان صدى أصوات الموت واليأس يدوي في ذهني. تختلط الأصوات برائحة أشجار الصنوبر، وقلبي ينقبض من صوت رصاص طائر فوق رأسي، وألم تساؤل يائس، ثم اختفت ذكريات هضبة طبرق، وظل الألم يستحوذ على نفسي.

* * *

مرة أخرى أقف أمام السنوسي الكبير، تطلعت إلى الوجه المتعب للمقاتل العجوز؛ ومرة أخرى قَبّلْت اليد التي أمسكت بالسيف كل هذا الزمن الطويل حتى إنها لم تعد تقدر على حمله أكثر من هذا.

قال لي: بارك الله فيك يا بني وسلمك من كل سوء... مرّ أكثر من عام منذ أن التقينا آخر مرة؛ وكان ذلك العام يحمل معه نهاية آمالنا، ولكن الحمد لله مهما كانت مشيئته...».

كان عاماً مؤسفاً بالفعل لسيد أحمد: أصبحت التجاعيد حول فمه أعمق وصار صوته أخفت. لقد انكسر الصقر العجوز. كان يجلس متداعياً على البساط، والبرنس الأبيض محبوك حول بدنه اتقاءً للبرد، يحملق دون أن يتكلم في أبعاد بلا نهاية.

همس: «لو كنا أنقذنا عمر المختار، لو كنا أغريناه بالفرار إلى مصر حين كانت الفرصة ما تزال سانحة...».

واسيته قائلاً: «لم يكن بمقدور أحد إنقاذ سيدي عمر، لم يكن يريد أن ينجو. كان يفضل الموت إذا لم ينتصر. كنت على يقين من ذلك حتى آخر لحظة غادرته فيها يا سيدي أحمد».

أومأ سيد أحمد بشدة: «نعم، أنا أيضاً كنت أعرف ذلك، أعرف ذلك... إلا أنني عرفته متأخراً جداً. أفكر أحياناً أنني أخطأت في ذهابي إلى استانبول لمتابعة القضية من هناك، سبعة عشر عاماً مرت... ألم يكن ذلك بداية الموت، لا لعمر وحده، بل لكل السنوسية؟».

لم أجد إجابة مناسبة أرد بها، خاصة وأنني آمنت على الدوام أن قرار سيد أحمد بشن حرب لم تكن ضرورية ضد البريطانيين كان أكبر خطأ قاتل ارتكبه في حياته بأجمعها.

أضاف سيد أحمد: «لكن، كيف كان يمكن أن أفعل العكس حين طلب مني خليفة المسلمين أن أعاونه؟ هل كنت مصيباً، أم كنت أحمق؟ ولكن من غير الله، يمكن أن يقرر إن كان المرء مصيباً أم أحمق، خاصة إذا اتبع نداء ضميره؟».

تساءلت في نفسي:

من يستطيع حقاً أن يقرر؟

كان رأس السنوسي الكبير يتأرجح ببطء من جانب إلى جانب في حيرة مؤلمة، وعيناه محجوبتان خلف جفونه المنسدلة؛ وبيقين مفاجئ أدركت أنهما لن يلتمعا ببريق أمل بعد ذلك أبداً[1].

(١) توفي سيد أحمد بالمدينة في العام التالي (١٩٢٣).

الفصل الثاني عشر

نهاية الطريق

تركنا المدينة في وقت متأخر من الليل، سالكين الطريق «الشرقي» الذي سار عليه النبي في آخر حج له إلى مكة، قبل وفاته بعدة أشهر. ظللنا راكبين طول الليل وقسط من الفجر الذي بدأ ينبلج. بعد وقفة قصيرة لأداء صلاة الفجر أكملنا سيرنا في ضوء النهار الوليد، كان نور اليوم الجديد رمادياً ينفذ من سماء ملبدة بالغيوم. بعد الظهر بدأ المطر يهطل. سرعان ما ابتللنا حتى التصقت ملابسنا بأبداننا. عثرنا على تجمع صغير للبدو بعيداً إلى يسار الطريق، قررنا أن نأوي عندهم في إحدى الخيام حتى توقف المطر.

[١]

كان تجمعاً صغيراً لبدو ينتمون إلى قبيلة حرب، استقبلونا بترحاب: «أطال الله أعماركم، مرحباً بكم». فردت بطانيتي على جلد ماعز كان مفروشاً بخيمة الشيخ، في حين راحت زوجته ـ لم تكن منقبة الوجه كعادة بدويات تلك المنطقة ـ ترحب بنا هي الأخرى. بعد ليل قضيته راكباً، غلبني النوم بسرعة على صوت تساقط المطر على سقف الخيمة.

استيقظت بعد عدة ساعات على صوت المطر الذي كان ما زال ينهمر، كان الظلام يحيطني، كلا، لم يكن ظلام ليل، كان ظلام الخيمة؛ التي امتلأت برائحة الصوف المبتل. فردت ذراعي متمطياً فاصطدمت يدي بسرج جمل كان خلف رأسي على الأرض. كانت نعومة خشب السرج تغري باللمس، جرت أصابعي أعلى رمانة السرج ونزلت حتى وصلت إلى أمعاء الجمال الجافة التي تربط أجزاء السرج معاً، كانت بحواف حادة ولها صلابة الحديد. لم يكن بالخيمة أحد غيري.

نهضت بعد فترة وتوجهت إلى فتحة الخيمة. كانت قطرات الأمطار تحفر حفراً في الرمال، حفر لا تعد ولا تحصى، تظهر في لحظة وتختفي في لحظة تحت وقع قطرات أخرى. كانت قطرات المطر ترش سطح صخور الجرانيت المجاورة إلى اليمين. لم أر أحداً على مرمى بصري، في هذا الوقت من اليوم يخرج الرجال للرعي؛ كانت الخيام الأخرى تقع إلى أسفل قليلاً في الوادي بجوار شجرة أكاسيا صامتة صمت عصر يوم مطير. خرجت من إحدى الخيم نفثة من دخان صعدت في الهواء ـ لقد بدأ الاستعداد لإعداد وجبة العشاء، كانت نفثة دخان ضعيفة واهية لا تصمد أمام يوم مطير، زحفت إلى جانب، حاولت الثبات بلا جدوى، كانت تبدو مثل شعر امرأة يتطاير في الهواء، بدت التلال الواطئة ومرتفعات الرمال الصغيرة كأنها تتمايل خلف قطرات المطر المنهمر، كان الجو معبقاً بروائح الماء وشجر الأكاسيا والصوف المبتل.

قل تساقط المطر تدريجياً حتى توقف، وبدأت السحب في التشتت تحت أشعة شمس المساء، سرت باتجاه صخرة جرانيت عملاقة. كان

بسطحها فجوة في حجم قصعة كبيرة تتسع لخروف كامل مشوي فوق أرز مطهي؛ كانت الفجوة مليئة بالماء. لما وضعت ذراعي بها وصل الماء إلى كوعي، كان دافئاً ويدغدغ يدي؛ ولما حركت ذراعي داخله، أحسست كأن جلدي يرتوي. خرجت امرأة من إحدى الخيام تحمل إناء نحاسياً ضخماً على رأسها، كانت ذاهبة لملئه من تجمعات ماء الصخور، ذراعاها ممتدان إلى الجانبين لأعلى وتمسك بأصابعها أطراف ثوبها الأحمر الواسع الفضفاض، فبدت وكأن لها جناحان، تمايلت برقة وهي تقترب كما يتمايل الماء الساقط من أعلى الصخور، ورأيت أنها في جمال الماء.. من مسافة سمعت أصوات الإبل العائدة من الوعي، ظهرت في مجموعات من خلف تل صخري، تتأرجح على وقع خطوات مرنة، يسوقهم الرعاة بأصوات حادة قصيرة «غررر، غررر...»، ثم يدعونها تبرك فتهتز أسنمتها البنية في حركات رجراجة متماوجة، ومع هبوط الليل كانوا عقلوا سيقانها الأمامية، ثم توجه الرجال إلى الخيام، كل إلى خيمته.

أقبل الليل بظلامه الرقيق وبرودته المنعشة، أضاءت نار مشتعلة أمام كل خيمة، كانت تصل إلى مسامعي أصوات أواني الطعام وهي تتصادم وتحتك ببعضها، وضحكات النساء التي تتداخل معها نداءات الرجال أحياناً، ثغت الماعز والأغنام التي رجعت بعد الجمال، وينبح كلب أحياناً كما تنبح الكلاب عادة في كل الليالي، في كل خيام البدو في الجزيرة العربية، لم أر زيداً؛ ربما كان ما زال نائماً في إحدى الخيام. سرت ببطء باتجاه الجمال الباركة، كانت قد حفرت بثقلها حفراً في الرمال فبركت في ارتياح، كان بعضهما يجتر ما أكله في حين مدت جمال أخرى أعناقها على الرمال.

هدر بعضها وأنا أمر أمامها مداعباً سنامها الدهني. رأيت فلواً صغيراً يلتصق بأمه بشدة؛ كان مذعوراً من مداعباتي فقفز واقفاً، بينما أدارت أمه رأسها باتجاهي وهدرت بفم واسع مفتوح. أمسكت برقبة الفلو بسرعة ودفنت وجهي في صوف ظهره، سكن في الحال، وهدأ، زال خوفه. كان دفء جسم الحيوان الصغير يخترق وجهي وصدري؛ تحت راحة يدي أحسست بدمه يتدفق في شريان رقبته؛ أحسست أنه يسري في شراييني أنا ويبعث فيّ إحساساً طاغياً بالالتحام بالحياة، غلبتني رغبة طاغية أن أذوب فيها ذوباناً تاماً وكلياً.

[٢]

ركبنا وسرنا، كانت كل خطوة تقطعها الجمال تدنيني من نهاية الطريق. سرنا أربعة أيام في سهول ساطعة شمسها؛ كنا ننام الليل تحت صفحة نجوم السماء على الرمال، ونستيقظ في برودة الفجر؛ كنت أقترب ببطء من نهاية طريقي.

لم يكن لي طريق آخر عدا هذا الطريق؛ ومع أني لم أتعرف عليه على مدى سنوات بداية عمري، إلا أن مكة كانت دائماً هي هدفي واتجاهي. كانت تناديني من زمن طويل قبل أن يعي عقلي أنها تناديني، كانت تعلن بصوت قوي: «مملكتي في الحياة الدنيا كما هي في العالم الآخر؛ فمملكتي للجسم كما هي للروح، تسع ما يفكر به الإنسان وما يحسه ببدنه وما يفعله ـ تجارته وصلاته، فراش نومه وعلاقته بالآخرين؛ مملكتي لا تعرف حداً ولا نهاية»، وحين أيقنت من ذلك على مدى الأعوام، أدركت إلى أين أنتمي، كانت أخوة الإسلام بانتظاري من مولدي؛ واعتنقت الإسلام، وتحققت آمالي في الانتماء، لأكون جزءاً من كل واحد.

من الغريب أن أول تجربة لي كمسلم بين مسلمين، كانت تجربة أخوة. . . ففي الأيام الأولى من يناير عام ١٩٢٧، تركت أوروبا من جديد، ولكن كانت إلزا زوجتي تصحبني تلك المرة ومعها ابنها الصغير، متجهين إلى الشرق الأوسط؛ أدركت أن رحيلي تلك المرة عن أوروبا سيكون الأخير وإلى الأبد.

مضت بنا السفينة على مدى أيام في البحر المتوسط، في أيام مشرقة السماء وعلى سطح البحر، نرى أحياناً سواحل بعيدة، ودخان سفن أخرى تمضي إلى جهات مختلفة. اختفت أوروبا بعيداً خلفنا ونسيتها على وجه التقريب.

كنت أنزل أحياناً من قمرتي الفخمة العلوية وأجوس في الأدوار السفلى الرخيصة بأسرتها الحديدية المثبتة إلى الجدران، وكان أغلب ركاب الأدوار السفلى من الصينيين، وبعض مواطني الشرق الأوسط من الحرفيين والتجار العائدين إلى بلادهم بعد أعوام من العمل المضني قضوها في أوروبا. وكانت هناك مجموعة صغيرة العدد من عرب اليمن ركبوا من «مارسيليا». كانوا عائدين إلى بلادهم، كانت ضوضاء وروائح الموانئ الأوروبية ما زالت عالقة بهم؛ كانوا ما زالوا تحت تأثير الأعوام التي قضوها في تزويد مراجل السفن بالفحم في سفن أمريكية وإنجليزية وألمانية؛ يحكون عن المدن الغريبة: نيويورك، بوينوس إيرس، وهامبورج.

تطلعوا ذات يوم إلى بريق المجهول، فرحلوا من ميناء عدن كعمال سفن؛ غادروا عالمهم الذي يعرفونه واعتقدوا أنهم ينمون أنفسهم باحتضان غرابة العالم غير المفهوم لهم: سرعان ما تصل السفينة إلى

عدن وتتراجع ذكرياتهم عن العالم الغريب وتصبح ماضياً. يستعيدون وضع العمامة أو الكوفية بدلاً من القبعة، يحتفظون بالأمس كذكرى، ويعودون إلى قراهم في أعماق الجبال في اليمن.

ولكن هل يعودون الرجال أنفسهم كحالهم الذي خرجوا عليه؟ أم يعودون بشراً مختلفين؟ هل قبض الغرب على أرواحهم أم مسح مشاعرهم؟ تحولت مشكلتهم في ذهني إلى مشكلة أكبر ذات مضمون أشمل.

لم يصل العالم الإسلامي والعالم الغربي إلى درجة الاحتكاك التي أصبحا عليها اليوم. وكان الاحتكاك يتضمن صراعاً ظاهراً وخافياً. وتحت وطأة ثقافة الفكر الغربي، ترتجف أرواح كثير من المسلمين والمسلمات. لقد سقطوا تحت وطأة مفهوم متناقض مع مفاهيمهم، يتضمن أنه لكي يحققوا مستوى أفضل من العيش، لا بد أن يحسنوا مستوى إدراكهم. فسقطوا في وثنية التقدم التي سقط فيها الغرب حين قلص دور الدين إلى نغمة خافتة مصاحبة؛ وبذلك تأقزموا ولم ينموا: فكل محاكاة معادية للإبداع، لا بد أن تجعل البشر أقزاماً...

لا أرفض أن يتعلم المسلمين من الغرب، خاصة العلوم والتقنية فاكتساب العلم ليس تقليداً ولا محاكاة. فالعلم ليس شرقياً ولا غربياً، وكل المكتشفات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا تنتهي من المساعي العقلية للجنس البشري كله. كل عالم يكمل ما أنجزه الآخرون إن كانوا من أمته أو من أمة أخرى؛ عملية متواصلة من البناء من عصر إلى عصر، ومن حضارة إلى حضارة. حتى إنه لا يجوز أن ننسب منجزات علمية معينة كملك مقصور على عصر بعينه دون آخر يليه.

في كل عصر، كانت توجد أمة أنشط من غيرها من الأمم، تضيف

إلى الموجود من المعارف؛ ولكن على المدى البعيد يصبح ما أضافته علماً مشتركاً ومشروعاً لكل البشر أن يزيدوا عليه. لقد كان هناك عصر كانت فيه الأمة الإسلامية أكثر نشاطاً وحيوية من غيرها من الأمم، ونقلت إلى أوروبا كثير من المخترعات التي كانت رائدة في حينها، بل نقلت إلى أوروبا ما هو أهم كثيراً من المخترعات، وهو «المنهج العلمي» الذي شيدت عليه أوروبا علمها وحضارتها.

لم تجعل مكتشفات وأبحاث «جابر بن حيان» من الكيمياء «كيمياء عربية»؛ ولا يمكن وصف الجبر والهندسة بأنها علوم «إسلامية»، مع أن الجبر ظهر للوجود على يد «الخوارزمي»، وظهرت الهندسة على يد «البتاني» وكلاهما كان مسلماً، تماماً كما لا يمكن لأحد أن يتحدث عن نظرية الجاذبية الأرضية «الإنجليزية»، مع أن من اكتشفها وصاغها كان رجلاً إنجليزياً. كل المنجزات والمعارف ملكية عامة للجنس البشري، لذلك تبنى المسلمون، كما يجب أن يفعلوا المناهج المعاصرة الحديثة في العلوم والتقنية، لا يكونون إلا كمن يتبع غريزة التطور التي تتيح للبشر الاستفادة من إنجازات الجنس البشري. ولكن إذا تبنوا ـ ولا يجب أن يفعلوا ـ أشكال وأنماط الحياة الغربية وسلوكيات أهل الغرب وعاداته ومفاهيمه الاجتماعية، سيكونون خاسرين، لأن ما سيأخذونه عن الغرب في تلك المناحي ليس أفضل مما وهبته لهم ثقافتهم وما توجههم إليه عقيدتهم الإسلامية.

لو احتفظ المسلمون برباطة جأشهم وقبلوا التقدم كوسائل لا غايات، لن يستعيدوا فقط حريتهم الداخلية، بل ربما ينقلون للمواطن الغربي السر المفقود لحلاوة الحياة.

* * *

كان بين اليمنيين بالسفينة رجل قصير نحيف له أنف مثل الصقر ووجه حاد كأن النار مشتعلة في ملامحه؛ إلا أنه كان هادئاً ومتزناً. حين علم أنني أسلمت حديثاً، أظهر لي وداً صاداً، كنا نجلس ساعات على سطح السفينة يحكي لي عن قريته باليمن. كان اسمه محمد صالح.

ذات مساء زرته في الأدوار السفلى من السفينة. كان أحد رفاقه من اليمنيين راقداً في سريره يعاني من حمى شديدة، ولم يهتم طبيب السفينة بالنزول إليه لفحصه. ولما تبينت أنه يعاني من حمى الملاريا، أعطيته بعض حبوب «الكينين» حين كنت مشغولاً بالمريض، اجتمع اليمنيون في أحد الأركان حول محمد صالح ضئيل الجسم، كانوا في اجتماعهم الجانبي المتهامس ينظرون إليّ، في النهاية تقدم واحد منهم ـ رجل طويل ذو وجه بني زيتوني وعيناه سوداوان حادتان ـ ومد لي يده ببعض الفرنكات الفرنسية المجعدة، وقال: «جمعنا هذا المبلغ، للأسف هو مبلغ بسيط، تفضل واقبله».

خطوت للخلف مندهشاً، وقلت لهم: إنني لم أعط صديقهم دواء مقابل مال. قالوا: «كلا، كلا، نحن نعلم ذلك، ولكن تفضل واقبله، هو ليس ثمناً، بل هدية من إخوتك: نحن سعداء بك، ولذلك نهبك النقود، أنت مسلم وأخونا، بل أنت أفضل منا، لأننا ولدنا مسلمين، وآباؤنا وأجدادنا كانوا مسلمين. أما أنت فعرفت الإسلام بقلبك... اقبلها يا أخي... من أجل خاطر النبي».

كنت ما زلت أسير قناعاتي الأوروبية، ودافعت عن موقفي قائلاً: «لا يمكن أن أقبل هبة أو هدية مقابل خدمة أسديتها إلى صديق

مريض. . . عدا أنني معي ما يكفيني من مال؛ أنتم بالتأكيد تحتاجونه أكثر مني. على أي حال، إن كنتم مصرين على وهب تلك النقود، هبوها للفقراء في بورسعيد».

أعاد اليمني الاعتراض: «كلا، أقبلها منا وإن لم تشأ الاحتفاظ بها، هبها من نفسك للفقراء».

كانوا يضغطون ملحين، وصدمهم رفضي فأصبحوا صامتين في حزن، كما لو كنت رفضت، لا نقودهم، بل حبهم الذي يقدمونه إليّ، وأدركت فجأة أنني ربيت في مجتمعات تقيم جدراناً بين الأفراد، بعكس المجتمع العربي الإسلامي الذي لا توجد به أي حوائط تعزل أبنائه عن بعضهم قلت: «هاتوا النقود يا إخوتي، قبلتها وأشكركم».

[٣]

قلت لزيد: «غداً إن شاء الله نكون بمكة، ستكون النار التي تشعلها الآن يا زيد آخر نار؛ وصلت الرحلة إلى نهايتها».

رد زيد: «بالتأكيد يا عمي ستكون هناك نيران أخرى، ورحلات أخرى بانتظارنا معاً».

قلت له: «ربما يا أخي زيد، إلا أنني أعتقد أن الرحلات الأخرى لن تكون في هذه البلاد. تجولت بالجزيرة العربية كثيراً حتى أصبحت في دمي، وأخشى إن لم أغادرها الآن ألا أغادرها أبداً، لا بد أن أرحل يا زيد، ألا تذكر المثل: إن الماء لا بد أن يتدفق ويتحرك حتى يظل نقياً؟ أريد وأنا ما زلت شاباً أن أرى كيف يعيش إخواننا المسلمون في باقي بلاد العالم ـ في الهند، والصين، وجاوة. . .».

قال زيد بفزع: «لا أظن يا عمي أنك أصبحت لا تحب بلاد العرب؟».

قلت له: «كلا يا زيد، بالطبع أحبها كما أحببتها على الدوام، وربما أكثر من ذي قبل - إنه يؤلمني التفكير فيما يمكن أن يجلبه لها المستقبل من مشكلات بعد أن عرفت أن الملك يفكر في فتح البلاد أمام الفرنجة، ليجلب الأموال إلى البلاد: سيسمح لهم بالتنقيب عن النفط في الحسا، والبحث عن الذهب في الحجاز - يعلم الله وحده ما يجلبه ذلك على البدو. لن تظل هذه البلد على ما هي عليه الآن».

من بين طنين صمت ليل الصحراء الساكن ارتفع صوت أقدام جمل يعدو. أتى راكب وحيد وأحزمة السرج محلولة تتطاير من حوله، وعباءته تطير خلفه وهو خارج من الظلام، وتقدم باتجاه نارنا، وأوقف جمله بطريقة مفاجئة، وقفز من فوقه دون أن ينيخه. وبعد «السلام عليكم»، و«عليكم السلام» جلس محملقاً دون أن ينطق كلمة أخرى، ثم قام وفك سرج الجمل، وكوم خروجه بجانب النار، ثم جلس على الأرض، وهو في صمته، بوجه محتقن الملامح.

قال زيد، الذي اتضح أنه يعرف الرجل: «وهبك الله عمراً يا أبا سيد»، ظل أبو سيد صامتاً في حين استدار زيد قائلاً: «هذا الشيطان واحد من رجاجيل ابن سعود».

كان أبو سيد فاحم السواد؛ وشت شفتاه الغليظتان وشعره الأجعد، الذي لمَّ أطرافه الطويلة في خصلتين خلفه بأصله الإفريقي. كان يرتدي ملابس ثمينة، وكان خنجره - وربما كان هدية من الملك - مطلياً بالذهب؛ وكانت ناقته من السلالات الغالية الثمن، فقد كان لونها

عسلياً، من سلالة «شمالية»، رفيعة الأطراف، دقيقة الرأس، بكتفين قويين، وكفلين ضامرين.

سأله زيد وقد حيره صمته الذي طال: «ماذا جرى لك يا أبو سيد؟ ألا تريد الحديث مع أصحابك؟ هل ركبك جن؟».

همس أبو سيد: «إنها نورا»، بعد أن حلت القهوة الساخنة عقدة لسانه، حكى لنا عن «نورا»، كانت فتاة نجدية من مدينة «الراس» (ذكر اسم أبيها وكنت أعرفه)، كان قد رآها خفية من فوق سور وهي تجلب الماء مع النساء ـ قال: «شعرت وأنا أراها أن قطعة من جمر ملتهبة سقطت في قلبي. عشقتها، إلا أن أباها الكلب، لم يرض أن يزوجني إياها، راعي الخنازير ـ قال: إن ابنته تخاف حين تراني، عرضت عليه مهراً كبيراً، ومساحة من أرضي؛ وأصر على الرفض، ثم زوجها من ابن عمها، لعنه الله هو وابنته».

كان وجهه الأسود القوي يضيء أحد جوانبه نور النار المشتعلة، وجعله تراقص ضوء النار على وجهه يشبه من يعاني عذاب الجحيم. لم يحتمل أن يجلس أكثر من ذلك، نهض واقفاً، شغل نفسه للحظات بالسرج، ثم عاد قرب النار. وفجأة، ركض في الظلام. كنا نسمعه وهو يجري في دائرة واسعة حول المكان الذي كنا نجلس به، يصيح، ويصيح: «نار نورا تحرقني، نار نورا تحرق صدري»، ثم يصيح منتحباً «نورا، نورا».

اقترب من النار من جديد وراح يعدو حولها في دائرة، وقفطانه يتطاير مثل شبح ليلي على ضوء النار المتراقص، والظلام المحيط. هل فقد عقله؟ لم أظن ذلك. ربما خرجت من ثنايا عقله البدائي الأول

انفعالات الأجداد الإفريقيين الذين كانوا يعيشون بين الأعشاب، ذكريات من عاشوا على ذكر العفاريت والألغاز والغموض في الغابات الإفريقية، في وقت قريب من الزمن الذي نزلت فيه الومضة الإلهية على وعي البشر وحولت وعي الحيوان إلى وعي الإنسان؛ ولم تكن الشرارة بالقوة التي تكبح جماح الدوافع غير المكبلة وتحولها إلى انفعالات راقية - للحظة بدا لي أنني أرى قلب أبو سيد أمامي، كتلة من لحم ودم يصعد منها نار ودخان الغرام كما لو كان يحترق في نار حقيقية - وبشكل ما بدا لي من الطبيعي أن يصرخ بذلك الصوت المفزع المخيف، ويجري في دوائر مثل مجنون، حتى أجبر جمالنا المعقولة أن تنهض خوفاً منه على ثلاثة أرجل...

عاد إلينا وألقى بنفسه على الأرض. تبينت ملامح امتعاض بادية على وجه زيد من انفجارات أبي سيد الفالتة من أي تحكم - كان المزاج العربي الراقي الأصيل يزدري الانفعالات والمشاعر الغرامية المنفلتة - إلا أن قلب زيد - الرقيق سرعان ما رقّ لحاله، أمسك بأبي سيد من أكمامه فرفع رأسه وحملق في زيد بعينين غائمتين، جذبه زيد إليه؛ وقال: «أبو سيد، كيف تنسى نفسك إلى هذا الحد؟ أنت مقاتل، أبو سيد.. لقد قتلت كثيراً من الرجال وكدت أن تُقْتَل مرات - والآن تطيح بك امرأة؟ يوجد نساء كثيرات غير نورا... يا أبا سيد... يا بطل... يا أحمق».

أنَّ الرجل في صوت خفيض، ورفع كفيه إلى وجهه، في حين استطرد زيد: «اسكت وارفع رأسك: هل ترى ذلك الخط المنير في السماء؟».

رفع أبو سيد بصره إلى السماء في دهشة، وتابعت أنا بطريقة لا

إرادية إصبع زيد المشير إلى صفحة السماء وتابعت الخط الشاحب الأكثر نوراً وغير المتساوي في كل مواضعه ويجري من أفق إلى أفق. . كان درب التبانة، ولكن حكمة بدو الصحراء لا ترى فيه إلا المسار السماوي للكبش الذي نزل لإبراهيم حين أطاع أمر ربه والإيمان يملأ قلبه ورفع السكين ليذبح ابنه البكر. وظل مسار الكبش باقياً إلى الأبد على صفحة السماء، تذكرة برحمة الله ونعمته. وذكرى للفداء الذي أنزل لشفاء ألم قلب إنساني، هو قلب إبراهيم ـ وسلوى لمن يأتون من بعده. ولمن يعانون الوحدة أو تاهوا في الصحراء، ولمن يتعثرون في الحياة، ويبكون في وحدتهم منعزلين في بيداء حياتهم. استمر زيد، ويده مرفوعة في اتجاه السماء، يتحدث بوقار ويقين، كما يتحدث حكماء العرب: «هذا مسار الكبش الذي أرسله الله إلى سيدنا إبراهيم حين هم بالتضحية بابنه البكر طاعة لأمر ربه هكذا يُظهر الله رحمته لعبيده. . . هل تظن أنه ينساك؟».

تحت وقع كلمات زيد، رق وجه أبا سيد في تساؤل مثل ذلك الذي يظهر على وجوه الأطفال، أصبح أهدأ حالاً؛ وراح مثل تلميذ يتابع معلمه ينظر باتجاه السماء، محاولاً أن يجد على صفحتها إجابة عن يأسه الذي يغمر قلبه.

[٤]

بسهولة ويسر ترد صورة إبراهيم وكبش الفداء إلى الذهن في هذا البلد، لاحظت أن ذكرى أبي الأنبياء حية بقوة بين العرب أكثر مما هي حية بين مسيحيي الغرب الذين ترتكز عقيدتهم على العهد القديم والإنجيل؛ وكذا اليهود الذين تمثل لهم التوراة كلمة الرب الأولى

والأخيرة لا تحس بالحضور الروحي القوي لإبراهيم إلا في الجزيرة العربية والعالم الإسلامي. لا من غزارة التسمي باسمه فقط، بل من ذكره المتكرر في القرآن وفي صلوات المسلمين اليومية كأول من دعا إلى عبادة واعية لله الواحد: ويفسر ذلك الأهمية التي يوليها الإسلام للحج السنوي إلى مكة والذي ارتبط من عصور سحيقة بقصة إبراهيم.

لم يصبح إبراهيم معروفاً للعرب ـ كما يظن أهل الغرب ـ بعد أن أقحم محمد اسمه في رسالته في محاولة منه «لاستعارة» عناصر الدين الإسلامي من اليهودية، لأنه من الثابت تاريخياً أن شخصية إبراهيم كانت معروفة للعرب قبل الإسلام من عصور قديمة ترجع إلى عصر إبراهيم ذاته، كما أن ما ذكر في القرآن عن إبراهيم معبر عنه بدقة لا تترك شكاً في أنه يعيش في واجهة الوعي العربي من عصور طويلة قبل محمد: فاسمه وسيرة حياته يذكران على الدوام دون تمهيد للتعريف به، حتى إن القرآن حين كان يتلى بعد نزوله على أول من استمعوا إليه، لم يتساءلوا عن ذلك الاسم ولا عَمَّن يكون. وكان يحتل أيضاً مكانة مرموقة في أنساب العرب، كأب أول من خلال إسماعيل لعرب الشمال الذين يكوِّنون اليوم حوالي نصف عرب الجزيرة العربية وتنتمي إليهم قبيلة محمد وهم عرب قريش.

لم تذكر التوراة إلا بداية قصة إسماعيل وأمه هاجر، لأن تطوراتها اللاحقة لا تهم الأمة العبرية، إلا أن الموروث المعرفي لعرب ما قبل الإسلام لديه كثير من تفاصيل قصة إسماعيل.

وطبقاً لذلك الموروث المعرفي المتناقل شفاهة، ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل في المنطقة التي توجد بها مكة الآن، في وادٍ بين جبال

صخرية عارية قاحلة تحت شمس حارقة، ورياح ساخنة لافحة حتى إن الطيور الجارحة تعاف نزوله، وحتى اليوم مع امتلاء وادي مكة بالبيوت والشوارع والبشر من كل الأجناس، ما زالت مكة تعاني من قسوة الطبيعة وتحوم فوق المتزاحمين حول الكعبة أشباح تلك الآلاف من السنين منذ أن وضع إبراهيم أول أساس لبيت الله في مكان موحش وصامت ويخلو من أي أثر للحياة.

بعث المكان اليأس في قلب هاجر، جارية إبراهيم المصرية التي تزوجها وولدت له ابناً فكرهتها سارة زوجة إبراهيم الأولى. كان لا بد لإبراهيم أن يبعد هاجر وابنها إسماعيل وكان حزيناً وهو يقوم بذلك، إلا أنه كان عميق الإيمان برحمة الله التي بلا حد، ويقول سفر التكوين في التوراة إن الله خفف عنه قائلاً:

«لا يفج في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك.. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك».

ترك إبراهيم المرأة الباكية وطفلهما في الوادي، وترك معهما قربة ماء، وكيساً مليئاً بالتمر، وعاد راجعاً إلى الشمال باتجاه ميديان، ومنها إلى كنعان. وكان بالوادي شجرة «سرحا» وحيدة، جلست هاجر في ظلها وطفلها في حجرها، لم يكن حولها إلا رمال ومنحدرات صخرية وشمس حارقة يبهر ضوؤها المنعكس على الرمال والصخور البصر. كان ظل الشجرة أروع ما في المكان، إلا أنه صامت صمت القبور، صمت مرعب لأي كائن حي! كان الوقت يمضي متثاقلاً ببطء فكرت هاجر: لو يظهر أي كائن حي هنا، طائر، حيوان، أو حتى وحش مفترس. ولكن لم يظهر إلا الليل الذي حل، كان الليل مريحاً مثل كل

ليالي الصحراء، قبة كبيرة من الظلام ونجوم تلطف من حرارة يأسها. دبت فيها بعض الشجاعة، أطعمت طفلها بعض التمر وارتويا من قربة الماء.

مر الليل، وجاء يوم آخر، وليلة أخرى، ولما حل اليوم الثالث بحرارته الشديدة، كان ماء القربة قد نفد، وأطبق اليأس عليها بكل قوته، أصبح الأمل مثل وعاء مهشم. وبكى الطفل وراح صوت بكائه يضعف كلما مر الوقت، صرخت هاجر داعية ربها؛ ولم يظهر أي جديد، طار لبها من معاناة ابنها المحتضر، راحت تركض غادية وراجعة وذراعاها مرفوعتان إلى السماء، راحت تركض بين تلين: ولإحياء ذكرى سعيها ذاك، يسعى الحجاج مثلما فعلت بين التلين سبع مرات، راحت تصيح كما صاحت من قبل: «أنت الكريم، يا رحيم، من يرحمنا إن لم ترحمنا أنت؟».

ثم أتتها إجابة ما سألت: انفجر من الأرض ماء غزير راح يتدفق على الرمال، صاحت هاجر من الفرح ومالت بوجه طفلها إلى الماء المتدفق حتى يرتوي، وشربت من بعده وهي تصيح بين شهقاتها المتوسلة: «زمي، زمي» - وهي كلمة لا معنى لها، ربما كانت محاكاة لصوت الماء المتفجر من الأرض وكأنها تقول: «تدفق، تدفق»، وخوفاً من ضياع الماء في الرمال، صنعت حوله حافة من الرمال، وتحول مع الوقت إلى بئر يعرف الآن باسم بئر زمزم موجود حتى الآن.

أصبحا الآن بمأمن من الموت عطشاً، وكفاهم التمر لوقت طويل. بعد بضعة أيام، مرت جماعة من البدو مهاجرة من جنوب الجزيرة، كانوا يبحثون عن مكان رعي جديد، مروا بالقرب من الوادي فرأوا

أسراباً من الطيور تحوم فوقه، فعلموا أن به ماء. دخل منهم بعض الرجال إلى الوادي مستطلعين، وجدوا سيدة تجلس وحيدة ومعها طفلها بجوار حافة بئر عظيمة. استأذن منها الرجال في أدب أن تسمح لهم بالإقامة في واديها. وافقت بشرط أن يظل البئر ملكاً لابنها إسماعيل وأبنائه من بعده.

أما إبراهيم، فيذكر الموروث المعرفي العربي أنه عاد إلى الوادي بعد زمن ووجد هاجراً وابنه أحياءً، كما وعده الله. منذ ذلك الوقت راح يزورهما كثيراً، حتى بلغ إسماعيل مبلغ الرجال وتزوج بفتاة من قبيلة جنوبية. بعد ذلك بأعوام رأى إبراهيم رؤيا تأمره ببناء بيت لله بجوار بئر زمزم، وهكذا، بمساعدة ابنه إسماعيل بنى النموذج الأول لبيت الله الذي ما زال قائماً حتى اليوم ويعرف باسم الكعبة، حين كانا يقطعان الصخر لبناء البيت في دين التوحيد، أدار إبراهيم بصره في السماء وقال ملبياً: «لبيك اللهم لبيك». لذلك يرفع المسلمون أصواتهم بالتلبية نفسها حتى اليوم وهم يقتربون من مكة للحج.

[٥]

«لبيك اللهم لبيك».

كم مرة سمعت فيها تلك التلبية في المرات الخمس التي قمت فيها بأداء فريضة الحج؟ بدا لي أنني أسمعها الآن، وأنا ممدد على الرمال بالقرب من زيد وأبي سيد بجوار النار المشتعلة.

أغلقت عيني فاختفت النجوم واختفى القمر. وضعت ذراعي على عيني وأنا مستلق على ظهري، فحجبت الضوء النافذ من جفوني إلى

عيني، وراحت الأصوات تخفت، لا أسمع إلا «لبيك» في عقلي وخفقان تدفق الدماء في أذني. كان الدم يخفق مثل أمواج متتابعة ترتطم بجدار سفينة، ويخفق مثلما يخفق صوت ماكينة، كنت أسمع خفقات الماكينة وأشعر بارتجاف سور السفينة وأشم دخانها ورائحة زيتها وأسمع نداء «لبيك اللهم لبيك» صادر من مئات الحناجر على متن السفينة التي حملتني عند أول حج لي من ستة أعوام، من مصر إلى الجزيرة العربية، فوق صفحة البحر الأحمر. كانت جبال قارة إفريقيا إلى يميننا؛ وجبال شبه جزيرة سيناء إلى يسارنا ـ وكلاهما صخري عار، وكانت المسافات بينها تتباعد كلما مضينا بالخليج حتى أصبحت أشباحاً بعيدة تشعر لمرآها أن هناك يابسة إلا أنك لا تراها. بعد الظهر، دخلت السفينة إلى متسع البحر المفتوح، كانت المياه زرقاء مثل مياه البحر المتوسط.

كان كل ركاب السفينة من الحجاج، أعداد كبيرة لا أعرف كيف اتسعت لهم. كانت شركة النقل الجشعة قد ملأت السفينة حتى حافتها بالحجاج دون أي تفكير في راحتهم، على السطح، في القمرات وفي الممرات، على الدرج، وفي قاعات طعام الدرجة الأولى والثانية، في أماكن ربط السفينة عند الرسو: في كل ثغرة متاحة حشر الناس حشراً. كان أغلب الحجاج من مصر ومن شمال إفريقيا. كانوا كلهم في غاية التواضع لا يشغل ذهنهم إلا ما سعوا إليه، وهو فريضة الحج، فتحملوا دون تذمر كل أنواع المصاعب التي كان يمكن تجنبها لولا جشع أصحاب السفن.

كانوا يجلسون على ممرات السطح، في مجموعات متزاحمة، رجال ونساء وأطفالاً، يدبرون بصعوبة وجبات طعامهم؛ كانوا يناضلون

ذهاباً وعودة لجلب بعض الماء في كيزان من الصفيح، كل حركة كانت عذاباً بسن هذا الحشد البشري المضغوط؛ كانوا يتجمعون في زحام أشد حول صنابير المياه القليلة للوضوء في أوقات الصلاة؛ كما كانوا يعانون من الهواء الراكد في أعماق السفينة، التي كانت تستعمل أثناء العام في غير موسم الحج كمخازن لنقل البالات وصناديق البضائع: من يرى ذلك يدرك قوة إيمان أولئك الحجاج. لم يهتموا بتلك المصاعب، كانوا مستغرقين أينما كانوا في التفكير بمكة. لا يتحدثون إلا عن الحج، في انفعال يضيء وجوههم. والنساء تغني أغنيات جماعية عن المدينة المقدسة، ومرات بعد مرات يتكرر النداء: «لبيك اللهم لبيك».

في اليوم التالي دوت صافرة السفينة معلنة عن وصولها إلى ميناء رابغ الصغير شمال مدينة جدة، وطبقاً للعادة، كان حجاج شمال إفريقيا يرتدون ثوب الإحرام في هذا الموضع، وهو مكون من جزءين غير مخيطين من نسيج أبيض قطني أو صوفي، أحدهما يلف حول الخصر حتى ما يلي الركبتين، والآخر يلف على الكتف والصدر، وتبقى الرأس عارية. حتى لا تكون هناك مشاعر اغتراب أو اختلاف بين المسلمين القادمين من جميع أنحاء العالم لزيارة بيت الله، لا فرق بين وجوه وقوميات وأجناس وأعراق وغني وفقير، لا فرق بين عالي المكانة في قومه أو بسيطها حتى يعلم البشر أنهم متساوون أمام الله، وأنهم أخوة في الله.

اختفت من حولي كل الملابس الملونة للرجال: لا ترى طربوشاً تونسياً أحمر، ولا برنساً مغربياً أبيض، ولا جلابيب مصرية ملونة، في كل ما حولك لا ترى إلا ملابس الإحرام البيضاء المتواضعة خالية من

أي تزويق، ملتفة حول أبدان تتحرك بعزة وفخار. أما النساء فيبقين بملابسهن حتى لا يتعرضن إلى كشف أجزاء من أبدانهن، لم يظهر على السفينة بعد لبس ملابس الإحرام إلا اللونان، الأبيض للرجال والنساء، والأسود لبعض النساء المصريات.

في فجر اليوم الثالث رست السفينة أمام سواحل الجزيرة العربية، تجمع عدد كبير من الحجاج بجوار حاجز السفينة يتطلعون إلى أرض الجزيرة التي كانت تتضح بالتدريج مع انقشاع ضباب الصباح. على صفحة البحر، انتشرت أشباح سفن أخرى تحمل الحجاج، وصفحة الماء صفراء شاحبة في مواضع وخضراء عقيقية في مواضع أخرى، بدت ألوان الشعب المرجانية تكون سلسلة محاذية للساحل، في الشرق باتجاه الساحل بدا ما يشبه التل، منخفض وداكن، ولما أشرقت الشمس، اتضح أنها مدينة جدة التي ترتفع مبانيها من الحافة باتجاه المركز، مشيدة من أحجار وردية ورمادية صفراء من صخور مرجانية. راحت تتضح تفاصيل النوافذ المنقوشة، وأسوار الشرفات الخشبية، التي تحولت بفعل الرطوبة والزمن إلى الأخضر الرمادي، ارتفعت مئذنة في المنتصف، بيضاء مستقيمة كأصبع مرتفع.

تصاعد من جديد صوت التلبية: «لبيك اللهم لبيك»، صيحة تهز الأعماق فيها استسلاماً لله، وحماس انتشر بين الحجاج على السفينة وعبر صفحة الماء باتجاه البلد الذي به معقد الآمال العظيمة كانت أملهم وأملي: بالنسبة لي كانت رؤية ساحل الجزيرة العربية خلاصة سنوات من البحث. نظرت إلى إلزا التي كانت ترافقني في الحج، قرأت المشاعر نفسها في عينيها...

ثم رأينا أجنحة بيضاء كثيرة تخفق من الأرض باتجاهنا، كانت القوارب الساحلية بأشرعتها البيضاء اللاتينية تشق طريقها فوق صفحة الماء الهادئة بنعومة ودون صوت بين الشُعَاب المرجانية المختفية تحت سطح الماء. اقتربت ودنت حتى التصقت بالسفينة، وطوت أشرعتها واحداً بعد آخر في خفة وسرعة كما لو كانت تختبئ من عملاق قادم ليأكلها، ثم ارتفع صياح النوتية الذين راحوا يقفزون من مركب إلى مركب، ثم اكتسحوا سُلَّم السفينة ليأخذوا أمتعة الركاب الذين امتلأوا سعادة لمرأى الأرض المقدسة.

كان المركب الذي نزلنا به ثقيل وعريض وخشن التصميم عند مقارنته بالصواري العالية الرشيقة والأشرعة العريضة: لا بد أن المركب الذي ركبه المغامر البحري سندباد كان من الطراز نفسه، كان سندباد ينطلق إلى مغامرات لم تطلب منه، يرسو إلى جزيرة، وفجأة يكتشف أنها ظهر حوت... في مراكب مشابهة أبحر الفينيقيون قبل سندباد جنوباً في هذا البحر وعبر الخليج العربي لجلب التوابل والعطور وكنوز بلاد أوفير...

الآن، نحن الورثة الأقزام لأولئك المغامرين العظماء، نبحر عبر شِعَاب مرجانية، متجنبين مواضعها في استدارات واسعة: الحجاج في ملابس الإحرام البيضاء مدسوسين بين حقائب وصناديق وحزم مربوطة، ضيوف صامتون في نشوة منتظرة.

كنت أنا أيضاً تملأني الأحلام والتوقعات، يد زوجتي في يدي، هل يوجد ما يعمق حياتنا أكثر من الحج؟ وجدت نفسي مجبراً على التفكير في سندباد من جديد، فحين غادر شواطئ بلده، كان مثلي تماماً ـ لا

يفكر فيما يجلبه المستقبل، لم يتنبأ ولم يخطر بذهنه كل ما وقع له من مغامرات كل ما أراده أن يتاجر ويكسب مالاً؛ بينما لم أرد أنا إلا أداء الحج: ولكن حين وقعت له تلك المغامرات كما وقعت لي مغامراتي، لم يستطع أي منا بعدها أن ينظر إلى العالم كما كان ينظر إليه قبل مروره بتلك المغامرات.

ومع أنه لم تصادفني أشياء غريبة في طريقي مثل جان أو عفاريت مسحورة أو طائر رُخّ عملاق مثلما صادف السندباد بحار البصرة، إلا أن حجي الأول كان مقدراً له أن يعمق حياتي أكثر مما عمقت حياته المغامرات العجيبة التي صادفته. أما إلزا، فقد كان الموت ينتظرها هناك؛ ولم يكن لدى أي منا أي توقع بمدى قربه منها؛ ولكنني لم أدرك أنني أغادر ماضي كله وأتركه خلفي، ودون أي إنذار، وصل عالمي القديم إلى نهايته، عالم أفكار الغرب ومشاعره، ومساعيه وتصوراته ومفاهيمه. كان باب عالمي القديم يغلق في صمت من خلفي، صمت مطلق حتى إنني لم أدرك ذلك ولم أشعر به؛ اعتقدت أنها رحلة مثل كل رحلاتي السابقة التي تحولت فيها في بلاد أجنبية، وعدت بعدها إلى ماضي الذي تركته، إلا أن الأيام كانت ستكشف عن وجه آخر، تتغير معه كل اتجاهات آمالي ورغباتي.

* * *

في ذلك الوقت، كنت قد زرت دولاً كثيرة من دول الشرق، كنت أعرف إيران ومصر أفضل مما أعرف البلاد الأوروبية، وأعرف كابول معرفة تامة منذ أن كفت عن أن تكون غريبة بالنسبة لي؛ وأسواق دمشق وأصفهان التي اعتدتها. لذلك قفز إلى ذهني تعبير «ما أبسطه» حالما

رأيت سوق جدة لأول مرة. لم أر إلا خليطاً غير متجانس وتقليداً بلا روح لما كنت أراه بكميات هائلة وإتقان فريد في أسواق الشرق الأخرى. كانت شوارع السوق مغطاة بخيش وأقمشة بالية لحمايتها من الشمس الحارقة؛ كانت أشعة الشمس تنفذ من ثقوبها في أعمدة مائلة منيرة. بالشوارع مطاعم مفتوحة يشوي أمامها غلمان سود قطع اللحم المشكوكة في أسياخ على الفحم المشتعل؛ ومقاه منتشرة بأدوات وأراجيل نحاسية لامعة ومقاعد مصنوعة من جريد النخيل؛ محلات لا تحمل معنى مليئة بنفايات البضائع الأوروبية والشرقية. الحرارة الشديدة وروائح الأسماك والشُعابُ المرجانية والتراب في كل مكان. زحام في كل الأماكن، حجاج كثيرون في ملابس الإحرام البيضاء مقابل الملابس الملونة لأهل جدة الذين اعتادوا وألفوا الاختلاط بكل مسلمي العالم. تجد أحياناً أباً من الهند، بينما أبوا الأم خليط من الملاير والعرب ـ ربما تزوج جدة كانت من جهة أبيها من أصل أوزبكي، ومن جهة أمها من نسل صومالي: نوادر حية نتاج قرون من مواسم الحج ونتاج المجتمع الإسلامي الذي لا يعرف تفرقة على أساس من لون ولا جنس.

وعدا الاختلاط الناتج عن الحج، كانت جدة في تلك الأيام المكان الوحيد في الحجاز المسموح فيه بإقامة غير المسلمين. كان من المعتاد أن ترى لافتات محلات بلغات أجنبية وأناس بأزياء استوائية بيضاء وقبعات للحماية من الشمس، كما كانت توجد بها القنصليات الأجنبية.

كانت الروائح والأصوات تنتمي إلى عالم البحر أكثر من انتمائها إلى عالم اليابسة: أصوات، روائح الميناء، والسفن التي ألقت مراسيها خارج الشُعَاب المرجانية، ومراكب الصيد ذات الأشرعة المثلثة البيضاء ـ عالم لا يختلف عن عالم البحر المتوسط.

أما المنازل، فبالرغم من الاختلافات القليلة بينها، فقد كانت مفتوحة لنسيم البحر بواجهات غنية بالزخارف، نوافذ من خشب معشق على الطراز العربي تسمح لمن بالداخل أن يرى من الخارج ولا يمكن لمن بالخارج أن يرى من بالداخل، منازل لا تنتمي في طرازها إلى البحر المتوسط، كما أنها لا تعبر أيضاً عن الجزيرة العربية؛ كانت جدة تنتمي بشكل أخص إلى عالم سواحل البحر الأحمر، الذي ينتج الطرز المعمارية ذاتها على ساحليه.

أما الجزيرة العربية ذاتها فقد أعلنت عن نفسها بسماء في لون الصلب، وتلال صخرية جرداء، وكثبان رملية إلى الشرق من جدة، وأنفاس العظمة والندرة اللذان يختلطان بغرابة في السهوب العربية الواسعة.

* * *

بعد ظهر اليوم الثاني من وصولنا إلى جدة بدأت قافلتنا رحلتها إلى مكة، شاقة طريقها خلال زحام الحجاج، والبدو، والجمال المحملة وغير المحملة، وجمال الركوب والحمير المزينة عند الباب الشرقي للمدينة، وسيارات رائحة وراجعة ـ كانت السيارات الأولى في السعودية ـ محملة بالحجاج وأبواقها تصدر أصواتاً عالية. يبدو أن الجمال أحست أن السيارات أعداؤها الجدد، فقد كانت تجفل كلما مرت سيارة، وتركض إلى جوار الحائط وتمد أعناقها للأمام والخلف لا تعرف إلى أين تهرب. عهد جديد يبزغ على تلك الحيوانات العالية الصبورة، عهد يشعرها بالخوف والتشاؤم.

بعد فترة كانت المدينة البيضاء قد أصبحت خلفنا، وجدنا أنفسنا

فجأة في الصحراء في واد متسع رمادي بني، مهجور، تنبت فيه أعشاب شوكية متناثرة وبقع حشائش جافة، وتلال رملية منعزلة واطئة تبرز من الوادي كما تبرز الجزر من البحار، وتحدها من الشرق مرتفعات صخرية رمادية زرقاء، خطوطها حادة ولا حياة فيها. كانت قوافل الحجاج تسير في هذا السهل، جمال بلا عدد، واحد وراء آخر، مئات وآلاف من الجمال محملة ببضائع وحجاج وحقائب، تختفي أحياناً خلف تلال لتظهر من جديد. بالتدريج اتحدت مساراتها في طريق رملي واحد، صنعته مسيرات الجمال والبشر عبر القرون.

في صمت الصحراء، وخلفية صوتية من أقدام الجمال التي لا تحطم الصمت بقدر ما تكون خلفية ثابتة له، ونداءات عشوائية من سائقي الجمال من البدو، أو أغاني الحجاج الخافتة هنا أو هناك، غلبني فجأة إحساس جارف ـ كان من القوة حتى إن المرء من الممكن أن يطلق عليه رؤيا: رأيت نفسي على قنطرة تمتد فوق هاوية غير مرئية، قنطرة طويلة حتى إن الجهة التي كنت قد بدأت منها العبور اختفى طرفها بين الضباب لبعدها الذي أصبحت عليه؛ بينما طرفها الآخر الذي كنت أتجه إليه، يتضح بالكاد دون تفصيل. كنت أقف بالمنتصف. وخفق قلبي رعباً وأنا في منتصفها بين طرفيها، ابتعدت عن بدايتها إلا أنني لم أدن من نهايتها، بدا لي على مدى ثوان طويلة، أنني سأبقى هكذا بين طرفيها، فوق هاوية سحيقة ـ حتى صاحت امرأة مصرية فجأة بصوت أيقظتني: «لبيك اللهم لبيك»، انقطعت رؤياي وتلاشت.

في كل الجوانب كنت أسمع الناس تتحدث بكل اللغات، يصيح بعضهم أحياناً معاً «لبيك اللهم لبيك»، أو تغني فلاحة مصرية أغنية في

حب الرسول، بينما ترسل امرأة عربية من أعماق حلقها غطروفة (وهو صوت عالي يعبر عن الفرح والسعادة تطلقه الإناث العربيات، ويطلق عليها في مصر زغرودة)، اعتدن على إطلاقها في المناسبات السعيدة ـ مثل الزواج، ولادة مولود، ختان، مناسبات دينية ومنها الحج بالطبع في عصور الحرب المبكرة، كانت بنات رؤساء القبائل تركب مع الرجال وتخرج للحروب حتى يحثثن الرجال على الإقدام والشجاعة (كما كان من العار أن تقتل إحداهن والأسوأ أن تؤسر)، فكانت الغطرفة تسمع في ميادين القتال.

كان أغلب الحجاج على محفات، اثنان على كل جمل ـ كان السير يبعث الدوار ويثير الأعصاب، هزهزة لا تتوقف، يغفو المرء لبضع دقائق، ليصحو على توقف مفاجئ وهزة مفاجئة، ثم ينام من جديد، ليستيقظ من جديد، وسائق قافلة الجمال يرافقها على الأقدام ينادي الجمال بأصوات مفاجئة وحادة، وواحد أو أكثر منهم ينشد على إيقاع الخطوات الواسعة للجمال.

في الصباح وصلنا قرية «بحرا»، وتوقفت القافلة؛ لتقضي بها النهار. كان السير يبدأ ليلاً لتجنب قيظ النهار وحرارته اللافحة.

تلك القرية ـ في الحقيقة لم تكن إلا صفين من المقاهي عبارة عن أكواخ من جريد النخيل ومسجد صغير ـ إلا أن ذلك الموضع كان في منتصف المسافة بين جدة ومكة. معالم الصحراء كما هي بلا تغير منذ أن غادرنا جدة: تلال رملية متناثرة، وجبال صخرية في الشرق تفصل الأرض الساحلية الواطئة عن هضبة المنتصف العالية. إلا أن تلك الصحراء تحولت إلى ما يشبه معسكر جيش ضخم بعدد لا يُحصى من

الخيام، والجمال، والمحفات، ولغات كثيرة مختلفة - عربي، هندوستاني، ملاوي، فارسي، صومالي، تركي، باشتو، أمهري، ويعلم الله كم هناك من لغات غير ذلك: كان ذلك هو التجمع الحقيقي للأمم راية واحدة، والكل يرتدي الملابس ذاتها وهي ملابس الإحرام، ومن العسير ملاحظة أي اختلاف، بدا أن كل الأجناس ليست إلا جنساً واحداً هو الجنس البشري.

كان الحجاج منهمكون بعد رحيل الليل، لم يعرف إلا قليل منهم كيف يستغل وقت الراحة، كانوا لا يرتاحون، يتحركون من مكان إلى آخر، أيديهم تبحث عن شيء تفعله، حتى لو كان فتح الحقائق وإعادة إغلاقها، وإلا فقد الإحساس بذاته كما لو كان في بحر من سعادة غير راضية.

كان ذلك ما حدث لأسرة في الخيمة المجاورة لخيمتي، كانوا حجاجاً من قرية بنغالية، لم يتبادلوا كلمة واحدة، جلسوا متربعي السيقان على الأرض، وراحوا يحملقون بنظرات ثابتة باتجاه الشرق، اتجاه مكة، إلى الصحراء التي كانت تموج بحرارة لافحة وتنفث ناراً، ملامح تفيض بالسلام كما لو كانوا أمام بيت الله، أو في حضرته. كان رجالهم على درجة عالية من الجمال، رشيقي الأجسام، شعرهم طويل حتى الكتفين، ولحى كثة. واحد منهم رقد مريضاً على سجادة وجلست إلى جواره شابتان، مثل طائرين ملونين صغيرين بسرواليها الزرقاوين والحمراوين الفضفاضين وفستانين فضيين مزركشين بألوان كثيرة، وضفائر شعرها السميكة تتدلى على ظهريهما؛ أصغرهن كانت تضع حلقة ذهبية في منخارها.

بعد الظهر، مات الرجل المريض، لم ترفع النساء أصواتها بالنواح كما يفعلن في دول الشرق، لأن الرجل مات في الحج، على التراب المقدس، فهو شهيد. قام الرجال بغسله، ثم لفوه بملابس الإحرام كآخر ما يلبس. وقف واحد منهم أمام الخيمة وكور كفيه حول فمه ونادى للصلاة: «الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله... صلاة الميت، وليرحمكم الله جميعاً».

تقاطر الرجال من كل النواحي بملابس الإحرام، ووقفوا صفوفاً خلف الإمام كجند جيش عظيم، حين صلوا عليه، حفروا قبراً، وقرأ رجل عجوز بعضاً من القرآن، ثم أهالوا الرمال على الحاج الميت، الذي مددوه على جانبه، حتى يتجه وجهه إلى مكة.

* * *

قبل شروق شمس اليوم الثاني، راح السهل الرملي يضيق، وتقاربت التلال من بعضها؛ مررنا عبر ممر ضيق، ورأينا على ضوء الفجر الشاحب أول مباني مكة، ودخلنا إلى شوارعها مع شروق الشمس.

كانت بيوت مكة تماثل بيوت جدة، بنوافذ غريبة من الأخشاب المعشقة والشرفات ذات الأسوار؛ ولكن بدا أن الأحجار التي بنيت منها كانت أثقل من الأحجار المرجانية لمباني جدة. كان الوقت مبكراً في الصباح، إلا أن الحرارة كانت شديدة. أمام منازل كثيرة، كانت توجد أرائك ينام عليها المتعبون. ضاقت الشوارع أكثر، وكانت غير معبدة سرنا عبرها باتجاه مركز المدينة. كان قد بقي أيام على موعد الحج وزحام الشوارع شديد. أعداد هائلة من الحجاج بملابس الإحرام وأعداد لا تقل عنها ما زالت بملابسها العادية التي تنتمي إلى جميع دول

الأرض. سقاؤون يسيرون منحنين يحملون على ظهورهم قرب الماء الثقيلة أو يحملون عصا غليظة على أكتافهم يتدلى منها من كل ناحية صفيحة نفط تستعمل لحمل الماء للسقاية؛ مكاريون، حمير ركوب بأجراس معلقة في رقابها وزينة على سروجها، وحتى تكتمل الفوضى، تأتي جمال من اتجاه معاكس محملة بمحفات خالية، تخور وتهدر بكل الأصوات، كانت هناك فوضى في الشوارع الضيقة، حتى إنك تعتقد أن الحج الذي يتم كل عام على مدى قرون طويلة، قد أتى فجأة لأول مرة ودون استعداد. في النهاية، لم تعد قافلتنا قافلة، تحولت إلى فوضى من جمال ومحفات وأمتعة وحجاج وسائقي جمال وضوضاء.

كنت قد رتبت من جدة أن نسكن في منزل مطوِّف مشهور اسمه حسن عبيد، إلا أنه لم تكن هناك فرصة للعثور على بيته أو عليه في تلك الفوضى. فجأة، سمعت صوتاً ينادي: «حسن عبيد، هل هناك حجاج لحسن عبيد؟»، ومثلما يخرج جن من زجاجة وجدت شاباً يقف أمامنا، وبانحناءة عميقة، طلب منا أن نتبعه، كان حسن عبيد قد أرسله ليقودنا إلى منزله.

بعد إفطار غني قدمه لنا المطوف، خرجت، يرشدني الشاب الذي استقبلنا قبل ذلك إلى طريق الحرم. سرنا خلال شوارع مزدحمة، أمام جزارين سلخوا جلود الماعز وعلقوها؛ وأمام بائعي خضراوات فرشوها على حصر من قش مجدول على الأرض، وبين أسراب من ذباب ورائحة خضراوات، وتراب وعرق؛ ثم عبر شارع سوق ضيق مغطى لا توجد به إلا محلات ملابس: مهرجان من ألوان. وكأي أسواق أخرى في غرب آسيا وشمال إفريقيا، كانت الحوانيت عبارة عن فجوات صغيرة

تعلو الأرض بباردة، ويجلس كل صاحب حانوت متربعاً أمامه، تحيطه أكوام ملابس من كل أنواع الأقمشة وبمختلف الألوان، ومعلقة فوق رأسه كل طُرُز ملابس الأمم الإسلامية.

مرة أخرى، شعوب من كل بقاع الأرض، وأزياء، وتعبيرات متباينة، بعضهم بعمائم وبعضهم عاري الرأس، بعضهم يسير صامتاً خافضاً وجهه ومسبحته في يده، وآخرين يركضون في حماس في الزحام؛ خليط، أجسام بنية للصوماليين، يلمعون كالنحاس في ملابس صارخة الألوان؛ وعرب من أعماق الجزيرة العربية، وجوه نحيلة بلحى كثة وخطوات متثاقلة، وآخرين ضخام الأجسام أوزبكيين من بخارى، وكانوا ما زالوا بملابس بلادهم، من قفطان سميك وحذاء طويل حتى الركبة بالرغم من جو مكة اللافح، بنات من جاوة بوجوه مكشورة وأعين مثل اللوز، مغاربة متثاقلو الخطى يتيهون بالبرنس الأبيض، وأهل مكة بملابسهم البيضاء ورؤوسهم المغطاة، فلاحون مصريون بوجوه تعلوها فرحة وإثارة، ونساء هنديات بزيهن التقليدي فيبدون مثل خيام متحركة؛ الفلولاتا السود من تمبكتو وداهومي في ملابسهم الزرقاء وغطاء رأس أحمر؛ سيدات صينيات دقيقات الحجم مثل فراشات ملونة، وخطوات صغيرة وأقدام دقيقة مثل حوافر الغزلان.

صياح وزحام من كل ناحية حتى تشعر أنك في قلب موجة عاتية ولا تتمكن من رؤية تفاصيل صورة مكتملة. كل المشاهد طافية على عدد كبير من اللغات واللهجات، إيماءات حماسية وإثارة حتى وجدنا أنفسنا أمام باب من أبواب الحرم.

كانت بوابة ثلاثية الأقواس بدرج حجري يصعد إليها، جلس عليها

شحاذ هندي نصف عار مد إلينا ذراعاً نحيلة. ثم رأيت لأول مرة الساحة الداخلية التي كانت في مستوى أوطأ من مستوى الخارج ـ أوطأ كثيراً ـ كانت مفتوحة أمام العين كالوعاء: مساحة مربعة واسعة تحيطها من كل جانب عقود شبه دائرية محمولة على أعمدة، في مركزها مكعب ارتفاعه أربعون قدماً، تنزل عليه ستائر سوداء بحزام عريض مذهب في أعلاها وعليه آيات من القرآن.

هذه هي إذن الكعبة، موضع شوق وتوق ملايين الناس على مدى قرون طويلة، في سبيل وصولهم إليها ضحوا تضحيات عظمى على مدى القرون؛ في الطريق إليها مات كثيرون؛ ووصل إليها كثيرون ممن يعانون الحرمان وشظف العيش، كان هذا المبنى المكعب غايتهم وأسمى أهدافهم، وكان الوصول إليه هو كامل التحقق.

ها هي الكعبة هناك في المنتصف، مكعب مكتمل (ويدل الاسم العربي على الشكل)، مغطى تماماً بستائر سوداء، يقف جزيرة هادئة في ساحة الحرم الواسعة: أهدأ من أي شكل معماري آخر في العالم. أراد أول من بنى الكعبة ـ أعيد بناؤها من عهد إبراهيم عدة مرات على الشكل نفسه ـ أن يصنع مثلاً لتواضع البشر أمام الله. لقد أدرك من بناها أنه لا يوجد جمال في الإيقاع المعماري والهندسي، ولا اكتمال في الخطوط، مهما كانت عظمتها، يمكن أن يتناسب مع عظمة الله، لذلك لجأ إلى أبسط مجسم ثلاثي الأبعاد يمكن تخيله ـ مكعب من الصخر.

لقد زرت مساجد وجوامع ومزارات إسلامية كثيرة صنعت منها الأيدي الخلاقة كل أنواع الفنون والأشكال، رأيت جوامع شمال إفريقيا ـ التي تبدو كقصور رائعة للصلاة مشيدة من الرخام والمرمر الأبيض،

ورأيت مسجد قبة الصخرة في القدس: قبة عظيمة مكتملة فوق بناء رشيق، حلم من الخفة والثقل دون تعارض؛ ورأيت الجوامع العظمى في استانبول، جامع السليمانية، وجامع «يني فاليد»، وجامع بايزيد، وجوامع برصة، في آسيا الصغرى، وجامع السفافيد في إيران ـ إيقاع ملوكي من الحجارة والصخور والميوليق الخزفي الملون، والفسيفساء، ومداخل هائلة تعلو الأبواب المفضضة، ومآذن شاهقة مستديرة من المرمر بشرفات من الأزرق التركوازي، وساحات مغطاة بالرخام، ونوافير مياه وأشجار نادرة عتيقة، عظيمة حتى في قدمها.

رأيت كل ذلك ـ إلا أنني لم أشعر برهبة أمام أي منها كما أشعر بها الآن أمام الكعبة. لقد اقترب بانيها تماماً من التعبير عن مفاهيمه اندينية. في البساطة المطلقة للمكعب، في التخلي عن كل ادعاء بشري للجمال الفني، لقد فكر: «مهما كان قدر الجمال الشكلي الذي يمكن للإنسان أن يصنعه بعقله ويده، سيكون من قصور الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة الله؛ ولذلك، فإن أبسط شكل يمكن أن يدركه العقل البشري هو أعظم شكل يتناسب مع عظمة الله». ويبدو أن المنطق نفسه هو الذي وجه مصمم بساطة الأهرام المصرية. على الأقل وجد الذهن البشري متنفساً لخياله في الأبعاد الهائلة التي بنى عليها الأهرام. أما هنا، في الكعبة، فيتحدث الشكل عن التخلي البشري عن كل ادعاء، ويتحدث عن التسليم لله، ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها.

* * *

لا يوجد إلا مدخل واحد للكعبة، وهو باب مغطى بطبقة رقيقة من الفضة في الجانب الشمالي الشرقي، على ارتفاع سبعة أقدام من سطح الأرض، ولا يمكن الوصول إليه إلا باستعمال سلم يوضع أمام باب الكعبة بضعة أيام من كل عام. والكعبة من الداخل، وهي مغلقة عادة (رأيتها من الداخل بعد ذلك في مناسبات أخرى)، بسيطة جداً: أرضها من الرخام عليها بضعة بسط، ومصابيح من البرونز والفضة تتدلى من دعامات السقف الخشبية، وداخل الكعبة، لا يحمل في الحقيقة أي معنى في ذاته، فقداسة الكعبة تخص المبنى بأكمله كقبلة لكل العالم الإسلامي. في اتجاه هذا الرمز إلى وحدانية الله، يوجه مئات الملايين من المسلمين أوجههم نحوها في الصلوات الخمس كل يوم.

في الركن الشرقي من مبنى الكعبة يوجد حجر أسود متروك دون ستائر، ويحيطه إطار فضي عريض، وأحدث تقبيل المسلمين له على مدى أجيال متتالية وقرون طويلة من الزمن، تجويفاً بالحجر، وكان تقبيل المسلمين له سبباً في سوء فهم كبير من المسلمين، فقد أشاعوا أنه جزء من صنم قد وضعه محمد كتصالح مع مشركي مكة، وذلك مجافٍ تماماً للحقيقة. فالكعبة موضع تبجيل لا موضع عبادة، أي أنها لاتعبد، وكذلك الحجر الأسود موضع تبجيل لأنه كل ما تبقى من البيت الذي أسسه إبراهيم، ولأن شفتي محمد قبلته في حجة الوداع قبل موته، فإن الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به، كان الرسول واعياً أن كل أجيال المسلمين من بعده ستقتدي به في كل أفعاله وأعماله، وكان يعلم أنه بتقبيله للحجر ستلتقي شفاه كل أجيال المسلمين من بعده في وضع

تقبيله للحجر في احتضان رمزي، أقوى من الزمن، وأقوى من الموت، لكل أمته في حجها. والحجاج، حين يُقَبِّلُونَ الحجر الأسود، كأنما يحتضنون الرسول ويحتضنون كل المسلمين الذين جاءوا هنا من قبلهم وكل المسلمين الذين سيأتون هنا من بعدهم.

لا ينكر أي مسلم أن الكعبة كانت موجودة من عصور طويلة قبل محمد؛ ويكمن مغزاها في تلك الحقيقة، والنبي لم يدع أنه أوجد ديناً جديداً. على العكس، قال: إن الاستسلام لله، والتسليم لمشيئته - الإسلام - كان طبقاً لما يذكر القرآن، فطرة الإنسان التي خلق عليها منذ فجر الوعي الإنساني، وأن ذلك هو ما دعا إليه إبراهيم، وموسى، وعيسى من قبله وكل من جاء إلى البشر من أنبياء كانوا مسلمين - ورسالة القرآن ليست إلا خاتمة الرسالات من الله. كذلك لا ينكر أي مسلم أن ساحة الحرم المقدس كانت مليئة بالأصنام والرموز الوثنية قبل أن يحطمها محمد؛ تماماً كما حطم موسى العجل الذهبي الذي صنعه قومه في طُور سيناء: لقد كان البشر يعبدون الله في موضع بيته الذي أقامه إبراهيم قبل عصور من ظهور الأصنام في ساحته. لم يفعل محمد إلا أن استعاد البيت الذي أقامه إبراهيم للغرض الأصلي الذي شيد من أجله.

* * *

وقفت أتأمل البيت الذي أقامه إبراهيم وأتدبر عظمته دون قدرة على التفكير (الأفكار والانعكاسات تأتي إلى المرء بعدها بزمن طويل)، من نواة فرح داخلي انبثقت بهجة وفرح ازدادت وعلت مثل الصوت الشجي.

كان بلاط الرخام يغطي الأرض في دوائر حول الكعبة تعكس ضوء الشمس يسير عليها بشر كثيرون، رجال ونساء، يطوفون حول بيت الله. كان من بينهم من يبكون، وآخرون يدعون الله جهرة في الصلاة، وغيرهم ممن لم يجد كلاماً ولا دمعاً، راح يطوف ورأسه منكس في الأرض...

من شعائر الحج أن تطوف سبع مرات حول الكعبة. لا لتظهر تبجيلك للكعبة، ولكن لتذكير المسلمين بأساسيات الحياة، فالكعبة رمز لوحدانية الله، وطواف المسلمين حولها رمز لأنشطة الحياة، يتضمن أن عبادة الله لا تكون بالفكر والمشاعر وحدهما ـ وكل ما يمكن تسميته «الحياة الداخلية» ـ بل بالفعل البدني والجسدي، أي بالمسعى والفعل، وبذلك يكون الوجود الإلهي محور الوعي الذهني والفعل البدني.

طفت أنا أيضاً ببطء وأصبحت جزءاً من التدفق الدائر حول الكعبة. يظهر ويختفي رجل أو امرأة بالقرب مني، صور منفصلة تظهر أمام بصري وتختفي، رجل أسود عملاق بملابس الإحرام، وسبحة خشبية ضخمة يلفها حول معصمه. ظهر ثم اختفى بين الزحام، رجل مالاوي عجوز حاذاني لفترة يحرك يديه كأنه في حيرة، ثم اختفى. عينان خضراوان تحت حواجب شعثاء ـ إلى من تنتمي؟ ضاعت في الزحام. ضمن زحام الناس أمام الحجر الأسود، كانت هناك امرأة هندية شابة، كان من الواضح أنها عليلة، على وجهها الرقيق توق واشتياق، واضح وضوح قاع الماء الشفاف، كفاها مرفوعان في ضراعة في اتجاه الكعبة، أصابعها ترتجف كما لو كانت في صلاة صامتة.

طفت، وطفت، مرت الدقائق لا أعرف لها عداً، اختفى كل ما كان بقلبي من مرار ومشاغل، أصبحت جزءاً من تيار يدور آه، هل كان ذلك هو معنى ما نفعله: أن نعي أن المرء جزء يدور في فلك؟ هل يصبح إدراك ذلك نهاية كل حيرة؟ ذابت الدقائق، وتوقف الزمن، وكأن الكعبة مركز الكون.

* * *

ماتت إلزا بعد ذلك بتسعة أيام.

ماتت فجأة بعد مرض لم يستغرق أسبوعاً، بدا المرض في أوله كأنه توعك من الجو الحار والطعام الذي لم تعتده، إلا أنه تطور ليصبح مرضاً استوائياً غامضاً وقف أمامه الأطباء السوريون حائرين وعاجزين. وأطبق الظلام واليأس الخالص من حولي. دفنتها في مقبرة من الرمال في مكة. ووضعت حجراً على مدفنها. لم أشأ أن أنقش عليه أي شيء؛ فالتفكير في نقش يمثل تفكيراً في المستقبل، ولم أكن قادراً على استيعاب أي تفكير في المستقبل عند موتها.

بقي معي ابن إلزا الصغير، أحمد، لمدة عام رافقني في أول رحلة إلى أعماق الجزيرة العربية ـ وكان شجاعاً وهو ابن عشرة أعوام. بعد فترة كان علي أن أودعه أيضاً، فقد أقنعني أهل أمه أن الأفضل له أن يذهب إلى مدرسة في أوروبا، لم يبق من إلزا إلا ذكريات وحجر على مدفنها في مدافن مكة، وظلام لم يرتفع عني إلا بعد زمن. بعد زمن طويل من ارتمائي في أحضان الجزيرة العربية.

[٦]

أوغل الليل، إلا أننا بقينا جالسين حول النار. كان أبو سيد قد خرج من حالته الانفعالية وتحول إلى حالة من الهدوء؛ كانت عيناه حزينتين ومتعبتين ويبدو عليه الإنهاك؛ تحدث إلينا عن نورا كما يتحدث امرؤ عن شخص عزيز مات من زمن. قال لزيد: «لم تكن جميلة، أنت تعرف ذلك، لقد أحببتها...».

القمر مكتمل فوقنا، مثل اكتمال خلق الوجود الإنساني. لم يكن من الغريب أن يعتقد عرب الجاهلية أن القمر من «بنات الرب» ـ وتخيلوها ذات شعر طويل وأنها ربة الخصب وأسموها «اللات»، ذات قوة غامضة خاصة بالتناسل على الأرض وبذلك تهب الحياة للبشر والحيوانات.

واحتفاء بها اعتاد الشباب والشابات في مكة والطائف قبل الإسلام على الاحتفال باكتمال القمر كل شهر في الخلاء، يقضون الليل في قصف وعربدة والتناكح بلا قيود وإلقاء الشعر. يراق الخمر من أوانيه الفخارية؛ ولأن النبيذ كان أحمر مثل الدم ويهبهم نشوة، ربط الشعراء بينه وبين دم المرأة في قصائدهم الشعرية ـ كان الفخر وحيوية الشباب يتدفقان في حجر اللات «التي تتألق مثلما يتألق القمر في تمامه، وتعلو كما يعلو طائر مالك الحزين». وانتقلت ربة الشباب والتناسل القادرة بأجنحتها من جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال حتى وصلت إلى اليونان على شكل الربة «ليتو»، أم «أبوللو».

من فوضى الطبيعة الغامضة لعبادة اللات وآلهة أخرى حتى الوصول

إلى مفهوم وحدانية الخالق في القرآن، كان الطريق طويلاً، إلا أن إنسان الجزيرة اعتاد على قطع مسافات طويلة على طريق الروح مثل باقي البشر، حتى إنه يمكن أن نطلق على ذلك التاريخ الطويل، «تاريخ البحث عن إيمان».

كان التساؤل والسعي الدائمان، يبحثان عن المطلق.

حتى في العصور المبكرة، حين ملأ العالم المحير لهم أذهانهم بصور الآلهة والعفاريت والجان، كانوا يدركون أن هناك إلهاً واحداً فوق كل الآلهة التي يصورونها، إليه غير مرئي، لا يمكن إدراكه لأنه فوق قوة الإدراك، إله أزلي فوق كل موجوداته. لم تكن اللات وأخواتها المقدسات، مناة والعزى، إلا بنات الرب «الوسيطات بين الإله الذي لا يدركونه والعالم الذي يدركونه، رموز لقوى لا يفهمونها أحاطت بالطفولة البشرية، إلا أن أعماقهم كانت تدرك وجود الإله الواحد، كامن في أعماقهم، جاهز على الدوام ليشتعل متحولاً إلى إيمان واع كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك».

لقد كانوا بشراً عاشوا في عزلة بين سماء قاسية وأرض أقسى، وكانت حياتهم جافة بين تلك الفراغات اللانهائية الموحشة القاسية، لذلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى قوة تحتضن وتحتوي كل الوجود، قوة معصومة وتتصف بعدل مطلق ورحمة، معاناتهم وحكمة عظمى، الله المطلق، يقطن في المطلق ويشع حكمته في اللانهائي ـ ولكن لأنك من صنعه، فهو أقرب إليك من حبل الوريد.

* * *

انطفأت النار، نام زيد وأبو سيد، بالقرب منا جمالنا الثلاثة، باركة على الرمال المغمورة بضوء القمر، تجتر طعامها ويصدر منها صوت مضغ هادئ، وتتوقف من حين لآخر. حيوانات عظيمة.. كان بعضها يغير موضعه ويحك صدره بالرمال، أو يهدر من أنفه كأنه يتنهد، حيوانات عظيمة بلا تعبير معين يميزها بخلاف الخيل التي ـ غالباً ـ ما يكون لها شخصية متميزة؛ نعم، تختلف الجمال عن كل الحيوانات التي يسخرها الإنسان، فهي مثل الصحراء الواسعة التي تنتمي إليها والتي تختلف بدورها عن أي أرض أخرى، دون تعبيرات محددة تتأرجح بين أضداد ومتناقضات، حالة مزاجية متقلبة، إلا أنها متواضعة إلى أبعد حد.

لم أتمكن من النوم، قمت أتجول واعتليت أحد التلال، كان القمر منخفضاً في الأفق الغربي وينير التلال الصخرية الغربية والتي ترتفع من السهل على هيئة أشباح. من هذا الموضع حتى مكة، تنخفض الأرض في انحدار متدرج حتى ساحل البحر الأحمر، تخلو من أي حياة، بلا قرى، بلا منازل، بلا أشجار صلبة في تجردها الواضح تحت ضوء القمر. من تلك الأرض الموحشة الخالية من الحياة، من بين هذه الوديان الرملية والتلال صماء، انبعثت أكبر عقيدة دينية مؤكدة للحياة في تاريخ الإنسانية.

كانت الليلة دافئة وساكنة. الضوء الشحيح والمسافات البعيدة أظهرت التلال وكأنها تتمايل. تحت ضوء القمر الساطع تذبذب ضوء أزرق شاحب، من وسطه انزلق ضوء رمزي شفاف، ذكرى شبحية،

تحمل كل ألوان الأرض، إلا أن النور الأزرق غير الأرضي نسخها جميعاً، ظهر ثابتاً دون تحول ولا تبدل، كأنه أفق ثابت، كأنه دعوة إلى ما لا يعرف كنهه.

غير بعيد من هنا، يقع سهل عرفات، مختفياً عن عيني في منتصف هذه البرية، يجتمع عليه الحجاج في يوم من العام كتذكرة لهم بآخر تجمع، حين يكون على كل امرئ أن يجيب أمام الله بكل ما فعله في حياته، كم مرة وقفت هناك، حاسر الرأس، في ملابس الإحرام، بين حشد المحرمين في ملابسهم البيضاء حاسري الرؤوس، من القارات الثلاث، وجوهنا متجهة إلى جبل الرحمة الصاعد من وسط السهل الواسع، تقف منتظراً في الظهيرة وفيما بعد الظهر، في تماثل لذلك اليوم الذي لا مفر منه:

وأنا واقف على الحافة الصخرية للتل الذي كنت عليه، أتطلع باتجاه سهل عرفات الذي لا أراه، وضوء القمر الفضي يسطع على السهل الذي أمامي والذي كان ميتاً من لحظة مضت، انبعثت به فجأة الحياة، ظهر على أديمه كل البشر الذين مروا به من بداية الإسلام، وتصاعدت منه أصوات ملايين الرجال والنساء الذين ساروا بين مكة وعرفات عبر ثلاثة عشر قرناً من الزمان. استيقظت أصواتهم وأصوات الحيوانات التي ركبوها، رأيتهم يبعثون ويركبون حيواناتهم ويتجمعون في حشد لا نهائي - كل الحشود التي حجت في ثلاثة عشر قرناً أسمع أصوات أيامهم الماضية؛ جمعتهم أجنحة الإيمان معاً في أرض ليس فيها إلا صخور ورمال وتبدو ميتة بلا خفقة قلب،الآن تموج بدفء الحياة فوق قوس

الزمن، وجذبتني قوة الأجنحة الهائلة إلى مجالهم ودرت في مدارهم وفلكهم، وجذبت أيام الماضي النائية وحولتها إلى حاضر، ومرة أخرى أركب عابراً وادي عرفات. . .

أركب في ركض مرعد فوق السهل، وسط آلاف وآلاف من البدو المحرمين في أثواب بيضاء، عائدين من عرفات إلى مكة ـ كنت نقطة ضئيلة في بحر، بين موجة من عدد لا نهائي من جمال راكضة عليها راكبوها تهز الأرض هزاً، وترجها رجاً، موجة لا يقف أمامها شيء، وبيارق القبائل تخفق على صواريها العالية، تخفق مثل الطبول، وصياح الحرب القبلي الموروث يمزق الفراغ: «يا رواجاً، يا رواجاً» يحيي بها أبناء قبيلة عتيبة اسم جدهم العظيم الأول، ويرد عليه هتاف آخر من جهة أخرى في قوة: «يا عوف، يا عوف» من حناجر أبناء حرب، ويرد بعدهم في صوت متحد: «شمار، يا شمار» من أقصى الجناح الشرقي للحشود المندفعة.

عدنا راكبين، مندفعين عبر الوادي، نطير فوق السهل، أحسست أننا نطير على أجنحة، مغمورين في سعادة وصفاء خالص، سعادة لا تعرف نهاية ولا حداً. . . والرياح تهمي بصيحات من المرح والفرح في أذني: «أبداً، أبداً، لن تكون غريباً بعد الآن».

أخ عن يميني وآخر عن يساري، لا أعرفهم، إلا أنهم ليسوا غرباء عني، في اندفاعنا العنيف الصاخب كنا جسداً واحداً يمضي إلى هدف واحد. العالم رحب أمامنا، وفي قلوبنا تشتعل الشرارة التي اشتعلت في قلوب صحابة الرسول.

يعلم إخوتي عن يميني وإخوتي عن يساري أنهم قصروا عن الغرض المتوقع منهم، ويعلمون أنه بمرور القرون تضاءلت قلوبهم وياخت عزيمتهم، إلا أن وعد التحقق باقٍ في قلوبهم... في قلوبنا...

بدل أحد الراكبين صيحة قبيلته بنداء إيماني: «نحن أخوة في الله، ونسلم أمرنا لله»، ورد عليه آخر «الله أكبر، الله أكبر».

توحد كل حجاج القبائل في صيحة واحدة. لم يعودوا بدو نجد المستغرقين في فخرهم القبلي، يعرفون أن الأسرار الإلهية في انتظارهم... في انتظارنا... وسط آلاف من أقدام الجمال العادية، وخفق البيارق، تحولت صيحاتهم إلى هدير منتصر: «الله أكبر».

تدفقت الصيحة، كموجة هائلة فوق رؤوس حجاج الجزيرة على الجمال المندفعة عدواً وامتدت لتشمل السهل كله، وتجتاح لتمتد وتشمل الأرض بأجمعها: «الله أكبر». تجاوز الرجال الحياة الصغيرة الخاصة بكل منهم، يدفعهم إيمانهم للأمام، في توحد، نحو آفاق غير مرئية.. في توق لم يعد ضئيلاً ولا مخفياً؛ حشود وجدت بعثها ويقظتها، شروق شمس التحقق. في هذا التحقق، يقف الإنسان أمام كل النعم التي وهبها الله له؛ وقفته فرح، ومعرفته حرية، وعالمه أرض بلا حدود...

رائحة أجسام الجمال، لهاثها وشخيرها وهديرها، وقع أقدامها المدوي؛ صياح الرجال، خبط علاقات البنادق بأجناب السروج، غبار وعرق ووجوه سعيدة مستبشرة؛ وسعادة مفاجئة تحل بي وتسري في أعطافي.

استدرت ملتفتاً خلفي وأنا على سرج ناقتي، رأيت خلفي الكتلة المتماوجة المنسوجة من آلاف الراكبين في ملابس بيضاء، وخلفهم، القنطرة التي عبرت عليها طريق حياتي وجئت عبرها إلى هنا: كانت نهايتها خلفي تماماً في تلك الحشود البيضاء، بينما كانت بدايتها قد اختفت في أعماق أخفت معالمها.

* * *

المؤلف في سطور

محمد أسد (ليوبولد فايس): ولد لأبوين يهوديين بإحدى مقاطعات النمسا عام ١٩٠٠م التي ضمت لألمانيا بعد ذلك، اسمه الأصلي ليوبولد فايس، وتسمى بعد إسلامه باسم محمد أسد عام ١٩٢٦. عمل صحافياً ومراسلاً لكثير من صحف وسط أوروبا وألمانيا وهولندا وسويسرا عن منطقة الشرق الأوسط وإيران وأفغانستان والهند. عاصر وشارك في كثير من الأحداث التي شكلت مستقبل المنطقة الممتدة من ليبيا حتى الهند قبل وبعد إعلان دولة باكستان الإسلامية المستقلة. من أهم أعماله:

- مقالات صحفية من فلسطين في عشرينيات القرن العشرين مؤيدة للحق العربي وذلك قبل إسلامه.
- الإسلام على مفترق الطرق.
- مجلة عرفات الإسلامية بباكستان.
- الطريق إلى مكة، وكتب بالإنجليزية ونشر بأمريكا ثم انجلترا. وترجم بعدها إلى الألمانية والسويدية والهولندية والفرنسية والأوردية.

المترجم في سطور

رفعت السيد علي: تخرج في كلية الطب جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، حصل على دبلوم الدراسات العليا في الأنثروبولوجيا من جامعة القاهرة عام ١٩٩٤. كاتب مقالات سياسية وأدبية وعلمية بعديد من الصحف والمجلات.

الأعمال المترجمة المنشورة:

١ ـ إيمانويل فلايكوفسكي: **عصور في فوضى ـ من الخروج إلى إخناتون**، طبعة أولى، دار سينا ١٩٩٥، طبعة ثانية، دار حور ٢٠٠٠.

٢ ـ إيمانويل فلايكوفسكي: **عوالم في تصادم**، طبعة أولى، دار حور ١٩٩٩.

٣ ـ كولن ويلسون: **التاريخ الإجرامي للجنس البشري**، دار حور، طبعة أولى ٢٠٠١.

٤ ـ ليز مانيش: **الحياة الجنسية في مصر القديمة**، دار حور، طبعة أولى ٢٠٠٢.

٥ - مات رولوف وتريسي سومز: **قزم بين العمالقة**، دار شرقيات، طبعة أولى ٢٠٠٢.

٦ - كارل ساجان: **ردود العالم**، دار حور والعروبة، طبعة أولى ٢٠٠٣.

٧ - كاترين وريتشارد جرين: **والت ديزني**، **مختارات ثقافية**، طبعة أولى ٢٠٠٣، طبعة ثانية ٢٠٠٥.

٨ - إيمانويل فلايكوفسكي - بالمشاركة مع رضا الطويل، أحمد عمر شاهين، أحمد عباس، فاروق فريد: **تهويد التاريخ** (خمسة مجلدات)، دار العروبة وحور، طبعة أولى ٢٠٠٤.

٩ - أندرو كولينز وكريس أوجيلفي هيرالد: **توت عنخ آمون - مؤامرة الخروج**، دار العلوم، طبعة أولى ٢٠٠٥.

١٠ - تريفور برايس: **مراسلات عظماء ملوك الشرق الأدنى**، دار العلوم، طبعة أولى.

الفهرس